# رجل لكل
# الغُزاة

دار القلم
دمشق
أسسها: محمد علي دولة
سنة ١٩٦٧م

**الطبعة الأولى**
**١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م**

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:
**دار القلم ـ دمشق**
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
**www.alkalam-sy.com**
**الدار الشامية ـ بيروت**
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
**دار البشير ـ جدّة**
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

# رجل لكل الغُزاة

رواية

بقلم:

د. عماد زكي

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

## هذا العمل..

رواية تاريخية

تحكي قصة بطل عظيم

وصلتنا عنه بعض مواقف وأخبار

فاجتهد الكاتب في إعادة ترتيبها

مستعيناً بما أسعفه الخيال

من صور وأحداث

تتفق مع طبيعة الشخصية

ووقائع التاريخ

وتعيد بناء الصورة

لتكون أقرب ما يمكن

من الحياة الحقيقية

لرجلٍ فريد.

# كلمات خارج النص

في بحر متلاطم من الأحداث
التي شكلت مستقبلنا على أعتاب قرن مضى
ظهر رجل يقاوم إرادة القوى الغاشمة
التي كانت تحاول أن تغير وجه الأمة
وتعبث بحاضرها ومستقبلها..

ورغم قلة المعلومات التي وصلتنا عنه
إلّا أن الوقائع تثبت أنه كان حاضراً على مسرح التحولات

قد يقول البعض أن ثورته كانت يومها صرخة في واد!.
ولكن.. كيف؟ وصداها ما زال يتردد حتى الآن..

فكان اسمه عنواناً لأمة لن تموت..

وكانت ثورته التي ألهبت روح المقاومة والتحدي
علامة حياة لأمة عريقة
تأبى إلا أن تنبثق من تحت الرماد
لتصنع غدها الذي تريد.

# ١

كانوا يغذون السـير بحذر.. يقطعون الجبال والوديان، وأصابعهم متحفزة على الزناد.. عيونهـم تحاول أن تخترق الظلام تحسـباً للمفاجآت.. تطاردهم أشباح تلك الوجوه الكالحة، التي تريد رؤوسهم بأي ثمن.

كانت رائحـة الغابات تتسـلل إلى أرواحهم فتنعشـها، وعبق الأشـجار المفعمـة بالخضرة والعنفوان يشـحن أرواحهم بالعزيمة، ويشـحذ خطاهم المتعبة، ويحول الخطر إلى متعة..

وزادهم الحرص إحساساً بتفاصيل المكان..

- «انتبهوا يا شباب.. الانحدار هنا شديد.»
- «بسم الله..»

انزلقوا برفق، اسـتعانوا بأغصان الشوك ونتوءات الصخور، حتى وصلوا إلى السـفوح، وغاصوا في الوادي الأخضر، الذي يلفه ظلام باهت، بددت بعض حلكته خيوط واهنة من النور، بدأ القمر يرسـلها من خلال الأغصان الكثيفة، لتضيء لهم معالم الطريق.

كانت الذئاب تعـوي، فتعكر صفو الليـل، لكن الذئاب البشـرية التي كانت تطاردهم كانت أشد لؤماً وخطراً.

واستبد بهم التعب إلى درجة الإنهاك، لكن التوقف بالنسبة إليهم كان يعني الانتحار. عليهم أن يغادروا دائرة الخطر قبل أن تصل إليهم عيون الجواسيس، أو تكتشفهم دوريات الفرنساوي التي قد تفاجئهم في أي نقطة.

لم تكن هذه الحيـاة غريبة عليهم، فقـد خبروها وألفوها منذ أن امتشـقوا السـلاح في وجه فرنسـا.. حكمتهم المقدسـة «ليس المهم أن تعيش، المهم أن تعيش حراً».. حكمـة اعتنقوها بعـد أن تركوا الحيـاة الهادئة الرغيـدة للجبناء

والأفندية، الذين آثروا السلامة، وفضلوا الحياة تحت الانتداب المذلّ على الحرية، فباعوا وطنهم للغزاة من أجل مصالحهم الصغيرة!.

ـ أتذكرون هذا المكان؟..

هبطت الذكرى عليهم في جلال، وراح الرجال يتأملون ما حولهم بخشوع، يسترجعون ذكرى تلك المعركة التي امتزج فيها النصر بلوعة الفراق، وانتابتهم مشاعر تراوح بين الرهبة والفخر.. هنا خاضوا إحدى معاركهم ضد الغزاة، ولقنوهم درساً.

ـ رحمة الله عليك يا فارس. كنت بطلاً..

ـ هنا تحت هذه الشجرة استشهد، وهو ثابت كالصقر، وإصبعه مشدودة على الزناد..

ـ كان ماهراً وسريعاً في حشو الفشك.

ـ ظل يحمي انسحابنا حتى اخترقته رصاصة في الرأس، فمنحته الشهادة التي كان يرجوها..

ـ الفاتحة يا شباب..

غاب الرجال في جو من الضراعة، وهم يتلون السبع المثاني، ليضيئوا بها صدورهم، ويستمطروا الرحمات على شهيدهم، الذي سبقهم إلى جنّات الخلد، وأضاف الهدوء الذي يلف المكان إلى صمتهم جلالاً، ميز تلك اللحظات المفعمة بالوفاء.

وقفزت إلى الذاكرة صور وأحداث.. كم خاضوا من معارك؟.. وكم ركبوا من مخاطر؟.. وكم خلفوا من شهداء؟.. وهم يواجهون عدواً عاتياً، مدججاً بآلة الحرب، لكنه مجرد من اليقين، مع ذلك غلبت الكثرة الشجاعة، واستطاعت فرنسا أن تكسر ثورتهم، وكادت أن تقضي عليهم، لولا حكمة قائدهم..

- الفرنسيون يحكمون الحصار حولنا يا شيخ عز الدين.
- هلك الرجال، وكادت الذخيرة أن تنفذ يا شيخ عز الدين.
- ماذا نفعل يا شيخ عز الدين؟.

مواجهة الأسئلة الصعبة، أشد عليه من مواجهة عدو يكاد يصل إلى رأسه، لكن التريث في الجواب مطلوب، حتى لا يسبق القرار الأخير حكمة التدبير..

ووقف القسام يومها فوق الصخور التي يعتصم بها كنسر حزين، وأرسل نظراته من تلك الذرىٰ نحو الساحل الأسير.

كانت الأسئلة التي يرميه بها رجاله مشروعة، لكن الجواب عليها كان بالنسبة إليه حراماً..

- «هل انتهت الثورة حقاً ياشيخ عز الدين؟».

داهمه السؤال فجأة، وقرص شغافه، كان يحلم بزلزلة الأرض تحت أقدام الفرنسيين، وخطط لثورة شاملة، تقتلع هؤلاء الطامعين، وترميهم في البحر الذي تسللوا منه، لكن إرادة الله غالبة.. لم تستطع الثورة التي أعلنها ضد الغزاة أن تنجز ما وعدت، صحيح أنه ورجاله أبلوا ما وسعهم، لكن فرنسا الغاشمة حاصرته بعدتها وعديدها، وهاهي تحاصر دمشق وحلب، وتفرض الانتداب على سوريا ولبنان.. فماذا ستفعل ثلّة من الرجال وحزمة من البنادق في معركة لا أمل فيها؟..

وكلما تذكر القسام أن انتفاضته ضد هذا الاحتلال بدأت تحتضر، شعر بوخزة في الأعماق، أشبه بسكين شويت على الجمر، ونفذت إلى قلب واهن، وعاد السؤال يقضّ مضجعه من جديد، لكن عرضاً نقله إليه أحدهم، وضعه وجهاً لوجه أمام الجواب!..

وظن الرجل في القسام ضعفاً، فتجرأ وألقى على مسامعه الرسالة التي كان متردداً في نقلها إلى الشيخ العنيد:

ـ «ثمة وعد بالأمان يا شيخ عز الدين!.. فيما لو..»

رمقه الشيخ بطرف صارم، فاستدرك الرجل، وقال في ارتباك مبعثه ألّا يظن القسام فيه تشجيعاً له على الاستسلام:

ـ يقولون.. أقصد الفرنسـيين.. أرسـلوا بعض أعوانهـم لينقلوا إلينا كلاماً..

ـ كلام؟!.

ـ كلام فحواه أنهم.. أنهم يعدونك بالعفو..

رمقه القسام في شك.. تلعثم وخشي أن يكمل:

ـ أعني العفو إن أنت..

واحتـار الرجل كيف يختار الكلمات، دون أن يخدش مشـاعر الشـيخ، فنهض، وقال في حرج، وهو مطأطئ الرأس:

ـ والله لا أدري ماذا أقول!

ـ تكلم.

أطرق، وقال متحاشياً نظرات القسام:

ـ يعدونك بالعفو إن أنت استسلمت، وأعلنت نهاية لهذا العصيان.

نهض القسام في عصبية ظاهرة، وصرخ به:

ـ أو صدّقتهم؟.

تدخل الشيخ أحمد إدريس..

ـ اسمعه إلى الآخر ياشيخ عز الدين، لنعرف ما الخبر.

تشجع الرجل، وأكمل:

ـ وشيء آخر..

ـ ماهو؟

ـ ثمة وعد لك بالعودة إلى جبلة آمناً.

ـ إن استسلمت؟!..

ـ وتستلم فيها القضاء الشرعي أيضاً، وكأنّ شيئاً لم يكن.

هتف القسام بنبرة حاسمة..

ـ لا والله لا أفعل. خسئوا وخابت أمانيهم.

ألقى بها القسام في وجه الرجل، وهدر، وهو يهز بندقيته بقبضة واثقة:

ـ قل لهم القسام يرفض عرضكم، فالمجاهد لا يغمد سيفه ولا يتراجع.. يفضل أن يلقى الله شهيداً، على أن يبتسم لعدوّ دنّس أرضه وعرضه، حتى لو كان ثمن ذلك سلامة رأسه.

وحاول الشيخ أحمد إدريس أن يخفف عن القسام..

ـ كان من واجبه أن يخبرك، وكان من واجبك أن ترفض.

ـ هذه خدعة.

ثم وهو يلتفت للرجل، وقد ساءه أن ينقل إليه مثل هذا العرض:

ـ أوَ تُصدّق لهؤلاء الغزاة وعداً؟..

ـ أنت على حق، ولكن..

ـ لكن ماذا؟.

ـ الدنيا ضاقت ياشيخ عز الدين، والفرنسيون يضيقون الخناق عليكم، وينكلون بالأهالي، فما العمل؟

أطرق الشيخ عز الدين.. الرجل نكأ بكلماته نقطة ضعفه، فقد استل سيف الجهاد للدفاع عن أهله، فإذا بمن أراد الدفاع عنهم رهينة، ينكل بها الغاصبون، ليثنوه عن ثورته..

وهمس بنبرة تميل للهدوء:

ـ هناك ألف حل سوى الاستسلام!.

تبادل الرجال نظرة، وتساءل الشيخ خالد:

ـ لكأنك تفكر في أمر!.

وطلب الشيخ من الرسول أن يغادر، وأن ينقل إلى الفرنسيين جوابه الأخير.

ولما ابتعد، كرر الشيخ خالد السؤال..

ـ كنتَ تريد أن تقول شيئاً؟..

ـ ثمة أمر يراودني منذ مدة.

ـ ماهو؟.

صمت الشيخ برهة، ثم قال:

ـ ننسحب من ميدان إلى ميدان.

ـ لكن دمك مهدور في البلاد كلها يا شيخ عز الدين!.

ـ سوريا ليست كلها تحت سطوة الفرنسيين.

أدرك الرجال أن ثمة فكرة تختمر في ذهن القسام، وقد نضجت الآن. وحاصرته العيون تستعجل التفسير. قال وهو يدق الأرض بكعب بندقيته، التي لا تكاد تفارقه:

ـ استعدوا للرحيل.

ـ إلى أين؟

ـ إلى فلسطين.

ـ إلى فلسطين؟!

قال الشيخ إدريس في إنكار:

ـ لكنّا لا نعرف شيئاً في فلسطين!.

ـ المهم أنّا سنكون في مأمن من هؤلاء.

ـ وماذا عن الإنجليز؟

- لن يعبؤوا بنا ما لم نحدث ما يريبهم.

قال الشيخ خالد، وهو يفكر بصوت مرتفع:

- عاجلاً أم آجلاً سيعرف الإنجليز من نحن، وسوف يعتبرونا خطراً عليهم.

ثم مستدركاً:

- اعذرني يا شيخ عز الدين، فأنا لا أثبط من عزيمتك، لكني لست متأكداً من أنّا سنجد في فلسطين ما نقوم به!.

- قد تكون محقاً، لكنّا مأمورون بالعمل والإعداد، والنتائج بيد الرحمن، لنجدّد النية، ونعقد العزم، ثم ندرس خطواتنا بتؤدة وهدوء.

هزّ الشيخ خالد رأسه في حيرة، بينما قال الشيخ أحمد إدريس:

- يعني سنخرج من تحت الدلف إلى تحت المزراب.. ما أدرانا أن الإنجليز لن يعتقلونا هناك؟!

- نحن مجاهدون في سبيل الله يا شيخ أحمد، ومعرضون لكل شيء، لكن ثمّة فرصة، لن نفرط بأنفسنا بعد أن كاد هؤلاء يطبقون علينا.. سنذهب إلى فلسطين وعيوننا على سوريا كلها، هذا رأيي، ولن أجبر عليه أحداً..

وتقدم خطوات من حافّة القمة الشاهقة، التي كان يقف عليها، ثم استدار..

- من كان لديه حلّ آخر، فأنا مصغ إليه.

ران صمت، لم يلبث الشيخ عارف حنوف أن قطعه قائلاً:

- الخيرة فيما اختاره الله.. أنت أمير الجهاد، والرأي رأيك.

وأردف أكثر من صوت..

- على بركة الله..

كان القسام واثقاً بأن رجاله لن يخذلوه. قال، وقد شعر أنهم بموافقتهم هذه، قد شدّوا من أزره:

- على بركة الله.. لنعدّ للرحلة عدتها، ولنضع نصب أعيننا أن بلاد الإسلام كلها اليوم مهددة.. يتربص بها الفرنسيون والإنجليز والطليان، وزاد عليهم اليوم اليهود في فلسطين، فبعد أن أعطى بلفور وزير خارجية الإنجليز وعداً لليهود بتسليمهم فلسطين، ليقيموا عليها وطناً لهم، أصبح جنوب سوريا مهدداً مرتين.. فلنلتحق بأخوتنا هناك، علنا ننجز في فلسطين ما فاتنا هنا، أو نعود لنكمل هنا ما بدأناه، فكلها ثغور للإسلام، علينا أن نفديها، ونحميها..

وأردف قائلاً:

- إن كان لا بد من الموت، فلنمت كما ينبغي.. صحيح أنّا نتوق للشهادة، لكنا لن نموت بلا ثمن.. نتوق للشهادة، نعم، ونتوق أيضا لنرى بلاد العروبة والإسلام، وقد تحررت من كلّ الغزاة..

وصمت يتأمل وقع كلماته على وجوه الرجال، وما لبث أن تابع يقول:

- هذا ما عزمت عليه بعد تفكير طويل. لعلّ الميدان في فلسطين يسمح لنا بالحركة أكثر، فالإنجليز أقل حمقاً من الفرنسيين، وإن كانوا أكثر خبثاً ودهاء، كما عرفتُهم في مصر..

استبشر الرجال بمستقبل جديد، وشعروا أن جهادهم سيمتد ويثمر، وسرت فيهم حماسة كاد اليأس والحصار أن يقتلها، وبدؤوا يعدّون العدة للمسير.. إلى فلسطين.

# ٢

ـ انتبهوا.. ثمة شبح قادم!

تهيأ الرجال، وتمترسوا خلف الأشجار. شدّوا أصابعهم على الزناد، وهم يحدّقون في الظلام، يتبينون هذا الشبح القادم، الذي اندفع فجأة من أعماق العتمة، ليجدوه على بعد خطوات منهم، وهتف به أحدهم:

ـ قف، ولا تتحرك.

تسمر الشبح، ولم ينبس، كأنه تحول إلى تمثال.

وداهمه صوت آخر أكثر صرامة.

ـ من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟.

تمتم الرجل بصوت مبحوح، يريد أن يفصح عن اسمه، فخانته الكلمات!.

وهبّ القسام الذي كان يراقبه من خلف شجرة قريبة لنجدته، عندما لمح فأسه وزوادته، وتأكّد أنه مجرد شخص عابر، لا يحمل سلاحاً أو يضمر شراً، فخرج ليهدّئ من روعه.. كان مجرد فلاح طيب بكّر في الخروج إلى حقله، ليبدأ يوماً جديداً من العمل والكفاح، وتقدم الشيخ نحوه، وهو يشير إلى أصحابه، بتنحية السلاح..

ـ دعوه وشأنه، فماهو إلا منّا، ونحن منه.

بدا المشهد غريباً للرجل، لكنه ظل معتصماً بالصمت.. فمنذ لحظة كانت البنادق تهدد رأسه، والآن يحاول هذا الشيخ طمأنته، فمن يكون هؤلاء؟!.

تقدم الشيخ القسام من الفلاح أكثر، قال، وهو يربت على كتفه برفق:

ـ اطمئن، فنحن أهلك وإخوانك، لكنا توهمنا خطراً، فأسأنا التصرف، نرجو أن تسامحنا.

تأمل الفلاح الرجال في ذهول، وهم يحيطون به، أنزل زوادته المعلقة

بفأسه، ودفعها للشيخ..

- هذا كل مامعي.

استاء الشيخ القسام من الموقف.

- وهل نبدو لك من قطاع الطرق؟!.

- فماذا تريدون؟..

- لا تخف.. لا نريد إلا الخير.. امض فـي طريقك إلى أرضك، فهي في شوق إلى يديك.

- ولكن..

- انطلق راشداً. الله معك.

اطمأنّ الفلاح للرجال بعض الشيء، لكنه ظلّ متوجساً مما حدث، فتحرك وهو يتلفت يمنة ويسـرة، يحاول فكّ لغز هؤلاء، الذين لم يألف وجودهم في طريقه من قبل، وفي خاطره كلمات لم يفهمها.. «ماهو إلّا منّا، ونحن منه»!.

راوده للحظة أنهم نفرٌ من الجن، لما كان يسـمعه من قصص وأخبار، عن مردة ينتصبون فجأة في الظلام، ثم يختفون، أو لعله هُيئ له ذلك!.

وخطر له وهو يمعن في الهروب، أنه قد رأى الشـيخ من قبل!.. فوجهه بدا مألوفاً، ونبراته ليست بالغريبة، فمن تراه يكون؟!..

والتفت للوراء، علّه يرى وجهاً يسـتدل به على هؤلاء الذين لا يريدون منه شيئاً، وعلى رئيسهم الذي عامله برفق، فلم يجدهم!.

اختفوا فجأة، كما ظهروا فجأة!.. لعلهم اختفوا خلف الشـجر والظلام، أم تراهم جنٌ فعلاً، وقد عادوا إلى طبيعتهم؟!.

شعر بالوحشـة، وهو يراهم يغيبون بهذه السرعة.. خشي أن يظهروا له من جديد، فحـثّ الخطا يحاول أن يبتعد، لكن الـذي غاب عنه، أن هؤلاء الأشـباح الذين ظهروا له للتوّ، غيروا طريقهم، وعادوا أدراجهم في طريق مختلف لا يتوقعه أحد.

# ٣

همس الشيخ علي عبيد:

ـ هل تظنّون أنه عرفنا؟

ـ اللّه أعلم.

ـ كان علينا أن ننبهه إلى حقيقتنا، حتى يطمئن.

علق القسّام وهو يغذ السير:

ـ التنبيه يحمل التأكيد.. اتركوه لخواطره.

وتساءل الشيخ إدريس:

ـ هل كان من الضروري أن نغير الطريق؟.

علق القسام..

ـ الحذر واجب.

ـ لكنه طيب كما يبدو، ولا خوف منه.

ـ الخوف أن يثرثر بما رآه أمام من تهمه المعلومة.

ـ أنت حذر أكثر مما ينبغي.

ـ إن لم نحذر اليوم، فمتى يكون الحذر؟.

لم تصمد ملاحظة الشيخ إدريس لمنطق القسام، الذي كاد يحسم الحوار. لكن الشيخ إدريس رأى في تغيير اتجاه الطريق مبالغة لا تنبغي لمجموعة تطاردها فرنسا، بما أوتيت من قوة، وبثّت خلفها العيون في كل مكان، وقال في محاولة أخيرة:

ـ أقترح ياشيخ عز الدين أن نسرع في طريقنا كما نعرفه، ولا نضيّع الوقت في طرق ملتوية، تؤخر وصولنا إلى هدفنا كما أردناه.

رد الشيخ القسام بهدوء، يحاول شرح خطته:

ـ الطريق يا شيخ إدريس كما نعرفه، يعرفه أيضاً الأعداء، وستجدهم قد تحركـوا خلفنا، وقد يلحقوا بنـا، أو يزرعوا الطريق بالعيـون والدوريات التي تسـعى لاصطيادنا.. الأفضل أن نتوجـه عكس توقعاتهم.. وعندما نصل جسـر الشغور، سـنأخذ الطرق الجبلية الوعرة.. سنتحرك في الليل، ونأوي في النهار إلى أماكن تسـمح لنا بالتخفي، وأخذَ قسـط مـن الراحة، حتـى نتقوى على المسير..

وأردف الشيخ القسام متوجهاً للجميع:

ـ إن كان هناك رأي آخر، فلتقترحوا علي، وسنرى ماهو الأولى..

لم يكن لدى الشيخ إدريس مايقوله، لا سيما عندما رأى أن الجميع مع رأي القسام، فتمتم مستسلماً: «على بركة الله».

وتحركوا بصمت.. خواطرهم مسـربلة بالحزن، وقلوبهـم معلقة هناك.. بحواكير التين والزيتون.. بالبيوت الحزينـة التي تفتقدهم في ليالي القلق والرعـب.. بالأهـل والأولاد.. بدفء الحياة فـي وطن يمزقه اليـوم الغزاة بحرابهم.. ويضعون مستقبله في فم المجهول.

# ٤

الرحلة ما زالت في أولهـا، والرّجال ما زالوا تحـت الخطر.. صحيح أنهـم قد ابتعـدوا تماماً عـن قرية الحفـة والجبال المحيطـة حيث بدؤوا رحلتهم، لكنهم مازالوا ضمن دائرة التهديد الفرنسي المباشر.. كان عليهم أن يسـيروا في الغابات بعيداً عن الدروب الرئيسـية، ويتفنّنـوا في اختيار الطـرق الصعبـة والبعيـدة، عكـس التوقعـات التي قـد تخطر علـى بال المطاردين، فلا تصادفهم عيون المخبرين والجواسيس، ودوريّات الفرنساوي التي تسعى وراء رؤوسهم بأي ثمن.

تساءل الشيخ حنوف، وهو يلهث:

ـ كم تتوقعون أن تستغرق رحلتنا؟

ـ هذا يتوقف على الطريق..

ـ لن نأمن على أنفسنا حتى نخرج من جسر الشغور.

ـ يجب أن نسرع في الوصول إلى فلسطين ما وسعنا ذلك، حتى نفوت على فرنسا فرصة اصطيادنا.

ـ من حسن الحظ أن الإنجليز والفرنسيين على غير وفاق.

قال ظافر القسام:

ـ الإنجليز أرحم من هؤلاء الأوغاد على كل حال.

لوح الحاج خالد بيده مستنكراً:

ـ سـامحك الله يا شـيخ ظافر.. الإنجليز أسـوأ من الفرنسيين وأشد مكراً وخبثاً..

هز الشيخ ظافر رأسه موافقاً، لكنه قال يوضح وجهة نظره:

ـ ما أردت قوله أن الإنجليز لن يطاردونا كالفرنسيين..

وأيده في رأيه الشيخ عارف حنوف:

ـ أو على الأقل نكاية بهم..

عقب الشيخ أحمد إدريس:

ـ لن يكونوا سعداء بهذه العصبة، التي كانت يوماً شوكة في حلق الفرنسيين.. قد يرحبون بنا مؤقتاً، لكنهم سرعان ما سيضيقون بنا، ويحيكون لنا المكائد.

تدخل الشيخ عز الدين:

ـ كلهم غزاة يريدون أحرار هذه الأمة وعقيدتها.. يختلفون على أشياء كثيرة، ويتفقون علينا.. المهم الآن أنّا سنجد أرضاً جديدة، نلمّ فيها شملنا، ونلتقط أنفاسنا، ونخطط للمستقبل.

وتخلف الشيخ أحمد إدريس برفقة الشيخ خالد إلى مؤخرة المجموعة، وهمس لصاحبه:

ـ دعني أصارحك.. لست مرتاحاً لفكرة فلسطين هذه!.

ـ لديك حلّ آخر؟.

ـ تتكلم كالشيخ عز الدين.

ـ المهم أن نفوّت على الفرنسيين فرصة الإيقاع بنا، وبعدها لكل حادث حديث.

ـ يلحّ علي شعور بأنا مقدمون على مغامرة!.

والتفت إليهما الشيخ حنوف، وقد أصغى لطرف الحديث، فانتظر خطوتين أو ثلاثة حتى انضمّا إليه:

ـ الفرنسيون يريدون رؤوسنا، ليخيفوا بها كل طامح إلى الجهاد ضدهم، أما الإنجليز فليس لهم معنا ثأر واضح.

ابتسم الشيخ خالد:

- لو كان عليّ فأنا مقتنع، لكن الشيخ إدريس غير مطمئن.
- الشيخ إدريس على حق، لكن ما في اليد حيلة..

ووصل الحوار إلى مسامع الشيخ القسام، فتوقف وقال:

- يا إخوان، التردد ليس من الحكمة في شـيء، لقـد عزمنا وتوكلنا على الله، ولا داعي لهذه البلبلة.

وهتف الشيخ حنوف:

- اللهم ارم الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين.

أمّن الشيخ خالد، بينما ابتسم الشيخ إدريس لدعوة الشيخ عارف، ولاذ بالصمت.

وراحوا يحثّون الخطىٰ، كل غارق في خواطره، يلوك الأسئلة، ويحاول أن يجد لها جواب.

# ٥

كلما ابتعد الشـيخ عز الدين عن قريته، كلما ازداد شعوراً بالاغتراب.. لكأن روحه في كل مرة تنسلّ رويداً رويداً، لتعود أدراجها إلى المكان الذي ألفته، وولدت فيـه. ألح عليه هذا الشـعور وهو يمعن في الابتعاد، فشـعر بغصّة مؤلمة.. واجتاحته موجة من الكآبة.. لكأنه غصن مكسور، قصفته يد قاسية، وانتزعته من جذع الشجرة الأم، وألقته إلى مكان بعيد.

«ترى هل سـتعود إلـى بلدتك الحبيبة يـا عز الديـن؟ أم أنه الفراق الأخير؟..».

دمعت عيناه في هدأة الليل. لقد أحب بلدته إلى حد العشـق.. الرّجال يعشقون امرأة.. وهو يعشق قرية.. يعشـق وطناً.. يعشق أمة.. إنه عشق من نوع خاص.. عشق لا ينطفئ، ولا يذوي مع الأيام..

«إلى أين أنت ذاهب يا عز الدين؟..»

شـعر بالضياع للحظة.. لكنه سرعان ما لملم نفسـه، واستعاد توازنه.. إنه يعرف هدفه جيداً.. سيعيش مجاهداً.. وسـيقضي مجاهداً.. إن لم يكن في سوريا، ففي فلسطين.. في أي نقطة مهددة من أرض الإسلام.. إنه رجل الثغور المهـددة.. هذا خياره في هذه الحياة، وهـذه عقيدته، منذ أن تفتح وعيه فـي مصر على الأخطار التي تحدق بهذه الأمـة.. منذ أن رأى الأقدام الثقيلة للإنكليز، وهي تسـحق شعب مصر في دنشـواي.. منذ أن تردد في الأزهر صـدى الثورة على الغزاة القادمين مـن وراء البحار.. يريدون بهذه الأمة التركيع والتقسيم والنهب والإذلال.. بعدما تراخت يد الرجل المريض على قبضة السيف العثماني، الذي كان مشرعاً لحماية أرض الإسلام..

واستسلم القسام لخواطره..

«هذا قدرك يا عز الدين.. أن تحمل همّ أمتك، وتقاتل إلى آخر رمق.. لقد تحول كل بلد من بلاد العرب والمسلمين إلى فريسة للغزاة.. بالأمس جمعت الأموال والرجال من أجل إنقاذ ليبيا من الطليان.. ولولا تباطؤ الأتراك في مساعدتك وخذلانك، بعد أن وعدوك بنقل المجاهدين إلى ليبيا ببواخرهم، لكنت الآن هناك تكافح جيوش الطليان التي غزت ليبيا.. لكن الله أرادك هنا لتضرم جذوة الجهاد ضد فرنسا، التي جاءت لتغتصب بلدك.. وها أنت تغادر الآن إلى ثغر آخر، لتواجه مكر الإنجليز، وطلائع الصهيونية اليهودية التي تخطط لافتراس فلسطين.. لهفي على هذه الأمة.. الغزاة يتكالبون عليها، والمسلمون نائمون لاهون.. هم كثير، ولكنهم كغثاء السيل»..

وأيقظه من خواطره صوت مالك القسام..

- اصغوا معي يا شباب.

كان الرجال قد وصلوا إلى حافة الغابة، قبل أن يقطعوا الطريق العام، وراحوا يرهفون السمع تحرياً، لما نبه إليه مالك!.

وسأل القسام ابن أخيه، وهو يراه يشير بيده اليسرى للجمع بالتوقف، ويده اليمنى مكورة خلف أذنه، تحاول الإصغاء لصوت ما..

- ماذا هناك؟

- أسمع دبيباً بعيداً..

- دبيباً؟.

- أشبه بصوت سيارة..

- لا بدّ أنها دورية فرنسية.. لنختبئ بسرعة..

- هل سنقاومهم؟

صمت القسام للحظة..

ـ لا تتصرفوا حتى تروا إشارة مني.

لاذ الجميع بجذوع الأشـجار، وراحـوا يرقبون الطريـق، وأيديهم على الزنـاد. ومرت لحظات مشـحونة بالقلـق والتوتر، اسـتنفرت عند الرجال غريزة المقاتل.. وراحت السـيارة تقترب، فارتفع صوت هديرها، وما لبثت الأضواء أن أفصحت عن هويتها!.

همس الحاج خالد:

ـ هذه سيارة الآغا.

سأل الشيخ خالد:

ـ ما الذي أتى به إلى هنا؟

أجاب الشيخ القسام، وهو يكظم غيظه:

ـ لعله عائد من اللاذقية بعد أن أدى فروض الطاعة للقائد الفرنسي.

علق ظافر القسام:

ـ أو لعله عائد من إحدى سهراته الماجنة هناك.

زحف مالك القسام، حتى اقترب من عمه عز الدين:

ـ دعنا نصطاد رأسه.

ـ لا. فرؤوسنا أغلى من رأسه..

ـ إنه عميل للفرنساوي.

ـ المجاهد ليس بالأرعن، الذي يبذل رصاصه كلما رأى هدفاً..

وتنفس الرجال الصعداء، وهم يرون السيارة تلفحهم بغبارها، وهي تنهب الأرض في طريقها.. وجعلت تبتعد، والشيخ القسام يتابعها بعينيه، وهو يغـوص بذاكرته في الأيـام البعيدة.. «هذا الآغـا المتغطرس يلعق أحذية النسـاء في قصر المندوب السـامي، ويدلي بأسـرار شعبه على موائد الأعـداء، وعندما يعـود إلى قصـره، ينفش ريشـه كالطاووس،

يتغطرس على الناس، ويضطهد البسطاء، ويرسل كلابه خلف الأحرار.»

نفض الشيخ ظافر القسام التراب عن ملابسه، وقال وهو يلوح بقبضته في الهواء:

- كانت فرصة لا تعوض..

وأردف الشيخ خالد، وهو يلقي بندقيته خلف ظهره:

- لا أدري كيف وفرتَ رأسَ الآغا يا شيخ عز الدين؟..

لاذ الشيخ القسام بالصمت، وغاص في خواطره من جديد.. وقفز إلى رأسه حوار قديم.. ما زال يذكر كيف نقم عليه الآغا، لأنه رفض أن يزوره بعد عودته من الأزهر قادماً من مصر.. إيه.. رحمك الله أيها الوالد، كم كنت طيباً مسالماً..

- «يا ولدي..ها قد عدت غانماً سالماً، تحمل شهادة الأزهر، التي تتيه بها على الدنيا كلها، والواجب يقضي أن تذهب إلى الآغا، وتسلّم عليه.. إنه سيد البلدة، وعلينا أن نراعيه..

- ومتى كان الوافد يسلم على المقيم؟

- لكنه الآغا يا ولدي..

- والله يا أبت.. لا أزوره حتى يأتي هو، ويسلم.. هذه هي الأصول التي تربينا عليها.

- طاوعني يا بني..الآغا ينتظر زيارتك.. هكذا جرت العادة.

- اسمح لي يا والدي..عندما نتملق هؤلاء، نساعدهم على طغيانهم.. الحقّ أحقّ أن يتبع.

- الحقّ يحتاج إلى حكمة..

- يحتاج إلى الحكمة والقوة معاً.

- نحن ضعفاء أمام الآغا يا عزّ الدين، والحكمة تقتضي أن نتحاشى شره.

ـ الآغا صار آغا، لأنّا دائماً نتحاشى شره، ونسعى إلى رضاه.. لنجرب أن نقول له «لا» ولو لمرة واحدة..

رفع والده ذراعيه في حيرة، وألقاهما في يأس، وقد أسقط في يده.

ـ الله يحميك يا ولدي.. لك ما تشاء.

كدّرته الذكرى.. كان لا يحب أن يكسر لوالده كلمة، لكنها تلك الحساسية المفرطة التي تعتريه إزاء كل ظالم.

وانتزع الشيخ حنوف القسام من خواطره..

ـ فيم أنت سارح يا شيخ عز الدين؟.

ـ في الدنيا..

ـ لكأن بينك وبينها خصام.

ـ هل تراني زاهداً فيها إلى هذا الحد؟

ـ أغلب الظن أنك طلقتها ثلاثاً..

ضحك الرجال وهم يغذون السير.. بينما قال القسام:

ـ لولا هؤلاء الغزاة لكانت دنيانا مختلفة!.

قال الشيخ حنوف بنبرة الشاكي:

ـ سودوا عيشتنا، الله يسوّد عيشتهم.

ردّ القسام في حزم:

ـ ومع ذلك ما زالت لدينا القدرة لأن نتذوق طعم الحياة..

وتدخل الشيخ علي عبيد:

ـ لعلك تريد أن تقنعنا بأنك ستخلد إلى الراحة في فلسطين؟!

ـ إن كتب الله لنا الوصول إليها، سيكون لنا كلام..

تدخل الشيخ خالد:

ـ لن تطيق رؤية الإنجليز، وهم يدنسون فلسطين.. سيستفزك وجودهم

كما استفزك الفرنسيون من قبل.. أنت ثائر بالفطرة.. رحم الله أباك الشيخ عبد القادر.. ربّى فأحسن، وأورث هذه الأمة ليثاً..

ـ رويدك.. رويدك يا شيخ خالد.. لا تعن الشيطان علينا.. الله يحسن الخاتمة.. لا أحد يدري كيف ستكون النهاية، فالقلوب بيد الرحمن.

# ٦

الطريق إلى فلسطين مازال في بدايته، والليل الحالك يلقي بثقله على كل شيء، والخواطر المسربلة بالحزن تتزاحم في صدره، فتلهب مشاعره وتحرك مدامعه، والقلب الواثق الجريء يدفعه إلى الأمام، لكن جذوره معلقة هناك.. بين حواكير الليمون والعنب والتين والزيتون.. على السفوح الخضراء حيث ولد وترعرع، وتنفس الحياة كأروع ما تكون، هناك مع الأهل والأصحاب، مع الرجال الطيبين الذين التفوا حوله، يقارعون الغزاة القادمين من وراء البحار، وانتزعه الشيخ علي عبيد من خواطره:

- أين سنصلي الصبح يا شيخ عز الدين؟

- في المسجد إن شاء اللّٰه.

همس أحدهم في قلق:

- في المسجد؟!. لعلك لم تحسب حساب العيون والجواسيس يا أبا محمد؟.

- أعرف مصلّى في طرف الغابة، لا يصل إليه في هذه الساعة أحد.

انصاع الرجال لرأي القسام، ومضوا خلفه في طريق وعر.. وماهي إلا ساعة، حتى وَصْوَصَ لهم ضوءٌ من بعيد.

- ما هذا الضوء؟

- اطمئنوا هذا قنديل الشيخ باكير.

ابتسم الرجال.. أصدقاء القسام في كل مكان.. واقتربوا من الضوء، حتى تبينوا التفاصيل.. كان قنديل الشيخ باكير يتدلّى من بطن شجرة تين وارفة، ألقت بأغصانها العالية على مسجد صغير، فاحتوت نصفه، وكأنه رابض في أحضانها.. وعلى بعد خطوات منه بئر ماء عذب، يتوضأ عند

حافته شيخ وقور.. التفت الشـيخ باكير على وقع خطوات الرجال، وقد أنهى وضوءه للتوّ.. فتهللت أسـاريره لرؤية الشيخ عز الدين، وهو يلقي السلام.. هتف والماء يقطر من لحيته البيضاء، التي أحاطت بوجهه الأبيض المورد:

- ياهلا بالشيخ عز الدين.. ياهلا.. كيفك يا ولدي؟
- بخير يا شيخ باكير.. الحمد لله على كل حال.
- أخبارك تملأ الدنيا.. قلبي معك.

واستدرك الشيخ باكير، وهو يتأمل وجوه الرجال:

- حيا الله الشباب.. تفضلوا، وارتاحوا قليلاً..

دلف الرجال إلى المسـجد، كان أشبه بغرفة واسـعة مُدّت بالحصير، ليس لها من ملامح المسجد سـوى محراب صغير، نحت في حائط القبلة، وعلّق بجانبه مصحف كبير، وانتحى الشيخ باكير بالقسام:

- لم تقل لي ما أخبارك؟

تنهد القسام، وقال:

- ليس هناك ما يسر يا شـيخ باكير.. الفرنساوي يكاد يحكم قبضته على البـلاد.. والناس مسـاكين.. حاصرونا في الجبال حتـى أحكموا علينا الحصار.. بواريدنا لـم تعد تكفي لمدافعهم، أو تكافئهـا.. عرضوا عليّ أن أستسلم فرفضت.. العالم عندما يستسلم يا شيخ باكير، يقتل عزائم الناس، ويوهن في نفوسهم إرادة الجهاد.. وما أنا بفاعل بإذن الله.. آثرت أن أغمد سيفي إلى حين، ولا أكسره.. لن تقول سوريا بأن الشيخ عز الدين القسام، رجل العلم وخريج الأزهر، استسلم للغزاة، وستطمئن إلى أن السيف ما زال في غمده، وستعيش على أمل.

حوقل الشيخ باكير، والدمعة في عينيه:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. من أين أتانا هؤلاء؟

- تربصوا بالخلافة حتى ضعفت، فانقضوا علينا.. الضعف دائماً يغري بك الأعداء.

حوقل الشيخ باكير ثانية..

- ولكن أين ستختبىء يا ولدي؟

- سأهاجر إلى حين.

- إلى أين؟

- إلى فلسطين.

- إلى فلسطين؟!

- ننتظر هناك لعل الله يحدث أمراً.. نلمّ شعثنا ونراجع أمورنا.. ونشدّ من أزر إخواننا إن استطعنا، ففلسطين كما تعلم في خطر أيضاً.

- تمنيت لو أنّي في شبابي وقوتي، لبايعتك على الموت، ومشيت معك إلى آخر الدنيا.. لكني كما ترى.. أعدّ أيامي، ويا الله مسك الختام..

ضحك القسام، وهو ينهض مع الشيخ للصلاة، وقال مداعباً:

- مازلت شاباً ياشيخ باكير، منذ متى وأنا أنصحك بالزواج!.

أفلتت من الشيخ باكير ضحكة، لم يستطع أن يكتمها، فسمعها كل من في المسجد وابتسم، وهتف الشيخ من بين الضحكات:

- الزواج؟!.. الله يسامحك يا شيخ عز الدين..

ثم أردف، وهو يرفع يديه إلى السماء:

- نسأل الله حسن الختام..

ثم وهو يشير إلى نفسه في إنكار:

- أي زوجة ترضى بهذا العجوز؟.. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله..

# ٧

صلّى الرجـال الفجر في المسـجد الصغيـر، وتمددوا قليـلاً يريحون أجسـادهم المتعبة، وبدأ الشـروق ينسـج من خيوط النور صباحاً جديداً، وتدفقت النسمات العليلة من نوافذ المسجد، تهدهدها أغصان شجرة التين العجوز، فبعثت فـي النفوس نشـاطاً كان قد خبا، وتسـربت رائحة الخبز الطازج مع نسمات الصباح، فتسـللت إلى بطون خاوية، وأيقظت فيها جوعاً قديمـاً، بدأ منـذ أن انحدروا من تلك الـذرىٰ، التي كانـوا يعتصمون بها، وخاضوا طريقهم الوعر عبر الجبال والغابات..

وأطل الشيخ القسام من النافذة يسـتطلع مصدر هذه الرائحة الشهية، فألفى الشيخ باكير وهو يخبز لهم خبز الصاج على الجمر، فالتفت لرجاله يمنّيهم بفطور لم يتوقعوه، وأردف:

ـ سـنتناول فطورنا، ثم نخلد إلـى النوم، ولن نتحـرك من هنا قبل الغروب.

ـ ما أدرانا أن أحداً لن يرانا هنا؟

ـ قلما يأتـي أحد ليصلي في هذا المسـجد، إلا زائر يقصده أو عابر طريق..

تبسم الشيخ خالد، وهو يتأمل معالم المسجد المتواضعة:

ـ يبدو أشبه بزاوية نائية لصوفي عتيق.

علق الشيخ عز الدين، وهو يتربع مستنداً بظهره إلى المحراب:

ـ الشـيخ باكير رجل فاضل من الحفّـة، كانت له زوجـة صالحة من اللاذقية لم تنجب، وعندما أعلنْتُ النفير إلى ليبيا لمقاومة الطليان، جاءني متحمسـاً، يتبرع بماله ومصـاغ زوجته من أجـل تلك الحملـة، لكن الحملة

أحبطت كما تعرفــون، ولما رجع الشــيخ ليعيد الذهب لزوجتــه، رفضت أن تأخذه، لأنها قد تبرعت بــه لله، فاتفقا على أن يبنيا به هذا المســجد، في هذه الغابة النائية، على أرض لهما، ليُذكر فيه اسم الله..

ـ رحمها الله وجزاها عن الإســلام والمســلمين خيــراً، صدقة جارية سوف تستمطر لها الرحمات، مابقي هذا المسجد..

ـ هو أكثر من مسجد، ثمة سبيل ماء، وغرفة لإيواء المقطوعين والغرباء.

ولم يلبث الشــيخ باكير أن دخل عليهم بطبق مــن القش، حفل بأطباق الزيتون والفجل والبصل الأخضر، أتبعه بإبريق كبير من الشــاي، واجتمعوا حول المائدة المتواضعة يتهافتون على الخبز الطازج، الذي لم يزل يحتفظ بســخونته، ويتناولون إفطارهم الشهي بنفس مفتوحة، وســعادة غامرة بهذا التوفيق الذي أصابوه، في رحلة مازالوا يتوقعون فيها المخاطر والأهوال..

وانتقلــوا بعد ذلك إلى غرفة تقع خلف المســجد، فخلــدوا إلى النوم، بينما تمدد الشــيخ باكير في ظل شــجرة التين متيقظاً يحرسهم، ويتحسب لأي طارئ.. ويــده على الحبل الذي مده من تحــت الباب، وربطه إلى يد القسام، لينبهه إن شاهد ما يريب.

ومضى اليوم بســلام، فصلّوا العصر، وبدؤوا يســتعدون للمســير، وبعد طبق من المجدرة التي اجتهد الشيخ باكير في إتقانها ماوسعه ذلك، اجتمع الرجال حول القسام، يتهيؤون للخطوة القادمة.

ووقف الشــيخ باكير لدى الباب، يــودع ضيوفه ويدعو لهم، واســتبقى الشيخ عز الدين للحظات، ثم أخرج من عبّهِ كيساً صغيراً..

ـ هذا كل ما أملك يا شيخ عز الدين.. خمسة مجيديات.. قد تنفعكم في رحلتكم.

شد الشيخ عز الدين على يده، وهو يُكبر فيه مبادرته الطيبة..

ـ كلفت نفسك يا شيخ باكير.. احتفظ بها لنفسك، فقد تحتاج إليها، وأنت في هذه السنّ..

ـ لا واللّه. لا تذهبون بالأجر كله.. أنا أستطيع الجهاد أيضاً..

وأردف وقد تهدج صوته:

ـ على الأقل بهذه المجيديّات. فقد تساعدكم بعض الوقت.

شدّ القسام على يده، وقال:

ـ المهم ألّا تنسانا من الدعاء.

وانطلق الرجال في رحلتهم، وعينا الشيخ باكير تودعهم بالدعاء والدموع.. وأوغلوا في أعماق الوادي، وصورة الشيخ الجليل لا تكاد تفارقهم..

# ٨

وصل الرجال إلى جسر الشغور، فتنفسوا الصعداء.. لقد بدّدوا جهود البحث عنهم، باختيار هذا الطريق، ولن يعرف الساعون وراءهم حقيقة وجهتهم إلى وقت طويل، لأنهم اختاروا طريقاً عكس ما قد يتبادر إلى الأذهان.. كانت فكرة ذكية من الشيخ عز الدين، أن يختار طريقاً لن يفكر به المحتلون، الذين سيتجه تفكيرهم إلى الطرق المباشرة.

وصار عليهم أن يجتهدوا الآن في اجتياز الطرق الوعرة، وسلكوا طريقاً جبلياً صاعداً، وأوغلوا فيه، وقبيل الغروب، كانوا قد وصلوا إلى قرية مرتفعة عند ذروة شاهقة..

ودعا القسام رفاقه ليتأملوا المنظر الخلاب عند السفوح، قبل أن تسدِل العتمة أستارَها.. فبدا لهم سهلُ الغاب في أعماق الوادي السحيق رائعاً ممتداً، يخلب اللبّ بألوانه وتشكيلاته، وراحت خيوط الشمس الغاربة، تلثم وجه السهل الأخضر، وكأنها تقبله قبّلة الوداع..

وقال الشيخ عز الدين، وهو يشير إلى القرية الوادعة..

ـ هذه قرية «كسر العدا».. هنا هزم إبراهيم هنانو الفرنسيين منذ أشهر، وأبلى فيهم أشد البلاء..

ـ اسم على مسمّى.

ـ وفيها منازل قوم كرام..

ـ تبدو أشبه بمصيف جميل.

واقترب الشيخ من حافة الجبل، يشير للوادي السحيق..

ـ وهذا هو سهل الغاب، يشقه نهر العاصي كما ترون..

وأرسلوا نظراتهم المفعمة بالدهشة، تتأمل الخضرة الممتدة، التي

تدرجت وتفاوتت في خضارها، فرسمت بهذا التفاوت والتنوع منظراً ساحراً يأخذ الألباب، ووسط بحر الخضرة بدت مساحات بنية التربة، يشقها النهر العنيد، الذي يمضي عكس الأنهار الأخرى القادمة من الشمال..

وبعـد أن غسـلوا أرواحهم بمناظر الغروب السـاحرة، تحـرك الرجال يتابعون طريقهم علـى ضوء القمر، الذي أطل بأشـعته الوانية، يضيء لهم طريقاً وعراً، اضطروا لركوبه في صراعهم مع باطل غاشم لا يرحم، وتمنّوا لو أنهم في غير هذا الموقف، ليسـتمتعوا بهذه المناظر الساحرة والأجواء الحالمة، لكن الجمال الذي أحاط بهم من فوقهم ومن تحتهم، لم يسـتطع أن يمحو القلق الذي يطاردهم..

- هل تعتقدون أنهم سيعرفون طريقنا؟
- أرجو أنّا قد نجونا منهم..
- كلما أوغلنا بالابتعاد كلما كنا في مأمن.

قال الشيخ علي الحاج عبيد:

- ما زالت أمامنا مخاطر جديدة.. عندما نصل إلى بيروت، سيبرقون إلى كلابهم هناك، ليقبضوا علينا.

علق الشيخ القسام، وهو يرقى في الجبل:

- استعن بالله، ولا تعجز.

وقال الشيخ حنوف ضاحكاً، وهو ينّحي نباتاً من الشوك اعترضه:

- استعنّا بالله، لكنّ الكثرة غلبت الشـجاعة يا شيخ عز الدين. ماذا سنفعل إذا أوقفتنا دورية فرنسية في بيروت؟
- سـتكون معركتنا الأخيرة، التي كنا نسـتعد لها فـي جبال صهيون، فاشحذ سلاحك لتبلي بلاءك.
- وهل سنحمل بنادقنا هذه معنا إلى فلسطين؟

ـ ليس من الحكمة أن ندخل فلسطين ونحن مسلحون.

ـ وماذا سنفعل بالسلاح؟

ـ سنرسله لرجال دمشق، فهم الآن لا بدّ أنهم يستعدون للثأر لميسلون.

وتنهد الشيخ إدريس..

ـ لهفي على دمشق.. من كان يظن أن عاصمة الشام، تقع أسيرة بيد هؤلاء.

وتساءل بصوت مسموع:

ـ ما رأيك يا شــيخ عز الدين، لو التحقنا بإخواننا في دمشق، أليس ذلك أجدى من الذهاب إلى فلسطين؟

ـ لا أكتمك أني فكرت في هذا، لكني لست متأكداً من أن هذا صائب في مثل هذا الوقت.

ـ ما الضرر في أن نحاول؟.

ـ لا وقت لدينا لنجرب الحلول، لو كنا نعلم بظروف دمشق، لانحزنا إلى الثورة هنــاك، لكن بعد القســوة التي أنهــى بها الطاغية غــورو هبّة ميسلون، سيحتاج رجال دمشق إلى وقت طويل، قبل أن يستعدوا لثورتهم من جديد، ولا أرى أن نكون عبئاً عليهم.

واقترب الشيخ عارف من الشيخ إدريس، وهمس في أذنه مازحاً:

ـ لكأنك لا تحب أن تكمل معنا إلى فلسطين يا شيخ أحمد؟

لكزه في كتفه:

ـ كفّ عن هذرك، ولا تفتح لنا باباً للجدل مع الشيخ عز الدين.

ـ سأكفّ حتى لا أوقع بينكما فقط، لكني لن أتراجع عما قلت.

واستبطأ الشيخ القسام الركب:

ـ شدوا الهمة يا رجال، نريد أن نصل إلى الهرمل عند الشروق.

وحثّوا الخطىٰ، يستعجلون بها قدراً، سيكون له ما بعده.

# ٩

أقبل الفجر، والرجال يخوضون سباقاً مع الزمان والمكان، لقد عقدوا العزم على حرق المسافة إلى بيروت في أسرع ما يطيقه بشر، واستبد بهم التعب، ونال الحصى والشوك منهم، وهم يخوضون وعورة الطريق الذي اختاروه، وتساءل البعض عن موعد صلاة الفجر، فكانت فتوى الشيخ عز الدين أن في الوقت متسع حتى تتكاثف خيوط الصبح، فيصلّون على بصيرة، ولم تلبث طلقة مدوية أن انطلقت تبدد صمت الليل البهيم، فتبعثروا في المكان، وقد التفّت أصابعهم على الزناد، وفتحوا أحداقهم إلى منتهاها، يبحثون عن مصدر الرصاص.

قال الشيخ خالد، وهو ينفخ الدخان الذي تراكم في فوهة بندقيته:

ـ هذا أنا، فاطمئنوا.

ـ ما خطبك؟

ـ رأيت عينين تلمعان في الظلام، فخطر لي أنهما لنمرٍ كاسرٍ أو ذئبٍ غادر، فلم يكن من الصواب أن أتردد في القضاء عليه.

ـ أين؟.

ـ في ذلك الاتجاه.

وتقدم الرجال، وأيديهم مازالت على الزناد. استمهلهم الشيخ عز الدين:

ـ انتبهوا يا رجال، فقد لا تكون إصابته قاتلة!

أخرج الشيخ ظافر عود ثقاب، وأشعل به غصناً جافاً التقطه من بين الصخور، وتقدموا ببطء، وأعينهم موزعة في كل اتجاه، تحسباً لهجوم مباغت من حيوان أو إنسان!.

وفجأة قفز في وجوههم حيوان ضخم، كان يكمن فوق صخرة عالية، فاخترقته عدة رصاصات حذرة، كانت تتأهب لمثل هذه المفاجأة..

قال الشيخ مالك القسام، وهو يقلب الحيوان القتيل على ظهره بقدمه:

- خنزير بري!.

- من حسن الطالع أن الشيخ خالد أطلق الرصاصة الأولى، ليحذرنا منه.

وهتف الشيخ عارف حنوف:

- لو اصطدتم غزالاً أو حتى أرنباً، لكنّا فزنا بعشوةٍ لذيذة في هذا الليل.

ضحكوا، وهم إلى فرحتهم بالنجاة أقرب، ولم يلبث الشيخ عز الدين أن قال منبهاً:

- يجب أن نتحرك من هنا سريعاً، فقد يكون الرصاص لفت إلى مكاننا الأنظار.

وانهمروا من أعلى الجبل باتجاه السفوح، ومضوا في طريقهم مسرعين، وتابعوا حتى طلع عليهم الصبح، فأووا إلى كهف صغير، وبعد أن نظفوه وأمّنوه.

قال الشيخ علي الحاج عبيد، وهو يرتاح إلى صخرة:

- لقد نال منّي التعب. اسمحوا لي أن أرتاح قليلاً..

وانضم إليه الشيخ عارف حنوف، وهو يندب حظه:

- أينك يا شيخ باكير!

ثم وهو يسأل الشيخ القسام:

- ألا تعرف لنا عارفاً بالله يا شيخ عز الدين، يؤوينا في زاويته بعد هذا المسير.

ضحكوا لدعابته، وقد تذكروا تلك السويعات الرائعة في ضيافة الشيخ الوقور، لكن دوام الحال من المحال..

وتيمّموا، ثم أدّوا صلاة الصبح في جماعة، وسألوا الله العون والتأييد، وهم يخلدون إلى النوم، يحرسهم في كلّ ساعة اثنان..

كانت أحلامهم مسكونة بالقلق، لكن قلوبهم كانت مطمئنة. وتفاءلوا بيوم جديد..

# ١٠

توقف الشيخ عز الدين برهة، وراح يتلفت حوله.

- انتظروا قليلاً..

ثم، وهو يشير إلى سلسلة من المرتفعات القريبة:

- أعتقد أن الطريق من هنا.. إذا تجاوزنا هذه الجبال، فسنكون في لبنان.

وارتقوا في الجبل بحماس، وكلهم فضول لاكتشاف ما وراءه..

همس الشيخ خالد، وهو يفكر بصوت مسموع:

- هل تعتقد أن الإنجليز سيتركونا وشأننا يا شيخ عز الدين؟

- سيتركونا إلى حين..

ثم وهو يضحك:

- حتى نصبح خطراً عليهم.

وضحك الرجال، بينما قال الشيخ حنوف:

- الفرق بين الإنجليز والفرنسيين، كالفرق بين الذئب والثعلب، كلاهما متوحش من أكلة اللحوم.

تنهد الشيخ القسام معلقاً، وهو يتوقف ليلتقط أنفاسه:

- كلهم يريدون رأسك عندما يرتفع عالياً.

ثم أحكم وضع بندقيته خلف ظهره، ومضى، فتحرك الرجال خلفه، وحكمة القسام تدور في رؤوسهم..

لو طأطؤوا الرؤوس لأعدائهم لكانوا الآن في أحضان زوجاتهم، ينعمون بقرب أطفالهم وذويهم، لكنهم رفضوا الهوان، وآثروا طريقاً آخر، غير عابئين بالعقبات.. طريق الحر الذي يأبى الضيم، ويرفض الهوان، مهما كانت التضحيات.

ووصلوا أخيراً إلى الذرىٰ، فلاح لهم وادٍ فسيح، تنتشر فيه غابات كثيفة مترامية، فوطّنوا أنفسهم على سيرٍ طويل.

قال الشيخ حنوف ضاحكاً، وهو يعالج نعله المتهالك، ويلفّه بخرقة بالية:

ـ عندما بدأنا المسير كانت الحصى تؤلمني، لكنها الآن تدغدغني..

ابتسم الشيخ عز الدين القسام لدعابته، أما الشيخ مالك القسام، فقد ضحك وهو يتأمل حذاء الشيخ حنوف، وقد لفّ مقدمة الفردة اليسرى منه بالقماش، خشية أن ينفصل وجهها عن نعلها، بعد أن اتسع فتقه، حتى بانت منه بعض أصابع قدمه:

ـ المهم أن تجد في بيروت من يسعف لك الحذاء، حتى يحملك إلى فلسطين.

ـ ادع لنا أن نصل بسلام، وأنا كفيل به.

وانهمروا من علٍ بخفة ونشاط، وهم يضحكون ويتبادلون الدعابات، وقد أغرتهم خفتهم بالتسابق نحو السفوح مهرولين..

ـ ليت الطريق كله هكذا..

ـ مهما يكن، لا بد من الحذر، اهبطوا بكعوب أقدامكم..

ولم تمض مدة حتى صاروا يقفون على أدنى السفوح المتاخمة للخضرة، ووضع الشيخ عز الدين كفه فوق عينيه كمظلة، حتى يتجنب وهج الشمس، وراح يتأمل الطريق المتعرج الذي تبتلعه الغابات، ليخفي خلف الأشجار الكثيفة معالمه وأسراره..

ولأول مرة يفصح الشيخ أحمد إدريس عن شعوره بالتعب، فطلب من أصحابه أن يتوقفوا قليلاً ليرتاح.

استجاب الصحب لرغبة الشيخ، بينما فرد الشيخ حنوف زوادته وسط الدائرة التي ضمتهم، ليتناول بعض الخبز والزيتون والبصل..

ـ من يرغب في أن يقاسمني هذه المائدة، فليقتصد في الزيتون، فهذا ما بقي معي من زيتون جبلة اللذيذ.

ابتسم الشيخ عز الدين، وعلق قائلاً:

ـ لو كانت زوجتي تعرف أنك كريم إلى هذا الحد، لأهدتك كل ما لديها من زيتون.

قال الشيخ حنوف، وهو يضرب فحل البصل على صخرة بجانبه، حتى يتصدع:

ـ بارك الله فيها من امرأة طيبة.. لم أر مثل صبر أم محمد وجلدها على زوج لا يهدأ أبداً..

ثم أردف متوجهاً لشيخه القسام، وهو يتناول البصل مع الزيتون الأخضر بتلذذ:

ـ أغلب الظن أنك ستقضي حياتك مجاهداً، وأنها ستذهب بالأجر كله.

ضحكوا لدعابة الشيخ حنوف، وقال الشيخ عز الدين متوعداً..

ـ لو غيرك قالها.

وعلق الشيخ إدريس:

ـ جعل الله كلامنا خفيفاً عليك يا أبا محمد، كما هو كلام الشيخ حنوف، الذي تطرب لكل ما يقول..

ضحك الشيخ عز الدين، وأراد أن يقول شيئاً، لولا أن سمع تحذير الشيخ ظافر القسام، وقد انتفض واقفاً فجأة، بعد أن كان مسترخياً، يرتاح على صخرة مرتفعة:

ـ انتبهوا يا شباب..

ثم وهو يشير إلى غبار يثور من بعيد:

ـ انظروا هناك..

هبّ الرجال واقفين، ونظروا إلى حيث أشار.. كانت ثلة من الخيالة قادمة من الشرق، تتحرك نحوهم بسرعة، وكأنها قد رصدت جمعهم، وهم يهبطون من الجبل، فجاءتهم تستهدف وجودهم.

توجس الشيخ عز الدين، فهيأ بندقيته وهتف بالرجال:

ـ انتبهوا، واستعدوا..

تحركت الأصابع لتحيط بالزناد، وصوب الرجال بنادقهم باتجاه القادمين!.

ـ لا تطلقوا النار حتى آذن لكم..

تحفز الرجال، وعيونهم على الشيخ الذي تقدمهم بخطوات حذرة، ويده على الزناد.. وسرعان ما أحاطت بهم الخيل، وراحت تدور حولهم، يلفّها الغبار والغموض.. ومضت لحظة من الصمت المفعم بالتوتر، ووقفوا جميعاً على حافة المواجهة. وابتدرهم قائد الملثمين:

ـ من أين الرجال، وإلى أين؟..

انبرى له القسام، وهو يرمقه بنظرات ثاقبة ولهجة واثقة:

ـ هل نخدمكم بشيء؟..

ـ تعرفون أين أنتم؟.

ـ في أرض الله.

ـ لا إله إلا الله..

اطمئن الرجال بعض الشيء للحديث، لكن الحذر لم يزايلهم، وتابع قائد الملثمين:

ـ أنتم غرباء فيما أظن؟.

أجابه القسام:

ـ لا غريب في وطنه!

ـ لهجتكم تنمّ عن منبتكم.. إن كنتم في حاجة بذلناها لكم؟

ـ لا نريد إلا الخير..

لوى قائد الملثمين حبل فرسه، ليهدّئ من عنفوانها، وقد اطمأن للرجال، قال يخفف من توجسهم:

ـ نحن إخوانكم من عشائر الدنادشة.. من قبيلة شُمَّر.. وأنتم اليوم بعون الله ضيوفنا.

ابتسم الشيخ عز الدين:

ـ نعم الأهل، ونعم الدار.. لكن تعذرونا، فلدينا مقصد نرجو أن نصله في أسرع وقت.

ـ أنتم في دياركم.. كان بودنا أن نتعرف عليكم.. لكن لن نثقل عليكم بالسؤال..

ـ بارك الله فيكم.. أخلاق قوم كرام.

أردف قائد الفرسان، وهو يلكز فرسه لتعود أدراجها..

ـ على أية حال أنتم الآن على سفوح الهرمل.. عليكم أن تسلكوا هذا الطريق، إذا أردتم أن تعبروا إلى طرابلس أو بيروت..

وأشار إلى طريق متعرج يتلوى، ليخترق غابة كثيفة.. ثم استدرك قائلاً، وقد طوى رجاله بنادقهم، ونبّهوا خيولهم لتستدير عائدة من حيث أتت:

ـ تجنبوا طريق الساحل، فهو غير مأمون.

تساءل الشيخ ظافر القسام، وهو يتأمل الركب الذي بدأ يبتعد:

ـ من تراهم يكونون يا عماه؟

ـ مجاهدون مثلكم إن شاء الله.

ـ مجاهدون؟!

ـ الأمة يا ظافر مازالت غنية بالأحرار.. في كل شبر من هذه الأرض، سيجد الأجنبي فارساً وبندقية.. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب سينقلبون.

ـ قالوا أنهم من الدنادشة!

ـ الدنادشة عشـائر من قبيلة شـمر.. ينتشـرون في هذه الديار من حمص إلى طرابلس.. وهم أهل نخوة ونصرة.

قال الحاج علي عبيد:

ـ ليتنا أخبرناهم بهويتنا، إذن لساعدونا ووفروا علينا هذا العناء..

علق القسام، وهو يهمّ بالمسير:

ـ بهذه البساطة يا شيخ علي! استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.

# ١١

- يا أهلاً. يا أهلاً بالأحباب.. يا مرحباً بالشيخ عز الدين.. أخبارك ترفع الرأس وتثلج الروح والله..

كان استقبال الشيخ خليل سكر للقسام وصحبه مفعماً بالود، وكان اللقاء حاراً.. واحتوتهم السدة الواسعة في الجامع العمري الكبير ببيروت، وتحركت أشجان الشيخ عز الدين، فراح يبث الشيخ خليل ما يعتمل في نفسه..

- الصليبيون يعودون من جديد يا شيخ خليل.
- شدة وتزول إن شاء الله..
- هذه المرة ليست ككل مرة.
- لقد دحرناهم في كل مرة.. أحسن الظن بالله يا شيخ عز الدين.

تنهد القسام:

- لا إلــه إلا الله.. ما يمزقني يا شيخ خليل، أنهم يأتون ونحن في أسوأ أحوالنا.

ابتسم الشيخ خليل، وقال مسرياً عن صاحبه..

- وهل يأتون إلا عندما تسوء أحوالنا.. نحن السبب يا أبا محمد..
- حصوننا تتهاوى الواحد تلو الآخر.. في كل يوم يتقدمون، ويفترسون قطعة من بلادنا.. أرأيت إلى الذي حصل لدمشق؟.

حوقل الشيخ خليل وارتجفت لحيته، وهو يجهش بالحديث:

- حسبنا الله ونعم الوكيل.. بيروت بالأمس واليوم دمشق.. لهفي على الشام..

وتساءل القسام:

ـ كيف غزوا دمشق بهذه السرعة والسـهولة.. أما كان بإمكان الملك فيصل أن يدافع عنها؟..

حدثني بربك كيف مضت الأمور؟..

أجاب الشيخ خليل في مرارة..

ـ الملك فيصل للأسف كان يظن أن كل الأمور تحل بالسياسة.. ضيع الوقت بالمفاوضات والوفود والسفر إلى لندن وباريس، للحصول على بعض مــا كان يأمل به من ساســة المكر والخديعــة، بينما كان هؤلاء يعشــمونه بالوعود، ويدبرون في الخفاء بخبث، لأخذ بلادنا لقمة ســائغة.. حتى قبوله للإنــذار الذي أرســله له «غــورو» وألّب عليــه الناس، لم يشــفع له عند الفرنســيين الذين غزوا دمشــق، مدّعيــن أنهم لم يســتلموا موافقة الملك فيصل على الإنذار، وقد استلموها.. كانوا حريصين على الغدر.. ولم يجدوا في طريقهم سوى جيش يوسف العظمة الصغير، فسحقوه في ميسلون، ورفعوا العلم الفرنسي على السراي الكبير في دمشق، معلنين الوصاية على الشام، وهاهم يمعنون في فصل لبنان عن سوريا لأول مرة في التاريخ!.

ودخل تلاميذ الشــيخ خليل بأطباق الطعام من كل لــون، فكانت مائدة طيبة اجتمعت فيها البســاطة بالكرم، وكان الجــوع قد أخذ من الرجال كل مأخذ، فلبّوا دعوة الشيخ خليل في صمت، وهم غارقون في خواطر شتى..

ثمة إحســاس بالطمأنينة خفف عنهــم بعض الخطر، لكنهم يشــعرون بأنهم مازالوا في فم المجهول!.

وتحلقوا بعد الطعام يرتشفون الشاي، كان الشيخ خليل يصغي لقصص الجهاد الذي خاضه القســام ورجاله في جبال اللاذقية بإعجاب، وانتشــى بأحاديــث البطولة، التــي ملأت نفســه إكباراً لهــذه الهامــات التي تأبى الانحناء.. واستدرك الشيخ خليل كمن تذكر شيئاً:

ـ علمت أنك بعت البيت في جبلة!.

ـ كنا بحاجة إلى المال..

ـ وماذا تركت لأهلك بعد البيت؟

ـ عندما يحتل الغازي أرضك، تصبح البندقية أهم من البيت يا شيخ خليل.. بثمن البيت اشترينا أربعاً وعشرين بندقية..

ـ وأين ذهبت بالزوجة والأولاد؟.

ـ تدبرت أمرهم إلى أن استقر بهم المقام في الحفّة.. لنا هناك أقرباء قاموا بالواجب.

عقب الشيخ خالد، وهو يمسح عن شفتيه أنداء من الماء، تقاطرت من ميزاب إبريق الفخار، الذي كان يشرب منه:

ـ الشيخ عز الدين كان يقظاً من أولها، منذ أن بدأت محاولات الفرنساوي لاحتلال الساحل، نادى حيّ على الجهاد.. كان يعرف أن الفرنساوي لن يتراجع، فلم يضيع الوقت..

أطرق الشيخ عز الدين، وهزّ رأسه في مرارة..

ـ كانوا أكثر عدة وعدداً، وكنا ضعفاء..

رد الشيخ خالد يخفف عنه:

ـ لكنكم أبليتم بلاء حسناً، وأوجعتم الفرنسيين.. تكفيكم المعركة التي قدتها أنت وإبراهيم هنانو والشيخ صلاح البيطار، وقضيتم فيها على الحامية الفرنسية في جبل صهيون..

ـ كانت معركة قاسية، لكنهم تكالبوا علينا بعدها، وحاصرونا..

ثم أردف الشيخ عز الدين في حسرة، وهو يتوجه بحديثه للشيخ خليل:

ـ لولا صفقة السلاح التي صادرها أتاتورك، لكان لثورتنا هناك شأن آخر..

ربّت الشيخ خليل على كتف الشيخ عز الدين مواسياً، فتابع، وهو حزين:

- لم تكن بلادنا مستباحة كاليوم!..

قال الشيخ خليل، وهو يلتقط نثرة خبز خلفتها حفلة الطعام، ويأكلها:

- علينا أن نعترف يا شيخ عز الدين.. لقد نخر سوس الضعف الخلافة، حتى أغرت بها الإنجليز والفرنسيين، فقوضوها..

- صدقت.. داخلني هذا منذ أن زرت الأستانة.. آلمني أن عاصمة الخلافة لم يبق منها سوى المساجد والقصور واسم السلطان..

وجالت دمعة في عين الشيخ خليل:

- عندما حطّ الفرنسيون هنا، وأعلنوا دولة لبنان الكبير، أدركت أن الخلافة قد انتهت، وأن السكين قد بدأت تعمل فينا..

وقال الشيخ خالد في حنق:

- يريدون تمزيق سوريا إلى دويلات.. دويلة لكل حارة ولكل ملّة.. يجربون هذا في سوريا بعد لبنان.

قال الشيخ خليل:

- جهادكم يا شيخ خالد أنت وأمثالك، هو الذي عرقل هذا، ولكن..

وتنهد تنهيدة حرّى، وهو يمعن النظر في كوبه، يتأمل مابقي فيه من الشاي..

- لكم أخشى من المستقبل.

قال الشيخ عز الدين، وهو يستعيد تفاؤله:

- هذا لن يدوم.

وعاد يؤكد بنبرة أكثر ثقة وإصراراً.

- والله ياجماعة لن يدوم.. مازال في شباب هذه الأمة ومجاهديها

عرق ينبض.. سـيزول ليـل الظالمين، وتبقى هذه الأمة كمـا بقيت في كل مرة، تنتفض على أعدائها، وتلفظهم بعيداً إلى حيث جاؤوا.

وصمت لحظة، وهو يرقـب الوجوه التي انفعلت بما قـال، فأردف وهو يخوض في الذكريات:

ـ عندما جاءت لجنة كراين الأمريكية لتستفتي أهل سورية في مصير البـلاد، قابلتها مع بعـض العلماء في اللاذقيـة وحاورناهـم.. غاظني كم يستخفون بنا!.. قالوا بكل صفاقة، يتظاهرون بأنهم لنا ناصحون.. «أنتم لا تسـتطيعون أن تسوسوا أنفسـكم.. أنتم شـعوب ضعيفة، لا تملك تجربة في الحكـم والإدارة».. تذكرت كيف تكونت أمريكا مـن المجرمين والمغامرين وقطاع الطرق، الذين ألقت بهـم بريطانيا في القارة الجديدة للتخلص من شرّهم، وكيف اغتصبوها من أهلها بعد أن أبادوا الهنود الحمر المساكين.. واستفزّني أن يتكلموا بهذا المنطق السقيم مع أبناء أمة عريقة!..

ـ وماذا قلت لهم؟

ـ أخرجت لهم المصحـف وقلت: «بل نملك القوة التي جعلت منّا خير أمـة.. هذا الكتاب هـو قوتنا التي لـن نتخلى عنها».. سـاءهم جوابي.. لا يحبون أن يسمعوا منا نبرة القوة والاسـتقلال.. يريدوننا دائماً أذلة مسلوبي الإرادة.. كأولئـك الهنـود الحمـر المسـاكين، الذيـن حصدوهـم بالغدر والبارود، واحتلوا أرضهم وسرقوها..

كان الشيخ خليل يصغي، وهو يتأمل قسمات الشيخ عز الدين، وقد علاها إرهاق الرحلة التي حملته إلى بيروت، قال مشفقاً وهو يعلن نهاية هذا الحوار:

ـ لا يبـدو عليكم يـا جماعة أنكـم خضتـم كل هذه الرحلـة وهذه المخاطر!.. ألا تحتاجون لشيء من الراحة والنوم؟!.

ابتسم الرجال، واسترخت أعينهم.. كانوا فعلاً بحاجة إلى ذلك.

# ١٢

بعد صلاة الضحى، تحلق الرجال حول مائدة الإفطار البيروتي، الذي أحضره مريدو الشيخ خليل سكر من بيته، وبينما كان الضيوف يهمّون بالبدء بالطعام، تقدم أحد طلاب الشيخ، وهمس في أذنه بشيء!..

نظر إليه الشيخ سكر بقلق، وسأل الشاب:

ـ هل وضعوا صوراً مع الخبر؟

تأملوا الحوار بقلق.. «عن أي صور يتحدث الشيخ؟!» أجاب الشاب بصوت خجول، وهو يشير للشيخ عز الدين:

ـ فقط صورة مرسومة للشيخ عز الدين، لكنها من حسن الحظ أنها لا تشبهه كثيراً.

ـ هذا أفضل.

تساءل الشيخ عز الدين في قلق:

ـ ما القصة؟.

حوقل الشيخ خليل:

ـ ثمة خبر لا يسر.

ـ ماذا؟

ـ حكموا عليك بالإعدام!.

ابتسم الشيخ عز الدين، كمن فوجئ بخبر طريف.

ـ حقاً؟!

ـ ابننا يقول أنه قد قرأ اسمك هذا الصباح في إحدى الصحف، التي أوردت أسماء الأحرار الذين تطلب فرنسا رؤوسهم.

ـ خبرٌ قديم.

ـ لكن نشر الخبر اليوم قد يكون له معنى..

- لعلهم يتوقعون أن تكون هنا في لبنان!.
- سيجربون كل الطرق في مطاردتنا وحصارنا.
- يجب أن نأخذ الخبر على محمل الجد.

وعلق الشيخ إدريس مازحاً:

- ونحن يا شيخ خليل أليس لنا إعدام؟..

ضحك الجميع، بينما قال الشيخ خليل، وهو يبتسم لهذه الدعابة، دون أن تزاوله ملامح القلق:

- يجب أن تسرع بالرحيل يا شيخ عز الدين، فحياتك في خطر.. وبيروت كما تعرف تحت سيطرة الفرنسيين، وهم اليوم أكثر حماقة ولؤماً، انتشاء بالنصر الذي حققوه في دمشق.

مسّ ذكر دمشق شغاف قلب الشيخ عز الدين، الذي يتفطر ألماً لما آلت إليه أحوالها.. غاب في شرود قصير، ما لبث أن قال بنبرة تفيض بالثقة والحزم:

- لدي مشوار مهم قبل ذلك.
- إلى أين؟
- إلى دمشق.

حدجه الشيخ خليل في حيرة، وتساءل أكثر من صوت:

- إلى دمشق ؟!.
- لا بد من زيارة دمشق قبل الرحيل إلى فلسطين.
- ولكن!..
- أريد أن أعرف أولاً بماذا يفكر رجال دمشق!.

وأشفق الرجال على الشيخ عز الدين.. لم يصدقوا أنه قد وصل إلى بيروت، وها هو الآن يعيد الكرة، ويخوض في الخطر من جديد!.

## ١٣

عندما فتح الباب، فوجئ برجل ملثم لم يعرفه..

ـ من الأخ «بلا صغرى»؟.

ـ صديقٌ قديم.

دقق في عينيه، وقد أخفى اللثام الأبيض معظم وجهه!.

ـ الصوت ليس غريباً..

ـ كأني بك قد نسيت أيام الأزهر يا عز الدين يا تنوخي!..

أعـوامٌ طويلة انهارت في لحظـات، وأضاءت روعة اللقـاء ذاكرة كانت الأحداث قد شـغلتها عن الماضي الجميـل.. والتحم الصديقـان في عناق حميم.. ولمعت العيون الدامعة في عتمة الليل، واندلعت الذكريات، وحضرت أماكنهـا وأطيافهـا، وكأنهما في رحلة تتجـاوز الزمان والمـكان.. القاهرة والأزهر ورواق الشـام ومسجد سيدنا الحسـين وقهوة الفيشـاوي ومغامرات الشباب البريئة الحالمة..

واحتواهما صحـن الدار أمـام البحـرة المحاطة بالـورود وأصص الزريعة الشـامية، وعطـرت رياحين الفل والياسـمين مجلس الصديقين المسكونين بالشـوق والحنين.. وهتف الشيخ عز الدين التنوخي من بين الضحكات:

ـ أتذكر صينية الهريسة يا عز الدين؟

ضحك القسام..

ـ الله عليك يا تنوخي..أما زلت تذكر؟

ـ وهل أنسى؟.. لولا الهريسة لما تخرجنا من الأزهر!.

ـ كانت أيام..

وهز التنوخي رأسه وهو نشوان، وراح يستذكر المشهد الطريف كأنه يحدث الآن!.

ـ إي والله.. ذكريات جميلة لا تنسى.. ما زلت أذكر الرهبة التي انتابتني، وأنا أرى والدي ـ رحمه الله ـ يفاجئنا، ونحن خلف صدر الهريسة.. أنا أقطع الهريسة إلى مربعات، وأنت تصيح وتنادي بأعلى صوتك.. «هريسة.. هريسة».. «تعال وتذوق بسبوسة الشام».. يومها استحيت من الوالد الله يرحمه، وهو يهتف بي في إنكار:

ـ أتبيع الهريسة في الشوارع ياولد؟.

قاطعه القسام ضاحكاً..

ـ فرميتني بالتهمة، لتبرّئ نفسك..

قال التنوخي:

ـ أليست هذه الحقيقة؟.. أنت صاحب الفكرة، وأنت الذي أقنعتني بها.. أنسيت كيف ضاقت بنا ذات اليد، فاخترعت قصة الهريسة، وجعلتنا نخرج عصر كل يوم لنبيع الهريسة الشامية قرب الأزهر.

ـ أجل، لكن والدك ـ رحمه الله ـ كان حكيماً وعاقلاً.. لا زلت أذكر ماذا قال لك بعد ذلك.

تنهد التنوخي:

ـ إيه، رحمه الله.. كلماته مازالت ترنّ في أذني حتى الآن..

ـ قال لك «لقد علمك صديقك الحياة».

واستدرك التنوخي فجأة:

ـ أخذنا حديث الذكريات، ولم تقل لي ما أخبارك الآن؟

ـ كما ترى.. رجل يجازف برأسه.

ـ رأس ثمين كما سمعت.. الفرنساوي رصد مكافأة كبيرة لمن يقطفه..

- لن يزيل الرقبة إلا من وضعها.

وأردف القسام بنبرة تفيض حسرة ومرارة:

- قل لي أنت. ما هي أخبار الشام؟.

تلونت ملامحه بالحزن..

- ماذا أقول لك يا صديقي؟..

- أخبار ميسلون تملأ الدنيا.. ألم يكن من الممكن أن تستمروا في المقاومة؟

- ميسلون كانت صرخة في وجه الغزاة، لكنها ضاعت وسط ضجيج المدرعات والمدافع الفرنسية.. ورغم أنها كانت ضرباً من البطولة النادرة، لكنها لم تمنع الغزاة.. فعل الرجال ماعليهم.. كانوا قوة صغيرة، أعدّت على عجل، قوامها ماتوفر من الجنود وبعض المتطوعين.. خرجوا بما تيسر لهم من بنادق وخناجر وعصي.. يقودهم البطل يوسف العظمة، وزير الحربية.. الرجل فضل الموت على أن يرى أقدام الغزاة تدنس الشام.

- رحمه الله..

- العظمة كان معترضاً على قرار الملك فيصل بحل الجيش.. قال أنا مستعد لأن أُسحق تحت جنازير مصفحات فرنسا، ولا يقال أن دمشق سقطت، دون أن تجد من يدافع عنها.

هتف القسام وقد غلبه التأثر:

- رحمه الله ورحم شهداء ميسلون.. الفاتحة على أرواحهم..

وغاب الرجلان في تلاوة خاشعة لفاتحة الكتاب، وما لبث القسام أن تساءل بإلحاح:

- ماذا ستفعلون الآن؟.. هل سنسكت على فرنسا، وهي تدنس سوريا من أقصاها إلى أقصاها؟..

صمت التنوخي للحظة، وقد حار جواباً:

ـ ماذا نفعل؟. الرجال يفكرون ويخططون، لكن ما في اليد حيلة!.

ـ لا تقل بأنك يائس؟.

أنكر التنوخي:

ـ معاذ الله.. لكن الأمر كما أرى أكبر من طاقة الأمة في هذا الوقت.. هذه فرنسا يا شيخ عز الدين، وقد جربتها في الساحل.. الثورة تحتاج لإعداد كبير.. لاسيما هنا في مدينة كدمشق.. بعض الرجال لاذوا بالغوطة، وشكلوا بعض المجموعات، لكن الأمر أكبر من اصطياد جندي هنا، واعتراض دورية هناك.. الفرنسيون لم يأتوا في نزهة.. عادوا يحملون خريطة جديدة للمستقبل.. هل تعلم ماذا فعل غورو لما وصل إلى دمشق؟

طأطأ القسام رأسه وقال في مرارة:

ـ سمعت.

تابع التنوخي، وقد لمعت في عينيه رقاقة من الدمع:

ـ اتجه إلى قبر صلاح الدين، وأشهر سيفه باتجاه القبر، وقال: يا صلاح الدين.. قلت لنا أيام حروبك ضد الصليبيين، أنا خرجنا من الشرق ولن نعود إليه، وها قد عدنا، فانهض لترانا هاهنا..

حوقل القسام، وهز رأسه في أسى..

ـ يعودون وهم يحملون ثأرهم القديم، والأمة نائمة ولا موقظ!.

ـ ضريبة الضعف.. ماذا تفعل؟

كان الغضب يغلي في عروق القسام، قال وهو يصر على أسنانه من الغيظ:

ـ ولكن أين الأمة؟.. أين الناس؟.. أين الرجال؟.. هل نحن ضعاف إلى هذا الحد؟!..

- الناس مساكين يا شيخ عز الدين.. رأيت البسطاء والقبضايات وطلاب العلم وهم يشكلون العصابات، ويواجهون رصاص الفرنساوي بصدورهم.. والمشايخ والله ما قصروا.. اجتمعوا في ساعات، والتحقوا بيوسف العظمة.. لكن المشكلة أن الأمة ضعيفة والأعداء متفوقون.. حاربوا بكل ما يملكون.. قالوا لي أن بعضهم قاوم بالأراجيل والعصي.. أوقفوا الزحف الفرنسي ست ساعات على ضعفهم وقلة حيلتهم.. ولكن.. الفرنساوي حسم المعركة بما لديه من قوة وبطش.

همس القسام بمرارة:

- الله يسامح العصملّي.. ترك الخلافة تتحول إلى إقطاع عريض للولاة والفاسدين، فنخر السوس في أوصال الدولة.. هذا المصير في بالي منذ أن زرت اسطنبول منذ سنوات.. اكتشفت أن الدولة العثمانية صارت مارداً بليداً، عيناه في أعلى رأسه.. يمشي فيهدّ الأرض بثقله، لكنه يمشي على غير هدى، وقد يقوده الصغير والماكر.. لذلك أوقع بها الأجانب بسرعة وسهولة، وهاهم يهددون الخلافة في عقر دارها، ويغتصبون بلادنا قطعة قطعة..

قال التنوخي وهو يلوح بقبضته في الهواء:

- العرب كان يمكن أن يكونوا بديلاً للعثمانيين..

- ولكن ما الذي حدث.. هاهم يقعون ضحية خدعة ماكرة.. بريطانيا وفرنسا ضحكتا على الشريف حسين، وباعتاه وهماً، وها هو ابنه الأمير فيصل يهرب بعد إنذار غورو، لتُحكم فرنسا قبضتها على سورية الشمالية.. وهاهم الإنجليز يحتلون فلسطين، ويَعدون اليهود بوطن ودولة هناك..

زفر التنوخي بحرقة:

- اليهود هؤلاء حسبة لوحدهم..

- منذ متى وهم يحلمون بفلسطين؟..

ـ اســألني أنا فقد عشــت في فلسطين ســنوات كما تعرف، وشاهدت بعض مستعمراتهم، وقرأت عن خطرهم..

ـ ومن أجل هذا جئت إليك..

رمقه التنوخي بطرف حائر:

ـ لم أفهم!.

ـ سأشــرح لك.. ولكن ألا تلاحظ بأني قادم من سفر بعيد، وأنك لم تقدم لي شيئاً بعد!..

ضحك التنوخي وقد داهمه الحياء. قال وهو ينهض:

ـ أخذنا الحديث.. لا بد وأنّهم قد هيؤوا لنا العشاء..

# ١٤

النسمات الرقيقة المفعمة برائحة الياسمين، أيقظت في القسام أشواقاً قديمة، وحملتـه إلى بعيد.. إلـى حضن الأسـرة التي افتقدهـا وافتقدته، فباعـدت بينهما ظـروف الجهـاد الذي لـم يهدأ، منـذ أن نزلـت قوات الفرنسيين على الساحل السوري، ودنسته.. وشعر بالحنين يملأ روحه لأيام خلت.. للزوجة الحبيبة الصابرة.. للبنيات اللواتي شغف بهنّ.. لدفء الأسرة ولمّة الأهل.. وتخيل بناته الأثيرات، وهنّ يلعبن حوله في فناء الدار، فنفرت من عينه دمعة شوق، مسحها على عجل..

- حسبنا الله ونعم الوكيل..

همس بهـا في هدأة هـذا المسـاء الدمشـقي، الذي انتزعـه من فم الخطـوب، ليطبع قبلة علـى جبين مدينة حزينـة، انتهك الغـزاة حريتها، وأخضعوها بالغدر والعدوان..

وراح يتأمل شجرة الياسـمين، التي تألقت عن يمينه بأزهارها البيضاء، فقطف منها زهرة، وراح يستنشـق عبقها الفواح، فشعر بلحظة انتشاء ندر أن راودته منـذ زمن، وهو يخوض من خطـر إلى خطر، فأغمـض عليها عيناه، ليحتفظ ببعض السكينة التي بثتها في أعماقه، فإذا بروحه المضمخة بالشوق، تقلع من جديد، تتسـلل ثانية إلى هناك.. إلى الحفّـة، لتحضن قلوباً تخفق بحبه، وتلثم وجوه بنيات كزغب القطا، علّها تتسـرب إلى أحلامهن، لتقرئهن السلام، من أب لم تسعفه الأيام ليكون معهنّ، كما ينبغي للآباء أن يكونوا..

ولم يلبث الشـيخ عز الدين التنوخي أن عاد بطبق كبير من النحاس، اكتظ بأصناف الطعام.. وكان خبز الصاج قد نضج، فملأ الجو برائحة تثير الشهية..

- سمّ بالله يا شيخ عز الدين.. «فضلة خيرك».

- عشاء شهي فعلاً، ولكن لم يعد للزاد طعم هذه الأيام..

ضحك التنوخي :

- ساعة فساعة يا شـيخ عز الدين.. هذا بيض مقلي بالسمن العربي، عليك به قبل أن يبرد.

- بل دعني آكل من هـذا «المكدوس»، فله عنـدي معزة خاصة، لأنه يذكرني بأيام الأزهر، عندما كانت الوالدة ترسـل لـك منه القطرميز تلو القطرميز.

ضحك التنوخي:

- أتذكـر أول قطرميـز وصلنـي.. كانت وليمـة لم تشـهدها مصر المحروسة من قبل.. لقد سـطوتم على كل القطرميز يومها، ولم أذق منه سوى مكدوسة واحدة..

ضحك القسام:

- حتى المصريـون الذين لا يعرفون ماهـو المكـدوس، أقبلوا عليه، وكأنه فتة العيد.. كان شهياً فعلاً.

واستدرك التنوخي:

- كنت تريد أن تسال شيئاً عن فلسطين؟

- بل عن أشياء؟.

- ما سر هذا الاهتمام؟

- قررت اللجوء إليها.

فوجئ التنوخي بالخبر، واعترت ملامحه الدهشة..

- إلى فلسطين!.

- هذا خياري الأخير.

- ولكن..

- اســمع يا تنوخي.. جئتك وفي بالـي أمريــن.. الأول أن أعرف منك ماذا يخطط رجال دمشق، فلعلي أجد بينكم دوراً نصل به ما انقطع من أمر الجهاد ضد الفرنســيين، وقد بددت لي هذا الاحتمال بما وصفته من تريث أهل الشــام في التحضير والتخطيط، وأنا الآن مطارد لا ينفع لي الركود، أما والأمور هكذا، فلم يعد أمامي سوى أن أتابع رحلتي إلى فلسطين، أبحث عن ملاذ حتى يحدث الله أمراً.

- فهمت. تريد مني بعض المعلومات.

- قبل المعلومات أريد منك شيئاً آخر، أرجو أن يكون في مقدورك..

صمت ورنا إليه باهتمام.

- تعلم أني وأغلب الإخوان الذين معي لانحمل وثيقة تدل علينا، وهذا قد يعرضنا للمخاطر في فلسطين.

راح التنوخي يســتعرض في ذهنه من يمكن أن يساعده في تحقيق هذا المطلب.

- معك حق.. عندي من يساعدنا في دائرة النفوس على تدبير الأمور، ولا أظنه إلا فاعلاً.. فقط أعطني الأســماء والمعلومات، وســوف نذهب إليه بها بعد الفجر، قبل أن يذهب إلى عمله..

نظر إليه القسام في دهشــة، وكأنه لم يتوقع أن يستقبل صديقه الأمر بهذا التفاؤل!.

ضحك التنوخي:

- هذا أقلّ ما يفعله قاعد مثلي لمجاهدين سبقوني بالواجب.

- حاشا لله أن تكون من القاعدين.

ثم استدرك قائلاً:

ـ والآن قل لي.. عشت في فلسطين ســنوات مع العائلة، وتعرف عنها الكثير.. حدثني عن تلك الديار؟

قال التنوخي، وهو يصب الشاي لضيفه العزيز:

ـ تعلم أنّ الإنجليز احتلوا فلسطين قبل سنوات، لكنّ ما يقلق أكثر من الإنجليز اليهود.. يتزايدون بسرعة تلفت الانتباه..

عاث القلق في عيني القسام..

ـ هذا يعني أن وعد بلفور يجري تنفيذه على قدم وساق.

ـ وأكثر مما تتوقع.. لديهــم خطة، وعندهم هدف.. تحركهم المنظمة الصهيونية التي تشكلت من عتاة اليهود وأكثرهم تعصباً، ويمولهم أثرياؤها الذين يملكون أموالاً طائلة.. واستطاعوا بألاعيبهم السياسية أن ينتزعوا من بريطانيا هذا الوعد بإقامة وطن لهم في فلسطين.

تململ القسام في مكانه، وجمدت اللقمة في فمه وهو يصغي..

ـ بعد هذا الوعد نشــطت الحركة الصهيونية في أوربا، وراحت تمول رحلات الهجرة.. تزين لليهود أن يهاجروا إلى بلاد الســمن والعســل التي ســتؤول إليهم، وألقوا في خلدهم أنها أرض بكر فيها بعض العرب الذين لا يؤبه لهــم، وانطلت هذه الدعاية على أشــتات اليهود هنــا وهناك، فصاروا يهاجرون بالمئات..

وأستأذن التنوخي لحظة بعد أن سمع طرقاً على النافذة، وما لبث على أن عاد بعصير التوت الشامي..

ـ الأهل يظنون أنّا انتهينا من الطعام.. لا يعرفون أنا نتكلم أكثر مما نأكل..

ـ اجلس أرجوك.. وأكمل..

قال التنوخي، وهو يضع كأس العصير أمامه..

ـ تذكرت شيئاً.. نفس الكلام الذي قاله غورو في دمشق متحدياً قبر صلاح الدين.. قاله الجنرال «اللنبي» في القدس، كما روى لي أحد رجالها.. قال: «الآن انتهت الحروب الصليبية ياصلاح الدين».

وسمع القسام لغطاً من خلف السور، فنظر إلى صديقه التنوخي قلقاً في فضول..

ـ لقد حان وقت إغلاق باب الحارة القريب من هنا، وأحدهم يحاول أن يؤخر إقفال الباب، بانتظار عزيز يتوقع وصوله.. قصة كلّ يوم، فلا تهتم..

ـ المهم أن يفتحوه في وقت مبكر..

ـ اطمئن. ستخرج.. يفتحونه كلّ يوم بعد صلاة الفجر.

وعاد الصديقان إلى حديثهما، فتساءل القسام، وقد غلت الدماء في عروقه:

ـ والعرب في فلسطين ماذا يفعلون؟.. عليهم أن يتحركوا لصدّ هذا الكيد والتدبير.

ـ أهل فلسطين لم يسكتوا.. خرجت مظاهرات في القدس ويافا والخليل.. هناك شباب يسمونهم الفدائية يهاجمون المستعمرات أحياناً.. لكن وجود الإنجليز يجعل الأمور أسوأ.. عندما يتحرك اليهود تحت حماية بريطانيا العظمى، فماذا يمكن لأهل فلسطين المساكين أن يفعلوا؟..

لأول مرة يدرك القسام خطورة الميدان الجديد الذي يختاره!. وصمت برهة وهو غارق في أفكاره، يتأمل في هذا التحدي الجديد الذي تقوده إليه الأقدار.. ورسمت كلمات التنوخي في خياله مستقبلاً غامضاً لأمة تفرقت بها

السبل، وتكالبت عليها قوى الغدر والعدوان، ودفع بطبق الطعام بعيداً عنه، وأطرق في أسى..

- أكمل يا عز الدين. لم تشبع بعد!.

تمتم القسام في ضيق:

- حتى طعام المسلم يا أخي صار اليوم خطيئة!.

# ١٥

عندما أظلم الليل، توقف أحد قبضايات بيروت بحنطوره قرب المسجد العمري، وتلفت حوله متظاهراً بالبحث عن عنوان ضاع عنه، ليتأكد من أنّ أحداً لا يتابعه، وعندما اطمأن إلى المكان، أشار إلى حنطور ثانٍ يقف عند أول الطريق، فالتحق به على عجل.. وما لبث أن طرق القبضاي باب المسجد ثلاث طرقات، ففتح له على الفور..

كان الشيخ خليل يقف مع الشيخ عز الدين وجماعته داخل المسجد، ينتظرون ساعة الصفر.

ونبه الشيخ عز الدين رجاله ليستعدوا..

ـ تأكدوا من أوراقكم يا إخوان..

قال الشيخ عارف حنوف، وهو يطمئن على وثيقته التي دسها في عبّه..

ـ سامح الله الأستاذ التنوخي.. كيف لم ينتبه إلى الفرق بين حنّوف وحنفي.. أصعب شيء على المرء أن يعيش مع اسم ليس له.

ضحك الشيخ خليل:

ـ تفاءل بالخير يا شيخ عارف.. سيأتي يوم قريب إن شاء الله، وتعود إلى بلدك، لتصلح ما أفسدته العجلة في مثل هذه الظروف.

وقال الشيخ عز الدين مداعباً:

ـ خذها على سبيل التورية يا شيخ محمد.. حنفي، حنّوف.. المهم لديك وثيقة تدفع بها عنك الشكوك والريب في مقامك الجديد، ورب ضارة نافعة..

علق الشيخ خليل:

ـ جزى الله التنوخي عنكم خير الجزاء.. لولاه لما حصلتم على هذه

الأوراق المهمّة.. كان ذكاء منك يا شيخ عز الدين أن تسعى إليه.

قال الشيخ عز الدين:

- بل قل كان توفيقاً من الله.

وهمس الشيخ خليل، يستحثهم:

- أسرعوا يا إخوان..

ثم وهو يتوجه للشيخ حنوف مداعباً:

- هيا يا شيخ حنفي إلى الحنطور.. فليس لديكم وقت كثير.

ردّ الشيخ عارف مستسلماً لقدرٍ تلاعب باسمه:

- أرأيتم.. لقد لبسني الاسم الجديد منذ الآن.

ابتسم الرجال، بينما قال الشيخ خليل، وهو يحول الدعابة إلى جد:

- يجب أن تتعود عليه طيلة غربتك يا شيخ حنفي، حتى لا يثير اختلاف الاسم الحقيقي عن المكتوب في الوثيقة الشكوك حولك.

حوقل مستسلماً:

- صدقت ياشيخ خليل.. لم يعد لي إلّا أن أصبر على حنفي هذا الذي ابتليت به!.

ووقف القسام يودع الشيخ خليل بامتنان.

- أشكرك على حسن الضيافة يا شيخ خليل، وجزاك الله عنا كل خير..

ضمه الشيخ خليل، وتمتم يغالب البكاء:

- هذا أقل من الواجب يا أبا محمد.

- سأعتمد عليك في ترتيب رحلة الأهل..

- لا تقلق. سأرتب الأمر على ما يرضيك بعون الله..

- والبنادق؟..

- أفكر في إرسالها إلى الشام.. فشباب دمشق ينتظرون منّا دعماً ومدداً.

- خيراً تفعل.

واستحثهم القبضاي..

- يا إخوان.. الوقت قصير، والجواسيس في كل مكان.

التحق الشيخ القسام بالحنطور، الذي انطلق يقطع أزقة بيروت بسرعة وحذر، بينما تحرك الحنطور الثاني على مسافة منه..

وراقب الشيخ خليل الركب بعينين دامعتين، يودع الرجال إلى قدرهم الجديد.. لقد أحب الشيخ القسام، ورأى فيه عزة الإسلام، ورمز الكرامة والإباء..

وغاب الرجال خلف العتمة، لكن عيني الشيخ خليل ظلتا معلقتين بهم.. هذا الظلام الذي ابتلع الرجال الآن، يبتلع أمة بكاملها، ليضعها على أعتاب مستقبل غامض، تحفّه التحديات.. وتنهد الشيخ خليل وهو يحوقل ويحتسب.. «الأيام حبلى بكل سوء، فما يحدث أكبر من قدرة هذه الأمة على مواجهته»..

نفس الخاطر كان يراود القسام، الذي كان مشغولاً بما سمعه من الشيخ التنوخي عن فلسطين.. ليس صدفة أن يعطي «غورو» و«اللنبي» لغزوهما نفس العنوان.. بل هو الكيد المدروس والحقد الدفين، الذي يحرك هؤلاء لقهر هذه الأمة، وتقطيع أوصالها، ثأراً لهزيمتهم في الحروب الصليبية.. وزادوا في الكيد إطلاق حلم اليهود في إقامة وطن غريب على أرض فلسطين..

وأرسل تنهيدة تشي بما يعتمل في صدره، وهو يخوض في الظلمة مع من معه في طريقهم إلى صيدا، حيث ينتظرهم المركب الذي سيحملهم إلى عكا..

كانت عيون الرجال تودع حارات بيروت وأزقتها الجميلة.. وحركَتْ الأضواء التي تطل من النوافذ والبيوت الوادعة أشجاناً وذكريات.. وقرصهم الحنين

إلى الأهل والأحبة الراقدين في تلك البيوت الدافئة، التي حرموا من أنسها، وفارقوها قسراً وظلماً، فغرقوا في الصمت الحزين، وتسربلت أرواحهم بالشوق والحسرة، ولولا عقيدة راسخة لا تتزعْزع، بأنهم على الحق، وأنهم قد اختاروا طريقهم ومصيرهم عن سبق إصرارٍ لا يلين، لكانوا انطلقوا من ساعتهم عائدين إلى تلك الديار..

ووصلوا إلى صيدا قبيل الفجر.. ترجلوا عند الشاطئ، وراحوا يتأملون المكان.. كان المركب الذي سيقلهم إلى عكا يتهادى فوق الماء، وكأنه يدعوهم للمجهول..

وتوجه القبضاي إلى ريّس المركب:

- الشيخ خليل يوصيك بالشباب.

- على راسي الشيخ خليل والشباب كلهم.. قل له بالحفظ والصون.

وودّع الرجال القبضايات الذين حملوهم إلى صيدا بامتنان، لكنهم لم يبرحوا، وظلوا ينتظرون المركب ريثما يغادر. بادرهم القسام:

- «مشكورين يا رجال». انطلقوا راشدين، فها نحن قد وصلنا بسلام، والحمد لله.

هتف أحدهم:

- لا والله لا نتحرك حتى نطمئن عليكم.. الشيخ خليل أوصانا بألّا نترككم حتى تغيبوا في البحر.. ولو ياشيخنا.. نحن رجال مثلكم، ونعرف الواجب.

وسأل الشيخ علي الحاج عبيد أحد القبضايات قبل أن يقفز إلى القارب:

- متى يحين الفجر عندكم؟.

أجاب القبضاي، وهو يتأمل الأفق..

ـ هذا وقته.. قد يؤذّن في أيّ لحظة.

ـ فلننتظر قليلاً حتى نصلّي، ثم نبحر على بركة اللّه.

تدخل القبضاي محذراً، فيما يشبه السؤال؟..

ـ ألا تجوز الصلاة في المركب، وأنتم مبحرون ياشيخي؟

ابتسم القسام، وقد أدرك مرماه. هز رأسه موافقاً، وهو يرمقه بودّ..

ـ تجوز.

ـ إذا كان الأمر كذلك، فأرى أن تسرعوا الآن، وتصلّوا في الطريق.

وأبحروا على عجل، وهم يقلّبون في خيالهم كافة الاحتمالات.. وودعتهم صيدا بصوت الأذان النديّ، الذي لامس أسماعهم من بعيد، وهم يوغلون في البحر، فتوضؤوا وصلّوا كيفما استطاعوا، وراحوا يدعون اللّه في هدأة الفجر، وقد غمرتهم السكينة والاطمئنان إلى قدر اللّه..

# ١٦

بدأت خيوط الشـمس تضيء الكـون رويداً رويداً.. كان المشـهد رائعاً، ذكّرهم بالساحل الحبيب، الذي غادروه مرغمين، وبأهلهم الذين يفتقدونهم هناك، وحمل الشيخ خالد حفنة من الماء، ولثمها بفمه!.

- أتشرب ماء البحر؟. تساءل الشيخ مالك القسام.

أجابه وهـو يرمق الأفق البعيد، الممتد فوق صفحـة الماء الزرقاء إلى حيث لا يعلم:

- بل ألثم ماءه، على أمل أن تكون قد لامسته يد حبيب هناك.

ضحك الشيخ حنفي:

- ماعرفتك شاعراً قبل الآن يا شيخ خالد!.

ضحكوا. ثم ما لبثوا أن غرقوا في الصمت والتأمل من جديد..

كان المسـتقبل بالنسـبة لهم غامضاً، ورغم أنهم تجاوزوا الخطر إلى حد كبير، لكنهم مازالوا يشـعرون بشـيء من الضياع.. فقـد حانت لحظة الحقيقة، وهاهـم يتحركون إلى أرضٍ جديدة لـم يخبروها من قبل، وحياةٍ جديدة لا يسـتطيعون أن يتخيلوا ملامحها في ظل غازٍ آخر، لا يقل قسـوة وعدواناً عن الغازي الذي نجوا للتو من قبضته.

وارتفعت الشـمس في السـماء، فنشرت الدفء، واسـترخت أجسادهم المرهقة من طول الترحال، والمركـب يهدهدها، وهو يتأرجح فوق الأمواج، وراحت الأجفـان الذابلة تغالب النـوم الذي عاث في العيـون، فتارة تغفو، وتارة تصحو، وتارة تغطّ في نوم عميق..

ومضى الوقت بسرعة.. وحانت من الشيخ عز الدين التفاتة إلى الأفق، فلمح شريط اليابسة من بعيد..

ـ لكأنّي ألمح فلسطين!.

قال صاحب المركب، وهو يتأمل المشهد:

ـ هذا شاطئ عكا. نحن نقترب..

وأراد الشيخ أن يبشر رجاله بقرب الوصول..

ـ وحّدوه.. استيقظوا ياشباب، واستعدوا لرؤية فلسطين.

استيقط الشيخ حنفي، وراح يرمق الأفق، وهو يفرك عينيه:

ـ أصبحنا وأصبح الملك لله، هانت بعون الله.

واستيقظ الجميع إلا الشيخ أحمد إدريس، الذي ظل مستسلماً للنوم، وهو يتكئ برأسه على حافة المركب، فتناول الشيخ القسام حفنة من ماء البحر، ورشقه بها مداعباً، لكن الشيخ أحمد الذي استيقظ عنوةً، استقبل الدعابة بكثير من الانزعاج، وقال غاضباً:

ـ هذا مزاحٌ ثقيلٌ لا أحبه!.

ضحك القسام:

ـ حقك علينا يا شيخ أحمد.. فقط كنت أريد أن أنبهك إلى أنّا على وشك الوصول.

لم يخفف اعتذار الشيخ من غضبه، قال متبرماً:

ـ لم أكن سعيداً بهذه الرحلة من أولها.

وخمّن القسام أن شيئاً قد عكّر مزاج الشيخ إدريس!.

ـ لعلك كنت تشاهد حلماً عكّر صفوك؟

تمتم بعصبية:

ـ كان يجب أن نجد طريقة، لنبقى حيث كنّا.

ـ كنت أظن أنّا قد حسمنا هذا الأمر!.

صمت الشيخ أحمد إدريس ولم ينبس. كان صريحاً وصادقاً، وقد قرر

أن يبوح بما يعتمل في صدره، قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة.. حقاً لم يكن سعيداً بهذه الرحلة منذ البداية.. منذ أن تجاوزت قدماه حدود تلك الربى الخضراء، التي شعر أنه ينتزع روحه منها مكرهاً ومقهوراً.. ثمّة صراع صامت كان يتفاقم في صدره، لكنه كان يخفيه أملاً في أن ينحاز في النهاية إلى الحل الذي ارتآه الرجال، وتعاهدوا عليه.. كان يحاول أن يرتاح من الصراع، الذي يحتدم في نفسه بين العودة والاستمرار، فلاذ بالنوم، بعد أن خاض في سرّه معركته الأقسى، وهو يرى قدماه تنزلقان إلى نهاية المطاف التي لا يريد، وما لبث الماء الذي داعبه به صديق جهاده القسام، أن أعاده إلى دائرة الوعي، ليواجه لحظة الحقيقة، التي لم يعد ينفع معها التردد.

وتمتم الشيخ أحمد إدريس، بعد أن عبّ نفساً عميقاً من هواء البحر:

ـ من البداية لم أكن مقتنعاً بهذه الرحلة. أشعر وكأني هارب من الجهاد!.

قال الشيخ القسام، يخفف عنه، وقد أدرك ما يعتمل في صدره:

ـ بل متحيزٌ إلى فئة ياشيخ أحمد..

ـ اذا كنا سنجاهد، فلنجاهد في البلاد التي نعرفها، ومع الرجال الذين نعرفهم.

قال الشيخ حنفي:

ـ جاهدنا حتى تقطعت بنا السبل.. ألم نتفق على الرحيل إلى فلسطين ياشيخ أحمد؟.

ـ وماذا سنفعل هناك؟

أجابه القسام:

ـ هل لديك حل آخر؟.

رد الشيخ أحمد إدريس، مدلياً بقراره الأخير:

ـ أكملوا رحلتكم إلى فلسطين، أما أنا فأريد أن أعود.

كانت صدمة أطاحت بهدوء الرجال، وكاد الشيخ أحمد إدريس أن يزعزع عزيمة البعض، فقد كان الجميع يشعرون بأن قلوبهم ما زالت معلقة بالأهل والبلد.. حتى القسام شعر بالارتباك للحظة، لولا أنه يكره التردد. قال بنبرة حازمة:

ـ لقد عقدتُ النية على التوجه لفلسطين، وتوكلت على الله، ولن أتراجع..

وكان يجلس على حافة المركب، فنهض، وقال وهو يرمق عكا التي كانت تدنو من المركب، وكأنها تشدّه إليها:

ـ مازال لديكم فرصة للتراجع، من أراد أن يمضي معي، فهذه فلسطين أمامكم، لا يفصلنا عنها سوى القليل، ومن أراد العودة، فالمركب عائد من حيث أتينا، وهو يعرف طريق العودة جيداً، فكروا ريثما نصل إلى هناك، وليتخذ كل قراره، ولا يقولنّ أحد بعد ذلك، أني أحملكم على ما لا تريدون.

كان القرار حاسماً، فبايع الجميع أميرهم على خيار فلسطين، ماعدا الشيخ أحمد إدريس، الذي ظلّ صامتاً، وعيناه معلقتان بأفق الشمال.

# ١٧

عندما دنا القارب من أسوار عكا، ضحك الشيخ حنفي، وأطلق تسبيحة باسمة.. التفت إليه الرجال في دهشة..

ـ أضحك الله سنّك يا شيخ حنفي!.

ضحك ثانية:

ـ ما الذي يُضحِكُك؟!.

ـ تذكرت نابليون عندما هزمته هذه الأسوار.. وبعد أن عجز عن اقتحامها، ألقى بقبعته من فوق السور حنقاً وحمقاً، وكأنه يقول بالشامي «عنزة ولو طارت».

ابتسم الشيخ ظافر:

ـ عجيب أمر هؤلاء الغزاة.. لا يتّعظون من الماضي، ولا ييأسون من المحاولة.. ديدنهم دائماً أن يكسروا هذه الأمة.

همس الشيخ خالد، وهو يتأمل أسوار عكّا:

ـ أخشى أنهم هذه المرة قد نجحوا.

امتعض القسام من نبرة اليأس، التي أحسّها في الكلام، قال وهو يهزّ سبابته، فيما يشبه التحذير:

ـ ينجحون فقط عندما يصيبنا اليأس.

ـ لكنهم اليوم أقوى مما مضى!.

قال القسام، وهو يضرب باطن كفه بحافة القارب، ويفركه بقوة:

ـ اليوم وغداً نحن أقوى، لأننا أصحاب حق.. صحيح أنّ الأجنبي اليوم أقوى عدةً وعدداً، لكنّ الذي جعله قوياً اليوم، يمكن أن يجعلنا أقوياء غداً.. لو ملكنا الإرادة.

ـ صحيح يا شيخ، ولكن..

ـ خبّئ «ولكن» هذه في صدرك، ولا تكثر من ترديدها، نحن على حق يا شيخ خالد.. هذا الحق هو الذي جعلك تترك حياة الدعة والسكون، لتجاهد بروحك ومالك وماهو أكثر، وهو الذي يحرك آلاف المجاهدين الآن في كل مكان دنسته أقدام الغزاة، ليحموا حقّهم المغتصب، وسيأتي ذلك اليوم الذي تتصاعد فيه روح الجهاد، وتتضافر فيه الجهود المخلصة، حتى تهزم الباطل، وتدحر الغزاة، وتعيد للأمة قوتها وهيبتها، هذا وعد اللّه وسننه الصارمة التي لاتتخلف..

كانت هذه الكلمات كافية، لتسكب الطمأنينة في قلوب الرجال، وتشدّ من أزرهم، وراحوا يتأملون الشاطئ الأزرق وهو ينسحب من تحتهم، ليُسلمهم إلى السور، وهبّت نسائم رقيقة، فاستسلم لها الجميع في انتشاء، وأحسّ الشيخ عز الدين في النسيم همساً ذكره بجبلة التي غادرها مكرهاً، وأبحرت خواطره نحو الشمال، حيث كانت البداية.. هذا الشاطئ الأزرق كم خضبته الدماء.. دائماً يداهمه الغرباء القادمون من الضفة الأخرى، ليزرعوا فيه الرعب، ويدنّسوه بأحقادهم وأطماعهم.. الفرنسيون والإنجليز والطليان وغيرهم.. كلهم يُعدّون أساطيلهم للسيطرة على هذه البحيرة، التي كان قدر هذه الأمة أن تعيش على ضفتها الشرقية..

وقال الشيخ خالد فجأة:

ـ ما رأيكم ياجماعة أن نستقر في عكا؟.

ـ ولماذا لا نتابع الرحلة إلى حيفا؟.

ـ لماذا حيفا؟!.

ـ أنا مع الشيخ خالد.. مع عكا.

أما الشيخ حنفي، فقد تعلقت عيناه بشفتي شيخه..

ـ عكا أم حيفا ياشيخ عز الدين؟.

قال القسام، وهو يمسد لحيته القصيرة بأصابعه، متفكراً:

ـ حدّثني الكثيرون عن حيفا.. فهي ميناء مهمّ، وفيها نهاية الخط الحجازي، ويؤمُّها التجار الشوام رائحين غادين، وقد نعرف منهم أخبار البلاد.

ثم أردف بعد لحظة صمت:

ـ لعلي أميلُ إلى حيفا، فلي هناك قريب وأصدقاء قد نعثر عليهم، فيساعدونا في معرفة البلاد وأهلها، ريثما نتلمس طريقنا هناك.

قال مالك القسام:

ـ سمعت أن القطار الحجازي يصل بين حيفا ودمشق وبيروت ومصر أيضاً.

ـ هذا سبب آخر يرجح عندي حيفا.

وأردف..

ـ لله درُّ السلطان عبد الحميد.. لقد وصل بسكة الحجاز بين ديار الإسلام، ومهد الطريق لوحدةٍ كان يرجوها، لولا هؤلاء الغزاة الذين يهدّدونها اليوم بعدوانهم ومكرهم الخبيث!.

# ١٨

ترجّل الرجال، وراحوا يتأملون الشاطئ، مأخوذين بهذه المدينة الساحرة، وتَقَدمَ الريّس يودع الرجال فرداً فرداً، فاستمهله الشيخ أحمد إدريس. تبادل الرجال نظرة حرجة. التفت إليهم بعيون دامعة..

ـ اعذروني يا جماعة، فقد قررت أن أعود..

وكان الشيخ القسام يحب الشيخ أحمد إدريس..

ـ لعلّي أنا السبب يا شيخ أحمد.. إن كان ذلك ما غيّر رأيك، فأنا أعتذرللمرة الثانية!.

اغرورقت عيناه، همس ولحيته تختلج:

ـ أنت أخي وأميري ياشيخ عز الدين، قاتلنا معاً، وحوصرنا معاً، وخضنا كل هذه الخطوب معاً، ولن أتركك من أجل مزحة، لكن أرجوك أن تعذرني، فأنا أشعر بأني سأخوض في بحر لا أتقن العوم فيه..

ـ تريث ياشيخ أحمد..

ـ اعذرني.. فقد عزمت على العودة، لأجاهد في الميدان الذي أعرفه.

ولم يكن أمامهم سوى أن يحترموا رغبته.

أراد الشيخ أحمد أن يقول شيئاً، لكن العبرات حبست صوته.. كان ممزقاً بين رفاق دربٍ يودّ ألّا يفارقهم، وبين وطن راعه أنه كاد أن يبتعد عنه، وهو الذي عقد العزم على ألّا يفارقه أبداً.

ومضى القارب به من حيث أتى، فاعترتهم كآبة لفراق الشيخ أحمد إدريس، وودّعوه بعيونٍ دامعةٍ، وقلب حزين.

# ١٩

في الطريق من عكا إلى حيفا، كان القسام غارقاً في الصمت.. لقد صدمه موقف الشيخ إدريس، وحرك في نفسه مشاعر كان يحاول تفاديها، حتى لا توهن من عزيمته.. لكم يتمزق الآن بين أرض يلوذ بها، وأرض غادرها مكرهاً، ولا يدري سوى الله، متى يعود إليها؟!..

واستأجروا عربة تقلهم إلى حيفا، فمضت بهم على الدرب الرملي المتعرج بمحاذاة الشاطئ، الذي كان يدنو من البحر حيناً، حتى تطأ عجلات العربة أمواجه المتراكضة، وتخوض فيها، وأحيانا يتمادى الموج، فيضرب العجلات بأجنحته، وكأنه يداعبها، مرحِّباً بهذا الركب القادم من شمال سوريا، ينشد الأمان في جنوبها.

وتغوص العجلات في الرمال الرطبة حيناً، فتسير العربة الهوينا، وكأنها هودج عروس يعبر كثبان الصحراء، وفي بعض الطريق كانت العربة تتفادى عبث الموج الذي لا ينتهي، وتمضي فوق رصيف الرمال البيضاء بسلاسة، فتصدر حوافر الخيل فوقها صوتاً رتيباً، أقربُ إلى معزوفة موسيقية، تدغدغ مع صوت الموج المتلاطم القادم من البحر أرواح الرجال، فتسليها.. وشخصت أبصارهم نحو الأرض الجديدة، يتأملون معالمها الساحرة، يحاولون قراءة ملامح المستقبل الغامض، الذي ينتظرهم بين جنباتها..

وكلما قطعت العربة مسافة نحو حيفا، كانت تطوي مسافة جديدة بين زمنين.. زمن جميل أفسدته الأحداث التي اضطرته للرحيل، ومستقبل غامض في ديار جديدة، كل ما يعلمه عنها أنها باتت ضحية لمكر الإنجليز، وهدفاً لصهاينة اليهود، الذين جاؤوها طامعين، تحت حماية بريطانيا العظمى، ليقيموا عليها وطناً لا يجوز!.

وذهبت نفسه حسرات على الأرض التي بارك الله فيها، حول مسرى نبيه عليه السلام، وشعر بالتحدي يستفزّ عقله ووجدانه.. وكان يجلس بجانب الحوذي الذي يقود العربة، فراح يجاذبه أطراف الحديث..

- من أين الأخ ياترى؟
- من اجزم.. قرب حيفا
- وأنتم؟..
- نحن من جبلة..
- جبلة؟.
- بلدة قرب اللاذقية في شمال غرب سوريا.
- الحمد لله على السلامة.
- كيف حيفا هذه الأيام؟..
- من الله بخير يا سيدنا، لكن.. الإنجليز «مش مصلين على النبي»..
- يبدو أنهم بدؤوا يكشرون عن أنيابهم؟..
- ربنا يهدّهم.. لا تستعجل يامولانا، سوف تملّ من سحنتهم.
- واليهود؟.

تنهد السائق..

- ربنا يكفينا شرهم..
- سمعت أنهم يثيرون المشاكل.
- أكثر مما سمعت.. انظر هناك.

وأشار إلى بناء أشبه بالقلعة، يقوم على سفح تلة مرتفعة..

- ماذا هناك؟
- كومبانية يهودية.
- تقصد مستعمرة..

ـ البعـض يســميها كومبانيــة، والبعض يســميها مســتعمرة.. المهم ما يجري في داخلها!.

ـ هل دخلت إلى هناك؟

ـ لا يسمحون لأحد بدخولها!..

ـ لماذا؟..

ـ لو كانت نيتهم طيبة لما أغلقوها في وجه العرب.

مال القسام إلى الأمام، وركز انتباهه باتجاه المستعمرة، يتأملها بغيظ!

ـ كل هذه مستعمرة؟

ـ هناك ماهو أكبر!.

ـ هذه بلدة بحالها!.

ـ يبنون الآن العديد منها..

ـ هل يفعلون ما يريبكم منهم؟

ـ يفعلون كل ما يخيف ويثير الريبة!.

ـ مثل ماذا؟.

مال الرجل على الشيخ القسام، وقال بلهجة تنمّ عن الغضب:

ـ يحاولون الاســتيلاء على حائط البراق.. حائط الأقصى الشــريف.. يدّعون أنه تبعهم.

اكفهر وجه القسام..

ـ أَوَصَلَتْ الأمور إلى هذا الحدّ؟!.

هزّ السائق رأسه بمرارة:

ـ هناك ماهو أخطر. بدؤوا يتسلّحون.

ـ يتسلّحون؟!

ـ علناً يا شيخ.

ـ شاهدتهم؟.

قال السائق يؤكد ما ذهب إليه:

ـ لديهم عصابة يسمونها «الصهيونية» هاجمت العرب الشهر الماضي في القدس والخليل..

ـ وقع قتلى؟.

ـ استشــهد أربعة من العرب، هذا غيــر الجرحى.. منــذ ذلك اليوم والناس في كل البلاد «قلقانين»..

ـ وبعد..

ـ من كان يظــن أن يهوداً يجتمعــون للصلاة، والســلاح الغادر تحت ثيابهم؟.. كانت مجزرة ياشيخنا.

ـ هم كثير؟

ـ عددهم «مش قليل».. وهم يتزايدون.. قف على ميناء حيفا أو يافا، وتفرّج ياسيدنا.. كل يوم يصل فوج جديد.. ثم لا يلبثون أن يختفوا في هذه الكومبانيات، التي تســميها حضرتك المســتعمرات.. كأنّهم يشــمّون رائحة بعضهم البعض..

كان الرجال في الخلف يصغون للحوار باهتمام، وتدخل الشــيخ حنفي، وقد أثار الحديث انتباهه:

ـ لا أحد يشــمّ رائحة أحد يا أخ. هذه عصابة ولها زعيــم!. لابدّ أنّ هناك من يدعمهم، ويخطط لهم.

التفت الحوذي، يتعرف على المتحدث..

ـ اطمئن.. شــبابنا «مش ساكتين».. شــباب لا يدري عنهم أحد، يسمّونهم «الفدائيــة».. يخرجون لهم في الليل.. يهاجمــون الكومبانيات، ويقلقون راحتهم، حتى يعرفوا أنهم غرباء، وليس لهم خبز في هذه البلاد..

وقال ظافر القسام لعمّه:

- هذه أول مرّة أسمع عن الصهيونية.. من هؤلاء؟

- يقصد الحركة الصهيونية التي تمول اليهود، وتدفعهم للهجرة إلى فلسطين..

- ولماذا سموها الصهيونية؟

- نسبة إلى جبل في القدس اسمه صهيون، وتسمّوا كذلك، أملاً في العودة إلى فلسطين.

قال الشيخ حنفي «مازحاً»:

- الحمد لله أنهم لا يعرفون أن هناك جبلاً في اللاذقية اسمه «صهيون».. لكانوا طالبوا بالعودة إلى اللاذقية أيضاً.

ضحكوا، بينما استراح الشيخ القسام برأسه إلى الخلف منسحباً من الحوار، وغاب في خواطره يتأمل في الكلام..

«ثمة بوادر ثورة تضطرم تحت الرماد.. هذه الأرض لا يمكن أن تخضع لغاصب.. ثمة حكمة أزلية لا يستوعبها الطغاة.. الظلم هو الوصفة السحرية للغضب والثورة.. لكأنّ الرجل وهو يتكلم عن فلسطين تحت ظلم الإنجليز، واستفزازات صنائعهم من اليهود، يتكلم عن سوريا تحت عدوان الفرنساوي وظلمه»..

ولاحت دورية بعيدة من الخيالة الإنجليز، فنبههم الشيخ خالد..

- انظروا هناك!.

داخل الرجال قلق، أخفوه عن السائق، فلم ينبسوا، بينما تأهب القسام لمواجهة الموقف.

وعلق سائق العربة:

- انتظروا. سترون منهم الكثير.. «الله ياخدهم ويخلّصنا من شرهم».

وسأله الشيخ عز الدين:

ـ تراهم ماذا يفعلون هنا؟

ـ كما يفعلون كل يوم، يتجولون في الشوارع والقرى، يستعرضون قوتهم، حتى يهابهم الناس.

واستدرك الرجل يسأل:

ـ يبدو أنكم أول مرة تزورون فلسطين؟

أجاب القسام بحذر:

ـ صدقت..

ـ جئتم للعمل؟..

ـ سمعنا كثيراً عن حيفا، وأن فيها فرصاً للكسب، فقلنا نجرب حظّنا فيها.

ـ اللّه يوفقكم.. حيفا فيها شغل كثير، لولا هؤلاء اليهود الذين صاروا يزاحمون العرب على لقمتهم.

ووصلت دورية الخيالة، حتى صارت في محاذاة العربة، فراح قائد الدورية يتأمل ركابها، وظل يراقب العربة بعد أن تخطته مدّة، مما أثار حفيظة الرجال الذين ظلّوا ينظرون للدورية بطرف قلق، مشفقين من أن توقفهم، وتتطفل بالسؤال عن هوياتهم ومرادهم.

وتنفس الشيخ الصعداء، وهو يشعر أن الأمور تمضي بسلام.. لقد ذكّرته هذه الدورية بظل انجلترا الثقيل الذي مقته يوماً، وعانى منه في مصر أيام دراسته في الأزهر..

«ها هي بريطانيا العظمى تستفز مشاعرك ياعز الدين، لطالما أثار وجودها في مصر حنقك وغضبك من قبل.. لماذا لا يتركنا هؤلاء الطامعون نعيش حياتنا كما نريد؟!. يتقاسمون بلادنا كما يتقاسمون صينية الهريسة، التي كنت أبيعها أنا والتنوخي على باب الأزهر.. هذه لي، وهذه لك..

بريطانيا في مصر وفلسطين وشرق الأردن والعراق وعدن، وفرنسا في الشام ولبنان وبلاد المغــرب، وإيطاليا في ليبيا.. والآن اليهــود!.. والله أعلم من سيستوطي حائطنا بعد..

وأشار حوذي العربة إلى بعيد..

ـ انظر يا سيدنا.. هذه مستعمرة أخرى..

نظر القسام باتجاه المستعمرة، والغيظ يأكل صدره!..

«مستعمرة هنا، ومســتعمرة هناك، وأسوارٌ غامضةٌ تخفي وراءها أطماعاً وأســراراً.. لطالما عاش اليهود بيننا معززين مكرميــن.. لكنّهم هذه المرة يأتون وقوداً لخطة خبيثة، حبكتها الحركة الصهيونية مع الإنجليز، فأقنعتهم بالتوجه إلى فلســطين لإقامة وطن لهم، وهاهم يتسربون بصمت، ليتجمعوا في جزرٍ معزولةٍ يلفّها الغموض..

ماذا لو اســتمرت هذه المســتعمرات في النمو والتكاثر؟.. من يضمن نواياهم وأفعالهم، وهم يعلنون سلفاً أنهم قادمون لبناء وطن.. وكيف يمكن لقوم أن يقيموا وطناً في قلب وطن، دون أن يمزقوه ويدمروه» ؟!..

استفزه السؤال، وروّع مخيلته بصورٍ قاتمةٍ للمستقبل!!.

## ٢٠

وصلوا حيفا بعد الظهر بقليل، وقد استبدّ بهم الجوع، وما أن توقفت بهم العربة في ساحة الحناطير قريباً من مسجد حيفا الكبير، حتى لاذوا بمطعم صغير، وتناولوا فيه طعامهم..

وقال الشيخ ظافر القسام:

ـ ما رأيكم أن نستأجر غرفة في فندق أو خان.. حتى نرتاح قليلاً، ونتدبر أمورنا بهدوء؟

قال الشيخ عز الدين:

ـ لدي فكرة أخرى قد تنفع..

ـ ما هي؟..

ـ دعونا نذهب إلى المسجد أولاً.. نصلي ونرتاح قليلاً، ثم نبحث عن مأوى..

ـ ولكن..

ـ على الأقل نتعرف على أهل المسجد، فقد نضطر لأن نبيت ليلتنا فيه إن لم نجد مأوى..

كان الاقتراح معقولاً، في بلد لايعرفون فيه أحداً.. فتوجهوا إلى مسجد حيفا الكبير في الجرينة، وأسرعوا إلى الموضأ، فاسترجعوا بالوضوء بعض نشاطهم.. ثم صلّوا الظهر، وجلسوا قرب المحراب، يريحون أجساداً أرهقها طول السفر والتجوال..

وأذن للعصر، فدخلوا مع الجماعة في صلاة ضارعة، مشفوعة بالدعاء لله عز وجل، أن ييسر لهم، ويسدد خطاهم في مقامهم الجديد.. وما إن سلّم الإمام، حتى لاذ كل منهم بأقرب عمود أو جدار، ليريح إليه ظهره..

واستغرقوا يتابعون الأذكار مع الإمام، وقبل أن ينتهي من الدعاء، نهض الشيخ عز الدين، متحفزاً لإلقاء كلمة يقدم لهم بها نفسه، ويبثّهم همّ إخوانهم في الشمال السوري الأسير.. وأصغى المصلون لهذا المتحدث الذي لفت انتباههم بسَمتِه وكلماته..

- إخواني، السلام عليكم ورحمة الله..

أنا أخوكم في الله عزالدين عبد القادر القسام.. أزهري من مدينة جبلة على الساحل السوري، الذي دنّسه الفرنسيون.. جئتكم اليوم مع بعض إخوانكم مهاجرين في سبيل الله.. بعد أن أهدر الغزاة دماءنا، وطاردونا..

أيها الأحبة.. يا أهل هذه المدينة الطيبة.. جئناكم اليوم مهاجرين، فكونوا لنا الأنصار.. فكلنا أخوة، وكلنا في الهم شرق.. نحن ابتلينا بالفرنسيين، وأنتم ابتليتم بالإنجليز، وزادكم الله ابتلاء بهؤلاء المهاجرين اليهود، الذين تقودهم الحركة الصهيونية من أجل مطامعها في فلسطين..

الأجانب يا إخوان لا يميزون بين سوريا وفلسطين، فكل العرب والمسلمون عندهم أحفاد لصلاح الدين الذي هزمهم، وكل الحروب التي يديرونها، تريد أن تثأر لأجدادهم الصليبيين.. قالها «غورو» صراحة عندنا في دمشق عند قبر صلاح الدين، وقالها صراحة الجنرال «اللنبي» وهو يطأ بقدميه تراب القدس، التي حررها صلاح الدين..

فلنعتصم بالله أيها الأخوة، ولنوحد القلوب والجهود من أجل أن تعود لهذه الأمة عزتها وكرامتها، ولنحذر مما يراد ببلاد الشام وفلسطين.. أرض الرباط التي بارك الله بها حول المسجد الأقصى.. أولى القبلتين وثالث الحرمين..

بلاد الشام يا إخوان قلب هذه الأمة، وهي مستهدفة عبر العصور..

غزاها الصليبيون والمغول ودحرتهم.. وهي قادرة بعون اللّٰه على دحر الغزاة الجدد، ولكــنْ عندما تعود إلى ربّها، وتتمســك بأخوّتهــا، وتواجه أعداءها صفّاً واحداً كأنّها بنيان مرصوص..

وتدفق الشــيخ في كلمته، فمسّــت القلوب وحركت المشــاعر.. وشــعر الحضور بأنهم مشدودون نحو هذا الشــيخ، الذي يحمل هموم الأمة، ويغار على مصيرها.. وتعرّف الناس لأول مرة على عز الدين القسام، ولمسوا في كلامه نبرة عزٍّ انتشت لها أرواحهم..

وســرى في الناس همسٌ لم يتوقف.. حيفا اليوم تســتقبل مجاهداً من الشمال.

# ٢١

تقدم الإمام فسلم على الشيخ عز الدين، والتفّ حوله عدد من المصلين، يشكرونه على كلماته التي لمسوا فيها الصدق، ويسألونه عن أخبار الشام الجريحة، وكان الحاج عبد الله مسمار يعمل قيّماً على المسجد إلى جانب أعماله الأخرى، فلما حان وقت إغلاق المسجد، اقترب من الشيخ وصحبه، وألقى عليهم التحية بوجه باشّ ولهجة مرحة، فرحبوا به، وانفرجت الحلقة التي تضمهم، لتفسح له مكاناً..

قال وهو يتربع بينهم، ويده اليمنى ترفع الطربوش الأحمر، وتعيد وضعه بإحكام:

ـ ياهلا بالشباب.. حيفا اليوم فيها عرس.

ثم وهو يتجه بالحديث للشيخ القسام:

ـ كلمتك ياشيخ عز الدين أثرّت فينا جميعاً..

ـ بارك الله فيك..

ـ أخوكم الحاج عبد الله مسمار.. القيّم على هذا المسجد.. أتمنى لو أخدمكم بشيء، فانظروا بماذا تأمرون؟.

شكره الرجال، بينما قال القسام:

ـ والله لا نخفيك ياحاج.. وصلنا من عكا قبل العصر، وما زلنا لم نرتب أمورنا هنا، فهل تدلنا على نزل نبيت فيه..

ابتسم الحاج مسمار، وقال:

ـ عندي حلّ أفضل.

تبادلوا نظرة باسمة، بينما أخرج الحاج من جيبه رزمة من المفاتيح، وقال مازحاً:

ـ ثمة بيوت كثيرة في خدمتكم.

وأردف بنبرة ضاحكة:

ـ صحيح أنا قيّم المسجد، لكنّي أعمل أيضاً سمساراً لبيع وتأجير البيوت، وعندي أيضاً دكان صغير قريباً من هنا أمارس فيه هذه المهنة..

ثم وهو يتناول مفتاحاً، ويقدمه للشيخ عز الدين..

ـ هذا مفتاح لبيت صغير.. بيت متواضع من غرفتين، يقع قريباً من هنا، خلف سوق الخضار، وأظن أن ساكنه قد ترك فيه بعض الأثاث..

تبادل الرجال نظرة، وقد أسعدتهم هذه المبادرة، ووجدوا فيها توفيقاً كبيراً، ففي مدينة جديدة تحتاج إلى دليل ومأوى، وهاهو الحاج مسمار يختصر عليهم المسافة، ويحلّ لهم الأشكال.

وأراد الشيخ القسام أن يسأل عن الأجرة، التي ينبغي أن يدفعوها لمثل هذا البيت، فقاطعه الحاج مسمار، وقد أدرك مراده:

ـ معاذ الله.. أنتم ضيوفنا إلى أن ترتبوا أموركم..

ـ هذا كثيرٌ يا حاج!.

ـ بل قليلٌ على مجاهدين أمثالكم..

ـ أستغفر الله..

وانطلقوا بصحبة الشيخ مسمار، نحو مأواهم الجديد.. وفي الطريق ابتدره الشيخ عز الدين بالسؤال:

ـ خبرني ياحاج.. كيف أحوال البلاد؟.

أجاب وقد اعترته كآبة واضحة:

ـ الدنيا لم تعد الدنيا في حيفا، والناس لم تعد الناس.. منذ أن دخل الإنجليز فلسطين، وأمورنا من سيّء إلى أسوأ.. والذي زاد الطين قطران.. هؤلاء اليهود، الذين يقذف بهم البحر إلينا كل يوم..

ـ إلى هذا الحد؟

ـ وأكثر. لي قريب في القدس، كان في زيارتنا من أسـابيع، وحدثني عن مضايقاتهم للعرب في المسـجد الأقصى.. يريـدون أن يأخذوا الحائط الغربي للمسـجد.. حائط البراق.. يدّعون أن تحته هيكل سـيدنا سـليمان، ويحاولون أن يحتلوه ليصلّوا عنده..

قال القسام في قلق، وهو يواكب خطوات الحاج مسمار:

ـ هذا كلام خطير.

توقف الحاج عبد الله مسـمار، أمام باب خشـبي قديـم، وأخرج رزمة مفاتيحه، قال وهو يتأملها:

ـ أنتَ لم ترَ شيئاً بعد يا شيخنا.. ستسمع عنهم غداً القصص..

ثم وهو يدير المفتاح في الباب:

ـ لـو ذهبت إلى ميناء حيفا، لرأيتَ السـفن وهـي ترميهم علينا كل يوم.. ودائماً يجدون من يسـتقبلهم، ويحملهم إلى المستعمرات التي أعدّت لهم.. يرطنون بلغات شتى.. والأخطر من هذا كله، أنهم مليئون بالمال..

وانشغلوا باستكشاف المكان..

قال الشيخ عزّ الدين، وهو يفتح باب إحدى الغرف، ويتأمل وضعها:

ـ اطمئنوا يا شباب.. لدينا هنا ما ننام عليه.

أطلّ الشـيخ حنفي ليشـاهد الأثاث الذي يتكلم عنه شـيخه، فابتسم، وهمس للحاج علي عبيد متندراً:

ـ الشيخ يتكلم عن حصيرتين!.

ـ نعمة من الله وفضل. المهم أن ننام.

وقال الحاج مسمار:

ـ اعذروني ياجماعة، فهو كمـا أخبرتكم.. بيت متواضع، لكنّه المتوفر

الآن، وسأحاول أن أؤمن لكم بعض الفرش والأثاث.

شكره الشيخ عز الدين.

- إلى هنا وجزاك الله خيراً، نحن نتكفل بالباقي.

- ولو يا أستاذنا. أنت في حيفا.

وغاب الحاج مسـمار مايقرب من سـاعة، عاد بعدها مع حنطور حمّله بما اسـتطاع جلبـه من داره مـن أثاث يفـي بالغرض، ومعه بعـض الخبز والزيتون وسلة من البرتقال، ودخل وهو يهتف في مرح:

- حيّا الله ضيوفنا.

شـعر الرجال بالامتنان لهذه اللهفة التي يعاملهـم بها الحاج عبد الله مسمار، وهتف الشيخ حنفي:

- بارك الله فيك ياحاج.. خشيت أن تتركنا على الحصير.

ضحكوا لدعابته، وعلق الشيخ عز الدين:

- من يسمعك تقول هذا لن يصدق أنك كنت تفترش الحصى، وتأوي إلى الكهوف، لتنام متوارياً من الفرنسيين..

قال الحاج مسـمار، وهو يعزم علـى برتقاله الذي فاحـت رائحته في المكان:

- هذا البرتقال مـن بيارة الوالـد.. فوجئت به وهو علـى باب الدار يعطيها للأولاد، فاشتهيتها لكم.. تفضلوا بسم الله..

وأقبلوا على البرتقال شاكرين، بينما تابع الحاج يقول..

- اليهـود دفعوا للوالد ثقل هـذا البرتقال ذهباً من أجـل أن يبيعهم بيارتـه التي في قريـة الطنطـورة، لكنّه رفض، ومـا زالوا يلحّـون عليه.. الملاعين يبحثون عن الأراضي الخصبة، ويشترونها..

وتساءل الشيخ علي الحاج عبيد:

ـ ومن أين لهم كل هذا الغنى؟

أجاب الحاج مسمار:

ـ من الصندوق اليهودي.. صندوق الصهيونية التي تمولهم وتدعمهم.

ثـم وهو يطلق تنهيدة عميقة، وشـت بمـا يعتمل في صـدره من حرقة وقهر..

ـ آه ياشيخ عز الدين.. لو تراهم.. يشترون الأراضي.. يبنون القلاع.. ويزاحمونا في السوق.. لكأن البلاد بلادهم.. والإنجليز.. آه من الإنجليز..

ثم وهو يرفع يديه بالدعاء..

ـ اللهم أرنا فيهم يوماً..

وأردف متابعاً:

ـ الإنجليز يا شيخنا أسّ البلاء.. يسهّلون لهم القدوم والبيع والشراء، ويحمونهم.. ويجرّئونهم علينا..

ثم وهو يبسط يده في يأس:

ـ فلسطين اليوم على كف عفريت ياشيخ عز الدين..

ـ يالطيف.

ـ ماذا نفعل في وجه بريطانيا العظمى؟!.

ـ الله أكبر منها وأعظم يا حاجّ.

ولم يلبث أن غادرهم مودعاً..

وخلدوا إلى النوم..

كانت أجسادهم مرهقة، لكن أرواحهم ظلت واجمة..

لم يكن همّ فلسطين قد تمكّن من قلوبهم كاليوم!.

# ٢٢

الأيام تمضي في حيفا، والرجال ما زالوا يستكشفون المجتمع الجديد، الذي بدأوا يألفــون الحياة فيه، لكنّ ما معهم بــدأ ينفذ، ولابدّ من فرصة عمل تدرّ عليهم دخلاً، وجــرّب بعضهم أن يذهب إلى الميناــاء ليعمل عتّالاً باليومية، لكنّهم وجدوا المنافسة شــديدة، والمكان مليء بالفلاحين الذين طردوا من أرضهم بســبب اليهود، وتحولوا مثلهم إلــى عتّالين في الميناء، يتنافسون على يوم عمل، يدرّ عليهم قروشاً، هم في أمسّ الحاجة إليها..

وفكر الشيخ عز الدين بالاســتعانة بمن يعرف، فصلّى الفجر ذات يوم، وخرج بصحبة ابن أخيه ظافر إلى ســوق الشوام، يبحث عن قريب له هاجر إلى حيفا منذ أمد، وانقطعت أخباره.. سأل عنه الحاج مسمار وآخرون، فلم يعرفه أحد، ولم يكن الوصول إليه ســهلاً، فالوافدون إلى حيفا كثر، فيهم الشــامي واللبناني والمغربي والمصري.. فضلاً عن أبناء القرى والضواحي الذين يهبطون حيفا كل يوم..

قال الشيخ ظافر، وقد ذكّرته شوارع حيفا، ببلدته التي يحنّ إليها:

- ما أجمل حيفا.. لا ينقصنا فيها سوى الأهل.
- يبدو أن الشوق قد استبد بك.
- يعني أنت ياعمّي الذي لم يشتاق!.

تنهد الشــيخ عز الدين وهو يرمي بنظراته نحو البحر، والريح تداعب صفحته الهادئــة.. لم يكن طيف زوجتــه الطيبة وبناته الثــلاث غائباً عنه طيلة هذا الترحال.. صورة أسرته وهي تودعه آخر مرة محفورةٌ في وجدانه.. وتذكر كم عانت شريكة عمره معه، منذ أن اختار طريق الثورة والجهاد.

«المســكينة.. لا بد أن القلق يأكل صدرها الآن، بعد أن أخبروها بأني

قد صرت في فلسطين.. ليت طيور النورس هذه، التي تحلق في سماء حيفا، تطير إليها بالبشرى، أنّا قد اجتزنا الخطر، ووصلنا إلى ملاذٍ آمن».

وهبّت رائحة لطيفة، يعرفها القســام ويحبّها.. رائحة الفلافل الشامي، الذي يفتقده ويشتهيه.. ونظر باتجاه مصدر الرائحة، فألفى المحل.. همس الشيخ عز الدين، وهو يقرأ اللافتة:

ـ فلافل وحمّص الشام ـ لصاحبه ممدوح الكفرسوساني

قال الشيخ ظافر:

ـ بداية جيدة.. لنسأل صاحب هذا الدكان.

ـ بل قل «نكسر السفرة» بطعام يذكّرنا بالبلد.. ألست بجائع؟

ـ أنت قلتها.. الفلافل الســاخنة تغري الشــبعان، فما بالك ونحن لم نذق الزاد بعد!.

وتناولا فطورهما بشهيةٍ واضحة، ثم طلبا كأسا من الشاي.

كان صاحب المحل منهمكاً في هندســة أقراص الفلافــل، وإلقائها في الزيت الحار، لتفوح رائحتها الشهية المفعمة بعطر بذور الكزبرة في أرجاء الدكان، وتتسرب إلى السوق، وكأنها تدعو المارة، ليتذوقوا طعمها الشهي..

وتأمل القســام قطرميزات المخلل الشــهية المرصوصة على الرفوف، بألوانها الحمراء والخضــراء، فذكّره المنظر بمحــل الحمصاني الذي كان يتردد عليه في الشام مع صديق قديم..

ـ هــذا المكان يذكرنــي بصديق من فلســطين، كان يخــدم معي في الجهادية على أطراف دمشق.. إنه شــديد الشبه بدكان كنا نأكل فيه، كلما ذهبنا إلى قلب الشام، وتجولنا في ساحة المرجة.

ـ من فلسطين!..

ـ اسمه فرحان السعدي.

- من حيفا؟
- على ما أذكر هو من جنين.. عرفت أنها لاتبعد كثيراً..
- وكيف ستجده؟..

ضحك الشيخ..

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنّان كل الظنّ أن لا تلاقيا

واستدرك الشيخ القسام وهو يبحر بخياله في الأيام الخوالي، يتدبر ذكرى قديمة، أثارت في نفسه الشجن:

- سقا الله تلك الأيام.. كنا مندفعين للقتال في جيش الخلافة، وهي تواجه أعداءها.. كنا واثقين من أن الخلافة ما زالت رمزاً لوحدة المسلمين وعزتهم، رغم كل ما اعتورها من ضعف وفساد.
- لكنك استفدت من تلك الفرصة على أية حال.
- صدقت.. كان التدريب قاسياً ومفيداً.. تعلمنا فيه كل صنوف القتال، لكن فرحان السعدي كان أمهر مني.. لم أر جندياً أكثر منه براعةً في التسديد!.. لكم أشتاق إليه.
- لنجد قريبنا الآن.. فهو على الأقل هنا في حيفا.

والتفت الشيخ عز الدين إلى الحمصاني..

- قل لي يا أخ:
- تفضل يا شيخي.
- أتعرف شخصاً هنا، يدعى الشيخ أمين نور الله؟

صمت الحمصاني قليلاً، وهو يحك صدغه بسبابته متفكراً:

- الشيخ أمين.. الشيخ أمين.. والله تعذرني يا شيخي.. لم أسمع بهذا الاسم من قبل.. لكني سأدلك على شخص قديم في السوق.. بعد سبيل

الماء بمحلين.. لا يوجد أحد لايعرفه هنا من الشـوام.. اسـألوا عن الحاج زهدي الطرابيشـي.. يعمل بائعاً للطرابيش.. كلّ الشوام يشترون طرابيشهم من عنده.

ـ - يبدو من لهجتك أنك من الشام..

ـ من كفرسوسـة.. أجمل بساتين دمشق ورياضها.. بينها وبين المرجة فركة كعب.

ـ أعرف الكسوة.. خدمت فيها الجهادية منذ ثماني سنوات.

ـ اللّه يحييك.. في المرة القادمة، لا تنس أن تزور كفرسوسـة، فهي جنّة من جنات الشام.

تبادل القسام مع ابن أخيه ابتسـامة مرّة.. وطاف بخاطره سؤال قرص شـغافه.. «ترى هل سـتكتب لـك زيارتها ثانيـة ياعز الدين!».. وتسـاءل مستطلعاً:

ـ ما أخبار الناس بعد أن دخل «غورو» الشام؟

كان الحمصاني يرفع الأطباق من أمام الشـيخ، فداهمه السـؤال. قال، وهو يعض على شفتيه من الغيظ، وقد أثار السؤال أشجانه:

ـ آخ ياشـيخي.. كنت أتمنى لو كنت هناك.. لكنت أول من يذهب مع يوسف العظمة، اللّه يرحمه.. ولكن اللّه ما أراد.

ـ رحمه اللّه.. لقنّهم درساً.

علّق ظافر، وهو يهز رأسه في أسى:

ـ للأسف، ذهب رخيصاً.

انبرى القسام محتجاً:

ـ لا تقل هذا يا ظافر.. المهم أنه قاوم بشجاعة.. الواجب أن نقوم بما يتوجب علينا، مهما كان الثمن.. تخيل أن تسـقط الشـام، دون أن يقف في

وجه الغزاة أحد.. إذن على الدنيا السلام.

هتف الحمصاني بنبرة غاضبة، وقد أثار كلام الشيخ حماسته:

- باطل!.. إن شاء الله سنأكلهم بدون ملح.. الفرنساوي بإذن الله لن يبقى في الشام.. رجال الشام وقباضايات الشام- بعونه تعالى - لن يدعوه يفرح بها.. الأخبار تأتيني من هناك.. شباب كثيرون التحقوا بالغوطة، وبدؤوا يهاجمون الفرنسيين..

سرّ القسام بكلام الكفرسوساني..

- منذ متى وأنت هنا في حيفا؟.

- من سنتين.

- وما الذي جاء بك إليها؟.

- «الرزقة» يا شيخي.. «الرزقة»..

وأردف قائلاً، وهو يصبّ لهم الشاي:

- كلها بلاد الإسلام.. مافي فرق إن شاء الله.. والله أمر بالسعي.. وكما يقول المثل: اسعَ ياعبدي، أسعى معك.

واستأنس بهما بائع الفلافل، فراح يحدثهما عن حيفا وسوق الشوام، وطيبة أهل فلسطين.. ولم ينس أن يحكي لهما عن جاره اليهودي الشامي، الذي يعمل بائعاً للقماش، والذي كلما اشترى من عنده فلافل، سأله أن يعطيه قرصين على البيعة «كرمال» الجيرة، وعندما طلب منه يوماً، أن يخصم له قليلاً من سعر قطعة قماش «كرمال» الجيرة، شكا له القلّة وتعثّرالأحوال، وعندما ذكّره بأن الرسول أوصى بسابع جار، قال له: «خبيبي.. نسيت إني يهودي!».

ضحكا، وشكراه على حفاوته، وأراد ظافر أن يخرج كيس النقود من زناره، فردّه برفق:

ـ عيب يا قبضاي.. رجّع كيسك..

ـ ولكن..

ـ هذه المرة على حسابي.. المحل محلكم..

وأردف مستدركاً:

ـ كما قلت لكم.. الحاج حمدي الطرابيشـــي، أحســـن من يدلكم على زلمتكم.. هو أقدم شامي في هذا السوق.

ثمّ وهو يميل إلى الدعابة:

ـ لا بد أن الشيخ أمين احتاج يوماً إلى طربوش.

# ٢٣

لم يكن استقبال الحاج زهدي الطرابيشي للشيخ القسام وابن أخيه، أقل ترحيباً من استقبال ممدوح الكفرسوساني، ومع أنه اعتذر، لأنه لم يكن على معرفة مباشرة بالشيخ أمين نور الله، إلا أنه نصحهم أن يسألوا عنه في الجمعية الإسلامية، ففيها بعض الشوام ممن لجؤوا مع الملك فيصل إلى حيفا بعد سقوط دمشق، وقد يتعرفون عليه، أوعلى من يعرف أخباره..

وهكذا كان.

واستقبلهم الشيخ أمين في بيته بالأحضان..

ـ كيف حالك يا عز الدين.. الله يرحم والدك الشيخ عبد القادر.. كان عالماً فاضلاً وأخاً عزيزاً.

ثم وهو يلتفت إلى ظافر:

ـ لك أن تفخر بجدك يا ظافر، فقد كان من وجهاء جبلة ومشايخها المشهود لهم بالعلم والفضل.. وأيضا والد جدك الشيخ مصطفى رحمهما الله.. كانا من أهل التقى والورع..

علق الشيخ عز الدين:

ـ لذلك سمّى والدي أخي مصطفى ـ رحمه الله ـ والد ظافر ومالك، على اسم جدي.

وسأل الشيخ أمين القسام:

ـ مصطفى على ما أظن، أخوك من أبيك؟.

ـ أجل.. رحمه الله.. كنت أحبه كثيراً..

قال الشيخ أمين، وهو يتأمل ظافراً:

ـ منْ خلّفْ ما مات.

ـ بارك الله فيك ياعم.

ورمق الشيخ أمين الشيخ عز الدين بنظرة ودّ، قال يتابع كلامه لظافر القسام:

ـ كان همّ جـدك أن يعلِم عمك عز الدين في الأزهر الشـريف.. ثم أرسل خلفه أخاه فخري.

وتنهد مستطرداً..

ـ نكأت هذه الزيارة ذكرياتي ياجماعة.. يعزّيني أحياناً أن الحياة في حيفا، تشبه إلى حد كبير حياتنا هناك.. ولكن ماذا نقول! من يأكل برتقال حيفا، لا يستطيع أن يتركها.

واستدرك الشيخ أمين:

ـ حدثني الشـيخ كامل القصاب عندمـا مرّ بحيفا مـع الملك فيصل ورجاله بعد خروجهم من دمشق، أنك قدْتَ ثورة في اللاذقية والساحل، وأن الفرنسيين قد طاردوك، وحكموا عليك بالإعدام، وقد كان بالي عندك..

تساءل الشيخ عزالدين باهتمام:

ـ الشيخ كامل هنا؟..

ـ كان هنا، ثم ذهب إلى الحجاز..

واستدرك قائلاً:

ـ حدّثْني بما مرّ معك حتى وصلت هنا..

وروى له الشيخ القسام قصة ثورته ضد فرنسا، من أولها إلى أن وصل مع أصحابه إلى حيفا. سأل الشيخ أمين باهتمام:

ـ وماذا ستفعل الآن يا أبا...؟

ـ أبو محمد.

ـ ما شاء الله.. وكم عمر محمد الآن؟

- ما زال في علم الغيب ياشيخ أمين.. لم أرزق حتى الآن سوى بالبنات..

وعلق الشيخ ظافر:

- عمّي سمّى نفسه أبا محمد، نسبة إلى قاضي جبلة وفقيهها الشهير أبو محمد عبيد الله بن منصور، الذي استبسل في الدفاع عن مدينة جبلة ضد الصليبيين. تعرف قصته بلا شك!.

- اسم على مسمّى إن شاء الله..

رد الشيخ عز الدين في تواضع:

- أين نحن من أولئك الرجال.. أولئك الذين جاهدوا وحقّقوا نصراً.. أما نحن.. فيا حسرة..

- فيك الخير يا أبا محمد. لن أناديك بعد اليوم إلا بهذا الاسم، تيمناً بقاضي جبلة، وتفاؤلاً بردّ الأعادي والطامعين..

واستدرك يسأل..

- لم تقل لي.. ماذا ستفعلون الآن؟..

- نبحث عن رزق يكفينا مؤونة العيش، وقد كاد ما ادخرناه لرحلتنا أن ينتهي، فبماذا تنصح؟

- وماذا يمكن أن يعمل أزهري مثلك؟!.

- أيّ عمل نعتاش منه.

- لا أرى لك إلا أن تعمل بالتعليم.

- إذا كان هذا متاحاً فيا مرحباً..

- جمعية حيفا الإسلامية كما حدثتك، تنهض وتنمو بسرعة.. وقد أنشأَت مؤخراً مدارس للبنين والبنات.. ولعلي سمعت أنهم ما زالوا بحاجة إلى مدرسين في مدارس الإناث، فما رأيك؟.

تهلّل وجه الشيخ عزالدين..

ـ على بركة اللّه..

وغاب الشيخ أمين وعاد بطبق من البرتقال الشهي، وهو يقول:

ـ تفضلوا فتناولوا برتقال حيفا، فمن ذاق برتقالها لم يتركها أبداً..

وراود الشيخ خاطر غريب، فقال مازحاً، وهو يتناول برتقالة شهية، ويتأملها:

ـ إذا صدق أنّ «من يأكل برتقال حيفا لا يتركها» نكون بذلك قد علقنا هنا للأبد، فأينما دعينا قدموا لنا هذا البرتقال، وذكّرونا بتلك الحكمة..

ضحكوا، وتمنوا أن يكون هذا القول نوعاً من المبالغة، عسى ولعل اللّه يردّهم إلى جبلة، بعد غربة يرجونها ألّا تطول.. وأرادا أن يمضيا، لكن الشيخ أمين رفض، وقال بلهجة بان فيها التصميم:

ـ بل تأتون بأغراضكم، وتقيمون عندي جميعاً إلى أن يأذن اللّه بالفرج.

ـ ولكن..

ـ هذا قرارٌ لا عودة عنه..أم ستعاملوني وكأني غريب!.

ـ معاذ اللّه.

ـ تعودون بعد المغرب مع أمتعتكم، وستجدون سكناً مناسباً بانتظاركم..

# ٢٤

طرق ظافر الباب، وقال:

ـ ستكون مفاجأة لهم، عندما يعلمون بمقامنا الجديد.

ـ الحمد لله على كل حال.. احتفاء الناس بنا، يخفف وطأة هذه الغربة.

ـ لقد أطلنا المقام عند الحاج مسمار، وأوقفنا حال هذا البيت.

ـ صدقت، فالرجل يتكسب من تأجير البيوت، وهو مازال يرفض أن يتقاضى منا أجراً مهما كان.

وفتح علي الحاج عبيد الباب وهو متجهم الوجه. ألقى عليه ظافر التحية، فردّ ببرود.

واستغرب الشيخ عز الدين هذا الأسلوب، الذي لم يعهده في الشيخ عبيد من قبل!.

ـ ما بك؟.

أجاب وهو مطرق.

ـ خبر لا يسر!.

ـ أي خبر؟.

ـ اسأل الشيخ خالد؟

واتجه القسام إلى الشيخ خالد، وهو مربدّ الوجه، تساوره الهواجس..

ـ خير إن شاء الله.

أطرق ولم ينبس. فراح يتأمل الوجوه التي غلب عليها الحزن والغموض..

ـ ماهذا الخبر الذي أورثكم الكآبة إلى هذا الحد؟.. تكلموا!.

قال الشيخ حنفي بنبرة تنطق بعدم الرضى.

ـ الشيخ خالد.

ـ ما به؟

ـ قرر العودة إلى جبلة..

صدم الخبر الشيخ عز الدين..

ـ أصحيح ما سمعت ياشيخ خالد؟!.

رفع إليه وجهاً كئيباً علته مسحة من الأسى، وعيناه لا تجرؤان على مواجهة الشيخ، الذي لم تخل نبراته الصارمة من العتاب..

ـ تعذّبت كثيراً حتى وصلت إلى هذا القرار.

ـ أأساء لك أحد بشيء؟.

رد الشيخ خالد في إنكار..

ـ معاذ الله.. ليس الأمر البتة كما فهمت!.

ـ ماذا إذن؟.

ـ لم أعد أحتمل هذا الهدوء والخمول.

ـ ما زلنا في أول الطريق.

ـ كل القصة أني قلّبت الأمر، فوجدت أنّا نعيش هنا غرباء، بينما أهلنا وأعمالنا وقضيتنا هناك.. في جبلة.. فقدرت أن المرء لو عاد إلى أهله وبلده لكان أكرم.

أثار كلامه شجناً في نفس القسام..

ـ هل نسيت لماذا خرجنا من هناك؟

ـ الفرنسيون لن يبقوا إلى الأبد، أستطيع أن أتجنبهم، وأعيش حياتي كما أريد..

ـ كان أولى بك أن تقول هذا قبل اليوم!.

ـ لم أحسب حساب الغربة.

ـ احتسبها عند الله، والأجر على قدر المشقة..

ـ لم أكن أدرك أن الانفصال عن البلد مؤلمٌ إلى هذا الحد.. أعمالي في جبلة تكفيني، وتزيد، وقد يكرمني الله، فأرسل لكم بعض المال، لتكملوا ماقد تعاهدنا عليه..

قال الشيخ حنفي مؤنباً:

ـ يا أخي كل الذي صار لنا في حيفا شهران، فعن أي غربة تتحدث ياشيخ خالد؟. اصبر قليلاً، فقد يجعل الله لنا مخرجاً.

وأردف الشيخ علي:

ـ إن بدر منا ما أساءك يا أخي، قبّلنا رأسك، فقد تندّ عن المرء أشياء لا يقصدها.

لوح الشيخ خالد بيده منكراً، ومؤكداً من جديد:

ـ يا جماعة أرجوكم.. لا دخل لأحد فيما توصلت إليه من قرار.. الأمر بعيد كل البعد عن هذا.

ثم، وهو يلوذ بالشيخ عز الدين متوسلاً:

ـ أرجو أن تسمح لي ياشيخ عز الدين، فلم أعد أطيق الانتظار.

أطرق الشيخ عز الدين إطراقة حزينة، مستسلماً لرغبة الشيخ خالد، الذي كان من أفضل تلاميذه وأحبّهم إلى قلبه، فمن يجرؤ أن يعترض رغبة إنسان لم يعد يطيق البعاد عن وطنه؟..

ـ هل رتبت للرحلة؟.

وقع سؤال الشيخ على الرجال كالصاعقة. وتبادل الشيخ حنفي والشيخ عبد المالك القسام نظرة ملؤها التعجب، وصدمهم جواب الشيخ خالد أكثر!.

ـ لو أذنت لي، أمضي من ساعتي هذه.

قال الشيخ حنفي بنبرة تقطر عتباً وحزناً:

ـ ألهذا الحد أنت مستعجل ياشيخ خالد؟.

ـ كان بودي أن أبقــى معكم، لكن صدقوني ياجماعة، ثمة شــيء يلحّ علي، ويناديني إلى هناك.

شد القسام على كتف الشيخ خالد:

ـ الرأي لك في النهاية، فهذه حياتك وهــذا قرارك.. لكنك تعلم أن رأسك مطلوب مثلنا، وعليك أن تحترس.

ـ أعلم. وســأحتال للأمر حتى أصبح في مأمــن.. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

شد القسام على كتفه ثانية في ود.. تمنى لو أنه هو الذي سيعود. قال بنبرة مستسلمة:

ـ إذا عزمت، فتوكل على الله.

وهبّ الشيخ خالد إلى شــيخه فعانقه بحرارة، بينما نشج الشيخ حنفي تأثراً، وهمس ظافر القسام منفعلاً:

ـ ادع لنا في ظاهر الغيب يا شيخ خالد.

ـ سأظل أدعو لكم ماحييت، وأطلب منكم السماح إذ خذلتكم، بعد أن قطعنا كل هذه المسافات..

وودعوه بحزن، وضمه الشيخ حنفي بقوة:

ـ كن حريصاً.

ثم استدرك، وهو يحتفظ بيده بين راحتيه:

ـ لا تنس أن تسلم لي على الأهل في جبلة.

وتابع وقد تهدج صوته:

ـ فوالله ما اشتقت في حياتي كما أشتاق لهم الآن.

وأجهش بالبكاء.

# ٢٥

عندما دخل الشيخ عز الدين بصحبة قريبه الشيخ أمين نور الله القاعة، أدهشته تلك الحفاوة التي استقبله بها أعضاء الجمعية الإسلامية، وعلى رأسهم الشيخ محمد أفندي مراد، مفتي حيفا، وتركت في نفسه شعوراً عميقاً بالارتياح لهؤلاء الرجال، الذين بادلوه كل مشاعر الأخوة، وشعر بالامتنان والعرفان للشيخ أمين، للصورة المضيئة التي نقلها عنه لأعضاء الجمعية، فاستقبلوه بأكثر مما كان يتوقعه..

وقال الشيخ مراد مُرحباً:

ـ نورْتَ حيفا يا شيخ عز الدين، أرجو أن تعتبر نفسك منذ اليوم عضواً أصيلاً في هذه الجمعية، التي أسست لتكون حصناً من حصون الإسلام في وجه ما يراد لهذا البلد وأهله..

ـ بارك الله فيك يا شيخ محمد.. ونفع الله بكم وبها.

ـ الشيخ أمين قال لي أن الفرنسيين خزاهم الله حكموكم بالإعدام، فالحمد لله على السلامة..

ـ سلمك الله.

ـ على كل حال يبدو أن فرنسا سوف تحكم على كل أهل سوريا الشمالية بالإعدام، فكل الذين جاؤونا قبل مدة مع الملك فيصل، كانوا محكومين بالإعدام.

ضحك الجميع لدعابته، بينما تابع الشيخ مراد، وهو يتوجه بالحديث إلى الأستاذ رشيد بقدونس..

ـ عندك هنا أيضاً أخونا الأستاذ رشيد ممن شملهم هذا الشرف.

علق الأستاذ رشيد بقدونس:

ـ حكم القوي على الضعيف.

علق الشيخ عز الدين:

ـ يبدو لي يا أستاذ رشيد أنا صنعنا ضعفنا بأيدينا.. لو توحدت هذه الأمة، وتعاونت على الجهاد، لما كان لهؤلاء الغزاة أن يجتاحونا اليوم.

تحمّس لهذا المنطق شابٌّ مهيب، يبدو أصغر الحاضرين سنّاً، وسيماء النباهة والحكمة تلمع في عينيه:

ـ أصبت كبد الحقيقة يا شيخ عز الدين.. ضعفُنا هو الذي أغرى بنا.. اختلافنا وتفرقنا هو السلاح الذي تذبحنا به فرنسا وبريطانيا كل يوم.. ولا حلّ لنا إلا بالوحدة والجهاد ضد هؤلاء الذين جاؤوا يستبيحون ديارنا، ويصادرون استقلالنا..

استدرك الشيخ محمد مراد معرفاً:

ـ سامحنا يا شيخ عز الدين.. كان ينبغي أن نعرفك على أعضاء الجمعية أولاً، فالمتحدث هو الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم، عضو المؤتمر السوري عن حيفا، ومن ألمع شباب هذا البلد..

شكره الأستاذ رشيد في تواضع، بينما استمر الشيخ مراد يعرف الشيخ القسام على بقية الأعضاء..

كان الشيخ عز الدين يصغي، وهو سعيد بهذه النخبة، واستأنفوا الحديث، فتدخل الشيخ أمين قائلاً:

ـ المصيبة ياجماعة بدأت عندما وثقنا بهؤلاء الأجانب وسلمناهم قيادنا.. فكنّا كمن يستجير من الرمضاء بالنار.

ردّ الأستاذ رشيد بقدونس:

ـ لكأنك تقصد الملك فيصل ياشيخ أمين.. قد أوافقك على ما قلت، ولكن فرنسا وبريطانيا كانتا تخططان لغزونا على كل الأحوال.. لعل الملك

فيصل بسياسته وحنكته حاول تخفيف الكارثة، أو تأخيرها على الأقل..

انبرىّ الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم معارضاً:

ـ لكنّي أعتب عليه لأنــه كان يتراجع طيلة الوقت، ويرضخ في النهاية لضغوط الفرنسيين والإنجليز.

دافع الأستاذ بقدونس عن رؤيته..

ـ لنقــل ماله وماعليه يــا إخوان.. يكفــي أنه رعى المؤتمر الســوري الأول، الذي ســمح لأحرار ســوريا الكبرى بأن يجتمعوا على وحدة ســوريا الطبيعية من دمشق إلى بيروت إلى القدس إلى عمّان، ويطالبوا باستقلالها موحدة غير مجزأة.. وقد حضرتَ المؤتمر بنفسك يا رشيد أفندي عن حيفا، وشعرت بروح الاســتقلال التي رعاها الملك، لتكون ديدن كل السوريين في كل بلاد الشام.

قال الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم:

ـ لا أنكر هذا، لكن المبالغة في حسابات السياسة جعلته يخسر كثيراً..

وأراد الأســتاذ ســليمان الصلاح عضو الجمعية، أن يفكّ الاشتباك بين الرشيدين حول موقف الملك فيصل:

ـ أيّا ما كان يا إخوان.. فنحن اليوم أمــام مصيبة جديدة تحتاج منّا أن نتحد ونتعاون لمواجهتها.. مصيبة هــذه الهجرة اليهودية التي زادت عن المعقول..

قال الشيخ عز الدين:

ـ صدقت. فما صدمني شــيء في فلســطين كهذه المســتعمرات التي تؤسس لوجود غريب أعانكم الله عليه..

علق الأستاذ الصلاح:

ـ و«الحبل على الجرّار» يا شــيخ عز الدين.. في كل يوم نســمع عن

أرض اشـــتروها، ليبنوا عليها مســـتعمرة جديدة.. ولا يشـــترون إلا الأراضي الخصبة والمميزة بموقعها وطبيعتها!.

ودخل نادل يحمل أكواباً من الشـــاي، فتابع الشيخ مراد، وهو يدعوه أن يبدأ من عند ضيف الجمعية:

ـ يا إخوان دعونـــا الآن من حديث السياســـة، لنرى كيـــف يمكن أن نستفيد من وجود الشيخ عز الدين وعلمه في جمعيتنا..

قال الأستاذ رشيد بقدونس بصفته مدير مدارس البرج التابعة للجمعية:

ـ لدينا نقص في مدرســـة الإناث الثانوية لا يرممـــه إلا عالم أزهري كالشيخ القسام.

والتفت إليه الشيخ مراد:

ـ هل تكرمنا بالموافقة على التدريس في مدرســـة البنات ياشـــيخ عز الدين؟.

أجاب، وهو يضم كفه اليمنى إلى صدره تعبيراً عما يشعر به من امتنان وعرفان:

ـ بل أنتم الذين تكرموني بهذا الاختيار، وإن شاء الله أكون في خدمة هذه المدينة الطيب أهلها، والتي طوقتني بكرم رجالها وأعيانها الكرام..

ورحب أعضاء الجمعية بموافقته، فيما يشبه التصويت على هذا القرار، وعقّب الأستاذ بقدونس يطمئن الشيخ عز الدين:

ـ لدينا أربع وعشرون ساعة شاغرة، سنحاول أن نجمعها لك في أربعة أيام حتى لا نثقل عليك.

كانت خطوة مهمة، لم ينس الشـــيخ عز الدين، أن يشكر عليها الشيخ نور الله الذي مهد له الطريق للانضمام إلى مجتمع النخبة في حيفا.. هذه المدينة التي بدأت تملك عليه قلبه.

# ٢٦

التحق الشيخ عز الدين بعمله الجديد في مدرسة البرج الثانوية للإناث، وهو سعيد بهذا الدور، الذي يلاقي في نفسه توقاً للعلم والتعليم، ويفتح أمامه باباً للكسب الحلال، حتى يقوم بمصاريفه ومصاريف إخوانه، الذين ما زالوا قعوداً عن العمل..

ودعته مديرة المدرسة إلى فصل بنات الشهادة الثانوية، لتعرّف طالباتها عليه.. وعندما دخل الفصل بصحبتها، تراءى له طيف ابنته ميمنة، وكأنه يراها هناك.. على ذلك المقعد.. تجلس بجانب تلك الفتاة التي تشبهها، وقد جاءت للترحيب به في موقعه الجديد..

وتعلقت عيون البنات بهذا الشيخ، الذي يطلّ عليهنّ اليوم بسمته الوقور، بينما راحت المديرة تقدمه لبناتها، واصفة إياه بالمجاهد والأزهري اللامع ورجل المواقف، فأطرق وهو يداري شعوراً بالتواضع لهذا الإطراء، وراح يستعد لمواجهة طالباته، اللواتي رحنَ يتأملنه بطرف يختلط فيه الإعجاب بالفضول.. يحاولنَ اكتشاف هذا المعلم الفريد، الذي عبر من أقصى سوريا إلى قلب فلسطين، ليحتل في حياتهن هذه السويعات من كل أسبوع، مدرساً لمادة التربية الإسلامية..

واستلم الشيخ عز الدين زمام الحديث..

- بسم الله الرحمن الرحيم. والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وإمام المجاهدين.. أما بعد:

بناتي الفاضلات.. يسرني أن أكون بينكنّ اليوم معلماً، لكني أتمنى عليكنّ ألّا تنظرنَ إليّ كمدرس، ولكن كأب ووالد يسرّه أن يبذل لكُنّ كلّ توجيه ومساعدة في هذه الحياة، التي أتمنى أن تتوج بالسعادة والصلاح..

وتكلم القســام عن دور المرأة في الإســلام كمعلمة وطبيبة ومجاهدة، وروى قصص نسـيبة وخولة والخنســاء، فحرك في وجدان طالباته شـعوراً غامراً بالثقة والفخر، والتطلع لدور أكبر في هذه الحياة..

وانســحبت المديرة في هدوء، لتترك الشيخ يكمل درســه الأول، لكنّه فضل اختصار كلمته، ليتعرف أكثر على طالباته، وترك لهنّ فرصة الحديث والسؤال، فنهضت فتاة من أقصى يسار الفصل، تريد الكلام:

- ما اسمك؟
- خديجة.
- تفضلي..
- آمنة تريد أن تسأل..
- من آمنة؟

وأشارت إلى صديقتها التي بجانبها، فتجاوزها الشيخ إلى صاحبة السؤال..

- تفضلي، واسألي ما بدا لك يا آمنة.

عادت خديجة تتكلم نيابة عنها:

- هي تستحي أستاذ!.

كان الموقف طريفاً..

- انهضي يا آمنة، ماذا تريدين أن تسألي؟

نهضت آمنة، وقــد تورد وجهها، وتفصــد العرق من جبينها من شــدة الحياء. قالت بنبرة غلب عليها الارتباك:

- سؤالي عن..

وتلعثمت، فابتعلت ريقها، محاولة أن تكمل، فشــجعها القســام بإيماءة. قالت:

- أقصد أستاذ.. دور الأم.. ألا يعدّ من الجهاد؟

لفتت البنت نظر القسام بنبرتها الحيية، وسؤالها الذي ينمّ عن النضج، فأجاب في حماس:

ـ بل هو الجهاد الأكبر..

وانتبه القسام إلى أنّ سؤال آمنة قد أثار ابتسامات ووشوشات، فتساءل عن السر؟!.

نهضت أجرأهن، وقد عقدت يديها خلف ظهرها، قالت وهي تنظر إلى آمنة نظرة ذات معنى:

ـ آمنة أستاذ مخطوبة لابن خالتها، وهي تريد أن تترك المدرسة لأن عرسها قريب.

اندلعت بعض الضحكات، فنهرها القسام:

ـ ما المضحك في الأمر؟.

عادت الضحكات المكتومة ثانية، فاحمر وجه آمنة خجلاً، وأخفت وجهها بكفيها، تداري حرجاً.

دقّ القسام بكفه على الطاولة منبهاً، ليوقف سيل الضحكات والتعليقات، وقال بلهجة صارمة:

ـ أولاً نبارك لأختنا آمنة خطبتها، ونتمنى لها زواجاً سعيداً، وثانياً نتكلم في هذا الفصل بما أردنا، على ألّا نتجاوز حدوداً أو نجرح أحداً.

سرت في النفوس رهبة أحدثتها اللهجة الحازمة، التي تكلم بها الأستاذ الجديد، فعزّ عليه أن يذهب في درسه الأول إلى آخر حدود الجدّ، وابتسم نصف ابتسامة، ملطفاً من الجوّ:

ـ على كل حال، ليست آمنة الوحيدة التي ستصبح أماً، وإن سبق عريس آمنة إليها، فالعرسان في حيفا كثر، وسينالكنّ منهم نصيب.

ضحكنَ في حــذر لدعابة الشــيخ عز الديــن، وقد تحــررنَ قليلاً من الخوف، الذي أحدثته تلك الصرامة التي بــدت في ملامحه، وأعجبنَ بهذا المعلم الجديد، الذي يعرف كيف يوازن بين الهزل والجد. وتابع الشيخ عز الدين، وقد عاد إلى ملامحه الجادة الصارمة:

ـ نحن يا بنــات نحب الكثير مــن العظماء، ونكثر مــن الحديث عن مآثرهم، ولكن، من ربّى هؤلاء العظماء؟..

هتفت أكثر من بنت..

ـ الأم..

ـ نعم.. الأم التي كانت تزرع فيهم وهم أطفال الأخلاق الحميدة وقيم البطولة والفداء، والعمل لنصرة الحق والخير..

وتابع مشيراً لآمنة..

ـ وأختكم آمنة تســأل، لتتأكد من أن دور الأم لا يقل عن دور أولئك المجاهدين، الذين يدافعون عن أرضهم وأمتهم.

ثم وهو يشمل آمنة بنظرة تفيض بالأبوة والإكبار:

ـ بورك فيك يا ابنتي، فقد أثريت هذا الدرس بأمر لا ينبغي أن يفوت أيّ فتاة تتطلع للمستقبل..

وتابع قائلاً في حماس:

ـ الفتــاة المؤمنة.. فتاة حيفــا ويافا وعكا والقــدس والخليل.. فتاة فلســطين.. لا يمكن لها أن تربي أطفالها إلا على سيرة أولئك العظماء، الذين دحــروا العــدوان، وحققــوا النصر، وحافظــوا على حقــوق الأمة وكرامتها..

ثم وهو يشير بيده تلقاء الشرق..

ـ على بعد ســويعات من هنا مثــلاً.. تقع حطين، حيــث هزم الناصر

صلاح الدين الصليبيين، فكتب بنصره ذاك بداية نهايتهم في هذه البلاد.. وقرب حيفا يقع مرج بني عامر.. السهل الذي شهد معركة عين جالوت، حيث حطم الظاهر بيبرس على ثراه جيوش المغول، وقد تكون إحداكن من قرى هذا المرج، الذي يعج اليوم بالغرباء الذين تعرفنَهم جيداً!.

وتبادلت البنات نظرات واجمة، وقد أدركن ما يرمي إليه الشيخ، فالكل يعرف عن مكائد وحكايات اليهود الذين سيطروا على أراضي أهاليهنّ أو أقربائهنّ في مرج بني عامر، ليقيموا عليها مستعمراتهم..

وأثار الأستاذ الجديد إعجاب الطالبات بكلماته، التي حركت كوامن القلق والمخاوف، التي تملأ بيوت حيفا، إزاء هذا الخطر الداهم، ولم يتوقعنَ أن يحوّل دعابة خطبة آمنة، إلى درس في حب الوطن وتربية الأبطال الذين سيذودون عنه، كما لم يتوقع القسام أن تستقبل البنات كلماته بهذه الجدية وهذا الانتباه، وقد ظنّ أنهن وهنّ في سن الصبا، يتفتحن على الحياة بمرح وإقبال، بعيدات عن جو الغليان الذي يسري في البلاد، إزاء مايفعله الإنجليز والمهاجرون اليهود..

وأراد الشيخ عز الدين أن يعمق الحدود التي رسمها لطالباته، مستثمراً تفاعلهن مع الحديث، فطلب من آمنة الوقوف ثانية، وطلب من البنات تحيتها، ليطيّبَ خاطرها..

- طلبت أن نحيّي آمنة، لأنها تشعر بمسؤولية ماهي مقدمة عليه، فالفتاة كما يجب أن تتعلم القراءة والكتابة والحساب، عليها أن تتعلم كيف تكون أمّاً فاضلةً قادرةً على تربية الأجيال.

وشعرت آمنة بامتنان عميق لهذا الأستاذ الرائع، الذي شملها بكل هذه الرعاية، وكل هذا الاحترام.

# ٢٧

اســتبدّت بالشــيخ عز الدين رغبة في المشــي، فحملته قدماه إلى الشــاطئ.. كان الجو رائعاً، والنسائم الباردة المشــبعة بأنداء المطر، تمسّ الوجوه مسّــاً رقيقاً، فتنعش الأرواح، وتبعث فيها أشــواقاً وخواطر شتّى..

ورغم أشــعة الشــمس، التي كانت تتســلل من بين الغيــوم بين الحين والآخر، إلا أنّ الجو كان ينذر بيوم ماطر، توشــك غيومه السوداء أن تطرح أحمالها من الخير مرة واحدة.

وأصغى الشــيخ إلى صوت الموج الصاخب، فألفاه يتراكض نحو ســور الشــط الحجري الصغير، في محــاولات لا تيأس، للقفز فوقــه، كي تعانق مياهه الرمــال القديمة، التــي حال هذا الســور بينه وبينهــا، منذ أن مدّ المهندســون قضبان القطار الحجازي، حتى لا تصاب بالصدأ، فحرموه من صحبة امتدت منذ الأزل..

وتوقف القســام يراقب هذا المنظر، مستسلماً لرذاذ الأمواج المتكسرة على حافة السور، وهي ترشــقه من آن لآن، وكأنها تتوسل إليه أن يفتح لها ثغرة أو باباً، يسمح لها بالانسياح الحرّ فوق شاطئها القديم، الذي افتقدته، كرما لقطارٍ صاخبٍ أصبح سيد المكان.

وأرسل الشــيخ نظراته نحو الأفق البعيد، يتأمل لوحة الصباح الرائعة، التي أثارت في خاطره شــجوناً.. وراح يناجي أطيافاً بعيدة، يســترجع معها أياماً وأحلاماً وذكريات..

وانتزعته صفارة القطار الحجازي، الذي تحرك للتو نحو الشــام، من لحظات التأمل التي اغتســلت بها روحه، فودّعه بطرف حزين، وقلبٍ أرهقه

الحنين لأحبة خلّفهم هناك، وتحرك في الشـيخ شوق لم يبرأ منه، منذ أن طوى أيامه الأولى في فلسطين.

وراح يرقب طيور النورس، التي كانت تسابق القطار في رحلته، ثم تهوي نحو البحـر، تعبّ من هوائـه الصافي العليل، ثمّ تنقض علـى صفحة الموج المتلاطم، لتلتقط بعض الأسماك الصغيرة، تملأ بها معدة كانت خاوية طيلة الليل، وما أن تسد جوعها، حتى تنتشي بالامتلاء، فترفرف سعيدة حول سفن الميناء، وكأنها تحتفل بصيدها الوفير..

وحملتـه روحه إلى الشـمال.. إلى الأسـرة الصابرة، التـي حملت معه همومه منـذ أن التحق بحركة الجهاد.. إلى الأهـل والأحباب.. إلى حواكير التين والزيتون وبسـاتين الليمون.. وندّت عن روحه المعذبة تنهيدةٌ عميقة، بعثرتها الريح في كون ملبد، فما لبث البرق أن أضاء الدنيا بخيط يشعشع بالنور إيذانـاً بالمطر، وأطلق الرعـد صوته الكوني العظيـم، وكأنه طلقة البداية لسـباق طويل، فانهمر المطر مدراراً، لعلّ الكون قد أصغى لوجيب قلب القسام، فأراد أن يمنحه بعض الأمل بخير يقترب..

وراح المطر ينهمر بسـخاء، فأسرع الشـيخ يبحث عن ملاذ يحميه من حبات المـاء، التي تقاطرت كسـيل لا يريد أن ينقطـع.. كان مطراً لم يرَ القسام مثله من سنين.. وكادت الشوارع تقفر من المارة، إلا من مضطر أو باحث عن مأوى يعصمه من الماء..

وحثّ الشـيخ الخطا، وهو يشـدّ طرفي جبته إلى بعضهمـا، يقاوم بها سطوة الريح، ويحاول أن يتقي مزيداً من البرد والبلل، حتى إذا اقترب من بوابة الدار، لمـح بائعاً متجولاً، قد لاذ مع عربتـه بالحائط، يحاول حماية رزقه من المطر، ودنا منه، فوجده منهمكاً في حماية حمله من الثوم، الذي كان يبدو مازال على حاله، لم يبع منه شيئاً بعد.

ـ هل أساعدك بشيء؟.

رفع البائع رأسه في تأثر، والهمّ يعيث في عينيه. قال بلهفة، وهو يشدّ أطراف غترته، فوق أكوام الثوم المهدد:

ـ دبرني ياشيخنا، الله يخليك.. هذا المطر سوف يقضي على رزقي.

ـ تفضل لترتاح عندي، وتحمي بضاعتك من البلل.

ثم وهو يشير إلى البيت:

ـ المنزل هنا، تفضل..

ـ جزاك الله خيراً.. الحقيقة أنّي لست في حاجة إلى الراحة، بل في حاجة إلى النجدة!

ـ بماذا أساعدك؟..

ـ هل تشتري مني هذا الثوم؟.

ـ أشتريه؟!.

ـ سأبيعه لك بنصف رأسماله.

ـ لماذا تستعجل عليه؟

ـ مضطر يا شيخي. مضطر.

تأمل القسام السماء التي مازالت ترسل الماء مدراراً، ثم توجه إلى الرجل..

ـ قد لا أستطيع شراءه كله، ولكن خبرني عن قصتك، لعلّي أستطيع المساعدة..

ـ لا وقت لدي.. سأعرض عليك عرضاً آخر.. أرهن حمل الثوم هذا عندك بجنيه واحد، استأجر به عربة أو حنطوراً يحملني إلى أهلي في الياجور، علّني ألحق بهم قبل أن تحدث كارثة..

ـ كارثة؟!.

- الأمر يصعب شرحه الآن.. كل ما أريده الوصول إلى أهلي في أسرع وقت.

تحرك الشـيخ بسـرعة، وطرق الباب بإلحـاح، فلم يلبث الشـيخ علي الحاج عبيد أن أطل، فابتدره قائلاً:

- أرسلْ الشباب ليساعدونا بسرعة..

ثم التفت للبائع.

- هات العربة إلى هنا، سأعطيها لمن يعتني لك بها في الداخل.

كان البائع مستسلماً لأوامر الشيخ، وقد آنَس منه القبول.

وعاد الشيخ علي مع الشيخ حنفي، يتبعهما ظافر وعبد المالك القسام، تلبية لنداء الشيخ..

- احملوا هذا الثوم إلى الداخل، وجفّفوه جيداً!.

قال الشيخ حنفي باسماً:

- من سيأكل كل هذا الثوم يا شيخ عز الدين؟

رد عليه الشيخ عز الدين بنبرة صارمة:

- ارتد ملابسك ياشيخ عارف، وأسرع معي. ثمة أمر هام.

## ٢٨

كان المطر لايزال شديداً، وكانت ساحة الحناطير غارقة بالسيول، وقد لفها الضباب والمطر، وأقفرت إلا من بعض الحناطير المشغولة بركابها، الذين لاذوا بها هرباً من هذه المطرة القوية، وأوقف القسام حنطوراً أوصل راكباً للتو، بينما اندفع إليه بائع الثوم، فسبقه السائق بالسؤال.

- إلى أين؟.

- إلى الياجور.

- الياجور؟.

قال الرجل موضحاً:

- ليس قرية الياجور بالذات.. إلى مشارف الياجور.. عند منطقة البراكيات..

هتف صاحب الحنطور منكراً، وهو يشير إلى السماء:

- في هذا المطر؟!

قال له القسام:

- ها أنت تعمل في المطر، فما الذي اختلف؟.

- يبدو أنك لا تعرف هذه المنطقة يا شيخنا!..

صمت الشيخ، وقد تاهت نظراته بين البائع والسائق، فهو حقاً لا يعرف!

أردف السائق:

- الطريق الذي يتحدث عنه الأخ ياسيدنا طريق ترابي وعر، ولا بدّ أنه الآن مليء بالوحل والطين، وقد تغرز عجلات الحنطور فيه، فنعلق جميعاً.. اعذروني ياجماعة.. لا يمكنني خدمتكم في هذا المشوار..

وشدّ رسن بغليه، ومضى حتى غاب خلف الضباب..

وضرب الرجل كفّاً بكفّ..

- جماعتي ضاعوا ياشيخي.. ضاعوا..

- جماعتك؟!.

- زوجتي وطفلي. تركتهم في كوخ لم ننته من تدعيمه وبنائه بعد، وقد آثرت أن أكسب هذا اليوم ببيع حمل الثوم في حيفا، وأعود باكراً لأكمل بناء الكوخ الذي انتقلنا إليه بالأمس، لكن المطر داهمني كما ترى..

قال الشيخ حنفي مواسياً:

- تفاءل بالخير.. إن شاء الله تجدهم بسلام..

التفت إليه الرجل:

- أنت لا تعرف المنطقة يا أخ، الكوخ الذي أحدثك عنه من ألواح الصفيح، وقد تخلعه الريح أو تجرفه السيول..

رقّ الشيخ لحال الرجل، فربت على كتفه يصبّره:

- سلمهم لله، المهم أن نصل إليهم بسرعة.

وراحوا يرقبون الطريق بقلق، حتى إذا رأوا عربة مسرعة قادمة من جهة سوق الحسبة، هرولوا باتجاهها..

- هششش..

والتفت الحوذي، يسأل:

- أمر؟.

- نريدك أن تحملنا إلى الياجور..

- لا تؤاخذني يا طيب. وصلت حالاً من يافا، وماصدقت أنّي رميت حمل البرتقال لصاحبه في الحسبة، حتى أسرعت إلى بيتي لأرتاح.. وقد ظننت أن مقصدكم على طريقي، فقلت أحملكم معي لله، ولكن..

وصمت لحظة ريثما التفت إلى ساحة الحناطير:

ـ انتظروا.. فقد تجدون حنطوراً يحملكم إلى هناك.

انبرى الشيخ عز الدين مفاوضاً:

ـ مضطرون يا أخ، ونبحث عن وسـيلة نصل بها إلى الياجور.. سيكون لك ثواب كبير لو خدمتنا بهذا المشوار.

وقال بائع الثوم يغري السائق، وقد خشي من تردده:

ـ سأدفع لك كل ما تريد، المهم أن تحملني إلى هناك.

وأردف الشيخ القسام بنبرة اختلطت فيها الصرامة بالرجاء:

ـ الرجل يا أخ لديه مشكلة هناك، ولا بد أن يصل إلى داره في أسرع وقت.

هز السائق رأسه وهو يتأمل وجه القسام..

ـ إذا لم أخطئ فأنت الشـيخ الذي كنت تحدث النـاس بالأمس في الجامع الكبير بعد العصر.

ـ صدقت.

ـ «كرمال» هذه اللحية أنا حاضر لخدمتك.

ودبت الحماسة في الأوصال..

ـ تفضلوا بالركوب.

استدرك القسّام، وقد فاجأتهم موافقته..

ـ ولكن، كم تريد؟

ـ أنت تأمر ياشيخ.. المهم أن تدعو لنا بالتوفيق.

لم يرض الشيخ بعرض الرجل، فحاول أن يخرج النقود من جيبه.

قال الحوذي بنبرة حاسمة:

ـ الحساب واصل يا شيخنا.

ـ لكن من حقك أن تنال الأجر الذي تستحقه رحلة في مثل هذه الظروف.

ـ الناس لبعضها يا شيخي، تفضل.. ولا تحرمني ثواب هذه النقلة.

كان القسام ممتناً لهذا النبل الذي كان يختفي تحت الأسمال، وتفاءل بهذه الروح..

وانطلقت العربة تنهب الأرض، وتخترق الضباب.

## ٢٩

كان الشـيخ عز الدين يجلس بجانب السـائق، وهو يرتجف من شـدة البرد، بينما جلس بائع الثوم مع الشـيخ حنفي في الخلف، وهو يفرك يديه مسـتدعياً بعض الدفء، وسـأل الشـيخ حنفي بائع الثوم عن قصته، فراح يرويها، وهو يرفع كتفيه، ويضم يديه إلى صدره من شدة البرد..

ـ قصتنا طويلة ومريـرة، بدأت من زمن طويل.. حيـث كنا نعيش في أرض واسعة ورثناها أباً عن جدّ، لكنْ عندما رفع العصملّي الضرائب عليها، عجز أجدادنـا عن دفعها، فباعهـا المتصرف بالمزاد العلني، فرسـت على واحد لبناني من بيت التويني..

ـ الشاري أخرجكم منها؟

ـ لا. تركنا التويني في الأرض لنفلحها له، مقابل أن ندفع له نسـبة من الرزق ونعتاش بالباقي، إلى أن جاء اليهود وأغروه بالمال، فباعها لهم، وهنا حدثت المصيبة الكبرى!.

ـ كيف؟

ـ لم نلبث أن أفقنا على جنـود الإنجليز ومعهم الوكيل اليهودي، وهم يهددونا بإخلاء الأرض خلال يومين وإلا سـيخرجونا بالقوة.. وهكذا كان.. خرجنا مرغمين، وتفرقنا في البلاد..

هتف الحوذي، وهو يقود عربته بمهارة، وعينـاه تحاولان اختراق كثافة الضباب:

ـ اليهود يشـترون الأراضي، حتى يؤمنوا أماكن لمئـات اليهود الذين يهاجرون إلينا كل يوم.

ولم يلبث أن التفت إلى الشيخ عز الدين:

- عندي سؤال ياشيخنا.
- تفضل.
- ما حكم الذي يبيع أرضه لليهود؟
- حرام بكل تأكيد.
- لكنهم أهل كتاب!.
- لو كانوا من يهود هذه البلاد فلا مانع.. فأهل الكتاب لهم مالنا وعليهم ما علينا، كما أوصى الرسول ﷺ.. أما إن كانوا من هؤلاء اليهود المهاجرين، الذين تأتي بهم بريطانيا والمنظمة الصهيونية كل يوم ليشتروا الأراضي، ويبنوا المستعمرات، ويستوطنوا في البلاد، فلا يجوز أن نبيعهم أرضاً، أو نهيئ لهم ما يتمكنون به من البقاء والاستمرار.
- لكنهم يهود. أليس اليهود من أهل الكتاب؟.

ابتسم الشيخ:

- هؤلاء اليهود غرباء، جمعتهم الصهيونية من دول شتى، وأقنعتهم بأن فلسطين وطن اليهود، وأخذت من بريطانيا وعداً بأن تمنحهم أرض فلسطين ليقيموا عليها وطنهم المزعوم.. وبريطانيا لما بينها وبين المنظمة الصهيونية من مصالح واتفاقات، تريد أن تقهر أهل هذه البلاد ليقبلوا بإعطاء أرضهم لهؤلاء الغرباء، الذين يستخدمون الآن المال للحصول على الأراضي، وهاهم يتمددون يوماً بعد يوم، ويتسلحون.. بل وحاولوا السيطرة على حائط المبكى بالقوة، بحجة أن تحته معبد نبيهم سليمان، ولا تدري ماذا سيفعلون غداً عندما يزدادون عدداً وقوة.. فكيف نأمن لهم، وقد أصبحوا مع أعدائنا علينا؟.

- هتف السائق في حماس، والبخار يتصاعد من شفتيه من شدة البرد:

ـ اللّه أكبر.. أنا قلت هذا للشيخ عبد الغني، لكنه ظلّ يقول لي أنهم أهل كتاب!.

ـ من الشيخ عبد الغني؟.

ـ الشيخ عبد الغني عون، شيخ طيب من حارة العراينة في يافا، شيخ طيب لا يحب المشاكل.. يقول أن اللّه لم يخلق الإنسان ليقتل أخاه الإنسان.

ـ هذا حق، لكن إذا اعتدى هذا الإنسان عليه، وهدد ماله وأرضه، ألا ينبغي أن يدافع عن نفسه.. بل يأثم إن لم يدافع عن نفسه وماله وأرضه.. فكما أخبر النبي عليه السلام.. من مات دون ماله أو بيته أو عرضه فهو شهيد..

وأضاف:

ـ قل له الشيخ عز الدين القسام يقول بهذا، وإن أراد زرته وحاورته فيما يقول.

تنهد الحوذي..

ـ قلت له ياشيخي، لو كانوا مؤمنين من أهل الكتاب، لما زاحمونا في أرضنا ورزقنا.. هذا لا يرضى به لاموسى ولا عيسى ولا محمد، لكنه مازال مخدوعاً بهؤلاء..

وسأل الشيخ بائع الثوم:

ـ حتى الآن لم تقل لي ما اسمك يا أخي.. بماذا نناديك؟

ـ أنا سالم الموسى.. أبو علي.. من مرج بني عامر..

والتفت الشيخ عز الدين للحوذي الذي يقود العربة.

ـ والأخ؟..

ـ محسوبك صالح أبو شقرة.. الأصل من أم الفحم، لكنا منذ سنتين اشتبكنا مع الإنجليز، فطاردوني مع عدد من الفدائية، فهربنا، كل واحد

راح في ديرة.. لجأت أنا إلى بيت خالتي في سكنة العراينة.. حارة صغيرة بجانب مستعمرة تل أبيب في يافا.. ولما هدأت الأحوال تزوجت من ابنة خالتي، فاستقر بي المقام هناك، ومرّة اختلفت مع واحد يهودي من تل أبيب يدعى إلياهو، كان كل يومين يدخل حارة العراينة، ويعرض على الناس أن يبيعوا أرضهم لليهود..

قال أبو علي:

ـ القصة واضحة وضوح الشمس.. يريدون أن يكبّروا مستعمرتهم، فيشتروا ماحولها.

ـ جاييك بالحكي.. قلت لهذا السمج إلياهو: مالك ومال هذه الحارة؟.. في كل يوم تطلب منا أن نبيعك أرضاً جديدة؟!.

وتطورت الأمور بيننا، وكادت تحدث مشادة كبيرة، لولا أن تدخل أهل العراينة بيننا..

الشيخ عبد الغني عون ـ الله يهديه ـ قال لي: اتركه وشأنه.. بين البائع والشاري يفتح الله.. الرجل لم يعتدِ علينا ولم يؤذِنا.. إنما يسألنا فقط إن كنا نريد أن نبيع؟.

علق الشيخ عز الدين مستغرباً:

ـ يبدو أن الشيخ عون ليس على دراية بما يخطط له هؤلاء اليهود!.

ـ مسكين «على نياته» ياشيخي.. المهم إلياهو الخبيث جاء ذات يوم إلى زوج خالتي، وقال له: «خبيبي نحن نعرف أن صهرك صالح هربان من الإنجليز، انصحه على لساني أن يكفّ عن تعطيل تجارتنا.. كلما عرضنا على عربي من العراينة أن يبيع أرضه، يحرضه على الرفض».

وخشي سالم أن ينشغل صالح بقصته، فيتباطأ في المسير، قال وهو يفرك يديه من البرد:

ـ أسرع الله يخليك..

قال صالح وهو يحث بغليه على السرعة:

ـ بلا طول سـيرة، زوج خالتي تدخل، وقال: يا ابني اطمئن.. بيع لن نبيع، لكن اليهود صارت عينهم حمـرا منك، اترك العراينة واذهب لحيفا، ففيها رزق كثير، وهكذا تركت يافا «كرمال» خالتي وزوجها، الذي آواني في أيام المحنـة.. حملت حالي وجئت مـع عيالي إلى حيفا، أتـرزق على هذا الطنبر.

وسأل الشيخ حنفي:

ـ هل اليهود في يافا كثر، كما هو الحال في حيفا..

قال صالح:

ـ مثل الهمّ على القلب.. لكن لم أتعرف بالأخ الكريم..

ـ أنا عارف حنفي.. تلميذ الشيخ عز الدين.

ـ أنعم وأكرم.. مشكلة يافا أن اليهود وضعوا في بالهم أن يقيموا فيها مدينة لهم، فراحوا يشترون البساتين الغنّـاء، التي تقوم حول الحارة التي يتجمعون فيها.. ونجحوا بالمال والترهيب والترغيب أن يشـتروا الكثير من الأراضي، حتى كان لهم ما أرادوا..

ـ ما اسم هذه المدينة؟

ـ يسـمونها بالعبراني.. مدينة «تل أبيب» لكنّا نسـميها «تل الربيع» لأنه اسم الأرض التي أقاموا عليها مسـتعمرتهم أو مدينتهم.. ومع ذلك لم يشبعوا.. يراودون اليوم الناس في العراينة وأبو كبير ودرويش وكل الحارات المجاورة على بيع أرضهم لهم..

وجمع بينهم الهمّ والطريق، فبدّدوا وحشته بالكلام، وشعروا بدفء في القلوب، عزاهم كثيراً عن قسوة هذا البرد.

# ٣٠

وصلــوا أخيراً إلى مشــارف الياجور، فبــدت منطقة البراكيات بائســة كئيبة، تحكي بيوتها المبنية من الخشب والطين وألواح الصفيح، قصة فقرٍ زادته العاصفة بؤســاً على بــؤس، فقد هدمــت الأمطار والســيول بعضها، وهددت بعضها الآخر، فهبّ الســكان يســتنقذون بيوتهم البســيطة.. واحد يدعم الجدران، وآخر يضع الأحجار الثقيلة فوق ألواح التوتياء التي ســقفت بهــا البيوت، حتــى لا تقتلعها الريــح وترمي بهــا بعيداً، والثالــث يدعمها بالطين، حتى لا يتســرب إليها الماء.. وآخرون ينزحون المياه التي أغرقت بيوتهم، ويلقون بها إلى الطريق.. والنســاء يعصرن الأســمال المبتلة، التي أغرقها هذا الشتاء الغاضب، علّ الجفاف يجد إليها طريقاً.. وراحت العربة تشق طريقها فوق وحل الطريق بصعوبة..

سأل الشيخ حنفي سالم الموسى مستغرباً:

ـ ما الذي رماك على هذه الحارة.

حدجه القسام بطرف عاتب، فيما قال الرجل وهو يترجل من العربة:

ـ لم يكن أمامي سواها.. حيّ بائس لكنه يفي بالغرض.

وتساءل الشيخ:

ـ أهذه هي الياجور؟.

أجاب سالم، وهو يشير إلى التلال القريبة:

ـ الياجور يا شــيخنا تقع فيما بعد، لكن هذه الحــارات من الصفيح أقامها الفلاحون الذين طردوا من أراضيهم بسبب كومبانيات اليهود..

كان المنظر مؤلماً ومعبراً، وكان القســام غاضباً وحزيناً.. وبدا الحيُّ للشــيخ عز الدين كمنفىً للقهر، يحشــر فيه ضحايا المحنــة التي تعصف

اليوم بفلســطين.. هذا هو الوجه الآخر لمأســاة هذه البــلاد، التي تتآكل وتتسرب رويداً رويداً من بين أيدي أصحابها، تقذف بهم أطماع الغرباء إلى قاع الفقــر والبؤس والفاقــة، وتســلبهم كل أرض خصبة تمدهــم بالخير، ليعيش مكانهم الصهاينة القادمون من بعيد..

وانعطف الحنطور إلى حارة ضيقة تقــع بين صفّين متراصّين من بيوت الصفيح، وما إن وصل إلى نهاية الزقاق، حتى اكتست ملامح سالم بالذعر، وهو يرى الناس يتجمعون حول بيته، الذي يقع في نهاية الصف الأيسر من الحارة.

قفز من العربة يستطلع الخبر، وهرول الرجال خلفه..

ـ ماذا حدث ؟.. أين زوجتي وطفلي؟

أجابه رجــل كان يجرّف الطين من بيته، الذي لم يقم فيه ســوى ليلة واحدة:

ـ أنت أبو علي؟.

ـ أجل، ولكن..

ـ أهلاً بجارنا الجديد:

ومدّ يده يصافحه..

- اطمئن.. أمّ علي وصغيرها عندنا في البيت.. خلعت الرياح لوح التنك فوق الحائط الغربي من الدار، وتراكمت فيه المياه، فأســرعنا لنجدتها أنا وأهلي..

قال أبو علي وقد هدأ روعه:

ـ جزاك الله خيراً..

ـ أنــا جارك عبد الله يوســف الزيبــاوي.. ذاك بيتي.. البــاب مقابل الباب.

تبادل الشيخ حنفي نظرة مع الشيخ القسام، وعادا يتأملان الكوخ الذي يدعوه الرجل بيتاً!..

وهمّ أبو علي بالمساهمة في إنقاذ كوخه المتهالك:

- أعطني هذا الجاروف من فضلك، فقد كفّيت ووفّيت.

قال الزيباوي، وهو يشير إلى السقف المتداعي فوقهم..

- من الأفضل أن تحضر بعض الخشب والمسامير، وأظنك بحاجة إلى لوح جديد من التوتياء، فاللوح الذي وقع متآكل وضعيف، وقد لا يحمي السقف طويلاً.

أخرج الشيخ القسام مابقي معه من نقود. قال وهو يلتفت إلى الشيخ حنفي:

- اذهب معه، وأحضرا ما طلب الأخ.

وانطلقا مسرعين إلى الطنبر، بينما تساءل الشيخ عز الدين، وهو يتأمل وجه الزيباوي بإعجاب!.

- ألا توجد مجرفة أخرى أساعدك بها؟

- لا تقلق يا شيخنا. كدت أنتهي.

- من أين الأخ؟.

توقف الزيباوي قليلاً، والتفت يجيب، وهو يستند بكلتا ذراعيه على عصا المجرفة:

- من قرية الزيب قرب عكا.. لذلك يسموني بالزيباوي.

- وما الذي أتى بك إلى الياجور؟.

- الذي أتى بك وبأبي علي..

- لعلك فقدت أرضك كالآخرين؟.

لمعت في عينيه دمعة، حاول أن يداريها برمشة وإغماضة، قال بنبرة

كَسيرة، وهو يعض على شفتيه، ويهز رأسه في مرارة:

ـ بل فقدت رجولتي.

ـ حاشاك.

ورفع عبد الله الزيباوي الجاروف عاليــاً، وهوى به على الأرض بضربة قوية وشَــت بعصبيته، وراح يجرف الطين بنزق، ويجــرّه إلى الجدار، ولم يلبث أن ألقى بجاروفه جانباً، وقال بنبرة مشحونة بالغضب:

ـ لو كنا رجالاً، لمــا تركنا أرضنا لليهود بهذه البســاطة.. حتى ولو جاءت معهم بريطانيا العظمى كلها، لتنفذ عقودهم مع الملاك الظلمة.

وأردف بنبرة أعلى، وهو يرضّ التراب بجزمته الطويلة:

ـ لو كنا رجــالاً لمتنا دون هذه الأرض.. ألســنا نقول ليــل نهار أن الأرض هي العرض؟.. فماذا فعلنا؟.

ثم وهو يصرّ على أسنانه في غيظ:

ـ لو فعل كل فــلاح منّا هكذا، لما اســتطاعوا أن يزرعوا البلاد بهذه الكومبانيات، التي تكاثرت وزادت عن حدها.

وارتاح الزيباوي لليقين الذي لمسه في وجه الشيخ، فهدأ قليلاً. أردف وهو يتناول المجرفة من جديد:

ـ والشيخ من أين؟.. لهجتك أقرب إلى أهل نابلس.

ـ أنا من جبلة.

ـ جبلة؟.

ـ يبدو أنك لم تسمع بها من قبل؟..

ـ أرجو أن تعذرني.

ـ بلدة جميلة على الساحل السوري قرب اللاذقية.

توقف الزيباوي قليلاً، سأل، وهو يتأمل القسام:

ـ وما أخبار الفرنسيين؟

ـ مثل أخبار الإنجليز.

ـ الله يأخذهم.. كل الحق على السلطان عبد المجيد.. كان عليه أن يرسل إليهم جيشاً يؤدبهم، ويكسر رجلهم.

ابتسم القسام.. يوسف الزيباوي ثائر بالفطرة.. يبسط الحقائق، ويطلق الأحلام، ويأبى أن يرى الواقع إلا كما يحب أن يراه.

# ٣١

بعد أن تمّ إصلاح بيت سالم، أحضر الزيباوي «تنكة» من الحطب، وأضرم فيها النار خارج البيت، حتى إذا صارت جمراً، حملها إلى داخل البيت، ليزرع في أركانه الدفء، ويطرد الرطوبة التي بثّها المطر.

ثم غاب قليلاً، وعاد يحمل بيده اليمنى سلّة من الحطب، ليغذي به النار، وفي يده اليسرى إبريق الشاي ليغليه فوق جمر المدفأة الطريفة التي صنعها، وبعد أن اطمأن إلى النار تحت الإبريق، ذهب وعاد بصينية تحمل ما يكفي من الأكواب..

وتحلقوا حول النار، يتبادلون أطراف الحديث، ينتظرون الشاي حتى ينضج، علّه يسكت جوعاً، وينشر الدفء في أجساد أرهقها البرد والبلل. وراح أبوعلي يثني على جاره الزيباوي، وعلى جهده ونجدته..

ابتسم الزيباوي في تواضع:

ـ وكّل الله يا زلمة.. الله ـ سبحانه ـ وصّى على سابع جار.. من حكمة الله أني جالس بدون شغل اليوم.. وإلّا لكان السيل جرف حائطك الغربي كله.. لكن الله لطيف بعباده.

ثم وهو يتأمل وجهه بنظرة ودودة:

ـ الله أعلم أنك مرضي الوالدين.. لذلك يسّر الله لك من يساعدك في الوقت المناسب.

شكر سالم الجميع على وقوفهم معه، وهتف الشيخ حنفي، وهو يفرك يديه فوق وهج الجمر، يستزيد من الدفء الذي شمل المكان:

ـ سبحان من جمعنا بغير ميعاد..

سبّح الزيباوي، معه..

- لم أتعرف بالأخ؟

- محمد حنفي من جبلة في سوريا.. أنا تلميذ الشيخ عز الدين.

ثم وهو يضع كفه على كتف الشيخ، متودداً:

- الشيخ عز الدين القسام أستاذي وحبيبي، وهو أيضاً قائدي وأميري في الثورة التي جمعتنا ضد الفرنسيين.

صمت الرجـال، وكأن على رؤوسـهم الطير، لم يخطـر ببالهم، أنهم يجلسون في حضرة عالم وقائد جاهد ضد الفرنسيين في سوريا.

تأمله الجميع بإعجاب وإكبار. بينما ارتبـك عبد الله الزيباوي، وهمس وقد أدهشته المفاجأة:

- أهلاً بالشيخ.. شرف كبير أن يكون ضيفنا اليوم مجاهداً مثلك!.

- العفو. أستغفر الله..

وهـبّ واقفاً، حائـراً فيما يجب أن يفعلـه، ليعبرعن حفاوته بالشـيخ، واهتدى أخيراً لما ينبغي..

- لا بد أنكم جائعون.. سأطلب منهم أن يعملوا لنا لقمة نأكلها.

قال القسام مهدئاً ومعتذراً:

- على رسلك يا أخي.. لا لزوم لكل هذا التعب.

لكأنه لم يسمع.

- أظن أن المجدرة قد نضجت. سأستعجلهم ثم أعود.

- دعنا نمضي الله يرضى عليك.

- لا والله يا شيخنا.. ليس قبل أن تأكل معنا الزاد.

- ولكن، لحظة من فضلك.

تريث مسـتجيباً لرجاء الشـيخ، الذي نظر إلى صالـح صاحب العربة فيما يشبه الاعتذار، وقد شعر أن المشـوار، قد تجاوز الوقت المتفق عليه.

قال الحوذي، وقد تاه فخراً بصحبة الشيخ:

ـ لا تحمل همّي ياشيخنا.. أنا معك، حتى تأمرني بالمسير..

وصاح الشيخ حنفي مداعباً:

ـ دعوا الرجل يستعجل المجدرة ياجماعة، ولا تقطعوا رزق الجائعين.

ضحكوا لدعابته، واستسلموا للفكرة، وقد حرك الشيخ حنفي بكلماته جوعاً كتموه في أحشائهم.

ـ أبشر.

قالها الزيباوي ضاحكاً، وهو ينطلق مسرعاً..

وكانت وليمة.. أكد بعدها الشيخ حنفي، أنه لا يذكر أنه قد ذاق مجدرة مثلها من قبل!.

## ٣٢

كان الدرس اليوم شـائقاً، لم يحدث أن تفاعلت البنات مع درسٍ مثله من قبل، وبقيت مجموعة منهنّ بعد الدرس يستزدن من الشـيخ، ويمطرنه بالأسئلة، ويصغين للأجوبة باهتمام وشغف، واقتربت الحصة التالية، فانفض أكثرهنّ، ولم تبق إلّا آمنة وصديقتها خديجة، وبدا أنهما تريدان أن تقولا للشـيخ شـيئاً، فرحب بهما بابتسـامة مشـجعة. قالت خديجة وهي تداري ارتباكها:

ـ أستاذ.. آمنة عندها مشكلة، وتريد أن تشرحها لك.

نظر القسام إلى آمنة، وقال:

ـ تفضلي يا بنتي.

تلعثمت آمنة، وهي تحاول أن تتكلم، لكن صديقتها سارعت بالجواب..

ـ آمنة تستحي كثيراً أستاذ.. وهي تريدك أن..

تساءل، وهو يرمق آمنة مستطلعاً:

ـ أن ماذا؟.

أجابت صديقتها:

ـ أنا أقول لك أسـتاذ. تريدك أن تتوسـط لها لدى أهلهـا لتأجيل العرس، حتى تحصل على الشهادة الثانوية.

ـ وهل العريس موافق؟

أرادت آمنة أن تجيب، لكن خديجة سبقتها:

ـ آمنة مجتهدة كثيراً أستاذ، مثلما تعرف، وهي الأولى على الفصل.

ابتسم الشـيخ عز الدين، وهو يصغي لصديقة آمنة، وقد نصّبت نفسها ناطقة باسمها.. وسألها باسماً:

ـ أهي وكّلتك بالحديث نيابة عنها؟

ـ كلا أستاذ.. لكن آمنة تخجل كثيراً عند الكلام.

وقلق القسام من شيء، فسأل آمنة:

ـ ألم يستشرك الأهل في خطبتك يابنتي؟

هزت آمنة رأسها بالإيجاب، بينما قالت خديجة متدفقة كعادتها:

ـ استشاروها، وهي موافقة، لكنها فقط تريدهم أن يؤجلوا العرس..

ضحك الشيخ عز الدين، وطلب من صديقتها أن تكفّ عن الجواب نيابة عن آمنة..

ـ أريد أن أسمع منك يا آمنة..

ازدادت آمنة خجلاً، وأطرقت تداري ارتباكها بالعبث بطرف الوشاح الأبيض، الذي عقدته حول وجهها، بينما تابعت خديجة..

ـ خطيبها هو ابن خالتها، وهو يحفظ القرآن.

التفت الشيخ عز الدين إلى آمنة:

ـ أحقاً؟.

أجابت خديجة:

ـ آمنة أيضاً تحفظ القرآن.. هما مخطوبان منذ أن كانا في «اللفّة».

لكزَتْها آمنة في كتفها، وهي محرجة، بينما عاث خاطر مزعج في بال الشيخ عز الدين. قال متسائلاً:

ـ ما معنى «مخطوبان منذ الطفولة»؟.

ثم وهو يعيد السؤال حتى ينفي هواجسه:

ـ قولي يا آمنة.. أأنت موافقة على هذا الزواج فعلاً يا ابنتي؟.

بان الارتباك في عينيها، وازدادت ابتسامتها إشراقاً، فلاذت بكتف خديجة.

اطمأن الشـيخ عـز الدين.. فالسـكوت علامـة الرضى. بينمـا تابعت صديقتها..

ـ هل ستتدخل أستاذ لتأجيل العرس؟ تخشى آمنة ألّا يوافق أبوها على إكمال السنة.

قال موجهاً كلامه لآمنة، وقد أكبر فيها هذا الحرص على العلم:

ـ إصرارك يا ابنتي على إكمال العام الدراسـي شـيء مهم، يقع في صالحك كزوجة وأمّ في المستقبل إن شاء الله، ويجب ألّا يزعج أحداً، وهذا ما يجب أن نقنع به أهلك.

تشـجعت آمنة لأول مرة، وقالت، وكأنهـا ترجوه أن يحتاط، ويسـتعدّ لمنطقهم:

ـ هم يقولون أن حياة المرأة وجهادها في بيتها.

سعِدَ القسام لمشـاركتها المتأخرة، وقد فهم ما عجزت عن محاورتهم به.

ـ سـنقول لهم كما قلت لكم من قبل، أن العلم أيضاً جهاد، مثلما أن حياة الأمّ وعملها في بيتها جهاد.

تدخلت صديقتها ثانية:

ـ آمنة أستاذ، تقول أنك تستطيع أن تقنعَهم أكثر منها..

ثم وهي تلحّ بالسؤال:

ـ هل ستقنعُهم أستاذ؟.

ضحك القسام مسـتمتعاً بهذا الحوار المفعم بالعفوية والبراءة. تناول ورقة وقلماً، ودفعهما لآمنة..

ـ اكتبـي لي هنا عنـوان المنزل، وأخبـري الوالد بأني سـأزوره يوم الخميس بعد صلاة العشاء إن شاء الله.

# ٣٣

رحب الحاج أحمد السهلي، بالشيخ عز الدين القسام في بيته في حارة الحَلّيصة، وقاده إلى الداخل عبر فناء فسيح، تظلله دالية تشابكت أغصانها العارية، وقد توشحت ببياض الثلج، الذي كانت بقاياه ما زالت تذوب ببطء، بعد ليلة حافلة بالثلوج، قد تكون الأخيرة في شتاء طويل.

ودعا الحاج أحمد ضيفه إلى قاعة واسعة، بدا من ترتيبها، الحال الميسور الذي تعيشه الأسرة، فوجد في استقباله الحاج سالم الخطيب وابنه مصطفى عريس آمنة، وراحوا يتبادلون أطراف الحديث، بينما رقص قلب آمنة فرحاً بزيارة أستاذها إلى منزل الأسرة، وتفاءلت أن هذا الأستاذ الذي وجدت فيه قدوتها ومثالها في الحياة، لن يخرج إلا بإقناع والدها وعمها، بما عجزت عنه.

قال الحاج أحمد موجهاً كلامه لنسيبه الحاج سالم:

ـ الشيخ عز الدين القسام من خيرة الأساتذة، الذين يعلّمون بناتنا في مدرسة البرج.. أنا لم أر بنتنا آمنة تمدح معلماً ـ ولا حتى معلمة ـ من قبل، بهذا القدر من الإعجاب، فأدركت بأن الشيخ عز الدين معلم قدير، نشكر الله أن منحنا في حيفا مثله.

شكره الشيخ القسام على هذه الشهادة، بينما تحدث الحاج سالم لأول مرة، فقال:

ـ عندما أخبرني أخي الحاج أحمد بقدومكم، حرصت أنا وابني مصطفى على الحضور للتعرف على شخصكم الكريم، لأني سمعت عنكم وعن جهادكم العظيم ضد الاحتلال الفرنسي في ساحل الشام من صديقي الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم، زميلكم في الجمعية الإسلامية..

قال الشيخ عز الدين وقد فاض به الحرج والتواضع:

ـ والله أنا لا أستحق كل هذا، فما قمت به وأقوم به واجب لا يستحق المديح.

ثم أضاف وهو ممتن لهذه الحفاوة:

ـ لكم يسعدني اليوم أن أدخل بيتاً كريماً من بيوتات حيفا، وأتعرف على هذه الوجوه الطيبة.

وسأل الحاج سالم:

ـ ما رأيك يا أستاذنا في هذا البلاء.. الخلافة في أفول، والأجانب يحاصرون البلاد والعباد..

قال القسام وقد بانت المرارة على محياه:

ـ الخلافة لم تعد الخلافة التي نعرفها.. الطورانيون والماسون يسيطرون على مقاليد الأمور.. والخليفة محمد رشاد مجرد اسم وصورة.. أما الذين يحكمون الخلافة اليوم، فهم يهود الدونمة، ولكنْ من وراء ستار..

وطُرق الباب، فنهض مصطفى وعاد بصينية الكنافة النابلسية، وراح يوزعها على الصحون، ويغرقها بالقطر، ثم يقدمها للحاضرين، مبتدئاً بالشيخ.

قال الشيخ عز الدين وهو يتذوق الحلوى، التي لا تقل رائحتها شهية عن طعمها:

ـ ماشاء الله.. حلوى لذيذه.. هذه أول مرة أتذوق الكنافة بهذا الطعم المميز.

سرّ الحاج أحمد بشهادة الشيخ عز الدين، فابتسم..

ـ «صحة وهنا».. هذه الكنافة من صنع بنتكم آمنة.. أنضجتها على

الجمر، وعملت قطرها من السكر الممزوج بزهر الليمون، تعلمتها من أمها وخالتها وبرعت فيها.

وكان الحاج أحمد السهلي والحاج سالم الخطيب قد داخلهما الفضول منذ أن عرفا بهذه الزيارة، فخطر لهما أن الأستاذ عز الدين ربما قد يكون فكّر بآمنة لابن من أولاده، فتحفزا لاستيعاب هذا الاحتمال، وأراد الحاج أحمد أن يمرر في الحديث ما يبدد أيّ نية لدى الشيخ بطرق هذا الباب، تجنباً للإحراج، فقال وهو يتبادل نظرة مع الحاج سالم..

ـ أنت تعلم عادة النساء في تدريب البنت على ما يهيئها لبيت الزوجية، فهي خطيبة مصطفى، وسوف نفرح بهما إن شاء الله عما قريب.

بان الحياء على مصطفى، فأطرق مبتسماً. بينما علق الشيخ عز الدين:

ـ ولعل هذا هو سبب زيارتي لكم اليوم.

ازداد القصد من الزيارة غموضاً، فأصغيا للحديث بفضول أكبر..

ـ في الحقيقة يا إخوان جئتكم اليوم في مهمة أراها ثقيلة.. وعندي شعور بأني لن أعود خائباً..

ـ نرجو أن نكون عند حسن ظنك يا شيخ عز الدين..

هكذا علق الحاج أحمد، بينما نهض مصطفى يصبّ القهوة العربية في الفناجين، بعد أن غلت طويلاً على جمر المدفأة..

ـ الموضوع يتلخص في اقتراح سيجمع خيرين في خيرٍ واحد.

زاد الأمر غموضاً، وتفاقم الفضول..

ـ أعرف حرصكما على إتمام عرس آمنة ومصطفى جمع الله بينهما بخير، ولكن العام الدراسي لم يبق له سوى أشهرٍ قليلة، فهل أتعشم أن يتم تأخير القران إلى الصيف، ريثما تتمكن آمنة من اجتياز الامتحان، وتحصيل الشهادة الثانوية، فتفوز بالمرتبة العالية، ونفوز بالفرحة التي نتطلع إليها جميعاً؟.

ابتسم الحاج أحمد السهلي، وقد أدرك الآن، أن آمنة قد أرسلت له من لا يستطيع أن يرد طلبه:

ـ والله يا شيخ عز الدين زيارتك غالية، ولكنك فاجأتني للتوّ، وعلى كل حال، فالرأي ليس لي وحدي، فأرجو..

قاطعه الحاج سالم بأريحية، لم يتوقع الشيخ عز الدين أن تأتي بهذه السرعة:

ـ إذا كنت تقصدنا ياحاج أحمد، فلا تكن محرجاً، وأظنّ أن ابني مصطفى أيضاً لن يمانع..

ثم وهو يضحك مشيراً إليه:

ـ وإن كان مستعجلاً للقاء عروسه كما أعرف.

ضحكوا للدعابة، بينما أطرق مصطفى، وهو يداري ابتسامة تنم عن أدب، ولا تنفي موافقته على ما نوه والده به مداعباً، وأردف الحاج سالم مستدركاً:

ـ لكن المشكلة في بعض الأقرباء والمدعوين الذين أخذوا علماً بالموعد.

قال الشيخ عز الدين:

ـ أرجو ألّا يكون ذلك عائقاً.. الناس ستعذركم، عندما يتضح السبب..

ضحك الحاج أحمد وقال:

ـ بقي إنسان واحد يا شيخ عز الدين.. إن استطعت أن تقنعه، فلن يكون هناك عائق!.. دعني أدعوه لك.

# ٣٤

غاب الحاج أحمد، وعاد برفقة عجوز مسنّ، بدت على وجهه المهابة والسماحة، وقد حفّت بوجهه المشرب بالحمرة لحية بيضاء زادته وقاراً.. ورغم أساريره المليئة بالأخاديد، إلا أن نظرته الهادئة، كانت تنبئ عن روح مطمئنة، لكن الحزن الذي يطلّ من عينيه، كان يشي بكثير مما راكمته السنون فوق محياه من هموم وأحداث..

هبّ القسام مرحباً بالعجوز، الذي ألقى تحية السلام بنبرة مرتعشة، وراح يتأمل وجه القسام، ويحكّ ذاكرته محاولاً التعرف عليه!. بينما أسرع مصطفى إلى العجوز وقبّل يده، ثم قاده متأبطاً ذراعه، ليختار مجلسه..

ودعاه القسام ليجلس بجانبه في صدر المجلس. لكن العجوز تقدم ببطء، وهو يتكئ على عصاه بيد، ويده الأخرى مستسلمة لحفيده مصطفى، وخاطب الضيف معتذراً:

ـ اسمح لي أن أجلس قرب الموقد، فأنا بردان.

وبادر الحاج أحمد معرفاً..

ـ عمي الحاج عبد الرحمن الخطيب، جدّ آمنة.. أكثرنا حماساً لهذا الزواج، وإصراراً عليه وعلى التعجيل به.. ولهذا قصة مهمة سأرويها لك، حتى تقف على ما يعنيه هذا الزواج بالنسبة لأسرتنا، وما تعنيه آمنة ومصطفى بالنسبة للختيار ـ الله يطول عمره ـ وبعد ذلك، أترك لك أن تجرب حظك معه، فلعله يرضى بما وسطتك آمنة من أجله.

هتف الحاج عبد الرحمن، وهو يتأمل وجه القسام فجأة، وقد استقر به المجلس قريباً من الموقد:

ـ قالوا لي أنك مدرّس آمنة!.

ـ الله يسلمها..

ـ تشبه أولاد رنّـو.. الحاج أنور رنّـو يقرب لك؟

ضحك الحاج سالم، وقال:

ـ الشـيخ عز الدين أزهري من اللاذقية شـمال سـوريا، كان يجاهد ضد الفرنسـيين هناك، حتى حكموا عليه بالإعدام، فجاءنا إلى حيفا.. وهو يعمل الآن أستاذاً في مدارس البرج للبنات.

تأمل الجد الشيخ القسام بنظرة متفحصة، لا تخلو من الإعجاب. أحاط قمة عصاه بقبضته، ونقر بها الأرض، وقال:

ـ حياك الله يا شـيخ عز الدين.. هـؤلاء الأجانب طمعـوا بنا كثيراً. أليس كذلك؟.

ـ صدقـت ياعـم.. لقـد طمعـوا وتمـادوا.. هنـا الإنجليـز وهناك الفرنسيين.. والحبل على الجرار.

ـ وأين السلطان عبد الحميد؟.. ألم يسمع بكل هذه البلاوي؟.

ابتسموا لذاكرة لم تنس سلطاناً صار في خبر كان..

ـ السـلطان عبد الحميـد خلعوه يا حـاج.. تآمر عليه يهـود الدونمة وأعداء الخلافة، وخلعوه من زمان، ولم يعد له من الأمر شيء!.

ـ يهود الدونمة؟!.. ماذا يقربون لليهود الذين عندنا؟!

ابتسم الشيخ عز الدين، وأجاب:

ـ يهود مثلهم، ولعلهم خلعوه من أجلهم..

قال مصطفى، وهو يعرّف الشيخ عز الدين بجدّه:

ـ جدي مجاهد مثلك يا شـيخ عز الدين.. قاتل فـي أول ثورة قامت ضدّ أول مستعمرة أقامها اليهود في حيفا.. منذ أكثر من ثلاثين سنة.

أيّـد الجدّ كلام مصطفى، وهو يفرك يديه فوق الموقد:

ـ مستعمرة بتاح تكفا.. في الخضيرة.. سمعتَ بها؟..

هز القسام رأسه، وابتسم ابتسامة مرّة، وقال:

ـ منذ أن قدمت إلى حيفا، وأنا أسمع كل يوم عن مستعمرات جديدة..

علق الحاج سالم:

ـ هذه أول مستعمرات اليهود في فلسطين.

أردف العجوز:

ـ خذ من هذه اللحية يا أستاذ.. إذا لم يوقف العرب هؤلاء اليهود عند حدهم، فسيأخذون البلاد كلها.. اليهود يا أستاذ أخطر على فلسطين من بريطانيا وفرنسا.. اسألني أنا.

واستدرك الختيار متوجهاً لابنه:

ـ هل دعوتم الشيخ عز الدين إلى العرس؟.

تبادل الحاضرون نظرة باسمة، وأكد له الحاج سالم أن الدعوة قد تمت، بينما ابتدر الحاج أحمد الشيخ عز الدين، برواية قصة هذا الزواج، الذي يشغل على ما يبدو بال العجوز، ويجعله شديد الحرص عليه..

ـ عمي عبد الرحمن كان تاجر حبوب.. كان يدير أراضٍ واسعة بين قريتي الخضيرة وملبس، يزرعها مع شريكه بالقمح و..

قاطعه الجد، وعيناه تلمعان بالدمع:

ـ شريكي طاهر عنبر رحمه الله.. كان رجلاً.

وتابع الحاج أحمد يروي:

ـ كانت معظم أراضي القرية قد آلت لآل سرسق من بيروت..

تدخل الحاج سالم موضحاً:

ـ هؤلاء ملاكون اشتروا الأرض من الدولة العثمانية بثمنٍ بخس، وعندما أغراهم اليهود بالمال، باعوها لهم بثمن باهظ..

ـ بأضعافِ سعرها.

علّق العجوز. وتابع الحاج أحمد:

ـ هذه الأراضي كانت قديماً لفلاحين عاشوا فيها منذ أجداد الأجداد، وكانوا يدفعون ما يتوجب عليهم من ضرائب، وكانت مصدر عيشهم الوحيد، فلما زادت الضرائب إلى حد لا يطـاق، عجز الفلاحون عن أدائها، عرضت الدولة العثمانية هذه الأراضي بالمزاد العلني، فجاء بعض التجار من أمثال آل سرسق والتويني وخوري ومدور وغيرهم، واشتروا هذه الأراضي مقابل أن يدفعوا ضرائبها، وأعطوا فلاحيها حصة مـن عائدها، مقابل أن يظلوا فيها، ويفلحوها.

ـ إلى أن جاء اليهود..

ـ لمّا جاء اليهود يريدون أن يسـتملكوا الأراضي لبناء المسـتعمرات، راحوا يعرضون على هؤلاء الملاك أسعاراً باهظة، فدفعهم جشعهم للموافقة على هذا الإغـراء، وأعطوا اليهود الغرباء موطئ قـدم، في بلاد كانوا فيها قلة قليلة.. وكانت أرض ملبس والخضيرة من أول الأراضي التي اشتروها.

تدخل الجد، وقال بعصبية ظاهرة:

ـ اليهود اشـتروا الأرض بعد أن رشـوا المتصرف.. كان السلطان قد حرّم بيع الأراضي لليهود، لكن المتصرف سمح لهم بعد أن أخذ الكثير من الذهب.

ثم وهو يرفع كفيه للسماء:

ـ منه لله.. الخائن.

وغصّ بالكلام، فأجهش، وقال:

ـ اليهود قتلوا صديقي وحبيبي طاهر عنبر، رحمة الله عليه..

ولم يلبث أن رفع يديه إلى السماء، يتمتم بالفاتحة على روح الشهيد.

شــعر الشــيخ القســام بالتأثر، وقرأوا جميعاً الفاتحة معه في صمت، بينما اســتبد الفضول بالشــيخ عز الدين ليعرف قصة هذا الشــهيد، الذي مازالــت ذكراه حية فــي وجدان عجوز، يظــن أنه في زمن الســلطان عبد الحميد.. وســرعان ما اســتجاب الحاج أحمــد لهذا الفضول، فاســتمر في روايته:

ـ اليهود.. ما إن أبرموا صفقتهم، حتى أنــذروا الفلاحين، وطردوهم من الأرض بالقوة، وراحوا يبنون فيها، وشعر الفلاحون بالظلم، وأدركوا أن القصة إن اســتمرت على هــذا المنوال، فسيشــتري اليهود كل يــوم أرضاً، ويتمــددوا ويتمــادوا.. وكان فيهــم العم عبــد الرحمن وشــريكه طاهر من الخضيرة، ونشبت معركة مشهودة سقط فيها شهداء وجرحى..

قال الجد وهو ينقر بعصاه، وقد انفعل بالذكرى..

ـ الله يرحمه.. كان بطلاً.. قــال لي أريد أن أواجههــم فوق أرضي.. دخل إلى المستعمرة، وقاتلهم حتى سقط شهيداً.

وأجهش العجوز ثانية وهو يروي القصــة، ورانت لحظة مفعمة بالتأثر، وهم يراقبونه يبكي، تاركين له الفرصة، ليبدد شحنات الانفعال التي أثقلت روحه، وقال الحاج سالم للشيخ القسام:

ـ كما ترى.. بعد كل هذه السنين، كلما ذكر الشهيد طاهر عنبر بكى عليه.

ووصل الحاج أحمد إلى الجزء الأهمّ من القصة:

ـ كان الشهيد طاهر عنبر قد ترك خلفه زوجة وطفلتين، فتزوج العم أرملتــه، وكفل ابنتيه ورعاهما حتــى كبرتا، فزوجني واحــدة، وأعطى أختها لعديلي الحاج ســالم.. أنا أنجبت آمنة ابنتي الوحيــدة، بينما أنجب الحاج ســالم مصطفى وأخوته، ولما كبرت آمنة، ونضجت، أصرّ الختيار أن نزوج

آمنة لمصطفى، واتفقت القلوب على هــذا الزواج، وكلنا اليوم بانتظار هذه الفرحة، وهو أكثر المتحمسين لها..

وعقب الحاج سالم:

ـ العم عبد الرحمن يخشى أن يأتيه الأجل ـ بعد عمر طويل- قبل أن يطمئن على زواج آمنة ومصطفى..

أدرك الشــيخ عز الديــن أن مهمته دقيقة وصعبة، وشــعر أن وراء هذا الزواج معنــى عظيماً، لكنــه لم يجد في مســعاه ما يناقض هــذا المعنى النبيل، فلم ييأس، وقال محاولاً اختيار الكلمات..

ـ آمنة ياعم طالبة مجتهدة، وغاية في الأدب والتهذيب، وهي تستحق شاباً تبدو عليه سيماء الرجولة والصلاح كمصطفى ـ الله يسلمه ـ ومصطفى يســتحق فتاة صالحة وذكية كآمنة، وأدعو الله العلــي القدير أن يتمم هذا الأمر على خير، وأن يرزقهما طفلاً يجدد ســيرة الشهيد طاهر عنبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويحيي ذكراه..

أعجــب الحاضــرون بكلام الشــيخ عز الديــن، وشــعر مصطفى نحوه بالامتنان، مما خفف عنه صعوبة التسليم باقتراح تأخير الزواج إلى الصيف، وهو الذي يعدّ الأيام والساعات، ليحظى بتوأم روحه في ظلال الحلال، أما العجوز فقد حرك كلام الشيخ عز الدين أشــجانه من جديد، فراح يجهش في صمت، وهو يتأمل مصطفى بعيون تشعشــع بالود، وحانت لحظة مواتية، فقال الشيخ عز الدين للشيخ العجوز:

ـ لكن آمنة ياعمّ تتمنى أن تكمل الســنة الدراسية قبل الزواج، حتى تفوز بالشهادة الثانوية، وتُحصّل المزيد من العلم، وهي لا تريد أن تعصي لكم أمراً، لذلك وسطتني أن أنقل لكم هذه الرغبة، فهل تكرمني بالموافقة هذا الطلب، حتى نجمع بين الخيرين؟

رفع العجوز إلى القسام عينين مخضلتين، وقد فاجأه الطلب، فاستدرك الشيخ القسام قائلاً برفق:

- أرجو أن تعذرني على تطفلي، ولولا أني تأكدت من أني في بيت كريم وفي حضرة كرام، لما قبلت بهذه المهمة.

تأمل الحاج عبد الرحمن الحاضرين، وكأنه يستطلع موقفهم، وبعد لحظات مفعمة بالترقب، قال بصوت متهدّج، وهو يشير إلى مصطفى بعكازه، وكأنه لم يسمع ما قاله الشيخ عز الدين..

- هذا الولد يشبه جده طاهر..

ثم بصوت متهدج:

- كأنّي أرى جده أمامي. الله يرحمك يا طاهر يا عنبر.

وصمت برهة ريثما استوعب دفقات الحزن التي خنقت نبراته، ثم أخذ نفساً عميقاً، ومدّ يده لمصطفى حتى يساعده على النهوض. قال، وهو يتكئ بعكازه على الأرض، لينهض:

- كان جدك يا مصطفى رجلاً رحمه الله.. قال لي إذا سكتنا هذه المرة، فسوف تراهم في هذه البلاد أكثر من أهل البلاد.. رحمه الله.. كان بطلاً.

اعترى القلق الشيخ عز الدين، وهو يرى الجد يمضي، وقد تجاهل وساطته، لكن الجدّ ما لبث أن توقف فجأة، بعد أن خطا خطوتين، والتفت إلى مصطفى..

- إيش رأيك يا مصطفى؟.

خجل الشاب، وهو يرى جده يحيل الأمر إليه، فهو يتمنى أن يطوي الله الزمان والمكان، ليجد نفسه من لحظته مع حبيبة القلب ومهجة الروح، فلماذا هذا الإحراج؟.

قال وقد أربك الحياء لهجته..

- ليس هناك رأي بعد رأيك ياجدي.

هز الجد رأسه، ومضى قائلاً..

- الخيرة فيما اختاره الله..

ثم ما لبث أن توقف ثانية، والتفت يستدرك قائلاً بنبرة حاسمة:

- تكتبون كتاب مصطفى وآمنة في الحال. وإن بقي في العمر بقية، نفرح بالدخلة في الصيف القادم. أما إذا كتب الله لي الموت، فوصيتي لكم، ألّا تؤجلوا هذا الزواج أكثر.

منذ أن وطئت قدماه فلسطين، والشيخ عز الدين يتحين الفرص للقيام برحلة لا بد منها، وقد كان عمله الجديد في مدارس البرج مناسبة لتحقيق هذه الرحلة المنشودة.

وفاجأ أصحابه ذات مساء بأن يستعدوا للمسير عند الفجر..

- إلى أين؟
- إلى القدس.

هتف الشيخ حنفي في حبور..

- القدس!
- وتصلي في المسجد الأقصى.

وشملت الفرحة الجميع، فصلّوا الفجر في جامع النصر في الجرينة، ثم توجهوا إلى ساحة الحناطير، فاستأجروا عربة مناسبة، وانطلقوا على بركة الله، وأشواقهم تسابق أرواحهم إلى أولى القبلتين وثالث الحرمين..

وراح الرجال يستمتعون برؤية الحقول والسهول المترامية، والقرى الوادعة المتناثرة على التلال، يتأملون أشجار اللوز المزهرة، وبيارات البرتقال والليمون، وكروم العنب والتين والزيتون، وشقائق النعمان التي نثرتها الطبيعة بين الحقول، تزين بها ثوب الربيع الأخضر، بلونها القرمزي الخلاب..

كانت العربة ترقى في التلال، فتمنحهم في بطئها فرصة للتأمل في تضاريس شهدت أخطر تحولات التاريخ، وتتسارع عجلاتها عند المنحدرات والوديان والسهول، فيتفاءلون بقرب الوصول إلى أعتاب ازدادوا شوقاً إليها، وهم يصغون لأحاديث الشيخ عز الدين، وهو يروي لهم تاريخ القدس وما مرت به من خطوب وعواصف، ويحدثهم عن مكانة الأقصى في ضمير كل

مسلم.. ويروي لهم قصة الإسراء والمعراج، تلك الرحلة التي وصلت بين الأرض والسماء، وحملت الحبيب المصطفى في رحلة عبر السماوات السبع، ليصل إلى درجات لم يبلغها بشر.

ووصلوا إلى مشارف القدس، فلاحت لهم قبة الصخرة من بعيد، وهي تلمع تحت شمس بدأت تتعافى من شتاء طويل، تراخت يده الباردة عنها، لتزداد إشراقاً بألق الربيع، وثارت في النفس ذكريات مجد مضى، لكنه ما زال ماثلاً في روح تتطلع للانبثاق.. مجد الفتح العظيم.. مجد المقاومة الباسلة ضد هجمات الطامعين القادمين من وراء البحار.. مجد الانتصارات العظيمة، التي حققها المدافعون عن وجود الأمة في حطين وعين جالوت..

ودخلوا القدس من باب يافا، وراحت العربة تمضي الهوينا في الشوارع العتيقة، فتأملوا آثارها التي حاكها تاريخ عريق، ترك بصماته في كل حارة وزقاق منها، وغاص القسام في خياله، يقتفي خطىٰ الفاروق، وقد حضر بنفسه ليدشن فتوح الشام، ويستلم مفاتيح المدينة المقدسة، عندما قرر أهلها من النصارى، أن يضعوها عهدة في يد خليفة المسلمين، فكان أهلاً للأمانة، وأبى أن يصلّي داخل كنيسة القيامة، حتى لا يستغلّ ذلك مُتَزَيّدٌ في مستقبل الأيام، فيسطو على الكنيسة بحجة أن عمراً صلى فيها ذات يوم..

وألقى نظرة احترام إلى كنيسة القيامة، فأدرك سحر هذه المدينة التي صاغت من أرواح الأنبياء، عبقاً خاصاً يميزها، وصارت رمزاً للإنسان عندما تسمو روحه، وتقترب من الله تعالى، وترتفع عن غرائز الطين، التي تشدّه إلى قاع، لا ينبغي لمخلوق منحه الله تعالى العقل والروح. وأُلقيَ في روعه أن كنيسة القيامة وأخواتها، وهنّ يرحبنَ به، يشكينَ له زمناً تسرب إليه الأغراب، ليهدّدوا تلك السماحة التي جمعت أهل الأديان في ظلال الأمن والسلام.

وارتفع الأذان، فنزل برداً وسلاماً على قلوب تاقت للصلاة في المسجد الأقصى، الذي كان شاهداً على رحلة الإسراء والمعراج، وهبت ذكريات النبوة، فخفقت قلوبهم بحبّ رسولٍ، يفتقدون روحه في هذا الزمن الحزين، الذي تاهت فيه أقدام المسلمين، وتفرقت بهم السبل، وهانوا بعد أن استهانوا بما لديهم، فأصبحوا غثاء..

واقتربوا من المسجد، فاستوقفتهم بئر كبيرة تزدحم بالناس.. فعرفوا أنها نبع الماء العذب، التي يستقي منه سكان القدس، وشاهدوا السقاءين يتساعدون في جرّ الدلاء، فبهرهم المنظر بجماله، وشربوا من مائها المثلّج، فسرت برودتها في عروقهم، وأيقظت فيهم نشاطاً وحماساً..

ووصلوا إلى أعتاب الأقصى، فدخلوه قانتين.. وخشعت أرواحهم في رحاب القبلة الأولى، عندما كان المسلمون الأوائل يتوجهون إليه في صلاتهم.. ووقعت عينا القسام على منبر صلاح الدين، فخيل له الناصر المظفر، وهو يخطب خطبة النصر، وقد طأطأ الرأس تواضعاً لله، الذي كان له عوناً في تحرير القدس من الغاصبين.

وانتقلوا إلى مسجد قبة الصخرة، فصلوا ركعتين، تحية لهذا المصلى الذي وصفه النبي ﷺ، بأنه قطعة من الجنة.. وبهرهم البناء الأموي العريق، الذي زينته أنامل الفنانين المسلمين عبر العصور، وراحوا يتأملون النوافذ الزجاجية الملونة، وما رسمه عليها المبدعون من زخارف.. حتى إذا وصلوا إلى الصخرة، التي عرج منها النبي ﷺ إلى السماء السابعة، خشعت أرواحهم لجلال الذكرى، وحملتهم نفحاتها إلى سدرة المنتهى، فسبّحوا الله، واستغفروه طويلاً.

وقضوا في القدس أوقاتاً لا تنسى، وبدأت رحلة العودة.. فمروا بحائط البراق، فلاحظوا جلبة واضطراباً، ما لبث أن تطور إلى ملاكمة بالأيدي

بين حراس الأقصى ومجموعة من الغرباء، تأكّد لهم أنهم من اليهود..

وسأل ظافر أحد المقدسيين عمّا يجري.. فأخبره أن الصهاينة يحاولون أن يرفعوا علمهم فوق الحائط، الذي ما زالوا يصرون على احتلاله منذ سنوات.

وسأل الشيخ حنفي شيخه: هل ننزل ونساعد؟

تمنى الشيخ لو أجابه إلى ما طلب، لكنّ الأمر لم يكن يخلو من العواقب، على ثلّة ما زالت تتلمس خطاها في هذه الغربة. وحوقل القسام:

- اتركهم.. فللبيت ربّ يحميه.

وحضرت دورية بريطانية لتفصل بين الطرفين، لكنّ أحد اليهود استطاع أن يفلت ويغرس علم الصهيونية في شق من شقوق الحائط الصخري، وأخرج الضابط البريطاني لمّا رآه مسدسه، وأطلق طلقة في الهواء، فتراجع الصهيوني، لكن العلم ظلّ في مكانه!.

وظنوا أن الضابط سيمضي إلى العلم، فيخلعه، إحقاقاً للحق، وتنفيذاً للقانون الذي يؤكد بأن هذا الحائط للمسلمين، لكنه استدار، وركب مع رجاله، ليغادروا الساحة، وكأن شيئاً لم يحدث!.

وقال الشيخ حنفي:

- ماذا فعل؟.. لكأنهم جاؤوا ليساعدوا اليهود في وضع العلم.

ضحك المقدسي، وقال..

- هذه قصة كلّ يوم.. مرّة يعلقون العلم، ومرّة يضعون الكراسي والطاولات، ليثبتوا حضورهم في المكان.. والحراس يا مساكين.. تارة يصدّونهم، وتارة يأكلون علقة من المعتدين.

وقفل الرجال عائدين..

كان القسام شارداً يفكر فيما جرى وكان..

«يأبى الظلم إلا أن يعكر أرواحنا، ويزرعها بالغضب».

# ٣٦

ما زالت الثورة في الساحل تشغل بال الشيخ عز الدين وأصحابه، ومنذ أن حطّوا الرحال في حيفا، انقطعت عنهم المعلومات، إلا من زائرٍ قادمٍ من الشـــام، أو لاجئٍ لاذَ بحيفا هرباً من سطوة الفرنسيين، وكلما وجد الرجال وقتاً، قاموا بزيارة محطة القطار أو سوق الشوام أو ساحة الحناطير، علّهم يعثرون على قادمٍ جديد، يتسقطون منه الأخبار..

وذات مساء اجتمع الرجال على العشاء إلا ظافراً!..

ـ أين أخوك؟..

أجاب عبد المالك.

ـ قال أنه ذاهب إلى محطة القطار، وسيلحق بنا فيما بعد.

وعلق الشيخ علي الحاج عبيد:

ـ كعادته.. كلما حان موعد القطار القادم من الشـــام، ذهب يستطلع الأخبار.

وأردف الشيخ حنفي، وهو يوزع الخبز على الحاضرين:

ـ ظافر مشتاق، وأخشى أنه يتوق للعودة.

ـ كلنا نتوق للعودة، ولكن كل شيء بوقته.

ـ المهم ألّا يفاجئنا بقرار العودة، كما فعل الشيخ خالد.

رمقه الشيخ عز الدين. لم يعجبه الكلام.

ـ تفضلوا.. بسم الله.

وشـــرعوا في عشـــائهم المتواضع، وراحوا يتداولون في شـــؤون حياتهم الجديدة، ويصغون إلى الشـــيخ حنفي وهو يحدثهم عـــن إخفاقه، في إيجاد عمل يعتاش منه.. وتابع الشيخ حنفي قائلاً:

ـ منذ أن بدأت أنا والشيخ علي نبحث عن عمل، ونحن نواجه نفس المشكلة.. كلما طرقنا باباً، قالوا لنا الله يعطيكم العافية.. شرفتمونا.. عندنا الآن كفايتنا.. حتى مهنة الزبالة وجمع القمامة، لم نوفق في إيجاد موطئ قدم فيها!..

ثم وهو يضحك، محاولاً التخفيف من حدة شعوره بالعجز:

ـ لولا راتب التدريس الذي يتقاضاه الشيخ عز الدين لمتنا جوعاً.

ضحكوا لسخرية الشيخ عارف، بينما أحس الشيخ القسام بمرارة المعنى، الذي يكمن خلف كلمات الشيخ حنفي، فقال بنبرة عاتبة:

ـ شيخ حنفي. لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام ثانية.. نحن إخوان، وجيبنا واحد.

ـ إنما كنت أمزح..

ـ مزحْتَ، وأنت تعني ماتقول، وقد فهمت عليك.. أعرف أنكم عندما تجدون عملاً لن تقصّروا، وحتى ذلك الحين، أنا متكفل بمصروفنا جميعاً، ولا أريد أن أسمع أيّ تلميح أو تصريح بهذا الشأن.

صمتوا احتراماً لأميرهم، فكلامُه لا يردّ.. وشعروا في أعماقهم بالامتنان لموقفه، الذي رفع عنهم حرج العجز عن المساهمة في المصروف..

وعلّق علي الحاج عبيد، يصل ما انقطع من الحديث:

ـ حيفا تعج بالفلاحين الذين نزحوا من أراضيهم، ويبحثون في حيفا عن عمل، لذلك فإنّ الحصول على فرصة وسط هذا الزحام أمرٌ عسير..

وتدخل عبد المالك القسام:

ـ كلام الشيخ علي صحيح.. حيفا مليئة بالكثير من هؤلاء الفلاحين،

الذين يتجمعــون في الميناء وعلى مفارق الطرق وأمام ورشــات البناء بحثاً عن أي عمل..

وقطع حديثهم طرق على الباب:

ـ هذا ظافر.

قال الشيخ علي الحاج عبيد مداعباً، وهو يستقبله لدى الباب:

ـ تأخرت عن العشاء.. أخشى أنه لم يبق لك شيء.

لم يرد، ولم يكترث لدعابة الشــيخ علي! قال وهو يدلف بسرعة، وقد بدا في غاية التأثر:

ـ ثمة أخبار لا تسر.

جمدت اللقمة في أفواههم، بينما تساءل القسام في قلق:

ـ أية أخبار؟

ـ لم أكن أريد أن أزعجك.

ـ قل بسرعة!..

ـ الشيخ خالد.

ـ قبض عليه الفرنسيون؟.

ـ ياليت..

ـ ماذا؟.

طأطأ رأسه في حزن. قال بنبرة تقطر أسى:

ـ اعتقلوه على أطراف جبلة بعد عودته من هنا، ثمّ..

ـ ثم ماذا؟.

ـ جمعوا سكان القرى والبلدات و..

ـ أكمل..

ـ سكبوا عليه الكاز، وأحرقوه حيّاً.

ـ ماذا؟!.

صعق الخبر الشيخ عز الدين، فانتفض واقفاً، وضرب بقبضته الحائط، وهو يهدر في غضب:

ـ المجرمون.. الوحوش.. الله أكبر عليهم.. الله أكبر.

وأجهش الشيخ حنفي:

ـ رحمه الله.. كنت خائفاً عليه من هذه الرحلة.

قال الشيخ عز الدين، وقد شعر بالنار تكوي فؤاده:

ـ الله أكبر عليهم.. أية وحشية هذه؟.. أهذه فرنسا التي أتتنا تدّعي التمدن والحضارة.. والله حتى الوحوش في الغابة، تحترم فريستها أكثر.

وغرقوا في الصمت والحزن، وقد عقد الخبر ألسنتهم.. وطافت بهم صورة الشيخ خالد، رفيق الدرب والسلاح.. بطيبته.. بشجاعته.. بصراحته.. بروحه المرحة.. بعشقه للوطن الذي دفع حياته من أجل أن يموت في حضنه وعلى ثراه.. لكن الغاصب الغاشم الذي يجثم فوق أرضه، لم يرحم روحه الولهى، التي تاقت للأرض التي نبتت فيها، فصبّ عليه جام حقده الأسود.

وأجهش الرجال، وقال عبد المالك القسام، وهو يبكي بالتياع:

ـ رحمك الله ياشيخ خالد. كان علينا أن نمنعك بأي وسيلة.

وأغمض الشيخ القسام عينيه على دمعه، الذي انثال في صمت، وكأنه يستحضر طيف الشيخ خالد، ليعتذر منه..

ـ هذه غلطتي أنا. ما كان ينبغي أن أتركه لخياره..

قال ظافر..

ـ هذا قضاء الله وقدره، ولا رادّ لقدر الله.. يكفيه أنه مات شهيداً.

ورفع الشيخ علي عبيد كفيه إلى السماء، وقال بنبرة ضارعة:

ـ اللهم أرنا فيهم يوماً.

لم تمح الأيام جرح الشـيخ خالد من نفس الشـيخ عـز الدين، وكلما هبّت ذكراه، أرهقت روحه الذكريات، ولسـعتها سـياط اللوم، لترك الشيخ خالد لقراره، الذي أودى به بهذه الطريقة المحزنة..

وكلما شـعر القسـام أن يديه مكبلتان، بعيداً عن الميدان الذي غادره مرغماً، استشـاط غضبـاً وثـارت ثائرتـه، وراح يدفن حزنه في سـاعات التحضير والتدريس، ليزرع الثورة في وجدان براعم واعدة، يرجو أن تتفتح على وعي يحميها من مكر الطغاة، الذين يسـنّون السـكاكين لاجتثاث هذه الأمة عن آخرها.

ولم يلبث أن دعي الشـيخ عز الدين ليكون شاهداً على كتاب آمنة على مصطفى، فحاول أن يعتذر، احتراماً لذكرى الشيخ خالد، لكن الحاجّ أحمد ألح عليه، وأبلغه أن هذه رغبة العائلة، التي يشـرفها أن يكون شـاهداً على هذا الزواج، وأيضا رغبة تلميذته التي تبناها، وتوسـط لها لتؤجل عرسها، حتى تنجح في الثانوية العامة، وتفوز بأكبر قدر من التعليم.

وانطلقـت الزغاريد في بيـت الحاج أحمد السـهلي الواقـع على تلال الحَلّيصة المطلة على البحـر، وقد أزفَتْ لحظة كتاب ابنتـه آمنة على ابن خالتها مصطفـى ابن الحاج سـالم الخطيب، بحضور كلّ من الشـاهدين: الشيخ عز الدين القسام الذي اشترطته آمنة شاهداً على زواجها، والأستاذ رشيد الحاج إبراهيم صديق العائلتين، وأحد وجوه حيفا المرموقين.

وتهللت أسـارير الجدّ، فبدا فرحاً بهذه المناسـبة، كطفل موعود بهدية العيد. وقال للأسـتاذ رشـيد وهو يضع يده على يد الشـيخ القسام في ودّ ظاهر:

ـ بنتنا آمنة تعزّ أستاذها، وتمدح به كثيراً. أحسنتم باختياره أستاذاً في مدرسة البنات..

ابتسم الأستاذ رشيد:

ـ الشيخ عز الدين مكسب لحيفا كلها.

أردف الجد:

ـ بنتنا أصرّت أن يكون شاهداً على الزواج. قالت لأمها، إن جاءني طفل سأربيه، ليكون عالماً مجاهداً مثل أستاذي الشيخ عز الدين القسام.. كثّر الله من أمثاله.

شعر القسام بالحرج، وهو يصغي لهذا الإطراء، وطأطأ رأسه في تواضع، يحمد الله في سره على هذا الأثر، الذي أحدثه في وجدان تلميذة يافعة، وخفف من حرجه دخول أحد الضيوف، الذي جلس قريباً من الجدّ، فاشتبك معه في حديث آخر..

وحانت ساعة عقد القران، فدعي أهل العروس وأهل العريس إلى غرفة مغلقة.. وجاء الجدّ برفقة الشاهدين، وهو يتمتم بالرحمة على الشهيد طاهر عنبر، وكأنه يستدعي روحه الطاهرة، لتبارك هذه المناسبة التي ستخلد ذكراه..

وجلس مصطفى وأبوه عن يمين المأذون، بينما دخل الحاج أحمد يمسك بيد العروس التي بدت خجلى، وقد أربكتها هذه المناسبة، فطأْطأَت الرأس في حياء، وعندما سألها المأذون عن رأيها، رفعت وجهاً علته حمرة الحياء، وقد تندّى بحبات من العرق، فبدت لمصطفى من خلال وشاحها الأبيض الذي يحفّ بوجهها المدور، كوردة تفتحت للتو، لتنثر السعادة في حياة واعدة، انتظرها بفارغ الصبر، وأفلتت منها نظرة لوجه الحبيب، الذي كبر مع أحلامها، حتى صار توأم روحها، فأربكتها تلك الدهشة الولهى التي

أطلت من عينيه، فخفق قلبها بعنف، وابتسمت نصف ابتسامة، سرعان ما أخفَتْها، حتى لا تفضح تلك الفرحة، التي سربلت روحها، وفاضت من عينيها، وأطرقت في صمت، ونظراتها لا تفارق الأرض.

وقال والد العروس..

ـ دير بالك يا مصطفى.. أنت تعرف أنّ آمنة وحيدتي في هذه الدنيا.. ولولا أنك عندي بمنزلتها في الدين والخلق والمعزّة، لما إئتمنتك عليها..

همس الشاب، وقلبهُ يتدفق سعادةً وفرحاً..

ـ آمنة في عيوني إن شاء الله.

وشرع المأذون في إجراءات عقد القران..

ـ هل اتفقتما على المقدم والمؤخر؟.

قال الحاج أحمد السهلي، والد العروس:

ـ مهر ابنتي جنيه واحد.. هذا المعجل، أما المؤجل فوالله لا أدري.. اكتبوا ماشئتم.. البنت بنتكم، وأنا شاري مصطفى.

أعجب القسام بهذا اليسر، الذي تسير به أمور النكاح، وقال والد العريس الحاج أبو مصطفى بأريحية وثقة:

ـ اكتب يا شيخ.. المعجل بيارة البرتقال التي في قرية حوض الساحرة.. أجمل قرية في الكرمل.. آمنة بنتنا، وعزيزة على قلوبنا جميعاً، وتستاهل جبل الكرمل كله.. أما المؤجل فعشر دونمات قمح أملكها في مرج بني عامر، قرب كومبانية نهلال، أجارنا الله منها ومن أهلها.

هتف الحاج أحمد، والدهشة تعلو محياه:

ـ لكن هذا كثير.. أكثر مما اتفقنا عليه يا أبا مصطفى!.

قال الحاج سالم:

ـ آمنـــة غالية علينا، وتســـتاهل كل خير.. يكفي أنهـــا تحفظ القرآن، وستكون إن شاء الله أمّ أول حفيد لي من ابني البكر مصطفى.

علّق الأستاذ رشيد أفندي الحاج إبراهيم مباركاً..

ـ بل أحفاد إن شاء الله..

وتمّ العقد، فانطلقــت الزغاريد، تعلــن اكتمال الفرحة فــي الدارين، فضحكــت القلــوب، وامتلأت نفــوس الجالســين بالبهجة والحبــور، ودعوا للعروسين بالرفاه والبنين..

وطلب الحاج أحمد من الشــيخ عز الدين القســـام أن يكرمهم بكلمة، فوقف خطيباً، وهو سعيد بهذه المناسبة التي حملته إلى بيوت حيفا، ليعيش أفراحها، ويصبح جزءاً من أقدارها..

ـ الزواج يا إخوان ســنة الكون، وهو حق لكل شـــاب وفتـــاة، كما هو واجب على كل أســـرة، أن تيســـره وتنجـــزه لأولادها وبناتهـــا دون إبطاء أو تعقيد.. إنه سنّة المصطفى ﷺ التي سنّها لهذه الأمة..

واستبد به الحماس..

ـ سهّلوا على الشـــباب يا إخوان.. خفّفوا المهور والطلبات.. ولا تدعوا فكر الشباب يحترق في دوامة الشـــهوة والرغبة.. زوّجوهم بأيسر الظروف، حتى يتفرغوا لحل مشاكل وطنهم.. الوطن بحاجة إلى الشباب.. وحلّ مشكلة الزواج خطوة على طريق المنعة لهذه الأمة ولهذه الأوطان..

وهتف شابّ من الحاضرين:

ـ يسلم فمك يا شيخ.. والله مشكلة المهور هدّتنا..

استقبل الشيخ ملاحظة الشاب، وأدرجها مباشرة في صلب الخطاب:

ـ إن الله لا يغيـــر ما بهذه الأمة حتى تغير مـــن هذه العادات.. أصبح الشـــاب يقاس بما يملك من ذهـــب وأملاك، والرســـول المصطفى ﷺ يلح

علينا بتيســير الحلال.. من جاءكم ترضــون دينه، فزوجــوه.. ومن جاءكم يطلب العفاف، فزوجوه.. ومن يشعر أن ابنته قد تاقت إلى الزواج، فليشجع من يريد الــزواج للاقتران بها.. وليســرع في تحقيق فرحتهــا وحصانتها.. بناتنا يا إخوان أمانة في أعناقنا.. فإذا كانت ابنتك صامتة عِفّة وحياء، فلا تغفل عمّا يدور في قلبها من أشواق ورغبات، حلّها الشرع الحنيف في ظلال الحلال..

كانت النســوة يصغين في الداخل بإعجاب.. بينما كانت قلوب الصبايا ترقــص بيــن جوانحهن، فرحــاً بمن ســاقه الله مــدداً، يدافع عــن حقهن المهدور..

وانهالت الدعوات الضارعات على هذا الشــيخ الطيب، من قلوب كبّلتها التقاليد والمهور، واكتوت بنار القهر والحرمان.

انفضّ الحفل، وخرج الشيخ القسام بصحبة الأستاذ رشيد، والناس من حوله يحيّونه بإكبار، وكأنهم يشكرونه على مافتح الله عليه من كلام، بلسم الأرواح، وفتح للشباب أبواب اليسر والسعادة..

ـ كان لكلمتك في الحفل أثرها في نفوس الشباب.

ـ لا قيمة لكلماتنا، إن لم تجد طريقها إلى قلوب الناس.

ـ عندما يكون العالِم مؤثراً، يمكن أن يحيي أمة.

ـ نسأل الله القبول.

و دعا الأستاذ رشيد الشيخ القسام ليشــرب عنده فنجان قهوة، فرحب بالدعوة ولبّاها على الفور، سعيداً بصحبة هذا الرجل، الذي أعجب بشخصه وفكره منذ أن التقاه أوّل مرة.

قال الأستاذ رشيد وهو يقدم القهوة لضيفه:

ـ عندما أرى إخواننا السوريين في حيفا، أشعر بنشوة خاصة، تدغدغ في نفســي حلماً داعبنا بقوة، عندما اجتمعنا في دمشق، ننادي بفيصل ملكاً على بلاد الشــام، أملاً في دولة قوية ومســتقرة، لولا أن ســارعت فرنســا وبريطانيا بالإجهاز على هذا الحلم، وقســمتا سوريا الكبرى بسكاكين الغدر والعدوان.

ـ للباطل جولة، وإن شاء الله سيكون للحق جولات.

قال الأستاذ رشيد، وهو يدني طبق الحلوى من الشيخ ليختار منه:

ـ لعلك لا تعلم ياشيخ عز الدين أن الملك فيصل نزل في هذا البيت بعد خروجه من دمشق.

ـ حقاً!

ـ كنــت قــد عقــدت مؤتمــراً صحفياً هنــا بعد ســقوط دمشــق بيد الفرنســيين، لإدانة هذا الاحتــلال، ودعوت فيه لعقد المؤتمر الســوري في حيفا لرفض الانتداب، وحاولنا عقده مع مجيء الملك فيصل إلى هنا، لكن الإنجليــز رفضوا أن يســمحوا بعقد هــذا المؤتمر، لأنه يكــرّس وحدة بلاد الشام التي تآمروا عليها مع حليفتهم اللدودة، فاكتفيت باستضافته شخصياً في بيتي.

ثم وهو يهز رأسه في مرارة..

ـ لهفي على بلاد الشام، تتمزق اليوم أمام أعيننا، ونحن عاجزون.

ـ الشــام مســتهدفة منذ الحملات الصليبية يا أســتاذ رشيد، وغورو واللنبي وغيرهما، إنما هم نســخة من أرناط وكونراد وريتشارد قلب الأسد ولكن بلباس جنرالات.. هذه هي الحقيقة.

تنهد الأستاذ رشــيد، قال وهو يغير مكانه، ليكون أكثر قرباً من الشيخ عز الدين:

ـ ما يؤرقني فعلاً، هذا الذي يعدّ لفلسطين.. أفهم أن بريطانيا تحتلنا مثلما تحتل فرنســا ســوريا ولبنان، لكن ما يجري هنا أكثــر من احتلال.. اليهود يتزايدون يوماً بعد يوم، والإنجليز بدؤوا يمكنّون لهم بطريقة ماكرة، لا ينبغي أن تمر!.

ـ الهجرة اليهودية هذه بلاء، لم نختبره في سوريا من قبل!.

ـ الأمور تســير إلى الأسوأ ياشــيخ عز الدين.. منذ أن عينوا هربرت صموئيل مندوباً سامياً.

ـ لا بد أنهم اختاروه بعناية!

ـ هو ضابط وسياســي بريطاني ويهودي شهير، كان قد طالب بإعطاء فلســطين لليهود قبل وعد بلفور بسنتين!.. ولك أن تتوقع ماذا سيفعل يهودي

يقود جيش بريطانيا العظمى التي أطلقت يده في فلسطين، وكلفته بتنفيذ وعد بلفور!.

– اختيار صموئيل إذن وفي هذه المرحلة بالذات ليس صدفة!.. بل يأتي عن سبق إصرار وتخطيط..

ابتسم الأستاذ رشيد ابتسامة ساخرة موشحة بالغضب، وقال:

– وعد بلفور هذا جاء نتيجة لجهود كبيرة ودؤوبة، قام بها زعماء الصهيونية، لجمع يهود العالم في دولة، ووقع اختيارهم على فلسطين، فحرضوا من أجل ذلك دولاً وحكومات.. اشتروا الضمائر.. فاوضوا وساوموا وابتزّوا.. شاكسوا وهددوا وخربوا.. ثم قايضوا مشاكلهم وإشكالاتهم بفلسطين.. لسان حالهم كان دائماً يقول: أعطونا فلسطين، واشتروا راحة بالكم.. ودعموا جهودهم بالكثير الكثير من المكر والمال.. وأثمرت جهودهم في النهاية..

وقال الشيخ عز الدين..

– لطالما حيرني فعلاً هذا التبني البريطاني للمشروع الصهيوني!.

– اشتروا وعد بلفور باختراع البارود الذي كانت بريطانيا في أمسّ الحاجة إليه أثناء الحرب الكبرى، وجيّروه لتحقيق حلمهم الجشع.. شجعوا أتباعهم من يهود بريطانيا للانخراط في جيش الإمبراطورية، حتى صار لهم فيه جنود وضباط وقادة مثل هربرت صموئيل وغيره.. وهاهي اليوم تفرضهم علينا كالسم الزعاف.. إما أن نتجرعه طواعية، أو يطلقون على رؤوسنا الرصاص.

– كم تقدر عدد اليهود في فلسطين؟

– كان اليهود في فلسطين قلة نادرة إلى عهد قريب، ولم يزد عددهم قبل أن تبدأ أفواج المهاجرين بالقدوم عن خمس وعشرين ألفاَ، وعندما

احتلت بريطانيا فلسطين اعترفت رسمياً أن نسبتهم مع من هاجر منهم إلى عدد السكان لا تزيد عن العشر..

سأل الشيخ عزّ الدين:

- وكم تقدر سكان فلسطين اليوم؟

- مليون على أكثر تقدير..

- تقصد أن اليهود الذين كانوا من أصل سكان البلاد لم يكونوا شيئاً مذكوراً.

- مع ذلك تستغرب أن البيان الأول الذي وزعه الجنرال اللنبي عندما احتل القدس، كتب بثلاث لغات العربية والإنجليزية والعبرية!.

- العبرية؟..

- أجل. منذ اللحظة الأولى وهم يحاولـون فرض اليهود كجزء أصيل من أهل فلسطين.. يساوون بين اليهودي المهاجر من أوربا، وبين الفلسطيني الذي نبت في هذه الأرض، وعاش فيها منذ آلاف السنين..

وأردف الأستاذ رشيد وهو حزين:

- لذلك سارعنا للمشاركة في المؤتمر الســوري الأول، لنبايع الملك فيصل ملكاً على ســوريا الكبرى، ونؤكد أننا في فلســطين جزءٌ من ســوريا الطبيعية..

- وبهذا لن يزيد اليهود مهما تكاثروا في فلســطين عن عشر معشار سكان البلاد.

- لم ينسَ المؤتمــر أن يؤكد على وقــف الهجرة، وميّــز بين اليهود المهاجرين إلى فلسطين ليستوطنوا فيها، وبين أتباع موسى عليه السلام من سكان البلاد..

- كان مــن الممكــن أن يكون هذا هــو المخرج الذي يوقــف مؤامرة

بلفور، لولا أن تحركت فرنسا بسرعة، لتقضي على الحكم الفيصلي..

ـ فلسطين يا شيخ عز الدين اليوم تتعرض للاغتيال.. فلسطين تتسرب من أيدينا ونحن عاجزون.

أدرك الشيخ القسام مدى الهمّ الذي تمكّن من روح الأستاذ رشيد، ووجد نفسه أمام رجل استوعب قضيته، حتى صارت مفرداتها جزءاً من منطقه وفكره.. وكأنه ضمير فلسطين الذي يحاصره القلق على مصير وطن يستباح، فيستصرخ الكون لدحر هذا الكابوس.. وراح يبثه مافي نفسه:

ـ لا أخفيك يا أستاذ رشيد.. عندما جئت إلى حيفا، كان في بالي أنها استراحة محارب، ثم أعود بعدها إلى الميدان الذي غادرته من قبل، لكن هذا الذي أراه في فلسطين، وما تحدثني به الآن، يجعلني أعيد النظر.. لكن يداً واحدة لا تصفق!.

تهلل وجه الأستاذ رشيد، وقال في حماس:

ـ تجربتك وعلمك وتأثيرك ياشيخ عز الدين ذخرٌ لنا في فلسطين، ويد الله مع الجماعة..

ـ معاً إن شاء الله.. وإن قدر لي البقاء في فلسطين، فسيكون لنا كلام كثير..

وودع الأستاذ رشيد الشيخ القسام.. كان سعيداً بهذه الصداقة التي انعقدت مع رجل كبير بقامة الشيخ عز الدين ووعيه، وتذكر كلماته الأخيرة، فشعر بالفضول لمعرفة ما يفكر فيه هذا المجاهد الكبير!..

بعض الكلمات تولد غامضة، لكنها تكبُر فجأة، وتشي بما أخفته من أسرار!.

لم يستطع الشيخ عز الدين أن ينسى أحداث الرحلة إلى حارة الصفيح والبؤس تلك!. لقد فتحت عينيه على المأساة التي تعيشها فلسطين.. وكلما نشبت الأحاديث عن هجرة اليهود، ومعاناة الفلاحين الذين يطردون من أرضهم، ليحل فيها السكان الجدد غصباً وقهراً، تذكر وجوه الضحايا الذين صادفهم هناك.. ففي الياجور رأى المأساة عن قرب، وهي تنمو وتتعاظم، لتعمّ شعباً تسحب القوى الظالمة أرضه من تحت قدميه، لتحشره في أكواخ الصفيح، ضحية للجوع والفقر والضياع..

وزاد شعور الشيخ عز الدين بالواجب، الذي بدأ يثقل ضميره.. هاهنا ميدان جديد، يستفزّ روحه التواقة للعمل، ومن هنا يبدأ الجهاد الحق بالوقوف إلى جانب هؤلاء الفقراء والمنكوبين، الذين يدفعون ثمن الظلم.. إلى جانب سالم الموسى، وعبد الله يوسف الزيباوي، وصالح أبو شقرة، وكل الطيبين الذين وجدوا أنفسهم فجأة ضحية لجريمة حيكت بليل في غفلة من هذه الأمة، التي لم تستطع حمايتهم، فتقاذفتهم رياح الغدر والظلم والقهر.

واستبدت هذه الأفكار بالشيخ، حتى باتت هاجسه الأول، وهو يتلمس طريقه في فلسطين..

- أتدري ياشيخ حنفي؟

- ماذا؟

- يبدو أن الله قد نادانا إلى هذه البلاد لحكمة يريدها.

أجاب الشيخ حنفي، وقد لمس في الكلام جديداً:

- ظننت أنّا هنا إلى حين، ثم نعود إلى جبلة!..

تنهد الشيخ عز الدين..

ـ إيه.. بنفسي تلك الأرض..

اغرورقت عينا الشيخ حنفي. قال بنبرة حزينة:

ـ أخشى أن المقام سيطول بنا في حيفا..

ـ طال أم قصر، فلا ينبغي لنا القعود..

ـ لعلك تفكر في شيء!.

ـ أرأيت إلى هؤلاء الفلاحين والعمال الذين نقابلهم كل يوم؟.

ـ والله شيء يقطّع القلب..

ـ أكان حالهم هذا، لولا بريطانيا وصنائعها من اليهود؟

ـ لولا هذه المستعمرات التي يحميها الإنجليز، لكانوا في أرضهم مستورين..

ـ أرأيت لو استمر الوضع على هذا المنوال؟

صمت الشيخ حنفي، وقد أدرك أن شيئاً ما يختمر في رأس شيخه، الذي قال:

ـ إذا استمرت هجرة اليهود، وأنجز الإنجليز وعدهم على هذا النحو الخبيث، فسوف يصبح وطن اليهود حقيقة مفروضة.

عكرت الفكرة ملامح الشيخ حنفي، وبدأ يدرك ما يرمي إليه:

ـ تقصد؟!..

ـ قد تكون فلسطين هي الميدان الذي اختارنا الله له.

ـ ولكن أهل فلسطين أدرى بشعابها.. ماذا سنفعل نحن الوافدون الباحثون عن اللقمة والمأوى إلى حين؟

رمقه الشيخ القسام بطرف عاتب:

ـ لو غيرك قالها!.. متى كان شأن فلسطين وقفاً على أهل فلسطين؟.

ـ أردت أن أقول..

ـ هذه أيضاً بلادنا.. الأرض التي بارك الله فيها حول أقصاه.. ولعلها من أخطر الثغور، وعلى المجاهد عندما يكتشف ثغراً أن يحميه ويفديه..

تذكر الشيخ حنفي دروس الجهاد التي تعلمها على يد أستاذه وقائده في الساحل الأسير، فهزّ رأسه موافقاً.. قال وهو يغير من جلسته، وقد رسم قش الحصيرة على قدميه خطوطاً:

ـ لكنّا هنا غرباء، ويد واحدة لا تصفق.

ـ في هذه صدقت..

ـ فما العمل؟

ـ نضم اليد إلى اليد.. ونتوحد في وجه هذا العدوان.

ابتسم الشيخ حنفي، وأيقن أن شيخه على أعتاب جهاد جديد..

ـ أنا رهن إشارتك يا شيخ عز الدين، فانظر ماذا ترى؟.

ـ إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فلنتحرك بصمت، وبما نستطيع، والله وليّ الأمر والتدبير.

ثم استدرك، وكأنه يرتب في ذهنه الأولويات.

ـ ولكن قبل ذلك علينا أن نبحث عن بيت.

ـ بيت؟.

ـ طاب لك العيش ضيفاً على ما يبدو، وقد طالت ضيافتنا هنا وهناك، وصارت ثقيلة.

ـ جزاهم الله خيراً على كل حال.

ـ لكن الضيف يجب أن يرحل إلى بيته في النهاية.

ـ معك حق..

ـ اذهبوا غداً، وابحثوا لنا عن بيت صغير.

ـ أين؟.

ـ ابحثوا في الأحياء القديمة.. الحاج مسمار حدثني عن بيوت معروضة للإيجار.. ثمة بيت في حي الكنائس.. وهناك بيت معقول في وادي النسناس.. لكن أفضلها لنا كما يقول، ذاك الذي يعرضه علينا في حارة اليهود.. حجمه مناسب وسعره معقول..

ـ بيوت الحاج مسمار، كلها متواضعة وقديمة..

ـ وهل تجدنا أغنياء، حتى نطلب أفضل؟.

قال الشيخ عارف:

ـ صحيح لسنا أغنياء، لكن الأمور تتحسن.. الشيخ علي وجد عملاً في ورشة بناء، وأنا موعود بعمل عند تاجر خيش.

ـ وظافر ومالك؟

ـ ما زالا يجدّان في البحث عن عمل.

ـ إن شاء الله ستجدون جميعاً العمل المناسب، وترتبون أموركم مثل باقي خلق الله.. أنسيتم أنكم جميعاً على مشارف الزواج؟

انفرجت أسارير الشيخ حنفي، وكأنه يسمع عن حلم كان يظنه مستحيلاً.

ـ الزواج؟

ـ سنة الكون يا شيخ عارف، أم تظن أني لا أفكر بكم!.

ـ وأنت يا أبا محمد، ألم يئن لك أن تأتي بالأهل، وتقرّ بهم عيناً؟

صمت الشيخ ولم ينبس، وأبحرت نظراته إلى هناك..

لعله آن الأوان.

لم يكن الشيخ عز الدين سـعيداً في حيفا كاليوم، فهاهو البشير يزف إليه أن الشـيخ خليل سكر، قد نجح في استقدام أسـرته إلى بيروت، وأنها في الحفظ والصون، وقد تنضم إليه في حيفا بعد أيام، لكن الشـيخ خليل يتأنّى في التدبيـر، يحاول إيجاد سـائق ثقة، يطمئن إليـه، ليؤمّن وصول الأسـرة إلى حيفا، بحيث لا تكتشف دوريات الفرنسـيين هويتها، فيعتقلونها رهينة يساومون بها الشيخ القسام على حريته..

وراح الشـيخ يعدّ الأيام والسـاعات، وقد أرهق القلق والإشفاق فؤاده، فالفرنسيون الذين حرقوا الشـيخ خالد ـ رحمه الله ـ حيّاً، لن يتورعوا عن إيذاء زوجته وبناته، فيما لو اكتشـفوا أنّهم أهله، وأوعز إلى ابن أخيه عبد المالك، أن يسافر إلى بيروت من ساعته، ليكون برفقة السائق، وقد كان.

وشـكر الشـيخ عز الدين السـائق الذي أوصل أهله إلـى حيفا جزيل الشـكر، وأخرج مبلغاً من المال، ليكافئه على ما أنجز، لكن السـائق أبى واعتذر..

ـ لا والله يا شيخنا.. الشـيخ خليل أوصاني ألّا آخذ منك شيئاً.. لقد دفع لي أجري وزيادة، وأوصاني بالسلام عليك، وهو يطلب منك الدعاء..

ـ جزاه الله عني وعن أهلي كل خير.

وأوى الشـيخ القسـام إلى بيتـه، ليروي شـوقاً فاض به إلى الأسـرة الحبيبة.. وكان اللقاء حميماً، فبعد هذه الأشـهر الطويلة من الفراق والقلق والعذاب، يلتقي الشـيخ بزوجته الطيبة وبناته الأثيرات.. وتأمل الشـيخ عز الدين زوجته الطيبة التي صبرت على ظروفه الصعبة، وتحملت معه تكاليف الجهاد ضد الفرنساوي الغاشم، ففاضت نفسه بالحنان، وشعر بوهج الشوق

إلـــى رفيقة دربه التي أحبها إلى درجة العشـــق، وأحب فيهـــا روحها ووعيها وأنســـها وعشـــرتها الطيبة، فمنذ أن تزوجها وهي صابرة محتســـبة، راضية بقدرها معه، لم تعترض يوماً على قـــرار اتخذه أو خطوة خطاها، ولم تعبأ بالتكاليف..

ولمح في عيني بنته ميمنة شروداً، وهي تتأمل الدار، فقال مداعباً..

- دار متواضعة يا ابنتي، أليس كذلك؟.

ابتسمت ميمنة، ولاذت بصدره..

قالت الأم ضاحكة:

- معها حق. أقل بكثير من تلك التي كانت لنا في جبلة!.

- لكنها تتسع لنا جميعاً على أية حال.

- المهم أن نبقى بقربك، ولو في مغارة في بطن جبل.

وقالت ميمنة:

- اشتقنا إليك كثيراً يا أبي.

- وأنا أيضاً. كانت أياماً عصيبة.

- وماذا تعمل هنا في فلسطين؟.

- أعمل مدرســـاً.. أعمل في مدرســـة رائعة، وسوف أســـجلك فيها عما قريب.

فرحت ميمنة بهـــذا الخبر، وطبعت على وجه أبيهـــا قبلة مترعة بالحب والحنين.

لمعت عينا الشـــيخ بأنداء الفرح، وهـــو يرى ميمنة وقد كبرت واشـــتد عودها، وصارت على أعتاب النضج، واستدرك يسأل:

- وأنت يا أم محمد.. كيف تركت جبلة والأهل هناك؟

- الكل يسأل عنك، ويدعو لك.

ـ هل ضايقك أحد؟

ـ لم يضايقني سوى بعدي عنك وقلقي عليك، حتى وصلَنا ما يطمئنّا عنك من الشيخ أحمد إدريس.

ـ ما أخباره؟.

ـ انضم إلى ثورة الشيخ عمر البيطار.. أخبرتني زوجته بأنهم يعتصمون الآن في جبال كردستان.

ـ «إيه.. رحم الله أيامك يا شيخ عمر»

ـ والفرنسيين؟..

ـ لعن الله سيرتهم.. لم نصدق أنا صرنا خارج قبضتهم.

وطرق باب الدار، فقام القسام وفتح، ليجد حنطوراً قد ترجل منه للتو الشيخ أمين نور الله والشيخ حنفي، الذي يحمل صدراً كبيراً مجلّلاً بقماش أبيض، تفوح منه رائحة تثير الشهية..

ـ ياهلا بالشيخ أمين.. لم أكن أتوقع هذه الزيارة..

ـ جئنا نبارك بسلامة الأهل.

ـ وما هذا الذي تحمله يا شيخ حنفي؟

ـ «مسخّن الدجاج».. أصرّ الشيخ أمين أن يكرمك به يوم وصول الأهل، واتّخذ مني دليلاً أرشِده إلى البيت.

ـ لكنّ هذا كثير!.

ضحك الشيخ أمين، وقال:

ـ أنت اليوم في عرس، ولا يجوز لنا أن نلهيك..

ـ وما قصة «المسخّن»؟.

ـ أردنا أن نذيق الأهل من طعام أهل فلسطين.. فهذه أكلة مفتخرة تليق بكل عزيز.

ـ إذاً، تفضلوا لنتغدى معاً.

قال الشيخ حنفي:

ـ لقد دعانا الشيخ أمين إلى بيته على «مسخن» آخر..

ثم وهو يمضي خلف الشيخ أمين..

ـ لا تنس أن تسلم على أم محمد، وتهنئها بالسلامة.

# ٤١

كان الشيخ عز الدين منهمكاً في شرح درسه للبنات، عندما دخلت عليه المديرة متجهمة، واســتأذنته لتكلمه في شــأن هام خارج الفصل. استغرب القســام هذا الاقتحام الطارئ، فطلب من البنات أن يلتزمن الهدوء، وخرج على عجل..

- خير إن شاء الله.

ردت المديرة بنبرة يفيض منها القلق:

- وردنا الآن من الإدارة، أنه ثمة مظاهرات غاضبة في حيفا، ونخشى على البنات.

- مظاهرات؟

- مظاهرات عنيفة نشــبت بســبب تصريحات تشرشــل في يافا، بأن بريطانيا لن تتراجع عن وعد بلفور بإعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وعلى العرب أن ينصاعوا لرغبة سلطة الانتداب.

- قرأت ذلك في جريدة الكرمل.. كان تصريحاً فظاً ينضح بالغطرسة.

قالت المديرة في حزن:

- الوضع متوتر جداً يا أستاذ. يقولون أنه سقط حتى الآن قتيلان في حيفا، وعدد كبير من الجرحى..

- بل شهيدان بإذن الله.

- المهم أن الإدارة طلبت أن نؤخر البنات فــي الفصل، ريثما يحضر الأهالي لأخذهنّ.

ومضت مديرة المدرســة تعمّــمُ الخبر على بقية الفصــول، بينما عاد الشيخ عز الدين إلى فصله ســاهماً متجهماً، وما إن دلف من الباب حتى

غارت الجلبة، التي سببها غيابه مرة واحدة، وران صمت عميق..

وقف الشيخ تلقاء مكتبه، مستنداً عليه بكلتا يديه، ورفع للبنات وجهاً حزيناً يقطر كآبة، قال بنبرة يوشحها الأسى:

ـ من قتل دون بيته فهو شهيد.. ومن قتل دون ماله فهو شهيد.. فما بالكنّ فيمن يقتل في سبيل وطنه وأرضه وعرضه؟!.. فيمن يقف أمام جنود بريطانيا العظمى.. يواجه رصاصها الجبان بصدر مفعم بالإيمان، وقلب ثابت على الحق، ليقول لها أن هذه الأرض أرضي وأرض آبائي.. أرض العرب والمسلمين.. ولاحقّ لدولة في الدنيا أيّا كانت، حتى لو كانت بريطانيا التي لا تغيب عن مستعمراتها الشمس، أن تعطي وعداً لليهود أو لغيرهم في إقامة وطن لهم فيها.

وأردف الشيخ:

ـ أتدرينَ ماذا يعني إقامة وطن لليهود في فلسطين؟.

كانت البنات في قمة الدهشة، وهنّ يسمعن الشيخ عز الدين القسام، يتحدث عن وعد بلفور، وهو الذي كان يحدثهن قبل قليل عن شروط التيمم، وحدسْنَ بأن شيئاً خطيراً قد وقع، بينما تجرأت آمنة، ووقفت لأول مرة لتجيب:

ـ الوطن القومي لليهود ـ أستاذ ـ يعني نهاية فلسطين.

لفت موقف آمنة الشيخ عز الدين، فأعجب بجرأتها الطارئة، وجوابها البليغ، وأعجب أكثر بالتصفيق الحار الذي اندلع في الصف تأييداً لجوابها، فقال وهو بادي التأثر:

ـ جواب آمنة رددته اليوم حيفا، ومهرته بدماء رجالها، وهي تردّ على وزير المستعمرات البريطاني الذي أعلن بالأمس أن بريطانيا لن تتراجع عن وعد بلفور، فانتفض رجالها في مظاهرات عارمة ضد الانتداب الظالم

ووعوده الزائفة، والحصيلة حتى الآن شـهيدان وعدد من الجرحى، والإدارة ترجوكنّ أن تبقينَ بعد نهاية الدوام، ريثما يحضر الأهل ليأخذوكنّ، حرصاً على سلامتكن..

سـاد صمت وقلق، ودهمت البنات الهواجس، فراحت كل فتاة تفكر في أبيها وأخيها وعمهـا وخالها، فقد يكون أحدهم الشـهيد أو الجريح، ووجد الشـيخ من واجبه أن يرفع من معنوياتهن، فراح يحدثهن عن جهاد نسيبة، وصبر الخنساء، عندما ردّدَ قولتها الشهيرة في أولادها الشهداء «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم» وأجهشت معظم الفتيات تأثراً بهذا الذي يجري، وقد تحركت في أعماقهن أمومة تتفتح، وحبٌ عارمٌ لفلسطين، تمتحنه اليوم هذه التحديات، التي بدأت تستفز كل وجدان حرّ.

وراح الشـيخ يتأمل هذه الـروح التي اجتاحـت بنيّات في سـن الفتوة والفرح، وهن يقبلن على الحياة..

وتأثر الشيخ لبكائهنّ، فدمعَتْ عيناه.. وانتبه إلى شيء!..

كانت آمنة أشدهم تأثراً وبكاء!.

## ٤٢

ذات صباح استلم الشيخ عزّ الدين القسام رسالة من الشيخ محمد مراد رئيس الجمعية الإسلامية يدعوه فيها لاجتماع طارئ، وحضر الشيخ في الوقت المحدد، فوجد أن الاجتماع يضمّ عدداً من وجوه حيفا ورجالاتها.

قال الشيخ محمد مراد مفتي حيفا، وهو يفتتح الاجتماع:

ـ لقد دعوتكم اليوم يا إخوان لأمر خطير، يتعلق بمستقبل البلاد..

هَمْهَم أكثر من صوت متسائلاً عمّا جدّ، بينما كان الشيخ عز الدين القسام يصغي بانتباه، وهو ممتنّ لدعوة مفتي حيفا له لحضور هذا الاجتماع الطارئ، وهو الوافد الجديد.

وأشار رئيس بلدية حيفا عبد الرحمن الحاج للشيخ مراد يرجوه أن يكمل، فتابع قائلاً:

ـ تعرفون يا إخوان، أن منصب الإفتاء في عموم فلسطين من أهم المناصب التي يعول عليها أهل البلاد، للحفاظ على دينهم وعقيدتهم ومساجدهم وأوقافهم.. وخاصة المسجد الأقصى، لاسيما ونحن نعيش منذ ثلاث سنوات تحت سيطرة الإنجليز، وقد شغر هذا المنصب بوفاة المفتي الشيخ كامل الحسيني رحمه الله الشهر الماضي.

ترددت الهمسات، تضرعاً بالدعاء للمفتي الراحل بالرحمة والغفران، بينما تابع الشيخ محمد مراد:

ـ لقد تنادى الكثيرون من أهل الفضل من علماء فلسطين وأعيانها والغيورين فيها، لاختيار أخيه الشيخ أمين الحسيني مفتياً للقدس الشريف، وقد جمعتكم اليوم لأعرف رأيكم في هذا الأمر؟!

تدخل الأستاذ عبد الرحمن الحاج رئيس البلدية موضحاً.

ـ بصراحة يا إخــوان.. الإنجليز لا يريدون الحاج أمين، لأنهم يعرفون موقفه المعارض للانتداب والهجرة اليهودية، وقد رشحوا أخاه الشيخ فخري الحسيني بدلاً منه، لما يعرفون من رقته وضعفه، لكن آل الحسيني جميعاً، ووجهاء فلســطين وأعيانها وعلماءها، يصرون على الشــيخ أمين الحســيني لعلمه وفقهه، ومواقفه القوية ضد الهجرة اليهودية ودعم الانتداب لها.

وحكى الأستاذ ســليمان الصلاح عضو الجمعية للحاضرين قصة اشتهر بها الشيخ أمين. قال:

ـ يروون عن الشــيخ أمين، أنه عندما كان في الابتدائية، اشترى اليهود أراضي القرية التي فيها مدرسته، وأنشؤوا عليها مستعمرة سموها «موتسا» وقد قام بافتتاحها هرتزل رئيس الحركة الصهيونية، فزرع شجرة في هذه المناسبة، مما أثار حفيظة الحاج أميــن وأصدقائه في تلك الســن المبكرة، فلجؤوا إلى قطع هذه الشجرة، تعبيراً عن رفضهم لتزايد الوجود اليهودي في فلسطين.

وتدخل الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم:

ـ أريد أن أضيف أن المندوب الســامي هربرت صموئيل ـ وهو يهودي كما تعلمون ـ يعارض اختيار الشيخ أمين بشدة، لأنه يخشى من مواقفه ضد الإنجليز واليهود، ولمن لا يعلم، فإن الشــيخ كان محكوماً بالســجن خمسة عشر عاماً، لاشتراكه في قيادة مظاهرات ثورة القدس العام الماضي، لكنه اســتطاع أن يهرب إلى شــرقي الأردن بعد صدور الحكم عليه، ولولا تدخل بعض شيوخ عشائر شرق الأردن، وتوســطهم له لدى سلطات الانتداب، لما قاموا بالعفو عنه، وهكذا عاد إلى القدس بغير رغبة هذا المندوب السامي، الذي يخشــى أن يســتمر الشــيخ أمين في تحريضه ضد الإنجليز والهجرة اليهودية، وعليه يتوسم الكثيرون في الشــيخ أمين الحسيني، أن يكون أميناً على مصالح أهل البلاد وحقوقهم ومطالبهم.

قال رئيس البلدية عبد الرحمن الحاج:

ـ المطلوب يا جماعة أن نصيغ هذه الرغبة في محضر، ويوقع عليه كل من يوافق على هذا الاقتراح باختيار الشيخ أمين مفتياً لنا، ثم نرسل الأسماء مع التواقيع في برقية عاجلة إلى القدس، حتى نُشعر سلطة الانتداب بأن الشيخ أمين مرشح البلاد، قبل أن يفرضوا علينا غيره، وهو ما توافق عليه العلماء ورؤساء البلديات والمخاتير وأصحاب الحل والعقد في فلسطين.

ثنّى الشيخ مراد على الفكرة وقال:

ـ اسمحوا لي إذن أن أصيغ برقية الموافقة على ترشيح الشيخ أمين، وكل من يوافق عليها يوقع باسمه وصفته عليها، لنرسلها إلى المندوب السامي، متضامنين مع مطالب أهل البلاد، علّه ينزل عند رغبة أصحاب الحق الشرعيين في اختيار مفتي القدس، الذي سنأتمنه على الفتيا في ديننا ومستقبلنا، لاسيما وأنّ فلسطين لم يعد فيها حاكم يمثلها في ظل الإنجليز، الذين يحكموننا غصباً وجوراً.

ابتسم الشيخ القسام، وقال في سخرية مرة:

ـ والله قد هزلت، مادخل المندوب السامي البريطاني اليهودي في اختيار مفتي للمسلمين؟!

رد الشيخ يونس الخطيب ممثل علماء حيفا:

ـ جرت العادة أن يقوم متصرف القدس باختيار المفتي بالانتخاب، وبعد أن احتل الإنجليز القدس، أصبح المندوب السامي للأسف في موقع المتصرف، وهو يريد أن يفرض رغبته وإرادته على أهل فلسطين.

علق الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم غاضباً:

ـ هذا منتهى الفجور.. تعين لنا بريطانيا العظمى حاكما يهودياً

يحابي اليهود، ليزاحمونا فـــي أرضنا ورزقنا، وهاهو يختار لنا المفتي، ولم يبق إلا أن يفتي لنا في الحلال والحرام!..

ضحك الحاضـــرون، بينما علق الشـــيخ محمد مراد، وهـــو يكتب صيغة الخطاب:

- شر البلية ما يضحك!.

وأردف:

- اسمعوا يا إخوان هذه الصيغة:

«نحن الموقعون بذيله، نطالب بانتخـــاب وتعيين حضرة العالم الفاضل السيد محمد أمين الحســـيني مفتياً للقدس الشريف، لما نعهده في فضيلته من الأهلية والكفاءة. تحريراً في ٥ نيسان ١٩٢١».

- هل توافقون على الصيغة؟

تعالت الأصوات مستحســـنة ومؤيـــدة، ودارت العريضـــة المقترحة على الحاضريـــن ليمهروهـــا بتواقيعهم، وعندمـــا وصلت إلى الشـــيخ عز الدين القسام، مررها لمن بعده، فاستغرب رئيس البلدية عبد الرحمن الحاج هذا التصرف:

- ما وجه الاعتراض على الشيخ أمين يا شيخ عز الدين؟

أجاب القسام، وقد بوغت بهذا الظن:

- معاذ الله يا عبـــد الرحمن أفندي، لكني قـــدّرت أنه ليس لمثلي أن يتدخل في مثل هذا الإجراء، كوني لست..

قاطعه الأســـتاذ رشـــيد الحاج إبراهيم فوراً، وهو يرفع ســـبابته ويهزّها مؤكداً:

- أنت منا وفينا ياشـــيخ عـــز الدين، وأول من يحق لـــه أن يوقع على هذا الخطاب.

ـ ولكن بأي صفة؟

ـ بصفتك ابن سوريا الكبرى، التي تعد فلسطين جزءاً لا يتجزأ منها، كما أكدنا في المؤتمر السوري الذي انعقد في دمشق، بعد سقوط فلسطين تحت الانتداب، وهذا يعطيك الحق القانوني لتصوت معنا، على من تختاره فلسطين اليوم مفتياً لها وممثلاً عنها..

رمق الشيخ عز الدين الأستاذ رشيد بإكبار، وشعر بأنه في المكان الصحيح وفي التوقيت المناسب، ليساهم في معركة القرار الحر، في وجه مؤامرة التزييف التي يقودها الإنجليز، لإقصاء رجال فلسطين عن مواقع القيادة والتأثير. وقال وهو يستعيد الورقة، ويخرج القلم ليوقع عليها:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فأنا أول الموقعين.

وعلق الأستاذ عبد الرحمن الحاج رئيس البلدية:

ـ يمكنك أن توقع بصفتك كمدرس في مدارس حيفا.

ـ وهذا توقيعي.. «عز الدين القسام، مدرس».

ـ على بركة الله.

كان الشيخ عز الدين فخوراً وممتنّاً لهذه اللفتة، فمنْحُه صوتاً بين هؤلاء الوجهاء والعلماء، تكريم يشعره بأن فلسطين مازالت تقاوم بإصرار فصلها عن سوريا الأم، وترحيب بدور يتمنى أن يقوم به على هذه الأرض، بعدما تحرر من ظلال الغربة التي كانت تُثقل خطواته..

لكنه ظلّ يتساءل في داخله عن هذا الشاب اللامع من آل الحسيني، الذي ترشحه اليوم فلسطين ليقود خطاها في أحلك الظروف؟.

# ٤٣

اقرأ في «الكرمل» اليوم.. «اليهود يهاجمون حي المنشية في يافا».

لفت الخبر الشـيخ عز الدين، بينمـا كان في طريقه إلى المدرسـة، فاتجـه نحـو بائع الصحـف ليشـتري جريـدة الكرمـل، التـي كان يعلن «الجورنالجي» خبرها الأهم، وراح يقرأ باهتمام..

«يهود مسلحون يهاجمون المصلين المسلمين في عيد العمال»

«العربُ يردّون على العدوان، ويقتلون ١٣ يهودياً ويجرحون ٢٤»

«الجيش البريطاني يقف مع اليهود ضد العرب الغاضبين»

يافا- من خليل شرابي.

«أفاد مراسـل جريدة الكرمل في يافـا، بأن مجموعة من الشـيوعيين اليهود المحتفلين بعيد العمال، اعتدت على العرب المسـلمين القاطنين في حي المنشية في يافا، أثناء الصلاة في الجامع المحمودي قرب السرايا.

كما شـهد شـارع العجمي، حادث إطلاق نار خطير علـى المارة العرب، أوقـع عدداً مـن الشـهداء والجرحـى، وتبيـن أن مصدر الرصـاص منـزل للصهاينة اليهود، ورداً على هذا العـدوان، هاجم العرب المنـزل الصهيوني، وقتلـوا ١٣ وجرحـوا ٢٤ آخرين مـن أصل مئـة يقيمون فيـه، ومعظمهم من الشباب.

وتسـود حالة من التوتر والترقب، لما ستتطور إليه الأحداث، التي تكاد تعصـف بالبـلاد، في ظـل التواطؤ الـذي يمارسـه الإنجليز مع الجماعات اليهودية المسـلحة التي تعيث الآن فـي يافا مهددة بالمزيد من الاعتداءات.

طوى الشيخ الجريدة في عصبية ظاهرة، ومضى غاضباً حزيناً..

«لقد بلغ السيل الزبى، وكشّر اليهود عن أنيابهم، وهاهم يتجرؤون على أهل البلاد، وبريطانيا تحميهم وتدعمهم، وتغطي جرائمهم..»

وتنهد تنهيدة طويلة وشت بما يعتمل في صدره من حنق وغضب..

«كيف يحتمل ظلماً يجري أمامه، ثم لا يتصدى له؟..»

وتذكر القسام أنه جديد في بلد لم يختبره بعد، وأنه مطارد من فرنسا التي تسـعى وراءه، وقـد يجد الإنجليز فـي أي تصرف ضدهـم هنا،مبرراً لتسـليمه ومن معه إلى فرنسـا.. وتذكـر حـواراً قديماً، جـرى بينه وبين أصحابه، وهو في طريقه إلى فلسـطين.. حوار بدأه الشيخ خالد رحمه الله، ومازال يرنّ في أذنيه:

- هل تعتقد أن الإنجليز سيتركونا وشأننا يا شيخ عز الدين؟
- سيتركونا إلى حين.. حتى نصبح خطراً عليهم..

وكظم غيظه، وراح يحوقل.. لكم تجذبه فلسطين إلى ميدانها اللاهب، ليواجه خطر صهاينة اليهود مـن المهاجرين الذين تمادوا، وخطر الإنجليز الذين يمدّون ويمكّنون لهم.

وتذكر كلمات آمنة التي نطقتها ببراءة من يشـعر بأن مسـتقبله مهدد، دون أن يـدرك الخفايـا والتفاصيل: «الوطـن القومي لليهـود يعني نهاية فلسـطين» فشـعر بخطر داهم يقترب، خطر أشـد من انتداب أو احتلال.. خطر وطن يقام على أنقاض وطن، وشعب مهدد بأمواج من اليهود القادمين المشـحونين بحلم مجنون، قد أعدوا له عدته، يساعدهم في تحقيقه غرب حاقد له فيهم مآرب أخرى..

وشعر الشـيخ عز الدين بأنه أمام تحدّ جديد، يسـتفزّه ويثير فيه روح الكفاح..

«إيه يا عز الدين..على كم جبهة عليك أن تحارب.. تحارب فرنسا التي

دنست وطنك.. أم تحارب بريطانيا التي عشت بعض طغيانها وظلمها الغاشم في مصــر من قبل، والآن في فلســطين.. أم تتصدّى لهــذا المدّ الصهيوني الذي يهدد مستقبل الشــام.. جبهة لم تكن على البال.. وبلاء يزداد خطره يومــاً بعد يوم.. هــذا هو قــدرك يا عز الديــن.. أن تخــوض صحراء من الشوك.. أن تواجه كلّ هؤلاء في لحظة واحدة.. فماذا أنت فاعل؟؟».

لأول مرة منذ أن عُين الشيخ القسام مدرساً في حيفا، يتغيب دون سبب ظاهر، ووجد نفسه مندفعاً إلى غير اتجاه.

# ٤٤

كان الأستاذ رشــيد يجلس في بيته شــارداً حزيناً، يقلّب الجرائد، ويتمعــن في هــذه الأحداث التــي تتســارع، وتلقي بظلالهــا على واقع فلسطين الملبد، ومستقبلها الغامض، الذي أضحى في مهبّ الريح..

وأغمض الأســتاذ رشــيد عينيه، وهو يرمي بظهره على مســند كرســي مكتبه، والغضب يغلي في عروقه:

«طفح الكيل، ولم يعد يمكن السكوت.. هؤلاء اليهود الذين تقذف بهم الآفاق إلى شــواطئ فلســطين، يحملون معهم مكراً وحقداً فــاق كل توقع.. وهاهي بريطانيا تمدّ لهم وتحميهم، وتمعن في إنجاز الوطن الذي وعدتهم به.. وطن يقيمونه على أشلائنا»..

وضرب حافة الكرسي، بقبضة ثائرة فاض بها الغضب..

«لا بد أن تردّ فلسطين على هذا التحدي..»

وطُرق الباب فجأة!.

- الشيخ عز الدين! أهلاً. أهلاً. تفضل.
- قلت لعلّي أجد عندك المزيد من الأخبار..

قال الأستاذ رشيد وهو يغلق الباب، ويدعو ضيفه إلى صدر المجلس:

- الأخبار كثيرة. لكنّها لا تسر.
- هذا عدوان سافر، لا يمكن السكوت عنه.
- ندفع ضريبة ضعفنا ياشيخ عز الدين.
- أتصلُ الوقاحة باليهود، ليهاجموا العــرب في عقر دارهم، وهم قلة في البلاد!.
- لم يعودوا قلة. بمفهوم العدد هم يتزايدون بســرعة.. وبمفهوم القوة

هم الأقوياء لأن بريطانيـــا تحميهم مهما فعلوا، ولا تنـــس أن لديهم قوتهم العسكرية الخاصة بهم.

لفتت الكلمات انتباه الشيخ عز الدين.

ـ قوة عسكرية؟!.

مدّ الأســتاذ رشـيد يده إلى كدســة من الجرائد، التــي تراكمت فوق مكتبه، وأخرج منها عدداً قديماً من جريدة «فلســطين»، ودفع به للشيخ عز الدين، مشيراً لخبر قصير، أحاطه بإطار أحمر..

ـ اقرأ هنا.

راح الشيخ يقرأ حيث أشار:

«القدس ـ أفاد مراسلنا لشــؤون الهجرة اليهودية، أن الصندوق اليهودي قرر تأســيس منظمة عســكرية تدعى «الهاجانــاه» الهــدف منها الدفاع عــن أرواح وممتلكات المســتعمرات اليهودية في فلســطين، خارج نطاق الانتداب البريطاني، والجدير بالذكر أن كلمة «هاجاناه» تعني بالعبرية «الدفاع».

وفسّــر المراقبون هــذا القرار، الذي ســكَتَتْ عنه ســلطات الانتداب، بأنه إعلان شبه رسمي عن تأســيس جيش للدفاع عن الوطن القومي اليهودي، الذي وعدت به بريطانيا على لسان ســيىء الذكر «بلفور» ومؤشر قوي إلى أن أعداد المهاجرين ستتضاعف في الأشهر والسنوات القليلة القادمة...»

رفع الشيخ القسام حاجبيه دهشة..

ـ يا لهــذا المكر.. يغــزون البلاد، ويتحدثــون عن منظمــة للدفاع، وكأنهم هم الضحية، ونحن المعتدون الذين نهددهم.

ـ المهم في الخبر أن هذه المنظمة ســتعمل بشكل مســتقل عن الإنجليز، وبأهداف فضفاضة، فلو مرّ فلاح فلســطيني بالخطأ قرب مســتعمرة، يمكنهم أن يقتلوه بحجة حماية الأرواح والممتلكات، ولن يسائلهم أحد.

طوى الشيخ عز الدين الجريدة بعصبية، وقال:

ـ وها هم يقتلون الأبرياء في يافا، دون أن يمروا بمستعمراتهم.

ـ نحن الآن أمام مشـــروع صهيوني متكامل ياشـــيخ عز الدين، إن لم يتم إيقافه، فسيحقق ما يريد، وما يريده واضح وصريح.. يريدون فلسطين.. كل فلسطين.

ـ يوماً بعد يوم، أشعر بأن ما يجري في فلسطين أخطر مما يجري في أي مصر آخر من أمصار العروبة والإسلام.

ـ صدقت.. ولكن كيف يكون الرد؟.

ـ العين بالعين، والسنّ بالسنّ، والبادئ أظلم.

ورانت لحظة من الصمــت، فكانت أبلغ من الــكلام.. الطريق واضح، وكل منهما يعرف دوره، ويتوق إليه.

# ٤٥

صلى الشيخ عز الدين الظهر في جامع الجرينة الكبير بصحبة الشيخ حنفي والشيخ علي الحاج عبيد، وخرجوا باتجاه سوق الحسبة.. وفي الطريق زفّ إليه الشيخ حنفي أنهما وجدا عملاً جديداً في مزرعة في مرج بني عامر..

قال الشيخ عز الدين مداعباَ:

ـ وجدنا العمل. ولم يبق سوى بنت الحلال..

ضحكا. وعلق الشيخ علي:

ـ سامحك الله يا شيخ عز الدين، أي بنت حلال ترضى بمشرد عن بلده، لا يكاد يجد ما يكفي قوت يومه.

ـ لا تقل هكذا ياشيخ علي، الطيبون للطيبات، وستجد إن شاء الله من ترضى بهذا المجاهد الذي تغرب عن أهله وبلدته، لأنه كان يدافع عن أمته..

وأردف يقول:

ـ اجتهدا في رزقكما، واتركا الباقي على الله..

وسمعوا خلفهم صوت عربة مسرعة، والحوذي يهتف ويلحّ في التنبيه: «ظهرك يا حرمة.. وجهك يا أفندي.. جنبك يا عتال.. طريق.. طريق يا إخوان».

والتفت الشيخ حنفي يتأمل في هذا الذي يملأ الشارع ضجيجاً..

ـ هذا صالح أبو شقرة!.

التفت الشيخ عز الدين:

ـ ما باله مسرع هكذا؟.

وناداه الشيخ حنفي، فالتفت إليه بوجه صارم، وسرعان ما انفرجت أساريره، عندما رأى الشيخ عز الدين. شدّ صالح رسن بغليه، وأوقف الطنبر على جانب الطريق، ثم ترجل قافزاً باتجاه الشيخ:

ـ شيخ عز الدين؟.. سبحان من جمعني بك من غير ميعاد!

ـ مالك مسرع هكذا؟.

ـ ألم تسمع بماحدث؟..

ـ بلى.

ـ اليهود ياشيخي.. افتروا وتجبروا.. والإنجليز من وراءهم.. ولم يعد للصبر مكان.

ـ لهم يوم ياصالح..

ـ الناس في يافا أجمعوا على الثأر.

ثم، وقد تهدج صوته..

ـ قتلوا ابن خالتي الله يرحمه، وهو يصلي في الجامع الكبير، أرأيت يا شيخنا غدراً أخسَّ من هذا؟!.

حوقل الشيخ القسام..

ـ هو شهيد بإذن الله، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

قال صالح، وهو يشدّ على يد القسام مودعاً:

ـ ادع لي ياشيخي بالشهادة، فقد طاب الموت.

ـ ماذا تنوي؟.

ـ يافا تنادى للثأر، والناس تستعد، سننقض على مستعمراتهم، ونلقنهم درساً..

وأردف يلح في الوداع:

ـ ادع لي يا شيخنا، فقد لا يكتب لنا اللقاء بعد اليوم.

وحار الشـيخ فيما يقول، فدمعت عينـاه.. وراح يودعـه بنظرات ملؤها الإكبار.. وهتف به الشيخ حنفي، وهو يقفز إلى العربة:

- كن حذراً..

ردّ وهو يشدّ رسن بغليه، يحثهما على الانطلاق:

- لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ياشيخ حنفي.

وظل الشـيخ عز الدين يلاحقه بنظراته حتى غـاب. كم كان يتمنى لو كان معه. لكنّ خطـاه ما زالت موزعة بين سـاحتين، و مدينتين، وثلاثة أعداء.

هبّتْ نسائم رمضان، والحزن يلف فلسطين، والأخبار تتوارد كل يوم من يافا، حـول الصدامات العنيفة التـي تقع بين العرب واليهـود، وذات يوم، وقبيل أذان المغرب بقليل، سمع الشـيخ طرقاً على الباب، فأسرع يتبين من الطارق.. فإذا بصالح أبو شقرة يلقي السلام..

- صالح!.

- اعذرني ياشيخي، فالوقت غير مناسب، ولكن..

تأمل الشيخ يده المكسورة، والجروح التي أثخنت وجهه..

- الحمد لله على السلامة.. تفضل، تفضل..

وأطلق الشيخ في البيت نداء، يعلن فيه عن دخول الطارق إلى الدار..

- يا الله.. تفضل يا أخ صالح..

فهمت أمينـة أن زوجها يسـتقبل ضيفـاً، فأغلقت عليها بـاب المطبخ الصغير، وشـرعت بإعداد الفطور للشـيخ وضيفه. واحتـوت الغرفة المعدة للجلوس الرجلين.

- طمنّي عنك، ماذا حدث لك، وكيف مضت الأمور؟

- الأمور كانت سـيئة، فبعـد أن كدنا نهزمهم، تدخـل جنود الإنجليز وردّونا..

هزّ الشيخ رأسه في غيظ..

- مفهوم..

- اسـتفاد اليهود مـن وجود أفـراد الكتيبـة اليهودية، التي سـلحها الإنجليز بحجة الدفاع عن تل أبيب، فاسـتغلوا الوضع، وانتشـروا في شوارع وأسواق يافا، وأخذوا يطلقون النار على العرب، وهم يلبسون ملابس عسكر

الإنجليز، فغضب أهل يافا، وتظاهـروا مطالبين الإنجليز بوضع جنود هنود، حتى يميزوا بين عصابات اليهود وجنود الإنجليز، لكنهم تأخروا حتى وافقوا، وسقط منّا خلق كثير.

- وبعد؟..

- غلت الدماء في عـروق الناس.. تجمـع عدد كبير منـا.. أكثر من أربعمئـة.. وتوجهنا نحو مسـتعمرة الخضيرة.. فتدخل الطيـران الإنجليزي، وقصفنا، فوقع منا شهداء كثيرون..

- رحمهم الله..

- وهكـذا، كلما هاجمنا اليهـود وقف الإنجليز يتفرجـون على رجالنا ونسـائنا وأطفالنـا وهم يقتلون، فـإذا حاولنـا أن نرد، أو ننتقـم لقتلانا وكراماتنا المهدورة، وقف في وجهنا الإنجليز بحجة الأمن والنظام..

وعضّ صالح على شفته من الغيظ..

- أترى ظلما يا شيخنا أكبر من هذا..

- وبعد.. أكمل.

- تجمع العرب، وهاجموا مستعمرة بتاح تكفا، التي لجأ إليها الكثيرون من القتلة اليهود، هاجمناهم بالعصي والسـكاكين، ووقعـت معركة كبيرة، وتكررت نفس القصة.. الإنجليز دافعوا عن اليهود، وكأنهم جاءوا لفلسطين فقط من أجل نصرة هـؤلاء وحمايتهم.. عند ذلك تجرأ اليهـود وقتلوا منّا خمسين.. ومثّلوا بالقتلى الذين لم نستطع إخلاءهم..

- ماذا تقول!.

- ولم يكتفـوا بذلك، بل هاجمـوا القـرى المجاورة، فقتلـوا أطفالاً ونساء، وهتكوا أعراض المسلمات، وبقروا بطون الحوامل..

- إلى هذا الحد وصل بهم الحقد؟.

ـ وأكثر يا شيخنا.

ـ وكيف أصبت بهذه الكسور والجروح؟

ـ قبض علي الإنجليز أثناء الاشتباكات، وعذبوني..

ـ وكيف خرجت؟

ـ تدخل الوجهاء والأعيان، توسطوا لإنهاء المعارك، وأقنعوا الإنجليز بأن يخرجوا المساجين، ويحجزوا اليهود حتى لا يتمادوا أكثر، لأن ذلك سيؤلب فلسطين كلها ضدهم..

ـ وبهذا خرجت.

ـ لولا تدخل الشيخ عبد الغني عون لدى الشاويش خانكين، لما خرجت.

ـ خانكين؟.

ـ شاويش يهودي، كان جار الشيخ عون، وله كلمة عند الإنجليز، لكنه ما كان ليفعل لولا أن صدر قرار من المندوب السامي بوقف الهجرة اليهودية، ليبرد خواطر العرب، مما اضطر اليهود لبعض اللّين.

لأول مرة يشعر القسام، أن فلسطين كلها تستصرخه، فما يجري هنا أكثر من انتداب أو احتلال.. شيء أشبه بحرب لإبادة شعب آمن، ليخلو المكان والزمان لآخرين!.

# ٤٧

بعد صلاة التروايح كان الشيخ عز الدين يلقي كلمة كل يوم في مسجد حيفا الصغير، قبل أن يصلي الناس الوتر وينتشروا..

وكان الشـيخ ينوي الليلة أن يتحدث عن معركة بدر، التي تطل ذكراها غداً في السابع عشر من رمضان، لكن لقاءه بصالح أبو شقرة، غيّر ما كان قد أزمع عليه، فقد كان مشحوناً بمشـاعر غاضبة وأفكار ملحة، يشعر بأنه لابد من أن يبثهـا للناس، وهذا أضعف الإيمان، تجـاه أولئك الذين بذلوا أرواحهم للدفاع عن يافا الجريحة..

وبدأ الشـيخ كلمته، فأنصت النـاس، فقد خبروا هـذه الأحاديث طيلة الأيام التي انقضت من رمضان، وتفاعلوا معها، ولمسـوا فيها روحاً جديدة، لم يألفوها من قبل.. فهذا الشـيخ يروي الحقائق كما هي، ويسمّي الأشياء بأسمائها، ويلمس في نفوسهم وتراً لم يقترب منه أحد من قبل.

واستهلّ القسام الكلام بآية هزت القلوب، وحركت المواجع..

«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله»..

ـ «تطل علينا غدا يا إخوان ـ ذكرى معركة فاصلة من معارك الإسلام.. معركة كان لها ما بعدهـا من نصر وتمكين لرسـول الله وصحابته الكرام، لكنّي فضلت أن أؤجل الحديث عن هذه المناسـبة للغد، لأتحدث عما يجري على بُعد ساعة من هنا، ونحن عنه غافلون، وكما تعلمون، فإنه «من لم يهتم بشؤون المسـلمين، فليس منهم»، ولا يجوز أن نسـكت عن هذا الظلم الذي يحيـق بإخواننا في يافا، ونلـوذ بالتاريـخ.. لا يجوز أن نتحـدث عن جهاد صحابة رسول الله.. ونترك الحديث عن جهاد أحباب رسول الله ﷺ».

ضج المسجد بالصلاة على النبي، بينما تابع الشيخ:

ـ «فقد قال عليه الصلاة والسلام يوما لأصحابه: واشوقاه لأحبابي. قالوا: أولسنا أحبابك يا رسول الله؟. أجاب: بل أنتم أصحابي، لكن أحبابي، أناس آمنوا بي، ولم يروني».

وكبّر الحاضرون احتفاءً بهذه البشرى، ودمعت العيون، فكررها القسام وهو يضغط على الكلمات..

ـ «أحبابي أناس آمنوا بي ولم يروني».

وتابع بعد لحظة صمت، حشدت الانتباه:

ـ «لكن أحبابك يارسول الله اليوم مظلومون.. محاصرون.. تقتلهم في يافا قطعان المهاجرين الصهاينة، الذين لم يرعوا في هذه البلاد إلاًّ ولا ذمة.. يقتلون الرجال والنساء والأطفال أمام سمع الإنجليز وبصرهم..

وقد سمعت اليوم من شاهدٍ صادف وصوله من هناك، عن يهود في يافا يعتدون على المصلين في المسجد الكبير، وعن يهود يهاجمون العرب في الشوراع، وعن مسلمين حُرِقُوا بماء الفضة..

ثم بنبرة أعلى، وأشد وقعاً..

ـ «لا بل وصلت بهم الخسة والنذالة لأن يتعرضوا للحرائر، ويعتدوا على الفتيات الطاهرات، ويبقروا بطون الحوامل..

كبّر الناس، وفارت دماؤهم، وصاح أكثر من صوت «حي على الجهاد» لكن الشيخ استمر في حديثه، وكأنه بركان متدفق لن يتوقف، حتى يلقي بكل حممه في الفضاء:

ـ «أحبابك يا رسول الله اليوم مظلومون، صابرون، يذودون عن أرض الرباط، بما يملكونه من عصيّ وسكاكين، بينما اليهود الذين جلبتهم بريطانيا، وتدافع عنهم بريطانيا.. يهاجمون أحبابك برصاص صنع في

بريطانيا.. وبسلاح لا تملكه سوى جيوش بريطانيا.. جنودك يا الله، يدافعون اليوم عن الأرض التي باركْتَ فيها وحولها، ويرخصون من أجلها الروح ببسالة.. وليس لهم من معين إلاك.. فكن معهم في محنتهم، وأيّدهم بنصرك الذي وعدت..

وتبادل الشيخ حنفي مع الشيخ علي عبيد نظرة تفيض بالدهشة، فأميرهم يتحدث اليوم بنبرة لم يكن يستخدمها في فلسطين، وأصغيا إلى صوت بكاء كان يتعالى مع نبرة الخطاب، فانتبها إلى وجود صالح أبو شقرة، الذي سمع نشيجه كل من في المسجد، فأدركا أنه مصدر الأخبار..

وجاءت كلمات القسام صرخة حق في بيداء من الصمت، وصيحة هادرة نبهت النائمين والمتردّدين، وتحدثت حيفا لأول مرة، عن ذلك الشيخ السوري الذي يصدع بالحقائق كما هي، ويشحن العقول والقلوب، ولا يخشى في الله لومة لائم.

لكنّ برقية خبيثة أرسلت لقلم المخابرات الإنجليزية، وصلت على عجل، تحذر من شيخ سوري حكمت فرنسا عليه بالإعدام، فهرب إلى حيفا، وراح يحرض أهلها ضد الإنجليز واليهود، وتنبه من نار تتحرك تحت الرماد.

# ٤٨

وجاء العيد..

كانت الأحداث قد هدأت، بعد الوعود التـي أطلقها الإنجليز لامتصاص الثـورة، وراح العـرب يلملمـون جراحهم، ويحصـون خسـائرهم، ويعيدون حساباتهم، تحسباً لأي حركة غدر جديدة قد تندّ عن عدوهم..

وبعد صلاة العيد، دعا الشيخ رفاق دربه ليتناولوا الإفطار على مائدته، ويأخـذوا حصتهم من معمول العيـد، الذي اجتهدت أم محمـد في صناعته طيلـة الليلة الماضية، ليتذوقوا من الحلوى التي تعـودوا عليها في جبلة كل عيد..

وبعد أن غادروه، طلب من أهله أن يسـتعدوا، ليأخـذ البنات في رحلة إلى وسط البلد، لكنّ الباب طرق فجأة، وأطلّ منه ضيف عزيز..

- يا أهلاً بالأستاذ رشيد
- أردت أن أكون أول من يبارك لك بالعيد.
- بارك الله فيك.. تفضل، تفضل..
- معي الزوجة.. أرجو أن تفسح لها طريقاً لتزور أم محمد..
- يا أهلاً، يا أهلاً..

واسـتقر بهم المجلس في غرفة متواضعة، زادت الأسـتاذ رشيد الحاج إبراهيم إعجابـاً بهذا الأزهري الثائـر، الذي لو أراد لأتتـه الدنيا طائعة، لكنه آثر حياة الجهاد والكفاح على حياة الدعة والراحة!. وقال للشيخ، وهو يتناول فنجان القهوة السادة من يده..

- النـاس يتحدثون عـن درس التراويح الـذي ناديت فيـه بالجهاد، ويثنون على كلماتك التي أحيت القلوب.

ـ كانت توفيقاً من الله..

ـ لكنّي علمت من بعض من أعرف في السراي، أن الإنجليز غاضبون!.

ـ كان لا بد من كلمة حق.

ـ من حســن الحظ أن الإنجليز يحاولون تهدئة المسائل، بعدما جرى في يافا، ولن يقفوا عند خطبة غاضبة هنا، أو نقد لاذع هناك.

ـ ما حدث كان خطيراً جداً..

ـ صدقت. ولا يجوز أن يمرّ دون أن ينبه في الناس الإحساس بالكارثة التي تقترب.

ـ ولكن ياليت قومي يعلمون..

ـ لكأنك غير راض عمّا آلت إليه الأمور!.

صمت الشيخ، وهز رأسه في مرارة، جدّد القهوة لضيفه، ثم قال:

ـ نقل لــي أحدهم من يافا أن شــيخاً معممــاً ينظر لهــؤلاء الغرباء القادمين تحت حراب الإنجليز، ويحشدون لقهرنا المال والسلاح، على أنهم أهل كتاب لهم ما لنا وعليهم ما علينا!

ـ هذا رأي نشاز..

وأردف الأستاذ رشيد..

ـ ليسوا ســواء.. منذ أيام فقط نقل لي صديق خبراً عن عالم كريم اعتلى منبر صلاح الدين في المسجد الأقصى، وخطب خطبة قوية حذر فيها من الهجرة اليهودية، وهاجم الإنجليز الذين يقفون وراء هذا الغزو اليهودي ويدعمونه ويحمونه في فلســطين، وقد تأثّــر الناس كثيراً بالشــيخ فرحان السعدي، خرجوا بعدها في مظاهرات عارمة ضد الإنجليز..

لفَتَ الاسم انتباه الشيخ عز الدين..

ـ هل قلت الشيخ فرحان السعدي؟.

استغرب الأستاذ رشيد السؤال.

ـ نعم. هل تعرفه؟.

ـ التقينا أثناء الخدمة الجهادية منذ سنوات طويلة.. كنا معاً نخدم في دمشق.. ومنذ قدومي إلى هنا وأنا أسعى لرؤيته.

ـ الحقيقة أني لا أعرفه شخصياً، لكني حفظت الاسم.

ـ لعله يقيم في القدس..

ـ كثير من العلماء يزورون الأقصى، ويلقون فيه بعض المواعظ والكلمات..

ـ على أية حال.. يبدو أن اليهود قد كشروا عن أنيابهم، ومصدر قوتهم الأول والأخير هو بريطانيا، التي مهدت الأرض، وغضّت عنهم الطرف، وعند اللزوم لن تتردد في التدخل علناً إلى جانبهم، وهاهم يقمعون المظاهرات الغاضبة التي تعبر عن رفضها للهجرة..

هزّ الأستاذ رشيد رأسه موافقاً..

ـ مايؤرقني حجم السلاح الذي ظهر لدى اليهود أثناء الأحداث.

ـ اليهود لا يلعبون.

ـ دعوتك للجهاد حفّزت الكثير من شباب حيفا ورجالها.

ـ الجهاد يحتاج إلى إعداد طويل، والمجاهد قبل الرصاص.. وعيه وفكره وعقيدته التي لا تلين.. هذا ما يجب أن نعمل عليه الآن..

ـ أرى أن فلسطين قد استغرقت فكرك واهتمامك، فماذا عن سوريا؟.

ـ الأمور هادئة هناك، ولكل حادث حديث..

واستأذن الأستاذ رشيد، فودعه القسام، وهو ممتنّ لهذه الزيارة التي لم يتوقعها.

وأغلق الشيخ عز الدين الباب، وهو يفكر بصديقه القديم فرحان السعدي.. ففاجأته أم محمد وهي تقبل عليه باشّة..

- ماذا عندك؟.
- زوجة صاحبك..
- ما بالها..
- سيدة رائعة من خير النساء.. علم وأدب وأخلاق.. ما شاء اللّه.
- نعم الرجل، ونعم المرأة..
- على فكرة زوجته ليست حيفاوية!
- يبدو أن صحبة النسوان قد نشبت بينكما سريعاً..
- إنها من دمشق.
- دمشقية؟..

هذا الرجل.. لكم يعشق الشام!.

فوجئت أم محمد بالشيخ عز الدين، يطلب منها أن تعد الغرفة الثانية من الدار، لحضور عدد من الضيوف الذين سيزورنه كل يوم بعد المغرب..

ـ كل يوم! لماذا كل يوم؟

ـ لأعلمهم القراءة والكتابة.

ضحكت:

ـ تحول البيت إلى مدرسة؟!.. هذا آخر ما كان يخطر لي على بال!.

ابتسم الشيخ:

ـ جاءني بعض الشباب في المسجد، وقالوا أنهم وجدوا فرصة للعمل في محطة القطار، لكنهم يشترطون عليهم أن يتقنوا القراءة والكتابة ليوظفوهم، ورجوني أن أعلّمهم، حتى يتمكنوا من العمل والكسب الحلال.

ـ أليس التعلم في هذا السن الكبير صعب عليهم؟.

ـ الرزق سيدفعهم للتعلم.. إنهم مساكين.. من هؤلاء الفلاحين الذين حدثتك عنهم.. الذين طردوا من أرضهم بسبب اليهود ومستعمراتهم.. ولديهم عوائل وأطفال..

نظرت أم محمد إلى زوجها في إكبار..

ـ ستجد الغرفة جاهزة كل يوم منذ العصر.

وتمدد الشيخ يريح جسده على السرير، يفكر في المستقبل، ووجوه الفلاحين الذين يتكدسون حوله في بيوت الصفيح لا تفارق مخيلته.. ثمة شيء يستطيع أن يقدمه لهم الآن.. صحيح أنه لا يملك مايساعدهم به على تجاوز صعوبات الحياة، لكنه يملك أن يساعدهم بشيء يملكه ويتقنه، وقد

يفتح لهم أبواباً وفرصاً تحفل بها حيفا اليوم، بعد أن ازدهرت وتوسعت، وافتتحت فيها المصانع والمصالح والأعمال..

ولم يلبث أن سمع طرقاً على الباب، فنهض يلبي.. وكانت المفاجأة.. الحاج أحمد السهلي والحاج سالم الخطيب بصحبة الأستاذ أمين نور الله وابن أخيه ظافر، ينتظرهم حنطور يقف على الطرف الآخر من الطريق. وضمّهم مجلس متواضع..

- طمّنوني أولاً عن صحة الوالد الكريم..

ضحك الحاج أحمد..

- كما تعرفه.. سمعه يزداد ضعفاً، لكن ذاكرته ماتزال حيّة.. ولديه سؤال واحد ينام ويفيق عليه.. متى ستقيمون عرس آمنة ومصطفى؟..

ابتسم الشيخ عز الدين:

- الحق على آمنة. لكنها حققت هدفها أخيراً، ونجحت نجاحاً باهراً يرفع الرأس كما عرفت.

التقط الحديث الحاج سالم الخطيب:

- لقد تمت بفضل الله كل الاستعدادات للزفاف، وها نحن ننفذ طلبه، وقد جئناك اليوم ندعوك إلى زفاف ابننا مصطفى على آمنة، وسيكون حضورك أنت والأهل، تشريف لنا وبركة لهذا العرس، الذي صرت تعرف قصته ومكانته في حياة العائلتين.

وطرق الباب فقام الشيخ ليجد ميمنة، وهي تحمل صينية الشاي، شملها بنظرة ودّ، وقد تخيلها عروساً كآمنة، وتمنّى لها أياماً سعيدة، وهو يعود إلى ضيوفه بالشاي..

- هذا زواج مبارك بإذن الله، لأنه بُني على دعائم قوية، فالعروسان حفيدان لشهيد من أوائل الشهداء الذين روَوْا فلسطين بدمائهم، وابنان

بــارّان لعائلتين كريمتين من عائلات حيفا العريقة، وأنا أشــهد بالعروســة شــهادة حق وعن قرب، بعد أن خبرت أخلاقها وأدبها ووعيها، عندما كانت طالبــة عندي، ولا أظن إلا أنها ســتكون خيــر زوجة لخيــر زوج، وخير أم لأجيال نرجوها، ونرجو فيها خيراً لهذه الأمة.

نزلت كلمات الشــيخ عــز الدين القســام برداً وســلاماً علــى والدي العروســين، فاستبشرا بمســتقبل واعد، وأدركا أن الأقدار قد ساقت الشيخ، ليعطي لهذه الفرحة الوشيكة، معنى أكبر وأعمق من زواج يجمع بين قلبين.

# ٥٠

هبت النسمات الباردة العليلة، فأنعشت قلبين ألهبهما العشق، وحركت الأشواق حنيناً حبيساً، آن له أن ينعتق من إساره، ليأنس كلٌّ إلى توأمه الذي كان قريباً وبعيداً، ومدّ مصطفى يديه إلى الوشاح الأبيض، الذي يغطي وجه آمنة، فأزاحه برفق، وراح يتأمل وجهاً تفجرت حمرته، فبدا كوردة تفتحت للتو، وخفق قلبه، وهو يستمتع بنظرة حلال، لم تكن متاحة له قبل اليوم..

وبلغ الحياء بآمنة منتهاه، فلاذت عيناها بزاوية محجرين واسعين، أثقل حركتهما حرج اللقاء مع حبيب كان قريباً وأمسى زوجاً، بعد أن عاش في القلب حلماً أثيراً، لم تفصح عنه يوماً، لولا أنه تحقق.

وهمس مصطفى باسمها بنبرة تقطر وداً وحناناً، فانساب إلى سمعها لحناً عذباً، وكأنها تسمعه لأول مرة..

ـ آمنة..

نظرت إليه بطرف باسم، وعين زادها الحياء والهيام فتنة وحلاوة، تستحثه البوح بما تحب أن تسمع، فاستجمع بعضاً من جرأته، ليبثها بعضاً مما يعتمل في صدره:

ـ أحبك.

كادت تغيب من الفرحة، كمن فوجئ بخبر سار يفوق طاقته.. أردف هامساً، وهو يحتضن يدها بين راحتيه:

ـ انتظرت هذا الموعد كثيراً.

ـ ....

ـ لم تقولي شيئاً.

ازدادت وجنتاها احمراراً.

ـ لعلك لا تحبيني؟

وضعت يدها علـى فمه، ورمقته بطـرف عاتب. طبع قبلـة على راحتها الدافئة، وأمسك بها بين راحتيه..

ـ قولي أُحبكْ..

لم يسعفها لسانها، ولم تجد الجرأة لتقولها، فتشاغلت بغير كلام..

ـ لا أصدق أننا معاً تحت سقف واحد!.

ـ وأنا..

ـ انتظرت هذا اليوم كثيراً..

ـ وأنا..

ـ لا يبدو عليك!.

ـ لماذا؟.

ـ لأنك وسّطْت أستاذك القسام ليؤخر الزواج!.

ـ لم أقصد.

ـ لماذا أخرت العرس إذن؟

ـ لأني أحب المدرسة.. أحب العلم والدين.. وأحببت دروس الشيخ عز الدين.

ـ تحبين كل ذلك، ولا تقولين لي كلمة حب واحدة؟.

ـ مصطفى!.

ـ قولي لي كم طفلاً تريدين؟

زادت وجنتاها احمراراً، وتسارع وجيب قلبها..

ـ دعنا نتكلم أولاً..

واضطجع مستنداً على كوعه، وهو يتأمّلُها بعيون ولهى..

ـ غرّدي، فأنا أسمعك..

واضطجعت قبالته مستندة على كوعها، فكانا كصديقين في ليلة سمر، تأملها، وهو يغوص في بحر عينيها اللتين أفصحتا عن وجد جارف، فتاه في صفائهما، الذي تراءى له أشبه بصفاء بحر حيفا، عندما يفصح عن رقته، وقال كمن تذكر..

- جدّي يريد طفلاً يسميه على اسم صديقه الشهيد طاهر.

ابتسمت، فأشرق وجهها كبدر مضيء، لكنها لم تنبس.

- لم تقولي رأيك؟
- ليس المهم ماذا نسميه.
- لا بد له من اسم.
- المهم كيف سيكون؟
- مثل أبيه. هل في هذا شك؟

ضحكت ضحكة رقيقة..

- أنت الخير والبركة، وزينة شباب حيفا.. ما هذا الذي قصدت!
- أنت اليوم فيلسوفة!. لا تنفع الفلسفة في ليلة كهذه.

قالت وهي ترنو بنظراتها نحو طيف ما، حضر للتوّ في خيالها..

- أتمنى من الله أن يرزقني بطفل وسيم في جمالك.
- أأنا وسيم إلى هذا الحد؟
- وحنون كحنان أبي وأمي وجدّي، وحدبهم عليّ..
- سأكون أكثر حناناً منهم.
- وعالِمٌ في الشريعة..
- عالِم؟

رمقته بطرف صارم، وهي تلوح بسبابتها:

- أجل. أريده عالماً مجاهداً مثل الشيخ عز الدين القسام.

- ياليت.

- سـيكون بإذن الله.. عالمٌ وقور، لـه فهم العلماء، وتقـوى العلماء، وجهاد العلماء، وهيبة العلماء.

تاه إعجاباً بمنطقها الذي راق له، وشعر بالفخر بزوجة هذا حلمها..

- أحبك يا آمنة.. أحبك.

زادت ابتسـامتها اتسـاعاً، وفـاض الفرح مـن عينيها، مسـربلاً بدمع كاللؤلؤ، فبدت كوردة غسلها الندى، ومدّ يده ليمسح دموعها، فتناولت كفّه وقبّلتها، وهمست في هيام:

- وأنا أحبك.

هزته كلماتها من الأعماق، وروت ظمأه لحب أرهق مشـاعره بالشـوق، وترامت إلى أسماعهما أصوات الزغاريد التي مازالت تلعلع في فضاء الدار، فخففت عنهما حرج اللقاء.

# ٥١

هذه الليلــة الثانية له في فنــدق فكتوريا، دون أن يعثــر التنوخي على خيــط يوصله إلى صديقه عــز الدين، ودار بخلده أن القســام لا يمكن أن يعيش في حيفا دون أن يتصل بمســاجدها وعلمائهــا.. فقرر اليوم أن يصلي المغرب في مســجد النصر الكبير في الجرينة، علّه يصــل إلى صديقه أو يعثر على من يدلــه عليه.. وانفــضّ المصلون دون جدوى، فســأل عن قيّم المسجد، فدلّوه على الحاجّ عبد اللّه مسمار..

ضحك الحاجّ مسمار، وقال:

- لو صليت العصر عندنا، لأصغيت إلى الشــيخ عز الدين، وهو يلقي درسه هنا، وأخشى أنه قد فاتك خيرٌ كثير..

ابتسم التنوخي. كان حدسه في محله. ولكن كيف السبيل إليه؟..

- غادرنا قبيل المغرب.. قال لي بأن لديه درس بين المغرب والعشاء في مسجد حيفا الصغير.. لعلك تجتمع به إذا صليت العشاء هناك..

- وأين يقع هذا المسجد؟

- في الحسبة. ليس بعيداً من هنا على أية حال.

لم تغادر البســمة وجه التنوخي.. «للّه درك يا عــز الدين، هذا أنت.. صاحــب دأب وهمــة.. درس بعد العصر في المســجد الكبيــر.. ودرس بعد المغرب في المسجد الصغير.. ولا أدري ماذا تفعل في باقي يومك بعد!»..

ووصل التنوخي إلى المســجد، فتناهى إلى ســمعه ذلك الصوت الذي يعرفه جيداً، وهو يتحدث في تدفق وحماس، فجلس بعيداً يصغي، إذ لم يشأ أن يريه نفسه، حتى لا يقطع درسه احتفاءً بصديق قديم..

كان القسام يشرح للناس حديث الرســول ﷺ، وهو يناجي مكة عندما

كان يغادرها مهاجــراً.. «والله إنك لأحب بلاد الدنيا إلــيّ، ولولا أنّ أهلك أخرجوني منك ماخرجت».. واسترسل في حديثه عن حب الأوطان والتمسك بالحقوق.. وتطرق إلى بيع الأراضي لليهود فحرمه شــرعاً، وذكّر الناس بما حدث في يافا، وحذر من شرّ يقترب.

وبعد صلاة العشــاء انفضّ المصلون، إلا ثلّة من الشــباب تحلقت حول الشــيخ، تســأله وتحاوره، وتســتزيد من علمه وفكره.. وانهمك معهم بعض الوقت، لكن نظرة شاردة ســرعان ما التقطت ابتسامة دافئة لصديق قديم، لا يمكن أن يخطئها أبداً، فاستأذن ومضى نحوه..

ـ مَنْ؟. التنوخي ؟!.

وراحا في عناق طويل..

ـ أهلا بك في حيفا.. هذه مفاجأة لن أنساها.

ضحك الشيخ التنوخي، وهو يتأمل صاحبه..

ـ هذا أنت لم تتغير.. كياسمين الشام، فواح في كل حين.

ـ لن أستطيع التغلب على حلاوة بيانك.

واستدرك القسام ملتفتاً إلى من كان معهم:

ـ المعــذرة يــا شــباب.. فضيفي هــو الأديب الدمشــقي عــز الدين التنوخي.. صديق قديم من أيام الأزهر الشريف.

وأقبلوا يصافحونه بحرارة، بينما تابع الشيخ القسام، معرفاً:

ـ الأستاذ التنوخي رجل من رجالات الشام، وفارس من فرسان اللغة، لا يشق له غبار..

حياهم الشــيخ التنوخي، بينما اعتذر القسام لهم، وانتحى بصاحبه في ركن من أركان المسجد..

ـ ما أخبار الشام؟.

ـ لا تسرّ.. الفرنساوي سمّم حياتنا، وصادر استقلالنا.. الأمور صارت صعبة جداً.

ـ فرّج الله عن سوريا!.

ـ وكيف ترى الأمور في فلسطين؟.

ـ الإنجليز واليهود ماضون في خططهم على قدم وساق..

ـ سمعت أن الهجرة قد نشطت مع تعيين «صموئيل» مندوباً سامياً..

ـ صهيوني مرّ، يملك سطوة الإنجليز وحلم اليهود، ولك أن تتوقع الطامة التي نزلت بهذه البلاد..

واستدرك فجأة..

ـ ما الذي أتى بك إلى فلسطين؟

ـ اشتقت إليها..

ـ أخشى أن أمورك في سوريا ليست على ما يرام..

تنهد التنوخي، وهز رأسه في مرارة:

ـ الفرنساوي خنق البلد.. لذلك فكرت أن آتي إلى فلسطين، لأعمل هنا في مهنة الزراعة التي تعلمتها في باريس.

ـ سأكون مسروراً بوجودك هنا، لنتشاور في أمور كثيرة..

ـ وأنت؟.. من أين تعيش؟.. ماذا تعمل؟.

ـ أدرّس في مدارس البرج الإسلامية..

ـ سمعتك تنوه للحاضرين عن درس في بيتك!.

ـ بعض الفلاحين الذين طردوا من أرضهم، يحاولون أن يجدوا فرصة عمل في سكة الحديد أو الميناء، فيشترطون عليهم أن يتقنوا القراءة والكتابة، فأحاول أن أساعدهم..

نظر إليه التنوخي بإكبار..

- هذا أنت يا عز الدين.. الدنيا تتغير وأنت لا تتغير.

واستدرك التنوخي فجأة:

- أتدري من شاهدت في حيفا بالأمس؟

- من؟..

- لن تحزر.

- أحدٌ أعرفه؟

- عزّ المعرفة.

- قل، وكفاك ألغازاً!..

- الشيخ كامل القصاب!.

تهلل وجه القسام..

- مبلغ علمي أنه في الحجاز، يعمل في وزارة المعارف.

- أنــت على حق، وقد تــرك عمله هنــاك، ويريد أن يســتقر هنا في حيفا..

- أينه الآن؟...

- يقيم في فندق نصّار لبعض الوقت، ريثما يرتب أموره هنا.

ابتسم. «يالحيفا.. هاهي تجمع الأصحاب من جديد».

# ٥٢

كان الشــيخ كامل القصاب الذي وصل للتو إلى حيفا، متشــوقاً ليسمع من الشــيخ عز الدين عن تجربته، وما آلت إليه أموره حتى وصل إلى هنا، فقد ســمع نتفاً عن هذه التجربة، تــارة من التنوخي، وأخرى من الأســتاذ رشيد..

قال القسام بعد أن روى للشيخ كامل كل ماجرى وكان:

ـ سوريا جريحة يا شيخ كامل، وفلسطين مهددة بالضياع..

همس الشــيخ كامل، وهو يبســط كلتا يديه على حافتي الكنبة الوثيرة التي احتوته في بهو الفندق:

ـ ماذا نفعل؟.. هذا قدر الشام..

لم يعجبه البرود الذي واجه به القصاب كلماته، فقال:

ـ يبدو لي أننا نحن الذين ســاهمنا في صناعة هذا القدر، وإنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..

قال التنوخي ضاحكاً، وقد أحب أن يؤجج النقاش بين الصديقين:

ـ الشيخ عز الدين يغمز من حلفك مع الشــريف حسين وابنه الملك فيصل.

قال الشيخ كامل:

ـ اســمع يا عز الدين يا تنوخــي.. مهما فعلت، فلن توقــع بيني وبين القســام.. كنت مثل الكثيرين أعول على منقذ ينقذنــا من ظلم الترك، بعد أن تحولوا في آخر أيامهم من خلافة إلى احتلال.. ألا تذكر ما حدث يا عز الدين؟.

رد القسام:

ـ فــي هذه معك حــق.. لا أنكر أنّ الأمور قد ســاءت كثيــراً في آخر الأيام.. هالني يوماً أنّ فرماناً صدر عندما كنت في جبلة، يقضي أن نخطب الجمعة باللغة التركيــة.. كل هذا أنا معك فيه.. لكــن كان الأولى أن نغير الخلافة من داخلها، لا أن نحطمها.

ـ كنت أظن أن الهاشــميين بديلاً معقولاً، ولكنْ.. قدّر اللّه، وماشــاء فعل.

قال التنوخي..

ـ هذا اعترافٌ لا يغير من الأمر شيئاً..

قال الشيخ كامل في ضيق..

ـ هذا ليس اعترافاً.. هذا موقفي من البداية، أم نســيتم؟.. كنت أول من دعا إلى زيادة تمثيل العرب فــي الإدارة العثمانية، حتى لا يطغى عليها الأتراك، ويحوّلوها من دولة للمســلمين على اختــلاف أعراقهم، إلى دولة يحتكرها الترك، وتقصي غيرهم من المسلمين.

ـ لو بقي الســلطان عبــد الحميد في ســدّة الخلافــة، لكانت الأمور أسهل.. لكنه كان ضعيفاً، فانقلبوا عليه.

ـ أنــت قلتها.. الســلطان عبــد الحميد الــذي انقلبوا عليــه، فانتهت الخلافة بنهايته.. نحن ثرنا يا عــز الدين على الطورانيين ودعاة التتريك، ولم نثر على الخلافة.

قال التنوخي، وهو يغير الكنبة التي يجلس عليها، ليصبح أكثر قرباً:

ـ حدثني الشيخ محمود أبو الشامات في دمشق، وكان على صلة طيبة بالســلطان عبد الحميد، إذ كان يستشــيره، ويســتفتيه.. حدثني عن رسالة سريّة، استطاع السلطان أن يسربها له من سجنه في جزيرة سالونيك، عبر شخص يأتمنه..

علق الشيخ كامل:

ـ يهـود الدونمة هم الذين احتجزوه، وقد أخبرنـي من أثق به، أنهم حدّدوا إقامته في قصر منعزل، وكلفوا بحراسته رجال من عتاة الماسون.

تابع التنوخي:

ـ المهـم يروي لي الشـيخ أبو الشـامات أن السـلطان قـال له في الرسـالة، أن الاتحاديين أصروا عليه بأن يصادق خطياً على تأسـيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وأغروه بتقديم مئة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً مكافأة له، فرفـض، وأجابهم بالحرف «لو دفعتم مـلء الدنيا ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعـي» وبعد جوابه هذا، خيروه بين الموافقة أوالخلع، ففضل أن يخلعوه، ولا يبيع فلسطين.

قال الشيخ كامل:

ـ اليهـود اسـتغلوا الوضع واشـتروا حلمهـم بالمـال، وعندما رفض السلطان عبد الحميد عرضهم، اشتروا وعد بلفور من الإنكليز، لكن الأجانب كانـوا يخططون لهـدم الخلافة من زمـن بعيد، وعندما هزمـت تركيا في الحرب الكبرى على أيديهم، وجدونا لقمة سائغة..

ـ كان أولـى برجال الثورة العربيـة أن يعرفوا هذا قبـل أن يتحالفوا معهم!.

ـ لعلهم تذاكوا، فخانَهم ذكاؤهم!

ضحك التنوخي:

ـ من الحكمة أن يراجع المرء نفسه، ولو بعد حين.

تنهد الشيخ كامل..

ـ لا تزدها علينا يا تنوخي، كان اجتهـاداً، وكانت خدعة كبرى دفعنا ثمنها جميعاً، المهم أن ننتبه لما يحاك الآن..

## ٥٣

لم يمض على الشيخ كامل القصاب في حيفا سوى أشهر، حتى قرر أن يمضي في رحلة إلى مصر، يستطلع فيها آراء من يعرف من رجال الفكر والسياسة، ممن تؤرقهم الأحوال التي آلت إليها بلاد العرب..

وانطلقت صافرة القطار الحجازي، فلوح القسام والتنوخي للقصاب بتحية الوداع، وعادا أدراجهما مشياً على الأقدام، يتبادلان الأحاديث، ويستمتعان بمنظر البحر البديع، الذي كان موجه قد هدأ قليلاً، بعد ليلة ماطرة، مازالت مياهها تغسل الدروب، وترسل في الأجواء برودة ناعمة، تنعش الوجوه، وتثير في المفاصل النشاط..

ولفت نظرهما رجل يجلس خلف منقل جمر، قرب السور الواطئ الذي يفصل بين الشاطئ وسكة القطار، يبيع الشاي مع الكعك والزعتر، ويعرض بضاعته على المارة، فلا يعبأ بها إلا القليل، وقال التنوخي، وهو يفرك كفيه من البرد.

ـ ما رأيك بكوب من الشاي؟

ـ إذا كنت أنت الذي سيدفع، فلا بأس..

ـ طول عمرك مغلبني يا عز الدين يا قسام. أمري لله..

واقتربا من الرجل..

ـ تفضل يا شيخنا..

قال التنوخي:

ـ نريد شاياً جديداً..

ـ سامحك الله يا أفندي.. لا أبيع إلا شاياً طازجاً وجديداً.. عندما تذوقه ستتأكد..

ـ قصدت أن تطيل في غلي الشاي، حتى نستدفئ بهذا الجمر..

ضحك القسام..

ـ في هذه الحالة يجب أن تدفع ثمن الدفء أيضاً.. كما طلب البخيل يوماً من جحا أن يدفع ثمن رائحة الشواء!.

ضحك الرجل..

ـ الدفء مجاناً.. يكفيني أن تشربا الشاي عندي.

ـ لا أرى عندك ما يكفي من الزبائن!

هز بائع الشاي رأسه في مرارة..

ـ لقد مضى القطار في رحلته، ولن أجد مـا يكفي من الزبائن حتى الرحلة القادمة بعد الظهر..

تساءل التنوخي:

ـ وهل هذه تجارة رابحة؟.

أجاب وهو يحشو الكعك بالزعتر..

ـ مستورة، والحمد لله..

ثم أطلق تنهيدة طويلة، وألقى بنظراته الكئيبة تلقاء الشمال..

ـ الله ينتقم ممن كان السبب.

ـ السبب في ماذا؟.

رفع البائع إليه وجهاً أرهقه الهمّ والتعب..

ـ لعلك لست من هذه البلاد!.

صدم جواب البائع التنوخي. فنظر إلى الشيخ عز الدين مستنجداً..

ـ الأستاذ التنوخي قادم من الشام.. لعله لم يدرك ما ذهبت إليه..

ـ العفو منك يا أستاذ..

ـ أنا الذي أعتذر.. ظنتك تتحدث عن ظروف شخصية.

ـ بل أقصد اليهود والإنجليز الذين طينوا عيشتنا.

ـ أعانكم الله..

قال بائع الشـــاي، وهو يدعوهما لتذوق كعكه الشهي، الذي قام بإعادة تسخينه على وهج الجمر..

ـ أذلونا والله يا شـيخنا، كنت مســتوراً أنا وأهلي، نعمل في الأرض.. فاشتراها اليهود من صاحبها سرسق اللبناني، وطردنا منها الإنجليز بالقوة..

وتساءل بحرقة متوجهاً إلى القسام:

ـ هل رأيت ظلماً أفظع من هذا يا شيخي؟.

ـ الله على القوي..

ـ لولا هــؤلاء الإنجليز والله ما اســتطاعوا أن يخرجونا.. الإنجليز هم الذين يلوون ذراعنا، ويقوّون اليهود علينا، ومثلي كثير..

سأل التنوخي:

ـ لو كانت لديــك أي وثيقة تؤكد ملكك للأرض، لــكان بإمكانك أن تحاججهم بها.

ابتسم البائع..

ـ وثيقة! عمّ تتكلم يا أستاذ!. أجدادنا الله يسامحهم أعطوا الوثائق لسرســق بيك، لكي يدفع عنهم الضرائب للوالي العثماني، ويترك لهم ما يكفي ليعيشــوا، ثم مالبث سرســق وأمثالــه أن أكلوا البيضة وقشــرتها، وباعونا مع الأرض لهؤلاء اليهود، وها هي النتيجة..

واستدرك بائع الشاي قائلاً بإباء..

ـ كنت آكل وأطعم أولادي من أرضي معززاً مكرماً.. إلى أن أتى أولاد الحرام، وباعوا واشتروا فينا.. وكما تراني الآن.. بياع كعك وشاي في محطة القطار..

ثم رفع يديه إلى السماء وأقسم:

ـ والله الذي لا إله إلا هو ياشيخنا.. تركت البنت محمومة، ونزلت إلى السوق حتى أجمع قرشين لأداويها.. ماذا أعمل؟. لقمة مغمسة بالدم يا مولانا!.

تأثر الشيخ عز الدين، ومدّ يده يريد أن يخرج شيئاً يساعد به الرجل، فما كان من البائع إلا أن أمسك بمعصمه قائلاً:

ـ لم يكن هذا القصد، إنما أردت أن أفضفض عمّا في نفسي، ادعُ الله لي أن يعافيها ياشيخنا، وهذا يكفي.

أثارت عفّة الرجل مشاعر الشيخ عز الدين، ولمح في عينيه دمعة تريد أن تفرّ، فشعر بغصة في حلقه من شدة التأثر..

ـ الله يعينك يا أخي ويعافي بنتك، لكن الناس لبعضها..

ـ لو كانت المسألة سهلة علي، لما وقفت كل يوم من الصبح حتى المغرب، أبيع الشاي والكعك للرائح والغادي..

وأصرّ الشيخ عليه.

ـ لا أحمل سوى نصف جنيه، خذه، واذهب لتعالج بنتك.

بان التأثر على الرجل، وهز رأسه في مرارة. ومالبث أن قال:

ـ أقبل لكن على شرط..

ـ ماذا؟

ـ تأخذ الكعكات بدل نصف الجنيه، والشاي هدية لأحلى شيخ في حيفا كلها.

قال التنوخي:

ـ أنا أشتري الشاي بنصف جنيه أيضاً.

قال بائع الشاي:

ـ العفو يا أستاذ. الشاي صار ملك الشيخ، تستطيع أن تشتريه منه إن شئت.

ابتسم التنوخي..

ـ ربح البيع إن شاء الله.

## ٥٤

أقبل موسم الزيتون، وحان وقت القطاف..

وسأل التنوخي صديقه القسام، إن كان يعرف عمالاً يمكن أن يساعدوه في قطاف زيتون المزرعة، التي استأجرها في عين غزال على تلال الكرمل، ليمارس هوايته القديمة في الزراعة..

- لديّ كثيرون يمكن أن يساعدوك، فتفيد وتستفيد..
- من تقصد؟..
- طلابي في المدرسة الليلية، ومهاجرونا العاطلون عن العمل..
- هل سبق أن عملوا في ذلك.
- الشيخ حنفي والشيخ علي عملا في عدة مزارع العام الماضي، واشتغلا في مواسم قطاف الزيتون، وسوف يعلمان البقية..
- ولكن..
- أنا أضمن لك إتقانهم، فاضمن لهم أجراً مجزياً يخفف عنهم أعباء الحياة..
- تعرف أني لا أستطيع أن أردّ لك طلباً.

وبعد أيام تحولت المزرعة إلى خلية نحل.. وانهمك الرجال في عملهم، والتنوخي يراقب بإعجاب..

كانت المزرعة تجثم على تلة خضراء، تزدان بأشجار الزيتون والتين والرمان، وتشرف على البحر الأزرق، تمرّ من خلالها مياه عين رائقة، تنبع قريباً منها، وترك الصديقان الرجال وهم منهمكون في القطاف، وراحا يتنزهان في ظلال الأشجار..

كان القسام يصغي إلى أصوات العصافير التي تترد في الآفاق، يسترجع

صور الطبيعة الخلابة في غابات سلمى وصلنفة والفرنلق، حيث عاش أوقاتاً لا تنسى، وهو متوار مع رفاقه، يقودون الثورة ضد الاحتلال الفرنسي في الساحل الأسير..

ووصلا إلى ظلّ شجرة صنوبر معمرة، فرأى الشيخ عز الدين مزرعة للنحل أنشأها صديقه، لتحول عبق زهر الكرمل إلى عسل مصفى يسرّ الشاربين، ووعد التنوخي القسام بقطرميز من هذا العسل المعتبر كما وصفه، هدية للعائلة عندما يحين جمعه.

ولفت نظر الشيخ مشتلٌ أقامه التنوخي في ظل شجرة جوز وارفة، فسأله عنه..

ـ هذا مشتل أجري فيه تجارب زراعية على بعض الفسائل والغرسات، لتصبح ذات صفات أكثر جودة وإنتاجاً..

ـ ما شاء الله.. كيف؟

ـ نجمع صفات هذا على ذاك!.. فنحصل على نبات يحمل مزايا النوعين.. هذا فتح جديد..

واقترح التنوخي أن يعودوا لتفقد ورشة القطاف، ثم تابع حديثه مع صديقه القسام..

ـ بالمناسبة اليهود بارعون في هذا العلم، وهم يطبقونه اليوم داخل مستعمراتهم الزراعية التي يسمونها «الكيبوتس»..

ـ ما وجه اهتمامهم بالزراعة؟..

ـ الزراعة في أي بلد ركن من أركان الاستقلال.. الأمة التي لا تأكل مما تزرع أمة مهددة..

ـ من المؤلم أن يكونوا متقدمين في الزراعة، ونظل نحن متخلفين فيها.. وهذا وجه من وجوه المواجهة معهم، لأنهم إذا نجحوا في الزراعة

وبقينا متخلفين، سدّدوا ضربة جديدة للمزارعين في هذه البلاد..

ـ أيا ما كان يجب أن نواجه التحدي بذكاء.. ننافسهم.. نتفوق عليهم.. وإن اقتضى الحال نتعلم منهم.. فلديهم خبرات كثيرة جمعوها من انتشارهم في دول أوربا.. ونحن نحتاجها.

ـ إلا خبـرة المكر التي برعت فيهـا الصهيونية، فأقنعـت اليهود بأن يهاجروا إلى فلسطين.. وهاهي تجيشهم ضد العرب للسيطرة على البلاد!

ووصلا إلى شـجرة زيتون ضخمـة، يتولى قطاف الزيتون منها الشـيخ حنفي. قال عندما رأى الأسـتاذ التنوخي، وهو يتسـلق أحد فروع الشـجرة للوصول إلى الأغصان البعيدة..

ـ بارك الله لك في هذا المحصول.. تكاد الأغصان تئن من أحمالها..

قال الشيخ عز الدين..

ـ الأستاذ التنوخي ليس عالم لغة فحسـب.. بل مهندس زراعة وخبير في هذا الفنّ..

ـ وجدنا أخيراً من ينافس اليهود في الزراعة.

هتف التنوخي من تحت الشجرة..

ـ التفت لعملك يا شيخ حنفي، وإلاّ فاتك طعام الغداء..

قال الشيخ عز الدين..

ـ قلنا تعطيهم أجراً مجزياً، لا أن تحول موسـم الزيتون إلى موسـم للولائم..

ابتسم التنوخي وهو يتأمل محصول الزيتون الذي تجمّع حتى الآن:

ـ كنـت قد نذرت ذبـح كبشٍ إن نجح الموسـم، ولم أجـد خيراً من أصحابك لتوزيع هذا النذر..

قال الشيخ عز الدين، وهو يشيرإلى جمع قادم من بعيد:

ـ يبدو أنك ستنذر الآن ذبح عجل سمين، إن نجوت من سماجة هؤلاء!..

التفت التنوخي إلى حيث ينظر القسام، فألفى مجموعة من اليهود، يتقدمهم حاخام شابّ، وبرفقته ضابط إنكليزي..

ـ ماذا يريد هؤلاء؟!..

ـ لعلي حزرت!.

وألقى الضابط التحية برطانة مضحكة..

ـ أنت المسؤول هنا؟

ـ نعم..

ـ علمنا أنك مستأجر..

ـ صحيح.

ـ ومتى ينتهي عقد الإيجار؟

ـ لماذا؟

ـ لقد اشترى هؤلاء المزرعة من صاحبها، وعقد الشراء يبدأ من أول الشهر القادم..

ـ لكن عقدي معه مدته عامين، وينتهي بعد تسعة أشهر..

ـ أنت متعاقد مع وكيل الأرض.. مستر «أبو دقة».. لكن هؤلاء وقعوا عقد الشراء مع المالك «بشارة التيّان» وهو مستعجل على البيع.

همس الشيخ القسام للتنوخي:

ـ يبدو أن إغراء الثمن يدعو البائع للاستعجال..

قال التنوخي متوجها للضابط:

ـ من حقي أن أستوفي مدة العقد كاملة، وسوف أشكو الوكيل في المحكمة.

تدخل الحاخام لأول مرّة، وهو يبتسم ابتسامة صفراء، تكلّف أن يرسمها

على وجه ماكر، كان يراقب حتى الآن الحوار مراقبة الواثق.

ـ شالوم خبيبي، شالوم..

التفت التنوخي للضابط.

ـ من يكون؟.

ـ وكيل الملّاك الجدد، والمتحدث باسمهم..

بينما تابع الحاخام:

ـ خبيبي.. الأمر لا يحتاج محاكم.. نحن سندفع فرق الأشهر الباقية، وزيادة.

ـ أنا هنا لست سمساراً.. لدي مشروع زراعي بدأته، وأريد أن أجني نتائجه، وهي تستغرق وقتاً، وكنت أخطط لتجديد عقد الإيجار.

ـ سندفع أيضاً ما يعوضك عن العطل والضرر..

ضاق التنوخي ذرعاً بهذه اللغة..

ـ سندفع.. سندفع.. هل تظن أن كل شيء يحلّ بالمال؟!.

قال الحاخام بلهجة تميل للصرامة، وهو يمسك بيد الضابط وكأنه يتوعد به..

ـ العفو خبيبي.. نحن اشترينا الأرض، وأصبحت ملكنا بالقانون، والكولونيل يعرف.. اشترينا الأرض لنعمل بها لا لنؤجرها.. ونريد أن نبدأ بتحويلها سريعاً إلى «كيبوتس»..

وأردف وهو يشير إلى عدد من اليهود معه:

ـ لدينا ضيوف كثيرون من بولندا، وأكثرهم مزارعون، ونريد أن نؤمن لهم فرص للعمل..

قال التنوخي في حزم..

ـ المعذرة.. سأكمل عقدي إلى النهاية.

رمقه الحاخام بنظرة غاضبة.. بينما استلم الضابط الحوار:

ـ أنا أنصح أن تسوي الأمر مع الوكيل، وتسترجع حقك منه، لأنا مضطرون لتسليمهم المزرعة أول الشهر.

ـ سأرفض الخروج حتى تحكم لي المحكمة.

ـ إلى أن تحكم المحكمة بينك وبين الوكيل ستخرج ولو بالقوة. لأن عقد الشراء بالنسبة لنا صحيح، وواجب سلطة الانتداب مساعدة المهاجرين اليهود.

وغادروا المزرعة بغير الوجه الذي جاؤوا به!.

# ٥٥

عاد الشيخ كامل القصاب من مصر وقد حسم أمره، فقد توصل إلى قناعة بأن مؤامرة سايكس وبيكو قد نجحت، وأن أخطر ما فيها كان الوعد البريطاني لإقامة وطن قومي في فلسطين، وأدرك أن جبهة فلسطين هي ميدان الأحرار القادم، لأنها أخطر الثغور وأكثرها تعقيداً..

وقرر الإقامة في حيفا، فاستأجر شقة فيها، وشرع يبحث عن عمل يستثمر فيه ما بقي معه في غربته من مال، وبدأ يتصل بزعماء حيفا لينسق معهم ما يمكن عمله.. وزاره القسام والتنوخي ذات مساء، فألفياه في كدر وكآبة..

- لا تبدو بحالة جيدة يا شيخ كامل.

لم يعلق. كانت ورشة الشاي التي وضعها أمامه، تطلق أبخرتها في فضاء الغرفة، فتناول كأساً، وصب فيه بعض الشاي الخمير المكثف، ثم غمره بالماء الساخن، وقدمه لصديقه القسام..

- ضع ما شئت من السكر..

ثم صنع كأساً آخر للتنوخي

- تحبه ثقيلاً، أم معتدلاً كعزّ الدين؟.

- على ذوقك.. المهم أن «تلاغينا» قليلاً.

قال القصاب، وهو يصبّ له الشاي:

- ألا تعلم بأنّ اللغو حرام.

ضحك الشيخ عز الدين لهذه الدعابة، بينما علق التنوخي:

- لم أقصد، لكنك لا تبدو رائق المزاج.

لم يردّ، قدم الشاي لصاحبه، وراح يرشف الشاي البخاري بصمت..

تبادل القسام مع التنوخي نظرة، قال بعدها:

ـ أعرف أنك شرّيب شاي من الطراز الأول، لكني لم أتوقع أنك تدفن همومك في رحاب الشاي!.

ارتسمت على شفتي القصاب ابتسامة ساخرة.. قال وهو يتأمل البخار يتصاعد من إبريق الماء..

ـ كنت في خلوة مع الذات، أغوص بأفكاري في الماضي، وأتأمل فيما جرى ويجري..أحياناً، استعراض الماضي يعيد للمرء حكمته، فيزن الأمور بتؤدة أكبر.

وانزوى التنوخي في ركن المجلس، وانشغل بتقليب عدد جديد من أعداد مجلة «المنار» التي جلبها معه القصاب من مصر، بينما أردف الشيخ كامل في مرارة:

ـ لقد أضعنا وقتاً طويلاً يا عز الدين..

ـ لم أعرفك يائساً!.

ـ معاذ الله..

ـ إلى أين وصلت؟.

ـ أحياناً أغبطك على طريقة تفكيرك.

ـ أنا!.

ـ تقوم بما ينبغي، دون أن تنتظر النتائج..

ابتسم القسام..

ـ لعل هذا ما ينبغي..

ـ أرأيت؟.

وقال، وهو يزيد بعض الماء الساخن على شايه، الذي بدا ثقيلاً:

ـ التقيت في جريدة المنار بالشيخ محب الدين الخطيب، وتحدثنا

في ما جـدّ من أحداث.. واتفقنا علـى أن أخطر ما يواجـه الأمة اليوم هو المشروع الصهيوني في فلسطين.

نحّى التنوخي المجلة من يده، وسـأل، وهو يرجو الشـيخ كامل كأسـاً ثانياً من الشاي:

- وما هي أخبار صاحب المنار رشيد أفندي رضا؟.

- يرى أن تقسيم الشام مقصود بذاته، ويحذّر من أن الهجرة اليهودية ستزداد، حتى يصبح لليهود قوام شعب، يستطيعون أن يعلنوا به الوطن الذي يخططون لإقامته في فلسطين.

- والعمل؟

- لا أجد دواء لهذا الداء كالجهاد.

أومأ الشيخ عز الدين القسام موافقاً، بينما علق التنوخي.

- الجهاد يحتاج إلى رجال ومال وسلاح..

- لا بدّ مما ليس منه بدّ.

# ٥٦

«اللّه ما أجمل هذه البلاد»

هكذا همس الشيخ عز الدين القسام، والحنطور يرقى في سفوح الكرمل، في رحلة ضمته إلى التنوخي والقصاب، وهبت النسمات الرقيقة مندّاة برائحة البحر، فاستداروا يتأملون منظر حيفا، وقد استلقت على شاطئ المتوسط، والموج يتسابق نحوها، حتى إذا لامس رمالها، تراجع في حياء، وعاد إلى صفحة البحر التي كانت تتلألأ تحت أشعة الشمس، وكأنها درٌّ منثور في صحراء من الزرقة الصافية..

وأنعشت النسائم الرقيقة روح الشيخ عز الدين، فأيقظت ذاكرته، لتبحر نحو جبلة التي عاش فيها أحلى أيام الصبا والشباب.. وطلب الشيخ التنوخي من الحوذي أن يسرع، حتى يصلوا في الموعد، إذ دعاهم صديق لتناول الغداء في كرم العنب، الذي يملكه بين «تل السمك» و«رأس الكروم»..

وانطلقت العربة بأقصى ما تستطيع من قوة، تقاوم انحدار الطريق الصاعد نحو التلال، وراحوا يمتعون عيونهم بالمناظر الخلابة، ويعطرون أرواحهم بروائح الربيع، التي انتشرت في كل مكان، تملأ الجو بعبق الأزهار والحشائش البرّية، وطلب التنوخي من الحوذي أن يتوقف قليلاً في تل السمك، عند بناء إسلامي قديم:

- هذا يسمى ضريح السيد الخضر.

تأمل القسام المكان، فرأى مجموعة من النسوة يدرنَ حول الضريح، ويتمتمنَ بدعوات غير مفهومة..

- مَن هؤلاء النسوة، وماذا يفعلن؟

ـ صاحبات حاجة تعــودن أنْ يأتينَ إلى هنا، ويتوجهــن بالدعاء إلى الخضر عليه السلام.

بان الانزعاج على الشيخ القسام، وقال:

ـ هذه بدعة منكرة، وسلوك يقترب من الشرك، والعياذ بالله..

ـ عادة قديمة درج عليها بعض أهل حيفا.

ـ لكنها منكرة، ولا ينبغي السكوت عنها!.

تساءل الشيخ القصاب:

ـ وأين المشــايخ و طلاب العلم.. عليهم أن ينبهــوا الناس إلى هذه المخالفات.

تحمس القسام:

ـ لنمضِ إليهنْ، وننبهُهُنّ لهذا السلوك المنكر.

وأشار للحوذي أن ينعطف نحو الضريح..

وما إن وصلوا حتى ترجل القســام، وصاح بالنســوة، وهو يحث الخطا نحو جمعهنّ، الذي تحلق حول مقام السيد الخضر..

ـ هيه.. أيتها النساء.. هذا الذي تفعلنَه حرام!..

التفتَتْ النسوة، وقد فاجأهن الإنذار..

ـ الله لا يحتاج إلى وســطاء لينقلوا إليه طلباتكنْ.. إنه يســمع ويرى سبحانه، فادعينه مباشرة..

وتقدمت منه امرأة..

ـ يا شــيخي أنا عاقر.. وأريد من الله طفلاً.. طفــلاً واحداً يملأ عليَّ حياتي.. الداية حارت في أمري، ساعدني الله يخليك.

كانت لهجة المرأة مؤثرة، فمسّــت عاطفة الشيخ، وتحرك لها وجدانه، قال، وهو يحاول أن يقنعها:

ـ اللّه يعطيك يا أختــي، ويرزقك ما تتمنين من أطفال، لكن الولد لا يأتي عن طريق الأضرحة والأولياء، هذا الضريح لا يضر ولا ينفع، وصاحبه أعجز من أن يدعو لنفسه. ادعِ اللّه مباشرة فهو يسمع ويرى.. وعندما يأذن سبحانه، سيرزقك بالمولود..

اســتجابت بعض النســوة لكلمات القســام، لكنّ معظمهــنّ جمدن في مكانهــن، وقد أغلقــن قلوبهن عنهــا، لأن الخرافة كانت قــد تمكنت منها، فالأموات عندهــنّ أقدس من الأحياء، وكلمات الشــيخ رغم أنها ذات نبرات قاســية، تثير الاهتمام، إلا أنهنّ ظللنَ مدفوعات برغبتهن في حلول سحرية، قد يمنحها لهنّ صاحب الضريح أياً كان..

على أن امرأة صغيــرة كانت تصغي لكلمات الشــيخ باهتمــام، وتقلّبها في أعماقها، التفتت إلى الضريح لتمتحن إيمانها به، فأيقنت أن هذا الولي المقبور داخل الضريح، لا يمكن أن ينفع أو يضر، ووجدت أنها كانت أسيرة وهم زرعه في روحها الجائعة إلى الأطفال بعض العوام من الأصدقاء والأقرباء..

ولمّت الوشاح الذي يؤطر رأسها، لتخفي وجهها عن الشيخ، وأرادت أن تســتدير لتمضي في طريقها، لكن صوت القســام داهمهــا فجأة، وزرع في أعماقها الرهبة والحرج..

ـ آمنة؟؟!.

توقفت مكانها دون أن تنبس. وتقدم نحوها:

ـ ألسْتِ آمنة.. ابنتنا التي كانت في مدرسة البرج؟

أجهشــت آمنة بالبكاء، وأخفــت وجهها بكفيها.. لم تجرؤ أن تســتدير لتواجه أســتاذها القديم، الــذي أعجبت بعلمه وفكره، واشــترطت أن يكون شــاهداً على عقد زواجها، وهاهو اليوم يضبطها في مكان لا يأتيه في نظر شيخها إلا الجهلة والعوام.

ورقّ لها الشيخ عز الدين، وسألها في فضول، وقد تأثر بدموعها، التي أوحت له بوجود مشكلة..

- ماذا تفعلين هنا يا آمنة؟..

التفتت إليه بطرف دامع، وقلب كسير..

- ادعُ لي يا شيخ عز الدين.
- ما الأمر؟
- مشكلتي مثل تلك المرأة، التي كلمتك قبل قليل.
- ولكنك يابنتي مازلت صغيرة.. لا تستعجلي الأمور.. اصبري واحتسبي، وإن شاء الله ربنا يكرمك بالولد والإثنين..

أجهشت آمنة وقالت في مرارة:

- لا أريد من هذه الدنيا إلاّ طفلاً واحداً، أربيه على تقوى الله وطاعته، ويكون عالماً ومجاهداً يدافع عن دينه وبلاده..
- إن شاء ربنا يرزقك بمن تقرّ به عينك.. لكنّي أريدك أن تكوني أكثر قوة وصبراً، ورضىً بقضاء الله.. هل ذهبت للطبيب يا بنتي؟
- ذهبت، ولكنه قال..
- ماذا قال؟
- قال بأني لن أنجب.
- أليس لديه علاج؟
- ......

أطرقت خجلى، ولم تنبس، فأدرك الشيخ عز الدين أن الجواب عند شخص آخر..

- حسناً سأزور مصطفى غداً بعد صلاة العشاء.
- تُشرّفْنا يا أستاذ، ولكن..

- فهمت. كأنّي لم أرَك هنا اليوم.
- جزاك الله خيراً.
- على شرط
- ...........
- ألّا تعودي أبداً إلى هذا المكان.
- إن شاء الله.

ابتسم الشيخ القسام..

«هذه آمنة التي أعرفها».

## ٥٧

عندما فتح الباب فوجئ بالشيخ القسام..

- الشيخ عز الدين!.. أهلاً.. أهلاً ومرحباً..
- المعذرة.. إن كان الوقت غير مناسب!..
- أهلاً بك في كل وقت.. تحضر، ويحضر واجبك.
- فقط أردت الاطمئنان عليكم..

وأسرع مصطفى يعلن عن الزائر الكريم، فاستنفر كل من في البيت لإكرامه، ورقص قلب آمنة فرحاً، يا لهذا الشيخ الذي لم يتخلّ عنها يوماً، وانهمكت في إعداد طعام العشاء، بمعية حماتها التي كانت لا تقلّ عنها احتفاء بهذه الزيارة..

قال الشيخ عز الدين بنبرة ودودة، وهو يأخذ مكانه في صدر المجلس.

- أسرتك الصغيرة يا مصطفى كانت أول مناسبة للفرح لي في حيفا، ولطالما تمنيت أن أسمع أخباركما السعيدة، لكن لا أدري ما الذي أخّرني!.. لعله الكسل والتقصير.
- لم تقصر يوماً يا أستاذ.. وأسرتنا تشعر نحوك بكل الاحترام والتقدير..

وتساءل الشيخ عن الحاج سالم، فأخبره مصطفى أنه في مرج بني عامر، يتابع العمال، إذ حان موسم قطاف البرتقال.

ونبه الشيخ القسام مصطفى إلى أنه لا يريد أن يكلف الأسرة شيئاً، وتكفي حبة برتقال لإكرامه، لكن الشاب الذي كان رجل البيت في هذه اللحظة، أبى إلاّ أن يستبقي الشيخ لتناول طعام العشاء، فزيارته غالية جداً، وأهل الدار لم ينتظروه أصلاً حتى يكلفهم بالقيام بواجب الإكرام، فبادروا إلى ذلك منذ أن وطئت قدما الشيخ عتبة الدار..

وقدم مصطفى للشيخ ماء الورد، وجلس يتبادل معه أطراف الحديث..

- لم تخبرني يا مصطفى.. ما أخبار أسرتك الجديدة؟.. لعلها زادت فرداً الآن أو تكاد!

أطرق مصطفى كاسفاً، وراح يخضّ العصير بصمت، تهرباً من نظرات الشيخ، التي يظنّ أنها كانت تتوقع جواباً بالإيجاب، وقال متلعثماً:

- لم.. لم يكتب الله لنا الأولاد بعد.

استوعب القسام ارتباكه..

- يحدث هذا كثيراً.. لا سيما وأنكما ما زلتما في مقتبل الشباب.

- هذا قضاء الله وقدره، ونحن راضيان.

وأشفق الشيخ على مصطفى، الذي لم يستطع أن يخفي نبرة الحزن، التي لونت كلماته.

- لكن هذا لا يمنع من استشارة عارف أو طبيب.

قال مصطفى:

- جربنا الطبيب، لكنه قال كلاماً عجباً.

- مثل ماذا؟.

- قال..

وصمت مصطفى.

- لا حياء في الدين، قل ولا تخفِ عنّي السبب، فقد أستطيع شيئاً..

- هو قال الإنجاب ميؤوس منه.

- والسبب؟

تهرب مصطفى من الجواب..

- أمر الله، ولا رادّ لقضائه.

تأكد لدى القسام أنه هو السبب، لكنه كان حريصاً على عدم جرح الشاب:

ـ أحياناً يتوقع الطبيب ما يعتقد أنه الصواب، لكن التجارب التي عشناها، تنبئ عن نسبة من الخطأ في هذه التوقعات.

انفرجت أسارير مصطفى..

ـ تقصد أن الطبيب يمكن أن يكون على خطأ.

ـ لا، ولكن في هذه اللحظة، قد يرى نقصاً أو ضعفاً ما في الزوج أو الزوجة، لكن إرادة الله غالبة.

عاث القلق في عيني مصطفى ثانية. ماذا قصد الشيخ بتلميحه إلى ضعف عند الزوج؟!..

وطرق الباب، فهرع مصطفى يلبي، وكأنه يهرب من مواجهة حوار كاد يقترب من هدفه. ولكن أين المفر؟..

سألوه إن كان الوقت مناسباً لوضع طعام العشاء، فأجاب، وعاد بخطىً متثاقلة، ليجلس إلى ضيفه الذي باغته بهذا الحوار.. واستقبل القسام مصطفى بكلام حاسم..

ـ اسمع يا مصطفى، لقد شرع الله الزواج من أجل إحصان الشباب، وقد تحقق هذا بفضل الله.. لكن الهدف الأهم هو الإنجاب والتكاثر، والرسول ﷺ يقول «تكاثروا أباهي بكم الأمم».. لكنه في ذات الوقت دعا إلى تغريب النكاح، لحكمٍ كثيرة، لكنه لم يمنعه، وقد يكون تأخر الحمل ناتج عن القرابة التي تجمعك بآمنة، لكن لا ينبغي لليأس أن يتطرق إليك.

قال مصطفى بنبرة فيها كثير من الرجاء:

ـ ادع لنا يا أستاذ، فنحن في شوق إلى الولد..

وأردف، وهو مطرق:

- لو تعلم كم تعاني آمنة من تأخر الإنجاب.

حوقل الشيخ، وقال:

- معذورة بلا ريب، كان الله في العون.

- وجدّي في كل يوم يسأل..

- جدك وحده يكفي..

حاول أن يضحك، لكن ضحكته أتت واهنة حزينة..

- يبدو لي أنك تعاني أكثر من الجميع.

صمت مصطفى، وبانت الحسرة في عينيه، فاقترب منه الشيخ عز الدين، ووضع يده على كتفه، يشجعه، وقال بصوت أقرب للهمس:

- ليس من الحكمة أن نعاند القدر، لنعطِ الطبيب فرصته حتى يساعد، ولا يعيب الرجل أن يمتحنه المولى في شيء كان يظنه كاملاً..

ثم وهو يربت على كفه في حنو وحدب:

- المرض أو الضعف لا علاقة له بالرجولة..

وأضاف:

- آمنة تستحق منك هذه التضحية، والجدّ الذي ينتظر حفيده بفارغ الصبر أيضاً يستحق، والوالدة والوالد.. وبقاء هذه الأسرة النبيلة التي تعيش على ذكرى الشهيد طاهر رحمه الله أيضاً تستحق، فتوكل على الله، وستجد إن شاء الله لهذا الضيق مخرجاً.

نزلت كلمات الشيخ عز الدين على مصطفى برداً وسلاماً.. وهمس بنبرة راضية.

- حسناً.. سأراجع الطبيب غداً.

- اذهب من تلقاء نفسك، ولا تخبر أحداً..

- أرجو أن تكون العواقب سليمة..

ـ وعليك بالدعاء. فهو سلوى المأزوم.

ودخل الحاج سالم هاشاً باشاً:

ـ الأستاذ القسام هنا.. يامرحباً يا مرحباً..

ـ كنت سأزعل لو لم أقابلك اليوم.

ونودي بالعشاء، فكانت سهرة مفعمة بالأنس، وراح مصطفى يتأمل الشيخ عز الدين، وهو يحدث والده عن جهاده القديم ضد الفرنسيين، فرنّت في أذنيه كلمات حبيبته آمنة، وهي تتخيل طفلها المأمول.. «أريده عالماً مجاهداً.. مثل الشيخ عز الدين القسام».

# ٥٨

كان القســام منهمكاً في الإعداد لمســرحية حطين التي سيمثلها طلبته في مــدارس البرج، وراح يــوزع الأدوار علــى فريق التمثيل، الــذي اختاره لتقديــم هذه المســرحية، بمناســبة هذه المعركــة التي جــرت على أرض فلسطين، والتي تحل ذكراها قريباً..

ـ لنوزع الآن الأدوار..

هتف الطالب عبد الكريم الأسعد:

ـ أنا أقوم بدور صلاح الدين..

وأردف الطالب إحسان عباس.

ـ بل أنا أستاذ.. أنا صلاح الدين.

ابتسم الشيخ عز الدين، وهو يرى الطلبة يتهافتون على أداء دور صلاح الدين، فقد حدثهم عن بطولاته كثيراً، وهاهو يلمس مدى تفاعلهم مع هذه الشخصية..

- اسمعوني.. هدوء. هدوء.. أنا سأقسّم الأدوار.. إبراهيم السهلي يأخذ دور صلاح الدين. عبد الكريم الأســعد يقوم بدور نور الدين زنكي. إحسان عباس نعطيه دور شيركوه عم صلاح الدين. أما الكنفاني فيقوم بدور أرناط قائد الصليبييــن. أبو غربية يقوم بــدور القاضي يوســف.. ليقرأ كل منكم دوره، ويحفظه عن ظهر قلب..

ودخل عليه الشيخ علي الحاج عبيد فجأة، وهو يلهث..

ـ ما وراءك ياشيخ علي؟

ـ التنوخي قرر الرحيل، وهو ينتظرك في الخارج.

ـ الرحيل!.

ـ كان يلح في طلبك، واستعجلني في الوصول إليك.

أسرع القسام، فوجد الشيخ التنوخي يقف لدى الباب..

ـ ما هذا الذي سمعت؟

ـ أردت أن أودعك..

ـ تودعني؟

ـ قررت السفر إلى دمشق، والقطار سينطلق بعد قليل.

ـ إلى دمشق! وبهذه السرعة؟.

وشكّ القسام بأن التنوخي إنما يريد العودة، بعدما خسر قضيته مع اليهود بشأن مزرعة عين غزال..

ـ لا يكون هؤلاء الظلمة سبب رحيلك عنّا!..

ـ ذهب فكرك بعيداً، لن تكون مزرعتي المستأجرة أفضل من أراضي فلسطين التي تنهب كلّ يوم.

ـ فما الذي حصل؟.

ـ وصلتني برقية من الأهل، تدعوني للحضور على عجل!.

ـ عساه خيراً؟.

ـ لا أدري. أرجو من الله أن تكون العواقب سليمة.

وتعانق الصديقان..

ـ هل ودعت الشيخ كامل؟

ـ مررت عليه قبل قليل وودعته.

ـ لا تنسانا من الأخبار.

ـ وأنت لا تنسانا من الدعاء.

ـ سأفتقدك في هذه الغربة..

ضحك التنوخي:

ـ عن أي غربة تتحدث.. ما شاء الله.. صرت واحداً من أهل حيفا، في كل يوم تكسب صديقاً أو مريداً، ويشير الناس إليك بالبنان.

ضحك القسام :

ـ هذا أنت، مولع بالمبالغات..

ـ بل أنت المولع بالناس.. تألف وتؤلف، وتجمع الناس حولك أينما ذهبت.

ـ المهم أرسل لي رسالة حالما تصل.. أريد أن أعرف أخبار دمشق، وخططكم هناك.

أراد التنوخي أن يعده، لكن غصة الوداع حبست لسانه، فعانقه القسام وضمه بقوة، وعيناه مغرورقتان.

ـ سأشتاق إليك يا تنوخي.

ـ الله يكرمك، ونجتمع بك في الشام عما قريب..

ـ انتبه لنفسك.

قال عزالدين التنوخي، وهو يمسك بصاحبه من كلا ذراعيه، ويرمقه في ودّ شابه الكثير من القلق:

ـ بل أنت الذي يجب أن تنتبه لنفسك.. اقتصد في الحركة والنشاط، وتذكر دائماً لؤم الإنجليز وكيدهم، وإني لأراك تخطط لشيء أخشى أنك قد أوغلت فيه، فتريث، وسدد وقارب، وارم عندما تكون واثقاً.. لا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا.

وودع القسام صديقه القديم بعينين دامعتين، وهو يغبطه لأنه عائد إلى تلك الأرض التي حرم منها، وأوجعه إليها الحنين..

كان جـدول أعمـال الجمعيـة مخصصاً هذا اليوم لمشـروع المسـجد الجديـد، لكن خبراً داهماً شـغل الحاضرين عما اجتمعوا مـن أجله.. فقد بدأت الأنباء تَرِد عن قـرار كمال أتاتورك بإلغاء الخلافـة، ودب الهلع في القلوب، وأوجس الناس شراً مستطيراً..

وقال الشيخ محمد مراد:

ـ للأسـف كانـت الخلافة فـي حكـم الميـت، بعدما سـيطر عليها القوميون، وهزمتها جيوش الحلفاء.. ولم يبق إلا الإعلان عن الوفاة، وهاهو يأتينا في أحلك الظروف..

قال الأستاذ رشيد:

ـ الخلافـة كانت آخر الخيـوط التي تربط فلسـطين بكيـان جامع، لاسيما بعد أن انقطع الخيط السـوري، الذي كان يربطها بسورية الكبرى، وأخشى ما أخشاه أن يستمر مشروع الوطن القومي اليهودي، ليحول فلسطين إلى مستعمرة يهودية كبيرة!.

وترحم الشـيخ عز الدين على السـلطان عبد الحميد، الذي رفض أن يبيع فلسطين لليهود.. وتابع يقول:

ـ نال اليهود أخيراً من عبـد الحميد، وقوضوا الخلافة التي حاول أن ينهض بها.. وما أرادوا أن يرشوه به ليعطيهم فلسطين، اشتروا به وعداً من أعدائه بوطن فيها.. إنهم شياطين العصر الجديد..

وعودة إلى موضوع الاجتماع، قال الشيخ محمد مراد:

ـ دعونا الآن نقرر في شأن المسجد الجديد.

وأردف يقول:

ـ لدينا مشكلة في تأمين المال الكافي، والبناء مكلف، فأشيروا علينا..

قال الأستاذ رشيد:

ـ بناء المسجد في السوق سيكون مفيداً وحيوياً لحيفا التحتا كلها، ولكنه سيكلف حسب رأي المهندس أكثر مما جمعنا، ويجب أن نجمع له ما يكفيه..

قال الشيخ عز الدين القسام:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا نبني دكاكين تجارية تحت المسجد، تكون أوقافاً تدر عليه المال، وتساعد في سد المصاريف، وهي ستغري التجار بشرائها قبل أن تقام، فيتوفر لنا مبلغ يساعدنا على النهوض بالمشروع بالسرعة المطلوبة..

تبادل الجميع نظرة استحسان، وتناول الشيخ كامل القصاب مخطط المسجد، وراح يتأمل فيه بعين لا تنقصها الخبرة..

ـ في تقديري أن مساحة الأرض المخصصة للمسجد، تسمح لنا ببناء أربعة عشر مخزناً ودكاناً تحت المسجد، ويمكن أن يكون للدكان أو المخزن سعر معقول..

سأل الشيخ محمد أفندي مراد الشيخ خليل طه:

ـ كم جمعتم حتى الآن ياشيخ خليل؟

ـ أربعة آلاف جنيه تقريباً..

ـ على بركة الله.. سأكتب للشيخ أمين الحسيني ليعطينا موافقة المجلس الإسلامي الأعلى، وبعدها نبدأ على بركة الله.

ـ وماذا تقترحون تسمية المسجد؟

صمتوا يتفكرون، ولم يلبث الشيخ القسام أن تقدم باقتراح جاء بغتةً وذهب مثلاً:

ـ نسميه جامع الاستقلال.

- الاستقلال؟..
- ولماذا سميته الاستقلال؟

رد الشيخ عز الدين على التساؤل بسؤال:

- أليس هذا ما نحتاجه اليوم؟

قال الأستاذ رشيد، وقد مالت نفسه للاقتراح:

- اسم الاستقلال موفق وذكي، وسيعجب أهل حيفا.

وأضاف الشيخ محمد مراد:

- إذا أجمعتم على الاسم فلا مانع، المهم أن نرسل الآن لسماحة رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في القدس، وإن كنت أظن أن الشيخ أمين ليس من أنصار إلحاق الدكاكين والمخازن بالمساجد..

أبدى الشيخ عز الدين بعض القلق:

- بدون الدكاكين والأوقاف، سنأخذ وقتاً في إيجاد التمويل المطلوب، والحال كما تقولون!

- أنا أتكلم عن احتمال أتوقعه من معرفتي بالشيخ أمين، ولكنّا حينذاك سنعتذر منه برفق، ونستقل برأينا.

ثم أردف مستدركاً، وهو يضحك:

- ألم تسمّه جامع الاستقلال؟؟

# ٦٠

- أيهــا الناس.. اســمحوا لــي أن أحدثكــم عن حدث ســيكون له مابعده.. لقد كانت للمسلمين خلافة تجمعهم.. صحيح أنها كانت ضعيفة، لكن كان يمكن أن تنهض، أو كان من الممكن أن يقيض الله لها زعامة جديدة تقودها إلى خير.. لكن ماحــدث اليوم جد خطير، لم يحدث من قبل، منذ أن بدأت هذه الخلافة على يد أبي بكر خليفة رســو ل الله ﷺ وإلى يومنا هذا.. لقد انفرط عقد الجامعة الإسلامية في وقتٍ هو الأسوأ في حياة هذه الأمة.. وقتٍ اعتراهــا فيه الضعف والهوان، وتكالبت عليها الأمم.. وهاهي بريطانيا وفرنســا تتجرأ علينا، وترمينا بداء الصهيونية، التي تشــجع اليهود على الهجرة من كل حدب وصــوب، ليقيموا وطنهم رويداً رويداً.. ونحن نائمون..

واســتغرق الشــيخ عز الدين في كلمته التي ألقاها هــذا العصر في جامع الجرينة، والناس مشــدودون إليــه، يصغون بقلــق واهتمام، وكان أثناء حديثه يســتعرض الوجــوه، ليختبر وقع كلماتــه، فلفت نظره ذلك الانفعال الذي علا وجه شــاب لم يخطئه.. شاب يلاحقه من مسجد إلى مســجد ومن درس إلى درس، ويصغي إليه باهتمام، ثم ينسحب بعد كل صلاة مسرعاً!..

وعندما انتهى الدرس تحرك هذا الشــاب نحــوه لأول مرة، اقترب منه في هدوء، وصافحه بيد قوية، ووجه حزين، وداهمه بالسؤال:

- من سيقف في وجه بريطانيا العظمى بعد اليوم؟..

تأثر الشــيخ عز الدين.. لعل الشــاب كان يعول علــى خلافة يرجو أن تنهض، لتأخذ دورها في وجه الطغيــان الجديد.. لعله كان ينتظر أن يدعو

الخليفــة لجهاد مقــدس، يزلزل الأرض تحــت جحافــل الصليبيين الجدد، الذين عادوا أكثر حقداً وقوة.. وربت على منكبه العريض..

- هذا حديث طويل يا أخي.. نتكلم فيه يوماً إن شاء الله!.

قال الشاب بنبرة متلهفة، وسمت رصين:

- ليتك تشرفني في دكاني لو اتسع وقتك، فأنا تواق لهذا الحديث.

- دكانك؟.

- دكان صغير لا يبعد كثيراً عن المســجد، أبيع فيه الصوف وأكياس الخيش، تكرمني لو شرفتني فيه.

- بكل سرور، لكني لم أتعرف على الاسم الكريم؟

- خليل محمد عيسى.. أبو إبراهيم.

قال أبو إبراهيم وهو يرحب بالشيخ:

ـ أنا فلاح من قرية المزرعة الشرقية في رام الله، شاءت الأقدار أن أعمل فلاحاً هنا في حيفا في شفا عمرو، كنت أنزل إلى الحسبة كل يوم لبيع الخضروات التي كنت أجنيها، فتعرفت على السوق وأهله، وأحببت هذه البلدة، وانتبهت إلى حاجة السوق لأكياس الخيش، فقررت أن أعمل في هذه التجارة، وقد وفقني الله فيها، فحرصت عليها، لا أغادرها إلا للصلاة أو لسماع درس علم، وبالذات دروس شيخنا عز الدين القسام.

همس الشيخ في تواضع:

ـ بارك الله فيك. وبارك لك في رزقك وتجارتك.

ـ والله يا شيخي لا أقول هذا الكلام في وجهك، بل هي الحقيقة!.

ـ ولماذا دروسي؟..

ـ لأنك الشيخ الوحيد في حيفا، الذي يتحدث بما يهمّ الناس ويشغلهم، ويشير إلى هؤلاء الأوغاد الإنجليز الذين عاثوا في فلسطين فساداً وقهراً.

ـ ولهذا تسأل من سيقف في وجه الإنجليز؟.

ـ لا أخفيك. كنت أظن أنّ بريطانيا العظمى لا تهزمها إلا دولة عظمى كتركيا، ولكن الترك فرطوا بالخلافة، وتركونا وحيدين في وجه هذا الغزو، الذي زاده الصهاينة خطورة وتعقيداً..

ونفث أبو إبراهيم آهة تنمّ عما يعتمل في صدره من حرقة على البلاد، فأدرك القسام أنه أمام رجل نبيل، يشاركه نفس الهمّ ونفس الانفعال بقضايا أمة يعشقها، قال مواسياً:

ـ يا أخ خليل.. لقد بدأ رسول الله وحيداً، فصبرَ وصدق، فالتف الناس حوله، وبعد وفاته بسنوات استطاع صحابته أن يزلزلوا أكبر امبراطوريتين كانتا تحكمان العالم، لأنهم صدقوا وثابروا، فأنجزوا النصر الذي رفلنا به قروناً، حتى جاء هذا الأتاتورك ومن وراءه من يهود الدونمة وغلاة الترك، فسرقوه منا، ونحن ليس لنا إلّا أن نمضي على ذات الطريق، فنصبر ونصدق ماعاهدنا الله عليه، فمن مات منّا دون هذا ذهب إلى ربه شهيداً، ومن بقي يمضي على ذات السبيل، حتى يعيد لهذه الأمة مجدها القديم.

سأل أبو إبراهيم على الفور:

ـ ومن أين نبدأ؟

ـ تبدأ بنفسك، وأبدأ بنفسي، ثم نضم الكف للكف، حتى نشكل سدّاً في وجه هذا الانهيار، لا حل إلا بالعودة إلى الله، والتعاون على الخير، وتوحيد الهدف.. ولا أجد طريقاً غيره.

تحمس أبو إبراهيم.. وجد أخيراً من يفكر بما يراوده، فراح يبث الشيخ بعض خواطره:

ـ كلامك جميل ومريح، لكنّي ياشيخنا أتطلع لشيء أفعله، أحياناً تحدثني نفسي بالجهاد، فأنوي أن أشتري بندقية، أنقض بها على دورية من دوريات الإنجليز، فأبيدها عن آخرها، لكنّي أفكر بأن يداً واحدة لا تصفق، فأتراجع عن خطتي تلك، وأكتفي بالمراقبة وانتظار فرصة جديدة، هل أنا على حق ياشيخ عز الدين؟

نظر إليه في إكبار:

ـ كل الحق.

ـ تقصد؟

ـ أنت قلتها.. يد واحدة لا تصفق.

تهللت أسارير أبو إبراهيم، فنهض من مجلسه وجلس قرب الشيخ، ومد يده في حماس:

ـ اعتبرني جندياً معك ياشيخ عز الدين.

فوجئ الشـيخ بهذا الحماس. مد يده يتلقف يد الشاب، وقد اغرورقت عيناه..

# ٦٢

لم تعد مــدارس البرج كما كانت عندما دخلهــا أول مرة.. فقد أرهقَتْ مصاريفُها الباهظة الجمعية الإسلامية، فناءت بحملها، وكانت أمام خيارين، إما أن تتراجع عن مستواها وأدائها المميز بسبب نقص التبرعات، أو تحيل إدارتها إلــى مســتثمر يســتطيع أن يبحر بها في هــذه الظــروف المادية الصعبة.. ووقع الاختيار على رجل يجمع بين خبرتي التعليم والتجارة، فكان الشيخ كامل القصاب العالم والمُربِّي، الذي اشترط أن تفصل الجمعية بين التعليم وبين العمل الخيــري، فمن أراد أن يعلّم أبنائه في هذه المدرســة، عليه أن يدفــع كلفة التعليــم، ولم يكن الشــيخ عز الدين ســعيداً بمنطق صديقه القصاب، فأبدى اعتراضه بوضوح:

ـ ميزة مدارس البرج الإســلامية أنها مفتوحة للغنــي وللفقير، فلماذا نحرم غير القادر من نفس الفرصة المتاحة للمقتدر؟.

أجاب القصاب بنبرة هادئة، ومنطق واثق:

ـ هذه سنّة الكون يا شيخ عز الدين.. افرض أنك فتحت محلاً لتجارة الذهب أو السجاد، فهل تبذل بضاعتك لمن ليس لديه مال؟.

ـ لا أستطيع أن أقبل هذه المقارنة بين مدرسة ودكان!.

ـ الأمر ليس على هــذا الوجه.. أردت أن أقول أن المدرســة في أحد وجوهها خدمة لها ثمن، فإذا استثنينا كلفة البناء الذي أنجز، فنحن بحاجة لمال يغطي كلفة صيانته، وإلى ثمن الكتب والمســتلزمات ورواتب الأساتذة والموظفين.. إلى آخر ما هنالك من مصاريف.. وإذا لم نُحصّل دخلاً يغطي هــذه المصاريف ويزيد عليها، فســتواجه المدرســة خســارة محققة، وهذا سينعكس حتماً على مستواها وأدائها التعليمي..

أيّد الشيخ محمد مراد كلام الشـيخ كامل، بينما ظلّ الشيخ عز الدين حائراً بين منطق لا يسـتطيع أن يردّه، ورسـالة لا يجوز أن تخضع لقوانين الربح والخسارة. وقال في محاولة أخيرة لإقناعهم:

ـ لمـاذا لا نكثّـف جهودنـا لدى أهـل الخيـر والمحسـنين ليمولوا المدرسة، ويغطوا عجزها، وتظل مفتوحة للجميع؟

أكد الشيخ مراد:

ـ لقد بذلنا أقصى ما في وسعنا يا شيخ عز الدين، ولم نحصل على ما يكفي..

وأيده الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم..

ـ التجار يا شـيخ عز الدين بدؤوا يَشْـكون من تدهور الأحوال وركود الأسـواق، لا سـيما بعد مزاحمة التجار اليهود لهـم، ولا نملك أن نضغط عليهم أكثر.

قال الشيخ عز الدين بنبرة يائسة:

ـ قد يكون الشـيخ كامل على حق، لا سيما وأنه يضع أمواله مستثمراً في التعليم، لكنّي لا أجد نفسـي مرتاحاً للتعليم في مدرسـة سـتصبح عمّا قريب حكراً على القادرين، فاعذروني إن تركت التدريس في هذه المدرسة التي أحببت.

والتقط الشيخ محمد مراد رغبة الشيخ القسام في الاستقالة..

ـ والله يا شيخ عز الدين نحن في حاجة إليك في ما هو أهم.

التفت الشيخ القسام إليه بنظرة تفيض بالتساؤل، فتابع يقول:

ـ تذْكر أنا بدأنا منذ عام مشـروع مسـجد الاسـتقلال، وقد شـارف الجزء الرئيسـي منه على الانتهاء، وقد فكرنا فيمن يتولـى إمامة وخطابة هذا المسـجد، فلم نجد من هو أفضل منك ليقـوم بهذا العبء، فأنت خير

من يقوم بهذه المهمة، وخير من نأتمنه عليها..

كان الاقتراح مباغتاً، لكنه جاء في الوقت المناسـب، فقد توسعت دعوة الشيخ القسام، وصار بحاجة إلى منبر..

- هذا شرف كبير لي يا شيخ محمد، وثقة أعتز بها.. ولكن..

وتأمل في وجوه الأعضاء المجتمعين يستطلع رأيهم، فرغم كل ما تطور إليه وضعه في حيفا، ظـل حريصاً على أخلاق الضيـف، الذي لا يجوز أن يفرض نفسه على مضيفيه..

وعلق الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم، وقد حدس بمراد الشيخ:

- اطمئن ياشيخ عز الدين.. لقد تداولنا في هذا الأمر منذ مدة، وهو محل إجماع بيننا.

شعر الشيخ عز الدين بالارتياح، فالمسـجد هو المكان المناسب الذي يستوعب حركته، ويسمح له باستكمال مشروعه.. وانهمكوا في التفاصيل..

وفجأة دخل عليهم الشيخ حنفي، وهو يلهث..

- ممكن لحظة يا شيخ عز الدين!.

- مالك ياشيخ حنفي. قل بسرعة..

- ثمة إشارة جاءت إلى بوليس حيفا بشأنك!..

- بشأني أنا؟

- يقولـون أنك محكـوم بالإعدام في سـوريا، وقد طلبت فرنسـا من الإنجليز تسليمك إليها.

كان التحقيق روتينياً، تم أخذ أقوال الشـيخ عز الدين حول سبب مجيئه إلى حيفا، ودوره الذي كان يقوم به ضدّ الجيش الفرنسي في سوريا، وإذا ما كان يقوم بأي نشاط معادٍ لفرنسا في ظل الانتداب البريطاني في فلسطين؟.

وكان كلام الشـيخ صريحاً ومقتضبـاً. نفى القيام بأية نشـاطات ضد الفرنسيين في الوقت الحالي، لكن الضابط الإنجليزي الذي كان يستجوبه بحضور مترجم، عقّب على هذه النقطة بنبرة باردة، وهو يضغط على مخارج الحروف:

- في الوقت الحالي. وفي المستقبل.

صمت القسام، ولم ينبس.

تابع الضابط، وهو يسدد لعيني القسـام نظرة خبث، استوعبها الشيخ بصمت وهدوء:

- بما في ذلك عدم إرسـال الأسـلحة إلـى عصابـات المتمردين في سوريا، التي تحارب فرنسا على الأرض السورية.

وتابع بلهجة فيها نوع من الوعيد:

- أظن أن كلامي واضح ياشيخ.

تدخل الأسـتاذ رشـيد الحاج إبراهيم الذي أصرّ على مرافقة القسـام كمحام، وكعضو ممثل للجمعية الإسلامية التي يعمل الشيخ لديها:

- أحـب أن أوضـح أن الشـيخ عالم ديـن، متفرغ لنشـاطه الوعظي والتعليمي، ولا يقوم بأيّ نشاطات من شأنها أن تحرج سلطات الانتداب أمام الفرنسـيين، وهو يتعاون مع الجمعية الإسـلامية في حيفا في شؤون التعليم والوعظ الديني، وهو حق مكفول لكل مسلم في هذه البلاد.

هزّ الضابط البريطاني رأسه بشيء من عدم الارتياح، قال منهياً الحديث:

- سوف نعتبر هذا الكلام تعهداً بالالتزام التام بالهدوء، ومراعاة العلاقات الحساسة التي تربط بين بريطانيا العظمى والحكومة الفرنسية.

صمت الشيخ عز الدين، ولم يعلق.. هز الضابط رأسه في غيظ، قال للأستاذ رشيد:

- يستطيع الشيخ الانصراف الآن.

ومضى الشيخ عز الدين بصحبة الأستاذ رشيد، فألفى جمعاً من محبيه في الخارج، ينتظرونه للاطمئنان عليه..

وحمد الشيخ علي الحاج عبيد الله على سلامة أستاذه، بينما أقبل الشيخ حنفي عليه يعانقه:

- والله خفت أن يفعلها الإنجليز، فيسلموك للفرنسيين.

- لكلّ أجلٍ كتاب ياشيخ عارف.. أرجو أنّ الأمور تقف عند هذا الحد.

ثم وهو يلتفت للأستاذ رشيد:

- الشكر للأستاذ رشيد، فقد قام بدور محام بارع..

ابتسم الأستاذ رشيد. قال هو يضع يده على كتف الشيخ:

- من حسن حظك أن العلاقة بين حكومتي بريطانيا وفرنسا ليست على ما يرام هذه الأيام.

وتساءل الشيخ القصاب الذي التحق بالمجموعة للتو:

- خبرونا يا جماعة ؟ كيف جرت الأمور؟

- على خير إن شاء الله.

- وما هو نوع الأسئلة التي وجهوها لك يا شيخ عز الدين؟

أجاب الأستاذ رشيد:

ـ أسئلة روتينية لا تتجاوز التعرف عن قرب على الشيخ، وعلى نشاطه المعادي لفرنسا في حيفا.

ـ لكنه استدعاء يثير الريبة!.

ـ هذا وضع طبيعي في بلاد تحت الانتداب.

وقال الأستاذ رشيد محذراً:

ـ المهم أن تنتبهوا إلى خطواتكم في فلسطين، فالإنجليز حريصون على متابعة كل شاردة وواردة.

كان الأستاذ رشيد يتحدث عن خبرة، فبعد أن انتهى التحقيق، كان الضابط الإنجليزي قد ذيّل محضر التحقيق مع الشيخ القسام بالملاحظة التالية:

**«سرّي جداً»**

يوضع الشيخ عز الدين القسام تحت المراقبة لمدة شهر، وترصد تحركاته بدقة، كما يتم التحري عن نشاطات زميله رشيد الحاج إبرهيم، إذ أنه حسب معلوماتي: مصنف ضمن «المجموعة الرديئة» التي تضمر العداء لحكومة الانتداب، وتوجهاتها السياسية في فلسطين.

**«صورة إلى قلم المخابرات».**

كانت دعوة على الغداء ضمّت الشـيخ حنفي والشـيخ علـي وابني أخيه ظافر وعبد المالك القسام، وشكر الشـيخ علي الشيخ عز الدين على أكلة الصيادية، التـي ذكرته بأكلات جبلة، وهيجت أشـواقه للأهـل، بينما قال الشيخ حنفي، وهو يختبر حاسة شمه:

ـ إذا لم يخطئ أنفي، فسوف نذوق بعد الصيادية طبقاً من الكنافة الجبلاوية.

ضحكوا لدعابة الشيخ حنفي، ونهره الشيخ علي مؤنّباً:

ـ لا تحرج الشيخ. ماذا لو كانت حاسة الشم عندك مصابة بالخرف؟

ـ نكون قد وصينا على الكنافة للوليمة القادمة.

ضحكوا ثانية..

ولم يلبث الشـيخ عز الدين أن غاب، وعاد بصينية الكنافة السـاخنة، التي فاحت رائحتها الشهية في الغرفة..

قال الشيخ عزالدين، وهو يدعوهم:

ـ تكرم يا شيخ حنفي. اطلب وتمنى، فأنت اليوم في ضيافة أم محمد، التي صمّمَتْ أن تذكركم ببلدتكم، وأخذت على عاتقها أن تطبخ لكم كل ما تشتهونه من الأكلات التي حرمتم منها في غربتكم.

رفع الشيخ حنفي يديه يدعو لها، بينما قال ظافر معاتباً:

ـ تدعو لزوجة عمي التي طبخت لـك الصيادية، ولا تدعو لمن ذهب إلى شاطئ العزيزية في الصباح الباكر، واصطاد لك سمكات الصيادية.

وعقب الشيخ علي:

ـ المهـم الآن، أنّا تأكدنا من أنّ حاسـة الشـم عند الشـيخ حنفي ما زالت بخير..

رد الشيخ حنفي، وهو يتلذذ بطعم الكنافة اللذيذ:

ـ تحدثني نفسي أن أنضم إلى دروس محو الأمية التي يديرها الشيخ عز الدين في هذه الغرفة، لأستمتع بروائح الطبخ الجبلاوي كل يوم..

قال الشيخ عز الدين، وهو سعيد بهذا الجو المرح، الذي شمل الجلسة:

ـ إن شاء الله نزوجكم عما قريب، فتأكلون من أيدي زوجاتكم كل ما تشتهون.

قال الشيخ حنفي، وهو يميل إلى الجد:

ـ دعوكم من المزح يا جماعة، فأنا فعلاً أستمتع بكل طعم أو رائحة تذكرني بمدينة جبلة.. وطبخ أم محمد ذكّرني اليوم بطبخ والدتي التي..

وغص بالكلام..وأراد أن يكمل، لكنه راح في بكاء صامت لم يستطع أن يكبحه..

شدّ الشيخ عز الدين على كتفه..

ـ احتسبها عند الله يا شيخ عارف. حتى دموع الشوق للأحبة لها ثواب في حياة مجاهد.

وتساءل عبد المالك القسام:

ـ أتظنهم ينوون تسليمك للفرنسيين يا عماه؟

ـ الله أعلم، لكني قلق من خطوتهم الأخيرة، وأخشى أن يعيقوا حركتي في حيفا..

تبادلوا نظرة قلقة، وهمس ظافر:

ـ هل لاحظتَ شيئاً؟.

ـ أشعر بأن أحداً يتتبعني أنّى ذهبْت، وهذا مربك، ولو أنهم في هذه المرحلة لن يصلوا لشيء، لكني أخشى أن يدوم هذا الوضع طويلاً..

وساد صمت وترقب:

- وبعد..

- نتعاون في رصد هؤلاء الأعوان حتى نتجنبهم، ونخفف من لقاءاتنا في الوقت الحاضر، حتى لا نعطيهم الذريعة باتهام السوريين في حيفا بأنهم يدبّرون شيئاً..

- لكن..

- دعوا الشيخ حنفي يتصل بي في هذه المرحلة وعند الضرورة، وكلما سنحت لكم الفرصة لرصد حركتي وشاهدتم شيئاً مريباً، أخبروا به الشيخ حنفي، وهو سينبهني..

صمتوا جميعاً تحت وطأة القلق، قدرُهم يلاحقهم، والآن عليهم أن يحترسوا من مكر الإنجليز، بعدما نجوا من بطش فرنسا.

انهمك الشيخ عز الدين القسام في متابعة بناء مسجد الاستقلال، وهو سعيدٌ بهذا المشروع، يشعر بالامتنان للجمعية الإسلامية ورئيسها الشيخ محمد مراد الذي أوكل إليه هذه المهمة..

وأوشكت أعمال البناء على الانتهاء، فبدأ الشيخ يحضّر لفرش المسجد، وتهيئته للافتتاح واستقبال المصلين..

ومضى الشيخ عز الدين بصحبة الشيخ محمد حنفي يتجولان في سوق الشوام، للاتفاق مع أحد تجار السجاد من أجل فرش مسجد الاستقلال، واستبد بهم الجوع، فتذكر القسام محل «فلافل الكفرسوساني» الذي زاره يوماً مع ابن أخيه ظافر..

- أعرف محلاً هنا يبيع الفلافل، صاحبه شاب طيب من دمشق.

- أين؟

- أغلب الظن كان هنا، قرب سبيل الماء..

- لعله هذا المطعم!.

وتأمل القسام يافطة المحل.. «مطعم لبنان الشام».

- لكن لم يكن هذا اسمه!..

- المهم فيه ما يسدّ الجوع..

واستقبلهم صاحب المحل بالترحيب..

- إذا لم أخطئ، فحضرتك الشيخ عز الدين القسام؟..

حياه الشيخ بإيماءة..

- حضرت لك بعض الدروس في جامع الجرينة.. ماشاء الله.. كلماتك كانت مؤثرة جداً..

سُرّ الشيخ بهذا الاستقبال. وشكر صاحب المحل على مجاملته المباغتة، وقد تأكد الآن أنه غير ذاك الرجل الذي قابله من قبل!. قال وهو يحك جبهته متفكراً:

ـ كان في المطعم أخ آخر يدعى..

قاطعه صاحب المحل.

ـ ممدوح الكفرسوساني.. أنت على حق، فقد اشتريته منه بعد أن اضطر للعودة إلى الشام.

ـ تقول اضطر؟.

ـ الله يعينه. جاءه خبر استشهاد أخيه في معارك الغوطة ضد الفرنسيين، وترك له كوم لحم، سبعة أولاد وأمهم، فحزن عليه كثيراً، وقرر أن ينزل إلى الشام، ليقوم بواجب الأسرة التي تيتمت.

أشاع الخبر في نفس القسام حزناً وكدراً..

ـ أعانه الله، ورحم أخاه..

وتوجها إلى الطاولة التي دعاهما صاحب المحل إليها، قال الشيخ حنفي، وهو يلقي بجسده فوق كرسي القش.

ـ هذا يعني أن الثورة في الشام تشتدّ..

ـ الله ينصرهم.

قال الشيخ عزّ الدين بنبرة تشي بالفخر:

ـ هذه الشام. أم كنت تتوقع أن تصمت على الذل والضيم؟

ردّ الشيخ حنفي:

ـ والله نفسي تحدثني أن نتوجه إلى دمشق، ونلتحق بالثورة هناك.

هز الشيخ القسام رأسه، وقال في مرارة:

ـ الفرنسيون طغوا وتجبروا، أرجو أنّ ساعتهم قد اقتربت.

علق صاحب المطعم، وهو يقدم لهما اللبن العيران:

ـ صدقْتَ يا شيخنا، لقد طغت فرنسا وتجبرت، وليس لها إلّا الحديد والنار..

واستدرك يسأل:

ـ ما رأيكما بالفول المدمس على الطريقة اللبنانية..

رحبا بالعرض، دون أن ينسى الشيخ حنفي التأكيد على البصل والمخلل، بينما سأله الشيخ عز الدين:

ـ من أين الأخ في لبنان؟

ـ محسوبكم جمال الصلح.. من بيروت.

ـ أنعم وأكرم.. ونحن من جبلة، وهذا أخي الشيخ حنفي.. شريك الهجرة والغربة.

ـ بل قل مريد الشيخ وخادمه، ويكفيني هذا شرفاً..

هزّ القسام رأسه متوعداً. وقال للبائع:

ـ هذا هو منذ أن عرفته.. مجامل و ودود.

وانطلق جمال يحضّر الطعام بحماس، بينما قال الشيخ الحنفي، وهو يرشف من اللبن الشهي:

ـ ألاحظت شيئاً على بائع السجاد قبل الأخير؟..

ـ شيء؟!. مثل ماذا؟.

ـ أغلب الظن أنه يهودي من يهود الشام!

ـ ما أدراك؟.

ـ كنيته ليست غريبة، أذكر تاجر قماش يهودي من الشام، له نفس الكنية، كان يزور جبلة ويبيع القماش لأهلها..

وسأل الشيخ عز الدين صاحب المطعم حين عاد بالطعام:

- هل تعرف من هو صاحب محلات «بنبهجي» لبيع السجاد؟.

سحب جمال الصلح كرسياً وجلس، وهو يضحك ضحكة لا تخلو من دعابة..

- تقصد محلات يوسف بنبهجي..

- اسمه يوسف؟

- أجل.. يهودي من الشام، ويعمل في حيفا!.

هتف الشيخ حنفي..

- آخر ما يتوقعه المرء!. يهودي يمدّ مسجد الاستقلال بالسجاد!. الحمد لله أنا اتفقنا مع تاجر غيره.

ثم وهو يتوجه لجمال..

- كدنا نشتري من عنده سجاد للمسجد الذي يشرف الشيخ على بنائه..

- تقصد المسجد الجديد، الذي يبنىٰ في حيفا التحتا؟..

- أجل.. مسجد الاستقلال.

ولم يرتح الشيخ القسام لمنحى الحديث:

- على مهلكم ياجماعة..

ثم وهو يتوجه لصاحب المحل:

- اسمع يا أخ جمال.. هل يوسف هذا جاء مع المهاجرين - إياهم - ويقيم معهم في مستعمراتهم؟

- لا، لا. إنه تاجر من الشام، أبوه تاجر كبير، لكنه مات وخلف ثروته لسبعة أولاد، كل واحد منهم تمسك بالاسم لشهرته، ففتح محل سماه «سجاد البنبهجي»، فضاربوا على بعضهم، أما يوسف فقد اختار أن ينقل تجارته إلى فلسطين، لينأى بنفسه عن هذه المنافسة.. هذا ما فهمته منه، فهو يأكل عندي بين الحين والحين..

قال الشيخ عز الدين، يضع النقاط على الحروف:

- اسمعوا يا جماعة.. بما أنّه من يهود بلادنا، فنحترمه، ونحترم حقوقه، ولا نمسّه بكلمة.. ما لم ينضم إلى هؤلاء الغرباء القادمين تحت حماية الإنجليز، ليقيموا وطن اليهود المزعوم.. هذا منهج الإسلام الحنيف في تعامله مع الأديان الأخرى، لا سيما أهل الكتاب، يجب أن ننتبه ـ الله يرضى عليكم ـ إلى حدود الله، فلا نتجاوزها.

هز الشيخ حنفي رأسه ملتزماً بما وجّه له شيخه..

واكتملت المائدة، فدعاهما جمال لتناول الطعام. ولكنه انتبه إلى شيء..

ثمّة رجل كان ينظر إلى المطعم من خلف الزجاج، ظنّه جمال في البداية أنه مجرد زبون، لكنه لاحظ أن الرجل كان ينظر باتجاه الشيخ عز الدين، وما لبث أن دخل، واختار كرسياً مجاوراً للطاولة التي يجلس عليها، وبدت نظراته قلقة، وملامحه متجهمة، ووجهه غير مريح، وحدَس جمال بما يدعو للريبة!.

وافتعل جمال ترحيباً صاخباً بالضيف.. علّه ينبه الشيخ وصاحبه.

- تفضل يا أخ.. ماذا تحب أن تأكل؟

- أي شيء..

- لدينا فول.. حمص.. فته.. فلافل؟.

- فول. هات صحن فول.

والتفت الرجلان للزائر الغامض، لكن لم يكترثا به، فتأكد جمال من أنهما لا يعرفانه من قبل، فغاب قليلاً، ثم عاد بصحن الفول، ليضعه أمام الرجل.. فلاحظ محاولات واضحة منه لإمالة أذنه نحو الشيخ.. كمن يتقصد التقاط ما يدور!..

وقــرر جمال أن ينبه الشــيخين إلى ما يجري. فوقــف وظهره للضيف، وعينه في عين الشيخ حنفي، وهو يشير بإبهامه سراً للخلف..

- كيف وجدتم طعامنا يا جماعة؟

شكره الشيخ عز الدين، بينما انشغل الشيخ حنفي بمراقبة الرجل، وقد أدرك مراد صاحب المطعم.

ونهض الشيخ حنفي فجأة.

- هل ننطلق ياشيخ عز الدين؟

- ما لك مستعجل؟.. لم تكمل صحنك بعد!.

قال الشيخ حنفي، وهو يشير بطرفه للطاولة القريبة..

- المطعم صغير، ولا نريد أن نعطل رزق الأخ جمال.

التفت الشيخ عز الدين، فأدرك الموقف..

- لا بأس أكمل طعامك، ثم نمضي..

وران صمت، قطعه الشيخ، وهو ينهض بعد قليل..

- الحمد لله رب العالمين..

ونقد جمال ثمن الطعام..

- هذه المرة على حسابنا

هز الشيخ يده بالنقود في إصرار

- لم تقصر. بارك الله لك في رزقك.

ولم يكد الشــيخ يمضــي، حتى فوجئ جمــال بالرجــل الغامض يقطع طعامه، ويخرج النقود على عجل، فيلقيها أمامه، ثم يسعى خلف الرجلين!..

كان الشـيخ عزّ الدين يشرف على تنظيف مسـجد الاستقلال، وتهيئته لمدّ السجاد، عندما دخل جمال فجأة، وألقى تحية السلام.

خفّ الشـيخ حنفي للترحيـب بالزائر، بينمـا وقف الشـيخ عز الدين مندهشاً لهذه الزيارة غير المتوقعة..

قال جمال الصلح، وهو يجلس إلى الشيخ وصاحبه..

ـ ثمة أمر يجب أن تعرفه يا شيخ عز الدين!.

ـ تفضّل

تلفت حوله في حذر، فرأى بقية الرجال منهمكين بالشطف والتنظيف، لكن المسـجد كان فارغاً، وأي كلمة تقال يتردد صداها في فضاء المكان، فأدرك الشيخ أن لديه شيء يتحفظ على البوح به أمام من لا يعرف.

ـ لا تقلق.. المكان آمن.

شعر جمال بالارتياح.

ـ لا بد أنكمـا تذكران ذاك الرجل، الذي نبهتكما إليه، وهو يسـترق السمع لحديثكما في المطعم ظهر أمس.

ـ وبعد..

ـ بعد أن غادرتما المحل، تحرك الرجل خلفكمـا على الفور، فتركت المحل ومضيت خلفه.. ظلّ خلفكما حتى وصلتما إلى المسجد، ثم توجه إلى مركز البوليس. إنه مخبر بلا جدال.

شكره الشيخ القسـام على اهتمامه، وتضحيته بعمله من أجلهما، بينما قال الشيخ حنفي:

ـ يراقبون الشيخ منذ مدة.. يظنّون أنه يعمل من هنا ضد فرنسا..

ـ كان مريبــاً منذ البداية.. حتــى أنه لم يكن أكمــل صحنه، عندما أسرع بالخروج خلفكما.

تنهد الشيخ..

ـ يمكرون ويمكر الله، والله خير الماكريــن.. لو كان هناك ما يمكن أن أفعله لسوريا، لما حسبت لهم حساباً، لكنّا في هذه الساعة لا نملك إلّا الكلمات.. ندعو لإخواننا المجاهدين هناك، ونشــرح قضية ســوريا للناس، وهذا أضعف الإيمان.

وعلق الشيخ حنفي..

ـ الشيخ واجه الموت مراراً، فلن تخيفه مثل هذه التصرفات..

قاطعه الشيخ عز الدين.

ـ لكن نسدد ونقارب يا شــيخ حنفي.. ونســتعين على قضاء حوائجنا بالحرص والكتمان.

نظر إليه جمال الصلح بإكبار.. كان سعيداً أنه في حضرة مجاهد كبير، وقال بنبرة بان فيها التأثر:

ـ أحياناً تراودني نفســي أن أغلق محلي، وأعود إلى لبنان أو سوريا، لأشــترك في أيّ ثورة أو جهاد، ثم أتذكر أني مسؤول عن أمّ وأختين، ليس لهنّ إلا الله ثمّ أنا، ولا يجوز أن أكِلُهنّ للمجهول..

ابتسم الشيخ.. كلام جمال أوحى له بفكرة جميلة.. «لدينا الآن عروسان من منبت طيب، ولدينا عدد من الشــباب.. وتأمل الرجال حوله.. كان ابن أخيه مالك ينقل الماء، وأخوه ظافر يشــطف الأرض، والشــيخ علي الحاج عبيد يجتهد في نزح الماء إلى خارج المسجد، وهاهو الشيخ حنفي منهمك مع جمال في حديث الثورة، التي مازالت في دمه.. فمن يختار؟.

ولمعت الفكرة في ذهن الرجل الذي جبل علــى الوفاء.. منذ متى وهو

يبحث للشيخ حنفي والشيخ علي عن زوجتين.. لقد هاجرا معه، وأخلصا له منذ أن كانا طالبَي علم، ينهــلان من علوم الدين في جبلة على يديه، فإذا بظروف الاحتلال الفرنســي تدفعهما ليكونا معه على خطوط المواجهة ضد العدوان، ولــم يترددا في الهجرة معه إلى فلســطين، ومــازالا في صحبته وعلى عهده..

وبدأ القسام يحبك فصلاً سعيداً في واقع تتخطفه المآسي والأحزان.

مدرسة بعد المغرب تنمو وتكبر..

مرّ بها طلبة كثيرون، واستقرت فيها قلّة، التقطت الخيط من معلمها وقائدها، وراحت تنسج معه مشروع المواجهة العادلة ضد ظلم مركب، صنعه انتداب خبيث، يغيّر الحقائق والوقائع تحت قهر القوة، وغزاة ماكرون يتسللون من خلفه بصمت.. سلاحهم المعلن مال غزير، وتنظيم محكم، وقوانين يفصّلها لهم الانتداب على قدر مصالحهم، أما سلاحهم الحقيقي فشباب ورجال مدربين، يحتشدون خلف الأسوار، ويشحذون السكاكين، لينقضّوا على شعب مسالم.

واكتشف الشيخ في مدرسة الليل معادن ورجال، ونفوس حرّة تواقة للفجر، وقادة تخفيهم الأسمال المتواضعة والهيئات البسيطة، التي قد لا يلقي لها المرء بالاً، واطمأن القسام إلى الغرس.. فهنا.. في بيوت الصفيح وأحضان القرى الطيبة.. وجد الرجال الذين يأتمنهم على الوعد، ويستثمر مواهبهم للمستقبل.. وراح ينضجهم على نار هادئة.. فحتى تؤتي هذه القلة أُكُلَها، يجب أن يكون كل واحد منهم أمة وحده.. فتذرع بالصبر، وراهن على الوقت، فعسى تجربته في الجنوب، تكون أنضج وأبقى منها في الشمال..

وراح يتأمل الوجوه الطيبة، التي كانت تتحلق خلف موقد الجمر في شتاء حيفا القارص، ريثما يأخذ أصحابها قسطاً من الراحة، ويتناولون كوباً من الشاي الذي نضج على نار هادئة، ليبعث الدفء في أجسادهم..

وراح العبد قاسم، يدور بالأكواب على إخوانه، وهو سعيد بانضمامه لمدرسة الليل، التي ستلبّي توقه لتعلم القراءة والكتابة، وهو الفلاح الذي حرم من المدرسة لظروفه المتواضعة، واضطرّ بعد أن طرده اليهود من

أرضه، أن يعمل بائعاً للكاز، وقد أصرّ أن يكون من يوزع الشاي على زملائه القدامى، احتفالاً بهذه المناسبة..

كان الشيخ عز الدين سـعيداً بهذه التجربة التي تدخل عامها الثالث، ويعتز بهـؤلاء التلاميـذ الذيـن يتخرجون من مدرسـته أصدقـاء خلصاء، يتعاونون على البرّ والتقوى، ويجتمعون على حبّ فلسطين، والدفاع عنها.

ورغم أنـه صار نجماً بين وجوه حيفا وأعيانها، لكنه يشـعر أنه لهؤلاء أقرب.. لأنهم خلاصة المحنة التي تعيشـها فلسـطين، وضحايا هذا الظلم الذي دمـر حاضرهـم، ويتهدّد مسـتقبلهم، فوجـد فيهم الفطـرة النقية، والإيمان العميق، والوفاء الخالص، والتسليم الجميل بقضاء الله..

وكانت ثقتـه بهؤلاء بلا حـدود، لأنهم يملكـون يقيناً راسـخاً بحقهم، وانتمـاء حميماً لتاريخهم، وإيمانـاً جازماً بالنصر على العـدوان، واقتلاعه مهما طال الزمان..

وخطر للقسـام فجأة خاطر أطـاح بسَـكينَتِه، فـراوده أن الإنكليز قد يغدرون به، ويسـلّمونه عنوة لعدوه القديم، فشعر بغصة كدّرت روحه، ليس خشية من فرنسا التي تنسج له حبل المشنقة منذ سنوات، ولكن خوفاً على هـذه الصحبة المميزة، التي نشـبت بينـه وبين هذه النخبة مـن الطيبين الصابرين التواقين للعدل والحرية.. وإشفاقاً على وعد قطعه لهم، بأن يكون وفيّاً لقضيتهم العادلة، وصوتاً أميناً لحقّهم المهدور، وصدىً لآلام فلسطين التي تحاصرها الحراب الآثمة، تريد أن تغتال هويتها ومستقبلها..

وتساءل العبد قاسم إن كان الوقت قد حان لاستئناف الدرس، فأيقظ الشيخ من خواطره، فابتسمّ لهذا الطالب الجديد، الذي يبهره بحماسه للعلم والتحصيل، لكنّ ابتسامته الحزينة لم تسـتطع أن تخفي ما يعانيه الشيخ من قلق، على حلم يداعب روحه منذ مدّة، بحشد هذه القلوب في جبهة واحدة ضد الغزاة.

٦٨

تأمل الضابط الإنجليزي المكلف بمتابعة الشيخ عز الدين التقارير التي أمامه. لم يجد ما يدل على أن الشيخ عز الدين منهمك بأي نشاط من أي نوع يحمل طابعاً مسلحاً، أو أنّه جمع أموالاً لإرسالها للثوار السوريين ضد فرنسا.. كتب في تقريره أن «الشيخ القسام يمارس نشاطه الديني كواعظ، ولا يبدو أنه متورط في نشاطات تثير القلق، إلّا أنه يكثر من الثرثرة في موضوع الهجرة اليهودية، واعتبار قوات الانتداب الفرنسي والبريطاني امتداداً للحملات الصليبية.. ويمكن تنبيهه بين الحين والآخر».

وذيّل التقرير برأيه الأخير.. «يمكن أن نردّ على السلطات الفرنسية في سوريا بأن الشيخ عز الدين القسام لا يمارس أي نشاط ضد فرنسا في فلسطين».

وبعد أيام كان مدير قلم المخابرات الإنجليزية في حيفا يجتمع معه..

ـ تقريرك يؤكد أن الشيخ القسام لا يمارس أي نشاطات تخريبية في الوقت الحالي.

ـ هذا ما تأكد لنا من خلال رقابة حثيثة استمرت أربعين يوماً.

ـ واضح أنّ لسانه طويل.

ـ لا يتحدث بأكثر مما نسمعه من العرب في كل مكان.

ـ ألا تعتقد أنه يحرّض علينا بشكل أو بآخر؟

ـ بالنسبة للسلطات الفرنسية كانت شكواهم أنه يعدّ لشيء هنا، وهذا ما أستطيع أن أنفيه بقوة.

ـ قصدت أنه يتحدث حول الأوضاع في فلسطين، بأكثر مما يجوز لوافد هنا.

ـ أهل حيفا لا ينظرون إليه كوافد. تعرف أنّ هذه كانت بلاداً واحدة.

ـ مفهوم.. مفهوم.

ـ تبدو ما زلتَ قلقاً!.

ـ خطورته أنه رجل دين، ولرجال الدين تأثير خاص بين العرب.

ـ إذا كانت جرعة التحريض مقبولة، فلا خوف منها.. فقد تريح الجمهور الغاضب، دون أن تتطور إلى فعل واضح..

ـ لا بأس أن تراقبوه من حين لآخر.. يجب أن نكون متأكدين من أنَّ جرعات تحريضه ضمن الحد المقبول.

كان افتتاح مسـجد الاسـتقلال يوما مشـهوداً في حيفا، حضره وجهاء المدينة والقرى المجاورة، وعدد من مدراء الأوقاف في فلسـطين، ومندوب عن الشيخ أمين الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، والأستاذ محمد دروزة مدير أوقاف نابلس، وآخرون من الوجهاء والعلماء والمخاتير..

وكانـت الكلمة الأولى للشـيخ محمـد أفندي مـراد مفتي حيفـا، الذي زفّ للمسلمين بشرى افتتاح هذا المسجد، لينضم إلى باقة المساجد العامرة في عموم فلسـطين، تلك القناديـل المضيئة التي تتألق في سـماء البـلاد بالحق والخير، والقلاع الصامدة في وجه المحاولات الآثمة لتغيير هوية هذه البلاد، والتي تشهد مآذنها الشامخة بانتمائها العربي الإسلامي الأصيل..

وقبل أن يختم كلمته وجه التحية للشـيخ المجاهد عز الدين القسـام، الـذي انتقل من سـاحة الجهـاد ضـد الفرنسـيين الغاصبين في سـوريا الشمالية، إلى ساحة الدفاع عن سورية الجنوبية وجوهرتها فلسطين، أرض الإسراء والمعراج..

وجاءت كلمة الأسـتاذ محمد دروزة، مدير أوقـاف نابلس لافتة ومعبرة، فتحدث عن دور المساجد في الدفاع عن هوية فلسطين، وكان مما قال:

«لقد اطلعت على مناهج المدارس الإنجليزية، وراعني عندما ترجمت كتاب القراءة الجديدة للناشئين الإنجليز، نصّ غريب يكشف كم أنّ هذه الأمة قد هانت، وغفلت عمـا يراد بها ولها، فصدّق بعضنـا أنّ بريطانيا إنما هي دولة محايـدة، يمكن أن تكون أمينة على هـذه البلاد. إذ يقول الكتاب المذكور على لسـان مؤلفه، في معرض حديثـه عن الوعد الذي منحته بريطانيا بإقامة وطن لليهود في فلسطين..

وخرج الأستاذ دروزة عن النصّ الذي أعدّه برهة.

ـ انتبهوا يا إخوان..

يقول الكاتب إياه: «ودعنــي أقول لك قبل أن أختم هذا الفصل أن آخر حملــة صليبية، هي الحملــة التي قادها اللــورد اللّنبي، وفتــح بها المدينة المقدسة أورشليم».. أي القدس الشريف..

فهل هناك أصدق مما يعلمــه الإنجليز لأبنائهم تعبيراً عما يفكرون فيه، ويدبرونه لنا؟..

هذا الناشئ الذي يتربى على هذا الزيف، سوف يكبر عما قريب، وقد يأتينا جندياً أو ضابطاً فــي قوة الانتداب، لينفذ ما تعلمــه، فيعاملنا بروح الحــروب الصليبية، فينتقم منا، ويتحالف ضد إرادتنا واســتقلالنا، مع من يعتقد أنهم أصحاب المدينة المقدســة أورشــليم، كما تســميها مناهجهم، فانظروا ماذا أنتم فاعلون، ومع أي عدو أنتم تتعاملون!.

واعتلى الشيخ عز الدين المنبر، فحرك القلوب والعزائم، ووضع الناس أمام الصــورة المؤلمة التي ينبغــي أن يواجهوها، ولفــت الأنظار بصراحته وقوة كلماته..

«لقد كانت هذه الأمة على مرّ القرون مثــالاً في إكرام الضيف ونجدة الضعيف، مسلماً كان أو يهودياً أو نصرانياً، لكن مايجري اليوم في فلسطين أمر غير هذا تماماً.. أمر يحتاج إلى تدبر وانتباه.. فقد زادت هجرة اليهود إلى هذه البلاد إلى القدر الذي يثير المخاوف، ويرســم حول الهدف منها ألف ســؤال، وكأني بهذه البلاد تحتل اليوم مرتين.. مرة باســم الانتداب، ومرة على يــد هؤلاء المهاجريــن الغرباء، الذين يحتلــون مدنكم وقراكم، وأنتم فيها..

هؤلاء المهاجرون إنمــا يتجمعون على أرضكم ليبنوا قوتهم، ويؤسّســوا

دولتهم، تحت حماية بريطانيا العظمى، التي أعطتهم ذلك الوعد المشؤوم، وهاهي تنجز ما وعـدت، وإذا أردتم الدليل فاسـألوا المندوب السـامي صموئيل، الذي يتباهى بأنه أول وزير يهودي في حكومة بريطانيا.. صموئيل هذا هو الذي سهّل لهؤلاء المهاجرين اليهود كلّ أسباب القوة، ومكّن لهم، بتزوير القوانين وتهديد السلاح، والانحياز الصريح ضد أهل البلاد، الذين أخشى ما أخشاه أن يصبحوا غرباء في وطنهم.

فاللّهَ اللّهَ في فلسطين، يا أهل فلسطين..

أدركوا بلادكم قبل أن نبكي على أندلسٍ جديدة، تضيع فيها قدسـكم، ويتهدد مستقبلكم مَنْ تعرفون من الطغاة والغزاة..

كانت كلمة القسـام صرخة مسجد الاسـتقلال الجديد.. الذي اشرأبّت مئذنتـه لتروي قصة الحـقّ الذي يأبـى أن يمـوت، والأرض التي لا تطيق الغاصبين.

## ٧٠

عندما توجه الشيخ عز الدين إلى مسجد الاستقلال لأداء صلاة الظهر، ألفى جمعاً من الناس وهم يحملون نعشاً، ويدخلون به المسجد للصلاة على ميتهم، ولفت نظره وجود شاويش من الشرطة، يقف مقابل المسجد، وقد تأبط ذراع شاب في العشرينات، كان يبكي بحرقة، ويده مقيدة إلى يد الشاويش في «الكلبشات»، وتوجه الشيخ للشاويش يفك لغز هذا المنظر..

- ما القصة؟

- هذا السجين توفيت والدته، وسمح له قائد المخفر بحضور الدفن..

- تقصد أن الجنازة لوالدة الأخ؟

أجهش الشاب، ورفع للشيخ عينين مخضلتين..

- ادع لها ياشيخنا.. فقد كانت من الصالحات.

رق الشيخ لحال السجين، وقال يعزيه:

- عظّم الله أجرك فيها يا بني، وجعل مثواها الجنان.

- شكرَ الله لك يا شيخنا، ادع لي بالتوبة وحسن الختام.

- غفر الله لنا ولك.

قال الشاويش وهو يشدّ على يده:

- من يسمعك يظن أنّك من أهل الصلاح، ولولا هذا الظرف الذي تمر به، لحدثتُ الشيخ عن سوابقك التي تعرف.

طأطأ السجين رأسه، وبدت الذلة على محياه، لكن الشيخ عز الدين انزعج من ملاحظة الشاويش، التي لم تراعِ ظرف السجين المكلوم بأمه.

ـ مهما كانت سوابقه فلن تكون أكثر من ذلك الذي حدّث عنه النبي ﷺ، والذي قتل مئة نفسٍ ثم تاب الله عليه، لأنه صدق في توبته.

تأثر الشاب لدفاع الشيخ عنه في هذه المحنة، وأكبّ على يد القسام، يريد أن يقبلها..

ـ أستغفر الله العظيم..

همس بها الشيخ عز الدين، وهو يسحب يده، بينما أردف الشاب والدموع تغسل وجهه:

ـ على يدك يا شيخنا أريد أن أتوب، وأعاهدك على أن أكون خلفك في هذا المسجد حتى أموت.

أدهشت كلمات الشاب الشاويش، واحتار فيما بدّل هذا السجين العنيد، الذي طالما اعتقله من حانات الخمر وحواري التسكع، وما آل إليه حاله بعدما توفيت والدته..

وسأل الشيخ الشاويش عن مشكلته، فأخبره بأن عليه عدة قضايا منظورة في المحاكم، ولكن يمكن الإفراج عنه بكفالة..

قال الشيخ، وهو يربت على كتف الشاب:

ـ أنا سأكفله، ولكنْ دعه يدخل، ليصلي على أمّه.

بُهتَ الشاويش. قال وهو ينظر إلى القيد:

ـ ولكن..

ـ قلتُ لك هو عندي، وبعد الصلاة أذهبُ معك لعمل الكفالة.

كان الشاب يراقب الموقف في ذهول، وأعجب بشجاعة الشيخ وعطفه، وسمع صوت المفتاح، وهو يدور في قفل الكلبشات التي تقيده إلى سجانه، فكاد يطير من الفرح، وأسرع إلى المسجد، فتوضأ وانضم إلى الصلاة،

والشـــاويش يراقبه بقلق واضح، ويده على المسدس، خشــية أن يفلت منه، بينما مضى الشــيخ إلى المحراب، ودخل في الصلاة، وهو واثق بأن الكلمة الطيبة والمبادرة إلى المعروف، لا بد أن تثمر في القلوب، مهما ران عليها من قسوة..

وصدق حدسه، فقد عقد الشاب العزم على توبة نصوحة، لا يعود بعدها إلى سيرته الأولى. وقد كان.

دروس الاستقلال تزداد شهرة وإقبالاً.. ليس في حيفا وحدها، بل في سائر قرى وبلدات الجليل.. وهؤلاء هم مريدو القسام يأتون من صفد وعكا والناصرة وبيسان وجنين.. ليسمعوا ما يتوقون سماعه من حق صراح، وهكذا صار درس القسام يزدحم كل يوم بتلاميذه، الذين غلب عليهم عمال الميناء والخط الحجازي وفلاحو القرى البعيدة، وزوار المدينة من أصحاب القرابات والحاجات، وكل المتحرقين لسماع مايشفي صدورهم المحتقنة بالغيظ على انتداب غليظ وتسلل يهودي ماكر، يكبر يوماً بعد يوم، ويزاحم الناس في وجودهم..

ولم يضيع الشيخ عز الدين درساً، دون أن يذكّر الناس بماضيهم وحاضرهم، ويثير فيهم الوعي بما يراد بفلسطين ولفلسطين، ويحشد القلوب والأرواح حول هدف الاستقلال، ويشحذ الهمم لفعلٍ يساهم في إزاحة هذا الكابوس، الذي يتفاقم يوماً بعد يوم..

وذات عصر كان القسام، يلقي درسه وقد تحلّق حوله العشرات.. ودخل الشيخ حنفي بصحبة جمال الصلح، فابتسم الشيخ لجمال، ولوح له بتحية وقورة، ترحب به في درس الاستقلال، وقد أضمر في نفسه شيئاً!..

وتدفق الشيخ عز الدين في الحديث، وهو يرفع للحاضرين خريطة ملونة، انتزعها من كتاب ابنته خديجة، بعد أن اكتشف بأن يد سلطة الانتداب امتدت إلى مناهج الجيل الجديد، لتشوه الحقائق، وتزور التاريخ..

- إنهم يرسمون حدود بلادنا يا إخوان بالمسطرة.. هل رأيتم في الدنيا بلاداً طبيعية، حدودها مستقيمة بهذا الشكل.. انظروا إلى الخريطة الجديدة التي أصدروها، ويعلموها اليوم لأبنائكم، لتعرفوا ماذا يدبّر لهذه

الأمة.. أنا السوري الذي ولدتُ في جبلة قرب اللاذقية، وقطعت المسافات لأعيش هنا في حيفا.. في فلسطين الشام، سأصبح غريباً هنا أو هناك، لأنهم قسّموا سوريا الكبرى إلى فلسطين وسوريا ولبنان وشرق الأردن.. أعداؤنا يا إخوان يعرفون التاريخ أكثر منا.. عرفوا كم كنا ضعفاء عندما كنا دويلات وطوائف، أيام ضاعت منّا الأندلس، وهاهم يلعبون اللعبة من جديد.. يرسمون لنا دولاً هزيلة ليسجنونا داخلها.. القضية باختصار أنّا دخلنا عصر الوهَن، وحالنا أصبح كما تنبأ لنا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام: «تكاد تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكَلَةُ على قصعتها، قالوا: أومن قلة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟.. قال: بل أنتم كثير، ولكنْ كغثاء السيل»..

هذه هي حالنا الآن يا إخوان.. نحن القصعة، والأكلة كثيرون.. فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وعصابات الصهيونية العاتية وغيرهم.. نحن اليوم كثير، كثير.. ولكنّا كغثاء السيل.. بأسنا بيننا شديد، وبأسنا على عدونا..

وصمت الشيخ عز الدين.. فأثار بصمته على رأس جملة مبتورة انتباهاً أراده.

- هل ترون عليهم في بلادنا من بأس ياجماعة؟..

وسرى همسٌ وابتسامٌ.. و هتف أكثر من صوت صريح بقوة: لا.

تابع الشيخ بنبرة ساخرة:

- إنهم مرتاحون، يعربدون، وينهبون، ويظلمون، ونحن، ماذا؟

- نائمون..

- أحسنت.. نائمون.. لا نملك إلّا الثرثرة و«العلك المصدّي» كما نقول في الشام..

- جرّبنا يا شيخ..

وهتف أحد الشـباب، وهو يـكاد يقفز من مكانه حماساً وتأثراً بكلام القسام.

تابع الشيخ عز الدين..

- ومع ذلك فهم يحسبون لنا ألف حساب..

واستدرك قائلاً:

- ليس لنا نحن.. بل لأجيالٍ قادمةٍ بإذن الله، سوف تستيقظ فيها عقيدة الأمة، وتتمرد على حدود المسطرة، عندما تعي حضارتها وتاريخها.. الأعداء يا إخوان لا يخافون منكم، بل يخافون أطفالكم وأحفادكم.. أن ينشأوا على حب الدين والعقيدة والجهاد.. لذلك يريدون منكم أن ترزحوا في الجهل، وأن تغوصوا في المتعة، وأن تورّثوا لأبنائكم الميوعة والخنوع والهوان..

وصاح واحد من أقصى الصفوف:

- الجهاد يا شيخ يحتاج بندقية.

ابتسم الشيخ.. لكم يشتاق إلى البندقية، ليعلّم هؤلاء الغزاة درساً لا ينسوه..

- المجاهد يا إخوان قبل البندقية.. يجب أن نربّي أنفسنا أولاً ونهذبها.. نريد المجاهد المؤمن الصابر العارف بحدود الله.. المجاهد الصلب الذي يتوق للاستشهاد في سبيل دينه وحقوقه، لأن عدونا لديه العديد والعدة، ولن نجاريه إلا برجال كما قال سيدنا خالد بن الوليد للروم «جئتكم اليوم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».. فلنربِّ أنفسنا على حبّ الشهادة ومواجهة الظلم، و«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله؟...»..

- مع الصابرين.

- أحسنت.. «والله مع الصابرين»

واستمر الشيخ في درسه يتدفق بالمعاني، يثري العقول ويحرك

الضمائر، ويضع النقاط على الحروف، ليرســم بها وعياً جديداً، ويبعث في الناس روحاً تأبى الانكسار..

وأذّن المؤذن لصلاة العشاء، فقام الناس إلى صلاتهم خاشعين، وبعد الصلاة.. تقدم الكثيرون يشدّون على يد الشيخ عز الدين، يؤكّدون تأثرهم بما قال..

وجــاءه جمال بصحبة الشــيخ حنفــي وهما ســعيدان مستبشــران بهذا الحماس الذي أبداه الحاضرون لكلمات القســام، فابتسم لهما، وقد تذكر شيئاً، وجد أنّ وقته قد حان..

قال الشيخ عز الدين للشيخ حنفي:

- أريد أن تجمعني بالشــباب الذين تفاعلوا مــع الدرس.. إلحق بهم، ورتب لهم موعداً غداً بعد صلاة العشاء.

تحرك الشــيخ حنفي سريعاً ليلحق بمن قصدهم القســام، بينما اختلى الشــيخ بجمال الصلح عند المحراب، ليفاتحه برغبته في خطبة أختيه لكل من عارف حنّوف وعلي الحاج عبيد، ويزكيهما بما يعرف عنهما من شجاعةٍ ونبلٍ وخلقٍ كريم..

ولولا أن الشرع يقضي باستشارة الفتاتين في هذا الزواج، لأجاب جمال الصلح الشيخ من فوره إلى ماطلب دون إبطاء.

## ٧٢

الأيام تمضي حبلى بالمفاجآت..

لكن ماحملته اليوم من أخبار، كان له وقع الصاعقة!..

وسارع الشيخ عز الدين مع صديقه رشيد الحاج إبراهيم لزيارة الشيخ كامل القصاب، لبحث ما سينتج عن هذا التطور الخطير..

قال الأستاذ رشيد:

ـ يبدو أن تداعيات سقوط الخلافة، قد وصلت إلى فلسطين!.

ـ ماذا تقصد؟. سأل القصاب.

ـ لعلك سمعت عن معاهدة الصلح التي وقعتها بريطانيا وفرنسا مع الحكام الجدد في تركيا..

ـ هذا تحصيل حاصل. تركيا دولة مهزومة، ولا بد أن تدفع الثمن.

قال الشيخ عز الدين..

ـ وكنا نحن الثمن!.

ـ كيف؟

ـ الاتفاقية تقضي بأنه لدول الحلفاء الحق في امتلاك الأراضي والأموال والمرافق العائدة للإمبراطورية العثمانية، دون أن تدفع قيمتها.

ـ تقصد؟.

قاطعه الأستاذ رشيد:

ـ هذا يعني أن المندوب السامي في فلسطين يستطيع أن يتصرف بكل الأراضي الأميرية التي صارت بموجب المعاهدة ملكاً لبريطانيا، ويبيعها أو يمنحها إذا أراد لليهود.

ـ هذه كارثة.

- نصف أراضي فلسطين تقريباً كانت ملكاً للدولة العثمانية!.

همس القسام وهو يكظم غيظه..

- يعني بجرّة قلم، يمكن للمندوب البريطانــي أن يمنح اليهود نصف فلسطين..

- اللّه يستر..

وقررت بريطانيا ماهو أسوأ..

فقد أصدر ملك بريطانيا قراراً بمنح الجنســية الفلسطينية لليهود في فلسطين، وصار يمكــن للمندوب البريطاني أن يمنح الجنســية لكل مهاجــر يهودي على أرض فلسطين، إذا مضى على وجوده سنتين، أو كان يتكلم اللغة العبرية.

وعاد الشيخ عز الدين إلى بيته غاضباً.. فاليوم ليس كغيره من الأيام.. اليوم هو البداية الحقيقية للحلم اليهودي الذي لم يعد حلماً في فلسطين.. اليوم يحســم القســام خياره، وينحاز نهائياً إلى ثغر فلســطين، لأنه الثغر الأخطر والأكثر تهديداً بين ثغور هذه الأمة المثخنة بالجراح. وقرر الشــيخ في نفسه أمراً..

دخل الشيخ عز الدين البيت متجهماً، وتوجه إلى مخدعه مباشرة، دون أن يحفل بالمرح الذي أحدثه دخوله بين بناته اللواتي اشتقن لأبيهن، وهو المشغول دائماً، الذي لا يكاد يأوي إلى الدار إلا ويغادرها، ليستوعب حجم الأعباء التي زادت عليه، منذ أن استلم مسؤولياته كإمام وخطيب لمسجد الاستقلال.

ولاحظت أمينة مــا حدث، فلحقت به تســتطلع الخبر، بعــد أن أوصت ميمنة، بأن تأخذ أختيها إلى الغرفة المجاورة..

- تبدو غاضباً، ماذا حدث؟!.

قال وهو يقف على رؤوس أصابعه، ليتناول حقيبة جلدية قديمة من فوق خزانة الملابس.

ـ ما يجري يا أمينة لا يمكن السكوت عنه.. ثمة جريمة كبرى تجرى على هذه الأرض، والناس غافلون..

ـ ماذا تقصد؟.

ـ ملك بريطانيا أصدر قراراً بمنح الجنسية الفلسطينية لليهود في فلسطين.

وفوجئت به يخرج من الحقيبة مسدساً، ويتفحصه باهتمام..

ـ ولم هذا المسدس؟!.

لم يجبها. تابع ينفث الغضب الذي احتقن في صدره:

ـ وفوق هذا سيوزعون أراضي فلسطين التي كانت مملوكة للدولة العثمانية على اليهود، لتصبح نصف أراضي فلسطين ملكاً لهم، ويعلنوا وطنهم المزعوم.

ورفع المسدس إلى الأعلى، وصوب فوهته نحو السقف، وكأنه يجرب قدرة عينه على التسديد.

ـ فلسطين تضيع منا يا أمينة، ونحن نتفرج..

ـ لم تقل لي لماذا المسدس؟

ـ غدا عند صلاة الجمعة تعرفين؟

ـ أرجوك لا تتسرع، فنحن غرباء هنا..

ـ بل هم الغرباء..

ـ أقصد..

ـ اهدئي يا أمينة، ودعيني أرتب لما أريد..

ـ لن تستطيع أن توقف وحدك ما تخطط له دول كبيرة وقوية.

ابتسم في سخرية:

ـ قد لا أستطيع، لكن لن أسكت.

في اليوم التالي وقف الشيخ عز الدين على منبر الاستقلال، وقد عزم على شيء!..

- أيهـا الناس.. لقـد أتى على سـوريا حين من الدهر، صـار أهلها كالأيتام على مائـدة اللئام، فهذه فرنسـا وبريطانيا بموجـب الصلح الذي عقدتاه مع دولة الطورانيين البغاة، الذين اغتالوا الخلافة ودفنوها، ترثان كل أملاك الدولـة العثمانية، لتتصرف كل منهما بـكل الأراضي والعقارات والأموال العائدة للخلافة الآفلة..

ويبدو أن الإنجليز قد جبلوا على كرم لو سـمع به حاتم الطائي، لخرج من التاريخ إلى غير رجعة، فمن فـرْط ِ كرمهم وجوْدهم، قرروا أن يمنحوا الأراضي التي وضعـوا أيديهم عليها في فلسـطين للمهاجرين الغرباء مـن اليهود، ليبنوا عليها المزيد من مستعمراتهم، وينشئوا مزارعهم ومصانعهم، ويجعلوا منها وطناً فسـيحاً، يجمع اليهود من أرجاء الدنيا، ليقيموا هنا دولةً، لا أخالها إلا سـوف تكون مصدراً للشر والظلم والعدوان..

أيها الرجال.. يا شباب فلسطين.. بلادكم في خطر، فانظروا ماذا أنتم فاعلون؟

جاء في صحيح مسـلم، أن رجلاً جـاء إلى رسـول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: فلا تعطه مالك. قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله. قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد. قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: هو في النار.

أيها الناس.. من مات دون أرضه فهو شهيد، ومن مات دون عرضه فهو شـهيد، ومن مـات دون ماله فهو شـهيد.. وكلهـا صارت مهـددة.. الأرض والعرض والمال.. والحاضر والمستقبل..

ووالله الذي لا إله إلا هو.. ماوجدتُ لكم حلاً إلا هذا.

وفوجئ الناس بالشيخ يخرج مسدساً من جيبه، ويشهره في الهواء!.. وهو يهدر بكلمات كالرصاص..

- انفضوا عنكم غبار الذلّ والهوان، ودافعوا عن أرضكم التي تمنحها اليوم بريطانيا ظلماً وزوراً لليهود، وموتوا دونها شهداء.

وكبّر المصلون ترحيباً بهذه الدعوة الصريحة إلى مقاومة الانتداب وحلفائه من الصهاينة، والقسام يرمقهم بعيني صقر، والمسدس مازال مشرعاً بيدٍ ثابتة ووجدانٍ واثق..

وصاح أحدهم من بين الصفوف:

- ومن أين نأتي بالسلاح؟

هتف الشيخ:

- صاحب الحق سلاحه في حقه.. سلاحه في إيمانه.. سلاحه في عزيمته.. ومن أراد أن ينتزع حقه فعلاً لما أعيته الحيلة.. حتى لو اضطر لأن يهجم على جنود الانتداب، وينتزع أسلحتهم، من أجل أن يدافع بها عن أرضه ووطنه وأمته.

أرأيت لو اعتدى أحد على عرضك أو ولدك أو أرضك، أفكنت تسأل هذا السؤال؟.

أصبحت قصة هــذه الخطبة الجريئة على كل لســان، وتــداول الناس معانيها بإعجاب، وصار مسدس القســام حديث المجالس والنوادي، واندلع الحــوار حــول دور الجهاد في وقــف هذه المهزلــة، وبالغ بعــض الوجهاء والزعماء في انتقاد الشيخ، لكن الكثرة الكاثرة من الناس كانت معه، لأنه عبّر عنهــا، وأعلن عما يمور في وجدانها من ثــورة وغضب، إزاء هذا الذي يجري تحت حراب القهر، في حين سكت الكثيرون..

والتأم مجلــس إدارة الجمعية الإســلامية على عجل بدعوة من الشــيخ محمد مراد، فأبدى الأســتاذ رشــيد إعجابــه بهذه الخطــوة الجريئة، التي وضعت الناس أمام مسؤولياتهم، ودلـّتهم على الطريق الذي لا طريق غيره، وتردد بعضهــم في تأييد موقف الشــيخ، مشــفقاً عليه من النتائــج، وعبّر أحدهم عن مخاوفه أن يحسب هذا الموقف على الجمعية وجامع الاستقلال، لكنّ الأستاذ رشيد قال بكلمات حاســمة: «نحن نقول وهم يفعلون، فلا أقلّ من أن نقول كلمة حقّ في وجه ما يقترفون من جرائم وانتهاكات»..

على أن الشــيخ كامل القصاب حســم النقاش برأي وسط، خلاصته أن كلام الشــيخ عــز الدين في مكانــه، إلا أنه قد تســرع قليــلاً، إذ لا يثير الإنجليز في بلد يحتلونه، أكثر من الحديث عن الســلاح، ولا يجوز أن نلوح به، ما لم نكن جاهزين للمواجهة والجهاد.. واتفقوا على أن يقوم الأســتاذ رشيد والشيخ كامل بزيارة الشــيخ القسام، ليناقشا معه ما يمكن أن يقوله للدفاع عن نفسه، إن وجهت له سلطات الانتداب أية اتهامات..

وأوضح الشيخ عز الدين لزائرَيه أن التلويح بالسلاح قد يخيف اليهود أكثر مــن الإنجليز، لأنهم يتصرفــون وكأنهم غير معنييــن بالغضب العربي

عليهـم، معتمدين على الإجـراءات القانونيـة التي تغطيهم بهـا بريطانيا، وكأنّهم الحمل الوديع، الذي لا يرتكب ما يستوجب غضب الناس وثورتهم، فيختبئون وراء بريطانيا، التي تمدهم بكل أسباب القوة والتمكين.

واختتم الحوار بنصائح من الأسـتاذ رشيد للشـيخ عز الدين في كيف يتصرف عندما يداهمه الإنجليز للتحقيق..

- لعله خير.

همس بها الشيخ، وهو يتحسب للمفاجآت..

# ٧٥

لم يتأخر رد الإنجليز، فصباح اليـوم التالي توجهت قوة بريطانية نحو منزل الشيخ القسام، وترجل أفرادها المدججين بالسلاح، ووقفوا في حالة تأهب، وأيديهم على الزنـاد.. وتقدم قائد القوة، وطلب من أحد الجنود أن يطرق الباب..

أطل الشيخ بكامل هندامه، وكأنه كان ينتظر هذه الزيارة..

ـ أنت الشيخ عز الدين القسام؟.

ـ نعم؟

ـ مطلوب لقسم البوليس.

ـ الآن؟

ـ وفوراً.

ـ لديك أمر اعتقال؟

ـ وأمر تفتيش أيضاً..

ـ تفتش عن ماذا؟

ـ عن السلاح طبعاً..

ـ إنه مجرد مسدس، إن أردته سلمته لك.

ومدّ القسام يده إلى عبّه ليخرج المسدس، فتحفّز الجنود خوفاً من أي حركة مباغتة.

تحسب الشيخ لأي حماقة، فأخرج مسدسه بهدوء، وفوهته عكس اتجاه الجند.

ـ هذا هو المسدس.

ـ يفضل أن تأتي معنا أنت وسلاحك.

ـ أنا لم أفعل ما يستدعي الاعتقال.

تبرّم الضابط لهذه الجرأة، وطلب منه الصعود إلى السيارة، لكنه أبى..

- ألحق بك. أعرف الطريق إلى مركز البوليس جيداً.

- ولكن..

ونظر القسام حوله، فأثلجت صدره تلك الأعداد من الناس، التي تجمعت من كل حدب وصوب، بعد أن نبههم الشيخ حنفي إلى احتمال اعتقال الشيخ عز الدين، وطلب منهم التظاهر عند المسجد في الوقت المناسب، وداخل الشيخ شعور بالثقة والاطمئنان، وهو يرى الناس يهبون للدفاع عنه، وأدرك أن كلماته أخذت طريقها إلى القلوب.

ولاحظ قائد القوة أن الناس يتزايدون بسرعة، وكأن أحداً يحشدهم، فأوجس قلقاً، وتذكر أوامر قائده له بجلب الشيخ بهدوء وبلا مشاكل، ففضل أن ينسحب، بعد أن تلقّى وعداً من الشيخ بأنه سيقوم بزيارة مركز البوليس في الحال.

وما إن غادرت القوة الإنجليزية الحارة، حتى انفض الناس، ليظهر الشيخ علي الحاج عبيد وقد وقف في أقصى الحارة مع حنطور أحضره لهذا الغرض، وأشار إليه القسام أن يتقدم، فجاء بالحنطور، وترجل منه، ليركب مكانه، وهتف القسام بأصحابه:

- بلّغوا الأستاذ رشيد والشيخ كامل بماحدث.

وانطلق باتجاه مركز البوليس.

استقبله جنرال في الخمسين. يرطن بعربية ثقيلة، تثير الضحك..

ـ أهلاً بالشيخ المشاغب.

صدمه الشيخ عز الدين..

ـ لا أسمح لك بالحديث معي بهذه الطريقة.

حدجه الجنرال بطرف غاضب، قال، وهو يفتح ملفاً ويقرأ فيه..

ـ عز الدين القسام. شيخ سوري محكوم بالإعدام، يقيم في حيفا لاجئاً، يعمل بالوعظ الديني، تطور وضعه مؤخراً ليصبح إماماً وخطيباً لجامع الاستقلال..

ـ هل في هذا ما يعيب؟

ـ هل تعتقد أنك ستكلم الضابط الفرنسي الذي سنسلمك إليه بهذه الطريقة، وأنت تمضي لتعدم رمياً بالرصاص؟.

توجس الشيخ في نية غدرٍ مبيتة.. لكنه تماسك، وأجاب بهدوء:

ـ لماذا تظن أني سأخاف منه، أنا لم أخرج من سوريا لأني أخشى من الموت أو الشهادة، بل خرجت حتى لا ينكّل الفرنسيون بأهل مدينتي عقاباً لي، لأني أقاومهم.

ـ حسناً. إذا كان الفرنسيون أعداءك، فلماذا ترفع في وجهنا السلاح؟

ـ أنا لم أرفع السلاح.

ـ أنت دعوت الناس في الجامع يوم الجمعة إلى الهجوم على الجنود البريطانيين، وانتزاع سلاحهم منهم، وقتلهم إذا استدعى الأمر.

ابتسم القسام، وقال بنبرة واثقة:

ـ لعل الذي نقل لك الكلام لم يفهم المقصود تماماً.

قال الجنرال، وقد بدأ يفقد أعصابه:

ـ أولاً يجب أن تسلمني المسدس، الذي أشهرته في خطبة الجمعة.

أخرج الشيخ عز الدين المسدس، ووضعه على الطاولة.

تلقفه الضابط، وراح يتفحصه.

ـ مسدس ماركة «روبي». هذا فعلاً من أسلحة الجيش الفرنسي. على كل حال هذا سلاح غير مرخص في حيفا. هل لي بمعرفة مصدره؟!.

ـ هذا ما خرجت به من بلدي، عندما غادرتها فارّاً بنفسي.

قال الجنرال في غيظ، وهو يضع المسدس جانباً..

ـ هذا المسدس من أسلحة الجيش الفرنسي، ولا يباع للجمهور.. لعلك قتلت جندياً، وغنمته منه.

ـ أنت تطلق التهم جزافاً.

ـ ما علينا. لماذا أشهرت هذا السلاح على منبر الاستقلال؟.

ـ أردت به رمزاً للدفاع عن النفس.

ـ ودعوت لاقتنائه.. بل والهجوم على جنودنا لتخليصهم السلاح.

ـ هل لي أن أسدي لكم نصيحة.

ـ أسمعك.

ـ عندما تريدون إرسال مخبر أو جاسوس إلى مساجدنا، أنصح بأن تختاروه على درجة من الذكاء، تسمح له بفهم الحقائق كما هي..

ـ تقصد أن مخبرنا غبي؟.

ابتسم الشيخ وكأنه يؤكد المعنى، وتابع يقول:

ـ لو كنت مكانكم لتساءلت؟.. لماذا يدعو شيخ مسلم في فلسطين لحمل السلاح؟.

بلغ الحنق بالضابط مداه..

ـ لماذا؟..

ـ لأن الناس هنا قلقون على مستقبلهم.. يرون اليهود وهم يشترون الأراضي، ويقيمون المستعمرات، وأنتم تقدمون لهم الأراضي مجاناً، وتعدون بدعمهم لإقامة وطن ودولة.. أهل فلسطين يخشون ألّا تبقى لهم في بلدهم بعد هذا باقية.

أشاح الضابط بوجهه تلقاء النافذة، متهرباً من نظرات القسام الواثقة، وقال وهو يتصنع مراقبة حركة الناس خارج السراي..

ـ ذهبت بعيداً يا شيخ قسام. ذهبت بعيداً جداً.. نحن وعدنا اليهود بوطن فقط، وإلى جانب العرب.

ثم وهو يعتدل كمن تذكر شيئاً..

ـ لكن دعني أسألك. أنت رجل سوري هربان من السلطات الفرنسية، تقيم في حيفا لاجئاً، فما دخلك بفلسطين؟!.

ـ فلسطين جزء لا يتجزأ من بلاد الشام، التي قسمتموها حسب اتفاقية سايكس بيكو.

ـ هذا الكلام كان زمان، قبل أن يتم ترسيم الحدود بين سوريا ولبنان والأردن وفلسطين.

ـ هذا لا يغير من الأمر شيئاً.. نحن شعب واحد، ولن تفصل بيننا الحدود.

ـ شيخ عز الدين. أنت لا تريد أن تعترف بأن الدنيا قد تغيرت. اتفاقية سايكس بيكو أُقرَّت في عصبة الأمم، ونحن موجودون هنا بموجب ذلك، وصكّ الانتداب الذي نحكم فلسطين بموجبه، ينص على إقامة وطن لليهود في هذه البلاد.. يعني وجودنا هنا قانوني، لكن وجودك هنا كسوري، تحرض ضد الانتداب وضد اليهود وضد عصبة الأمم غير قانوني.

ـ هذه الأرض أرضي وأهل فلسطين أهلي، والدفاع عن هذه الأرض جزء من عقيدتي، ولن يجبرني أحد على تغيير قناعتي.

شعر الضابط أنه أمام شيخ عنيد، يتمتع بمنطق ذكي، لا يمكن هزيمته، وتذكر نصيحة قائده بأن ينقل رسالة صارمة إلى الشيخ، دون أن يؤذيه جسدياً أو يعتقله.. واعتدل الضابط في جلسته، وهو يحاول أن يصل مع القسام إلى نتيجة..

ـ نحن لا نمنع أحداً من الكلام.. أما التحريض فهو ممنوع، وأريد منك أن تتعهد بذلك.

كان الشيخ هادئاً رابط الجأش، غير مكترث بالوعيد المبطّن، الذي تحمله كلمات الجنرال البريطاني، لكنه آنس رغبة في حل الموقف بشكل سلمي، فلم يرد أن يعطي أية تعهدات..

ـ أريد أن أكون صادقاً معك. أنا عالم دين، مسؤول عما أقول أو أفعل أمام الناس، ولن أقوم إلا بما يفرضه علي ديني.

استشاط القائد الإنجليزي غضباً..

ـ أووه.. أنت عنيد فعلاً.. وغير متعاون.. وسوف أحملك مسؤولية أي عربي في حيفا يهجم على جندي بريطاني ليخلصه سلاحه. أرجو أن يكون ذلك واضحاً.

صمت الشيخ ولم ينبس. ومرت لحظات مشحونة بالتوتر، وهو يرى القائد يقرع الجرس بعصبية، ليدخل قائد الوحدة التي كلفت باعتقال الشيخ.

ـ أمرك سيدي.

ـ احجز هذا المسدس باسم الشيخ القسام، حتى نتأكد من أنه لم يستعمله على أراضي الانتداب. وأطلق سراحه الآن، ليذهب إلى بيته.

ثم وهو يتوجه للشيخ بنظرة متوعدة..

- أرجو أن تكون الرسالة قد وصلت شيخ قسام.

نهض الشيخ بإباء، وغادر المكتب بخطوات هادئة، أثارت غيظ القائد، الذي شعر أنه أصبح أمام مشكلة حقيقية اسمها عز الدين القسام.

الهمس يملأ حيفا من أقصاها إلى أقصاها..

شيخ سوري محكوم بالإعدام، يفر من سوريا إلى فلسطين، ويتحول من لاجئ في حيفا، إلى علم من أعلامها. وهاهو يتجرأ على الانتداب، وينبه إلى خطر الهجرة الصهيونية، فيشهر السلاح في المسجد، ويدعو للثورة على هذا الاحتلال الغاشم، ومهاجمة الجنود الإنجليز في الطرقات..

وتحلق الناس حول نار الشتاء، يتبادلون الأحاديث عن الشيخ القسام.. فقد صار حديث أهل حيفا الذين نسجوا حوله الكثير من الحكايات والبطولات، وأكبروا هذا المجاهد، الذي جاء ليلوذ بمدينتهم، فشرفها..

وأقبل الشباب على مسجد الاستقلال.. فاكتظت دروسه بكل حرّ ينحاز إلى رأي القسام وفكره، ويؤيده في منهجه وجرأته.. وذاع صيت الشيخ في فلسطين كلها، فكان الكثيرون يسافرون إلى حيفا لحضور خطبة القسام، الذي صار رمزاً، يلتف حوله كل من يؤمن بمقاومة الظلم والطغيان..

وذات يوم كان الشيخ عز الدين يؤدي صلاة الوتر، وبينما هو يسلم التسليمة الثانية، التقت عيناه بوجهٍ يضحك له، ويردّ عليه بنبرة ودودة، لم يخطئها.. «وعليكم السلام ورحمة اللّٰه وبركاته».

وتعانق الصديقان، والذكريات القديمة تترى من خلال الدموع، لتبعث في الروح نفحات لم تمحها السنون.. وقال الشيخ فرحان السعدي، وهو يتأمل صاحبه بعين تفيض ودّاً وإعجاباً:

ـ هذا أنت يا عز الدين.. كما تركتك من زمان..

وأردف، وهو يشدّ على كتفيه.

ـ إلا أنك قد ازددت شيباً.. لعلك الآن في الأربعين!.

ضحك القسام..

- بل تجاوزتها بقليل.. وأنت أيضاً لم تتغير كثيراً..

ثم مداعباً:

- لكنك مازلت أكبر مني كما كنت يوم التقينا.

ضحك الشيخ فرحان ضحكته الدافئة:

- أنا غادرت الشباب منذ زمن، ولم أعد في عنفوانك الآن.

- دعك من هذا يا شيخ فرحان.. مازلت زينة شباب جنين.. أما زلت تصطاد الغزلان من على ظهر حصانك، وهو في أقصى سرعته؟

- تلك أيام قد خلت، كنا فيهـا متفرغين للهو والمرح، نبحث عن متع الحياة، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال، ودخل النفس ما يعكرها..

- بحثت عنك كثيراً.. وأخيراً حدثنـي أحدهم بأنهم رأوك تلقي خطبة في الأقصى، فقلت لعله صار من سكان القدس!.

- لو جئـت إلى جنين لدلـوك علي، لكنـك على مايبـدو مصر على الإقامة في حيفا، لا تبرحها أبداً..

- أحببت حيفا كثيراً، ولعلي مقصر مع أخواتها، لا سيما جنين.

وانتبه القسام لشاب وسيم ذو لحية سوداء، تبدو عليه المهابة والوقار، يقف خلف الشيخ فرحان، ويراقب الموقف باهتمام، سأل وهو يمد له يده..

- ابنك؟.

تقدم الشاب من الشيخ عز الدين، وصافحه بحرارة..

- بل ابن عمي.. نمر السعدي.. ولولاه لما عرفت أنك هنا..

وقال نمر بنبرة تتدفق لطفاً و وداً..

- نحن نحبك في الله يا شيخ عز الدين.. ونتمنى دعواتك ورضاك.

نظر القسام إلى الشيخ فرحان، وفي عينيه فضول..

ـ لعلنا التقينا من قبل؟

ـ أنا أداوم على خطبك يوم الجمعة، منذ أن رفعت المسدس ودعوت للجهاد.

ابتسم الشيخ عز الدين، وازداد ثقة بما زرعه في نفوس الناس، وهو يرى بعضاً من الحصاد.

وعلق الشيخ فرحان..

ـ نمر شاب سيعجبك إن شاء الله.. وهو أستاذ لغة عربية.. زارني في جنين خصيصاً، ليحدثني عن شيخ حيفا الذي رفع المسدس في خطبة الجمعة، وطالب الناس بالجهاد ضد اليهود والإنجليز، ولمّا عرفت أنك أنت، قررت أن أزورك في مسجدك، الذي صار على كل لسان.

وأردف الشيخ فرحان..

ـ أنا أعرف أن خطيب الجمعة يتكئ على سيف أو عصا، أما أن يشهر مسدساً، فهذه جديدة، لم يقدِم عليها أحد قبلك!.

ضحك الشيخ عزّ الدين:

ـ وأنت قلتها. سأستبدل المسدس بالسيف.. ليبقى رمز الجهاد حاضراً رغم أنف الأعداء.

ودعا الشيخ عز الدين ضيفيه إلى طعام العشاء..

ـ تفضلوا. بسم الله..

قال الشيخ فرحان..

ـ أتذكر تلك الأيام؟..

ـ أيام الجهادية؟

ـ الجهادية التي جمعتنا في غوطة دمشق..

ـ يالها من أيام..

- بنفسي الكسوة.. ما أجملها من أرض، وما أروع أهلها وألطفهم.

وتنهد القسام، وهو يصب الماء لضيفيه..

- إيه.. الله يهدي العصملّي.. عندما كنت جندياً في الشام، كنت مزهواً بأني جندي في الجيش العثماني.. جيش الخلافة العظيمة.. ولكني اكتشفت بعد حرب فاشلة خضناها، أن الخلافة قد تاهت خطاها، وأن السوس قد نخرها، فإذا بها كما تقولون في فلسطين «فستق فاضي»، ولم تلبث أن انهارت، وتركتنا بلا معين!.

قال الشيخ فرحان، وقد طغت على ملامحه سحابة من القلق:

- ما يهمني الآن.. كيف نواجه هؤلاء الغرباء الذين تكالبوا علينا.. المهاجرون اليهود يملؤون جنين..

- ليس لنا إلا أن نتجمع من جديد.. تحت راية الجهاد..

- أنا معك.. ولكن من أين نبدأ..

قال الشيخ نمر:

- الشباب في كل مكان متحمس للجهاد، وهو يبحث عمن يقوده، ويوجه خطاه..

أعجب الشيخ عز الدين بكلمات نمر، وتوسم فيه خيراً، بينما هتف الشيخ فرحان في حماس..

- لنضع أيدينا بأيدي بعض، ونخطط منذ الآن..

ضحك الشيخ عز الدين..

- الحقيقة أني احترت من منكما أكثر شباباً!.. أنت أم ابن عمك..

قال الشيخ فرحان، بنبرة تصنّع فيها الجد:

- أنا أكثر شباباً، لكن نمر أصغر مني بكثير.

ضحكوا لهذه الدعابة. ونهض الشيخ عز الدين..

- سأخبر الأهل ليرتبوا لكما الفراش، لتناما عندي.
- لا تزعج الجماعة، فسوف نمضي الآن..
- ما الذي سيأخذكم إلى جنين في مثل هذه الساعة؟!.
- ومن قال لك أنّا سنذهب إلى جنين؟..

شمله القسام بنظرة متسائلة، سرعان ما استوعبها الشيخ فرحان ضاحكاً:

- أنزل عند ابن عمي نمر هنا في قرية السعدية على أطراف حيفا.
- نمر قريب علينا إذن..
- وسأكون في خدمتك ساعة تريد.

# ٧٨

لم يكن زواج الشيخ حنفي وزواج الشيخ علي الحاج عبيد إلا مناسبة للفرح، جمعت بين شركاء الغربة والكفاح من أبناء جبلة، الذين شردتهم محنة سوريا، فاستقروا في هذه البلاد، واستضاف الأستاذ أمين نور الله في بيته حفل الرجال، بينما أقيم حفل النساء في بيت الشيخ عز الدين، ورغم الحضور القليل الذي استقطبه الفرح، ورغم التواضع الذي تميز به هذا الزفاف المزدوج، إلا أن البهجة كانت طاغية، لا سيما عند الشيخ القسام، الذي ساهم في إنجاز هذا الزواج بين أعز طالبين من طلاب العلم، شاركاه أيام الجهاد في الساحل السوري، ورحلة الغربة في حيفا.

وبينما كان الجميع منهمكون في طعام العشاء، الذي أقيم قبل أن يزفّ الرجال العريسين إلى عش الزوجية، انتحى الشيخ عز الدين بالأستاذ رشيد الحاجّ إبراهيم:

- الإنجليز ما زالوا يراقبوني ياأستاذ رشيد، ويرسلون خلفي العيون..
- هذا متوقع، لكنهم يهابونك في نفس الوقت.
- يهابوني؟. أنت تمزح.
- المهم عندهم ألّا تحمل ضدهم السلاح.
- كنت أتمنى لو أن هذا ممكن الآن، لزلزلت الأرض تحت أقدامهم..
- هذه بريطانيا ياشيخ عز الدين.. مواجهتها تحتاج إلى استعداد طويل.
- ولكن كيف لي أن أتحرك، وعيون الإنجليز تتبعني في كل مكان!.

قال الأستاذ رشيد:

- يجب أن نفكر في طريقة تغطي حركتك، دون أن تلفت الأنظار إلى ما نخطط له.

- طريقة مثل ماذا؟

- شيء يسمح لك بالحركة ضمن القانون.

- مأذون مثلاً؟..

- فكرة معقولة.. في القانون من حق المأذون أن يدخل أي بيت يدعى إليه، وأن يـزور أي حي أو قرية تقـع ضمن المنطقة المصـرح له بالعمل فيها.

قال الشيخ عز الدين:

- ثمة فكرة أخرى كنا قد تحدثنا بها من قبل، وأراها مفيدة..

تفكّر الأستاذ رشيد..

- تقصد؟..

- أجل، لنكتب للدكتور عبد الحميد سـعيد بأنا موافقـون على افتتاح فرع لجمعية الشبان المسلمين في حيفا.

- وحسب قانون الجمعيات، نحن نتحرك في إطار الجمعية.

- ونحشد شتات الشباب الثائر، الذي يبحث عن دور، ويتطلع لمواجهة هذا الطغيان.

- على بركة الله.

اندلعت الثورة السورية الكبرى، فزلزلت الأرض تحت أقدام الفرنسيين، وازدهرت الآمال بفجر جديد يشرق على سوريا الجريحة، يحررها من قهر فرنسا واحتلالها الغاشم.

وتعلقت قلوب الرجال بهذا الأمل، فاستغرقتهم أخبار الأحداث والمعارك التي حملها الزوار والتجار والقادمون إلى حيفا، واشتدت الثورة، فتنادى رجال فلسطين لجمع التبرعات للثوار، ورغم أن الإنجليز راقبوا هذا التعاطف وهذه الجهود بقلق، إلا أنهم فضّلوا أن يغضّوا الطرف على مضض، تفادياً للاصطدام بالمشاعر الملتهبة، التي تأججت في فلسطين، تفاعلاً وتعاطفاً مع الثورة السورية العارمة، ضد احتلال ليسوا على غرام بحكومته على أية حال..

وبلغت الجهود ذروتها مع جولة المفتي على بلدان فلسطين، يحرض رجالها على نصرة إخوانهم في دمشق، فانتصار السوريين في الشمال قوة لهم في الجنوب، وما إن وصل المفتي إلى حيفا، حتى عقد اجتماعاً مع وجهائها، وكان الشيخ عز الدين القسام والشيخ كامل القصاب في مقدمة المدعوّين، والتفت المفتي إلى شيخ حيفا الذي نما إليه تألقُّ نجمه..

- بوركت يا شيخ عز الدين، وبوركت جهودك الخيّرة في نشر الوعي والعلم الشرعي في أوساط الناس.. أخبارك الطيبة تملؤنا فخراً وإكباراً..

ندّت عن الشيخ القسام ابتسامة خجولة، وشت بتواضعه..

- هذا واجبي. واجب العالم أينما كان..

- لعلك متشوق للجهاد ضد أعدائك القدامى من الفرنسيين..

ـ الفرنسيون لا يختلفون عن الإنجليز في حقيقتهم.. كلهم يثأرون من هذه الأمة التي هزمتهم يوماً، لكنهم حشدوا في هذه المرة كل أحقاد الدنيا، وجلبوا اليهود إلى أطهر أرض، ليدنّسوها، والبقية أنت تعرفها..

تنهد المفتي في ألم..

ـ صدقت يا شيخ عز الدين.. التحدي هذه المرة خطير وكبير.. نحن بحاجة لكل إخواننا المسلمين ليقفوا معنا.. لهذا تجدني متحمساً لنصرة إخواننا في الشام، حتى يكونوا لنا عوناً في مواجهة الخطر الكبير الذي يستهدف فلسطين والقدس.

وسأل الشيخ محمد مراد المفتي عن جولته:

ـ الحمد لله.. لقد أثبتَ أهل فلسطين حماساً وحرصاً على نصرة إخوانهم في سوريا، وكأنهم يؤكدون لهؤلاء الذين يسعون لتقسيم سوريا، أن هذا شعب واحد لا تفصل بينه حدود أو سدود.

وتابع الشيخ أمين وهو يهز رأسه في أسف:

ـ لكن ما أدمى قلبي وحزّ في نفسي، أنّ اليهود بدؤوا يغيرون وجه البلاد.. أينما ذهبت وجدتهم في وجهك زرافات ووحداناً، والآن يتحدثون عن موجه هجرة ضخمة قادمة من بولندا..

قال الشيخ عز الدين، وقد استفزّه الخبر:

ـ لا بد من موقف صارم يضع لهذا الطوفان حداً.

ـ عندما تكون ضعيفاً، قد تكون السياسة أجدى في تحصيل الحقوق.. لو انتزعنا من الإنجليز وعداً بالحفاظ على حقوق العرب في هذه البلاد، لأوقفنا تدفق المهاجرين اليهود بعض الوقت، ريثما نحشد للأمر ما يستحقه.

علق الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم:

ـ لكن الإنجليز ليس لهم وعد أو أمان، وقد جربهم الشريف حسين

فباعــوه، وجربهم الملك فيصل فخذلوه، وهم يمكّنــون لليهود علناً بالقانون والقوة معاً..

قال الشيخ أمين بنبرة واثقة:

ـ يا إخوان يجب أن نقلق من اليهود أكثر، فالإنجليز قوة انتداب سترحل يوماً، لكن اليهودي الذي يشــتري الأرض ويزرعهــا، ويتزوج وينجب هنا، لن نســتطيع أن نطرده منها عندما يعشّش في البلد، ولديه كوشان الأرض، وحق التصويت في البلدية، وفي يده مصالح التجارة والزراعة والصناعة..

تساءل الشيخ عز الدين:

ـ وهل سننتظر حتى تأتي تلك اللحظة؟.

ـ نحن نجتهد ياشيخ عز الدين، ولكن التحدي أكبر منّا..

علق الشيخ كامل القصاب:

- الإنجليز هم الذين يمنحون الكوشــان ويشــرّعونه لليهودي الغريب، ويمنحونه حق التصويــت في البلديات، ويعطونه ما لا يســتحق من حقوق.. هذه قوانين باطلة، ولا يجوز أن نعترف بها..

ـ مع ذلك أرى ألّا نكثر من استفزاز الإنجليز في هذه المرحلة، حتى لا نجعــل منهم جبهة واحــدة مع اليهود.. لعــلَّ الأهم الآن أن نشــجع أهل البلاد علــى رفض عملية بيــع الأراضي، وقــد أصدرتُ فتوى تحــرّم ذلك، وتصلنــي أنباء طيبة عــن جهودكم هنا فــي حيفا في هذا الســبيل، وجهود الإخوان في عكا ويافا وصفد وغيرها..

قال الشيخ عز الدين في حماس:

ـ لكن الناس مساكين ياشيخ أمين.. قلّما نسمع عن فلّاح باع أرضه.. الذين يبيعون هم أولئك الملاك الكبار، الذين أعماهم مال اليهود، فألغوا ضمائرهم، وراحوا يبيعون الأراضي بالجملة.

قال المفتي، وهو سعيد بهذا الحماس:

ـ المشـكلة أن أكثر هؤلاء الملاك، يقيمون بعيداً في بيروت والشام.. وليس لنا عليهم سلطان.

تدخل الأستاذ رشيد:

ـ ليت الأمر وقف عند سماسـرة الأراضي، لقلنا إغراء بالمال وشراء للذمم.. لكن سلطة الانتداب ـ كما تعرف ـ توزع الأراضي التي آلت لها بعد سقوط الخلافة على اليهود..

ـ أنا معكم يا إخوان. لسـنا سـاكتين، لكن دلّوني علـى طريق غير هذا.. عليهم من الله مايستحقون.

قال الشيخ عز الدين بنبرة بدا فيها شيء من اللوم..

ـ لن يوقف الدعاء هذه الهجرة الآثمة بعد اليوم يا شيخ أمين.

ران صمت. كانت ملاحظة قاسية لم يتوقعها الحاضرون من الشيخ عز الدين، وخشي الأستاذ رشـيد الحاج إبراهيم صديق الشيخ أمين، أن يفهم الكلام على غير ما أراده القسـام، الذي يبدو أن الحماس لم يسـعفه في اختيار كلماته، قال مستدركاً، قبل أن يذهب خيال الشيخ أمين بعيداً:

ـ الشـيخ عز الدين يقصد أن الهجرة لن تتوقف، مالم تجد مقاومة حقيقية بكل ما يستطاع..

ابتسـم الشـيخ أمين.. كان ألمعياً بحيث اسـتوعب اندفاعة الشيخ عز الدين، ومحاولة الأستاذ رشيد لتهذيب ما أوحت به كلمات القسام من غمز غير مقصـود، بمنطق أراده هادئاً وعاقلاً في مجلس مفتوح، حتى لا يسـجل عليه الإنجليـز مواقف لا يريد أن تربك جهـوده الآن، وهو يحاول تحييدهم في هذا الصراع مع المدّ الصهيوني العارم. قال بنبرة هادئة لا تنمّ عن أي انزعاج قد يكون الحاضرون توقعوه:

ـ ما يثلج الصدر أن ترى الإخوان في الشـام يحملون همّ فلسـطين، مثلما نحمل اليوم همّ ثورتهم في سـوريا، ونحشـد الجهود لنصرتها.. هذا يؤكد وحدة سـوريا التي أردناها كاملة، عندما التقينا في المؤتمر السوري العام قبل سنوات، وبايعنا الملك فيصل ملكاً عليها، لكنه للأسف لم يصمد أمام سطوة غورو، فانسحب مبكراً، وتركنا نقلع شوكنا بأيدينا.

قال الشـيخ عز الدين، فـي محاولة لتبديـد ما ألقت بـه كلماته من ظلال، تجاوزها الشيخ أمين بدماثته وحكمته:

ـ أردت أن أقـول أن المهاجرين اليهود لو فقـدوا الأمن فوق أرضنا، لتردّد من هاجر في البقاء، ولتردّد من لم يهاجر قبل أن يحزم حقائبه!.

هزّ الشيخ أمين رأسه في مرارة.. كان يعرف هذا وأكثر، لكنه يشعر أن يديه مكبلتان، وهمس بنبرة أشبه بالتفويض، وهو يتأمّل الوجوه، ويختبر وقع كلماته عليها:

ـ بوركت يا شـيخ عز الديـن.. واعلم أني قد سـمعت عـن جهودك، والتفاف الشـباب حولك، فامض لما أردت، ولك منا كل الدعم والعرفان.. ولكن سدّد وقارب، فليست الرياح دائماً كما تشتهي السفن..

على أن الشـيخ أمين، اسـتدرك قائلاً، وهو يتحدث بنبرة مرحة، وكأنه يروي طرفة نادرة:

ـ سألني شاب بعد خطبة الجمعة في المسجد الأقصى، كنت قد دعوت فيها إلى تأسـيس فرق للكشافة، وتشجيع شباب فلسـطين للانضمام إليها، قال: ما هو حكم نظام الكشافة في الإسلام يا شيخي، وهل من الحكمة أن نقلد الإنجليز الذين اخترعوا نظام الكشافة؟..

قلت له: يابني، هل تعرف ماهو نظام الكشافة؟..

قال: نعم. نظام ابتكره قائد إنكليـزي عندما كان محاصراً في هولندا،

لتنظيم الحراسة وتدريب جنوده على الدفاع عن النفس.

قلت له: وهل هذا يتعارض مع الإسلام؟.

قال: لا.

قلت له: ماضرّك لوكان اسم هذا النظام الكشافة أو غيره؟..

قال: ولكنه تقليد للإنكليز وتقليد الكفار حرام.

قلت له: يا بنـــي.. لماذا لا تقول أن هذا النظــام فيه حكمة، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها؟.

قال: لكنّا اليوم لسنا في حصار، حتى نلجأ إلى مثل هذا النظام!.

وتابع الشيخ أمين ضاحكاً:

- قلت له في هذه معك حق، والتفتُّ إلى من حولي، وسألت:
- هل نحن في حالة حصار يا إخوان؟. فانفجروا ضاحكين.

ضج المجلس بالضحك، ونظر الجميع إلى المفتي بودّ وإعجاب، واطمأن الشيخ عز الدين لما رمى إليه الشيخ أمين من تلميح ذكي، وأدرك الجميع أن المفتي يدعو للإعداد، ويشجع الشباب على الاستعداد العسكري للمواجهة القادمة، من خلال نظام الكشافة الذي راجَ مؤخراً في العالم.

وتبادل الشيخ عز الدين ابتسامة راضية مع صديقه الأستاذ رشيد، لقد قال المفتي بحكمة الدبلوماسي مايريد، دون أن يتبنى فعلاً ما يقول!.

وسأل سائل:

- كيف ستوصلون الأموال للثوار في سوريا؟

التفت القســام إلى رجــل المهمات الصعبــة، فالتقت عنــده الأنظار، وضحك الحاج أمين الحسيني:

- ليس لها إلاك يا شيخ كامل.

اغرورقت عيناه.. كان يتطلع لشيء يفعله من أجل الشام.

# ٨٠

كان اللقاء حاشـداً للاحتفال بالإعلان عن افتتاح فرع جمعية الشـبان المسـلمين في حيفا، وتكلم الدكتور عبد الحميد سعيد، ممثل رئيس جماعة الشباب المسـلمين في مصر عن رسالة الحركة وأهدافها في حشد الشباب المسلم، وتنمية طاقاته في مجالات الفكر والثقافة والرياضة، وملء فراغهم بالأنشطة المفيدة، وحمايتهم من الفساد والضياع.

وقال أن جمعية الشبان المسـلمين التي لاقت إقبالاً بين جموع الشباب المصـري، رأت أن تنقل تجربتها إلـى البلاد العربية، تعبيـراً عن الوحدة التي تجمع الشباب العرب على قيم الإسلام والعروبة الأصيلة..

وتكلم الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم، فرحب بالأستاذ عبد الحميد سعيد في فلسطين، وبيّن أن الشباب الفلسطيني الذي يعتز بانتمائه للوطن السوري الذي يجـري تمزيقه الآن، ويعتزّ بانتمائه العربي والإسـلامي الذي يشـكل هويته الحضارية، يحتاج إلى جمعية كجمعية الشـبان المسـلمين لتستوعب طاقاته، وشكر الجمعية الأم لموافقتها على افتتاح فرع لها في فلسطين.

وأضاف: على أن شـباب فلسـطين يواجه اليـوم تحدياً خاصاً جـرّاء تنامي الهجرة اليهودية، وحذر مـن أن اليهود المهاجرين يغلب عليهـم أنهم جميعاً في سـن الشـباب، من القادرين علـى العمل والإنتـاج، ومن الجنسـين، وقد بدؤوا يزاحمون الشـباب العرب في فـرص العمل، عدا عن فقدان الكثير من الشـباب لعملهم في أراضيهم، بعد أن اشتراها اليهود وطردوهم منها عنوة.

وجاء دور الشـيخ عز الدين القسـام، فابتـدأ كلمته مـن حيث انتهى الأسـتاذ رشـيد في تعجبه من شـبوبية اليهود الأجانب، الذين تقذف بهم شواطئ يافا وحيفا كل يوم، فقال:

ـ أوافق أخي الأستاذ رشـيد فيما قال، وأضيف بأن هؤلاء المهاجرين فعلاً هم من القادرين على العمل والإنتاج و..

وصمتَ، وهو يستعرض الحضور مـن المنصّة، وكأنـه ينبههم إلى ما سيقول:

ـ والحرب أيضاً.

واستدرك ساخراً:

ـ ورغـم أني لـن أضعهم في ذمتـي اليـوم، حتى لا أجرح مشـاعر المندوب السامي..

ضحك الحاضرون، بينما تابع وهو يميل للجدّ:

ـ لكني أعتقد أن احتشـاد هذه الألوف المؤلفة من الشباب اليهودي القادم من بلاد بعيدة على أرض فلسطين، وانهماكهم في بناء المستعمرات، ومزاحمة شـبابنا في الزراعـة والتجـارة، وتكاثرهم في جو مـن الحماية والدعـم المالي والسياسـي مـن حلفائهـم الإنجليـز، ومنحهم الجنسـية الفلسـطينية بعد سـنتين حسـب قوانين الانتداب الذي فُـرض علينا، ولم نُستشـر فيه.. كلّ هذا، يعـدّ إعلان حربٍ على فلسـطين وسـوريا والعرب والمسلمين.

والتهب الحفل بالتصفيق لجرأة الشـيخ عز الدين وكلماته، التي مسّت المخاوف التي تشغل وجدان الجميع إزاء هذا التمدد اليهودي، الذي تمادى إلى درجة تدعو للغضب..

وتابع الشيخ بنبرة زادت الحفل التهاباً..

ـ إن اليهود (الأجانب) ـ بين قوسين ـ كما أحب أن أميزهم عن اليهود الأصليين الذين نشأوا معنا، ولهم مالنا وعليهم ماعلينا، كما أوصى الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.. صلّوا عليه..

ضجت القاعة بالصلاة والسلام على النبي الكريم..

ـ هــؤلاء المهاجرون الأغــراب، الذين ســمّمَت الصهيونيــة عقولهم، وأقنعتهم بأن لهم حقّ ديني في فلســطين، يتمتعون اليوم بدعم وحماية من الانتــداب البريطاني، ليس لأنّ الانكليــز مغرمون باليهود، ولا الفرنســيين الذين أيدوا قــرار إقامة وطن قومي لهم في فلســطين، بــل لأنّ الدولتين الظالمتيــن أرادتا أن تزرعا فــي أرضكم وطناً غريباً لقــوم غرباء، يثيرون المشاكل والأحقاد في بلاد الشــام، حتى لا تقوم لها قائمة في المستقبل.. أتدرون لماذا؟

وران صمت بين الشــباب، وهــم يتابعون هذه المعانــي الجديدة، التي تكشف عن جوهر التحدّي الذي تعيشه البلاد، ويتأملون في كيدٍ يتجاوز بيع أرضٍ ليهودي مدجج بالمال..

وتابع القسّام يجيب عن سؤاله..

ـ لأن بلاد الشام تشكّل جبهة الشــرق الصامدة عبر التاريخ.. دحرت الرومان في اليرموك، وقادت جيــوش الفتح أيام الأمويين، حتى وصلت إلى الأندلس، فأقامت فيها أزهى حضارة، وهزمــت حملات أوربا الصليبية التي تكالبت على الأمة، ومرغت أنوف الفرنجة فــي حطين.. لذلك جاؤوا اليوم ينتقمون.. وجاؤوا معهم بهؤلاء المهاجرين ليزرعوهم في فلســطيننا، تمهيداً لإقامة وطن حرام.

ثم بنبرة تفيض بالغضب..

ـ لقد آن لشــباب هــذه الأمة أن يوقفوا هــذا العدوان، وهــذا التحدي الســافر الذي يســتخفّ بعقولنا وكرامتنا.. هذه هي الرســالة الأولى للشبان المسلمين في فلســطين اليوم.. عليهم أن يصرخوا في وجه الغزاة بملء فمهم وإرادتهم «فلسطين ليست للبيع».. «فلسطين ليست للبيع»..

وضجت القاعة بالهتاف، وراح الشبان يرددون كلمات القسام بحماس.. «فلسطين ليست للبيع».. فكانت أبلغ من كل ما يمكن أن يقال، وجرت الانتخابات، فأجمعت الأصوات على اختيار الشيخ عز الدين القسام رئيساً لجمعية الشبان المسلمين في حيفا.

وبدأت مرحلة جديدة من جهاد القسام، الذي كان يصغي لضمير فلسطين، ويعرف كيف يحشد القلوب حوله لهدف كبير.

- الشيخ كامل القصاب في حيفا.

قطب الشيخ عز الدين، وهو يصغي للشيخ محمد الحنفي..

- أين رأيته؟.

- قابلته قرب بيته في الحليصة، وهو يترجل من الحنطور الذي حمله من محطة القطار.

- قال لك شيئاً؟.

- يقرئك السلام، ويبلغك أنه سيرتاح قليلاً، ثم يأتي ليصلي العصر هنا في الاستقلال..

- سألتَهُ عن الأخبار؟.

- قال اسألوا الله الفرج.

- أخشى أن الثورة قد أغمدت سيوفها!.

وأنهى الشيخ تلاوته، ثم غادر المسجد، وهو واجم.. واستقبلته زوجته بالترحاب، وقد أعدت له الطعام كعادته بعد صلاة الظهر. جلس إلى مائدة الغداء وهو ساهم حزين، لكنه لم يستطع أن يضع الطعام في فمه..

- ما لك لا تأكل؟

قال بنبرة شابها الأسى:

- كنت أظن أن ساعة الفرنسيين قد حانت..

- هل من أخبار؟

- كان يجب أن أذهب إلى الشيخ كامل من فوري لأعرف ما آلت إليه الأمور..

ولم يستطع صبراً. ترك أهله يتابعون الطعام، وتوجه نحو بيت الشيخ

كامل، لكنه تردد.. «قد يكون نائماً الآن.. ولم يبق لأذان العصر الكثير».. وقفل عائداً للمسجد.. كان المسجد فارغاً إلا من عابر سبيل، ضاق به وقته، فجاء يصلي.. وراح الشيخ القسام ينتظر أذان العصر بفارغ الصبر..

وجاء المؤذن قبيل العصر، فوجد القسام قد سبقه على غير العادة في مثل هذا الوقت، الذي غالباً ما يخصّ به أسرته، وألفاه يذرع المسجد جيئةً وذهاباً، وهو غارق في التأمل والوجوم!..

وابتدره القسام فجأة:

- حان الأذان؟

- ما زال هناك بعض الوقت..

- أسرع ما استطعت!..

ابتسم المؤذن ولم ينبس. يسرع في ماذا؟.. العصر هو العصر!.

وأدرك أن ثمة مايشغل الشيخ هذا العصر، وماهي إلا دقائق حتى انطلق الأذان، فاتجه القسام إلى باب المسجد يرقب القادمين.. «أين أنت ياشيخ كامل؟»

وحان موعد صلاة الجماعة، والشيخ عز الدين واقف لدى الباب، فاقترب منه المؤذن، وهو مشفق عليه..

- هل نقيم الصلاة؟

- آه.. نعم، نعم.. و

وما لبث أن استدرك، وقد رأى الشيخ كامل قادماً مع الشيخ محمد مراد..

- تريث قليلاً.

وأكبر فيه الشيخ كامل أن يستقبله لدى باب المسجد، وتعانق الرجلان.. واستعجله القسام، وهو يسلّم على الشيخ مراد.

- بشّر يا شيخ كامل..

- الطريق ما زال طويلاً يا عز الدين..
- ماذا تقصد؟.
- أعداؤنا ليسوا سهلين كما تخيل البعض.
- لا تقل لي أن الثورة قد انتهت.
- لنُصَلِّ العصر، ثم نتكلم.

وبعد الصلاة انتحى الشيخ عز الدين بالشيخ كامل القصاب والشيخ مراد..

- طمنّي يا شيخ كامل؟..
- للأسف.. قوة الفرنساوي العاتية كسرت في النهاية شوكة المجاهدين..
- لا حول ولا قوة إلا بالله.
- الرجال فعلوا ما بوسعهم.. ولكن..

وعلق الشيخ محمد مراد:

- قاتلهم الله.. فرنسا وبريطانيا واليهود تقاسموا بلاد الشام، وأذلّوها.

قال الشيخ كامل:

- المشكلة كانت في قلة السلاح..

ثم التفت إلى الشيخ مراد:

- ومع هذا فالشكر لأهل فلسطين على ما قدموه للثورة السورية من أموال وتبرعات..

قال الشيخ عز الدين، والألم يعتصر فؤاده:

- الطريق على ما يبدو طويلٌ جداً.
- وعلينا أن نستعد أكثر..
- لكن الثورة يجب أن تستمر، مهما كان الفرنساوي متفوقاً علينا بالسلاح.

- هذا ماتعاهد عليه رجال ســوريا، ولكن لا تــدري متى ينهضون من جديد.

واستدرك القصاب متسائلاً:

- ما أخباركم هنا؟

- كلانا في الهمّ شام..

قال الشيخ مراد..

- كنت عند الحاج أمين الحسيني منذ أسبوع في القدس، وأخبرني أن اليهود مازالوا يتجرؤون على المقدسات بين الحين والحين، ويعتدون على حرمة حائط البــراق.. إنهم يحاولون أن يحتلوا ســاحة البراق بأية وسيلة.

هز الشيخ كامل رأسه في قلق:

- هذا التحدي المتكــرر يعني أنهم يزدادون قوة.. يريدون أن يفرضوا وجودهم.

- وبريطانيا تتفرج.. وكأنها تشجعهم على التمادي!.

ونهض الشــيخ عز الدين، مصراً أن يصحبهما إلى المنزل، فاســتبطأه الشيخ كامل:

- نســيت أن أقول لك.. أخوك فخر الدين يقرئك السلام، ويقول لك أن الوالدة بخير، وقد يزورانك في حيفا عما قريب.

## ٨٢

كانوا أربعة وهو خامسهم.. أبو إبراهيم، ومحمود زعرورة، والعبد قاسم، ومحمد صالح الحمد..

وكان الجو في مرج بني عامر غارق في سـكون مهيب، ورائحة الطبيعة قد جمعت عبق الأزهار والنباتات والأشـجار، فصنعـت منه عطرها البديع، ليخلع على المكان سحره الخاص..

وراحـوا يخوضون في الظـلام، في طريقهـم نحو خميلـة قريبة، تلوح كسـفينة هائلة وسـط بحر من حقول القمح، الذي نضج، وأمسى قريباً من الحصاد.

وتحركت النسـائم، فأرسلت السـنابل حفيفاً ناعماً، وتمايلت الأشجار، فوشوشت للرجال بأنسٍ سكب في وجدانهم إحساساً فريداً.

وتوقف الشـيخ عز الدين برهة يتأمل المكان، الذي حولته العتمة إلى لوحة فاتنة، يضيء حلكتها بدرٌ منيرٌ يسـعى نحو الاكتمـال، فيلقي بخيوطه الزرقاء فوق معالمها، لتكشـف بعض فتنتها الخفيّـة، التي كانت تتألق بها طيلة النهار..

وأشار القسـام إلى شـجرة تين قريبة، فجلسـوا تحتها، وهم يتأملون الآفاق الممتدة على ضوء القمر..

وفاجأهم الشيخ بسؤال:

ـ أتسمعون ما أسمع؟.

تبادل الرجال نظرة!..

لا يسمعون سـوى صوت الطبيعة الخلابة، وهي تأوي إلى النوم، لتطلق حديث كائناتها، التي كانت متوارية خلف ضوضاء النهار!.

قال يفكّ لغز الكلام الخفي الذي سمعه، ولم يدركوه..

ـ لو أصغيتم حقاً، لسمعتم صهيل الخيل، وصليل السيوف.. وصوت التكبير وهو يهز المكان.. صوت المجاهدين وهم يخوضون معركة التحرير ضد جيوش المغول، ويدحرونهم هنا على هذه الأرض.. في معركة عين جالوت.. ولعلي أسمع قريباً من هنا على بُعدِ سويعات صهيل خيل صلاح الدين، وهي تتوجه إلى طبريا، ليخوض فرسانها معركة حطين، ويحرروا القدس من الصليبيين..

تبادل الرجال نظرة باسمة.. يعرفون شيخهم خطيباً مفوهاً، لكنها المرة الأولى التي يجدون فيه أديباً بارعاً، يستنطق المكان، ويصغي عبر الزمان إلى صوت التاريخ!.

وتابع القسام حديثه بنبرة واثقة، وروح مترعة باليقين..

ـ وها هم الغزاة يعودون اليوم، وهم أكثر مكراً وقوة، وها هي فلسطين تسقط بين براثنهم، ولا سبيل للخلاص إلا بالجهاد والاستشهاد، فمن يبايعني على الموت؟..

كان وقع كلمات القسام في نفوس الرجال، كوقع الماء البارد على النفس التي أضناها الظمأ، حتى إذا ما ابتلت العروق، بُعثت فيها الروح من جديد..

وتعاهدوا على تشكيل عصبة تتولى الإعداد للجهاد، وحشد الرجال والسلاح ليوم لا بدّ قادم، عندما يأذن اللّه للذين يهدد اليهود والإنجليز حاضرهم ومستقبلهم بأنهم ظلموا، ويصبح الجهاد فرض عين لا يتخلف عنه إلا متخاذل أو جبان.

«ولكن يا إخوان»..

تابع الشيخ وهو يتحدث بنبرة أقرب إلى الهمس:

- «أوصيكـم ونفسـي أولاً بالكتمـان.. ثـم الكتمان... فعدونـا ماكر.. الإنجليز الذين تعرفون، حريصون على مراقبة كل حر، ليستبقوا أي حركة، ويحبطوها، قبـل أن تفاجئهم.. وهم هنـا ليمكّنوا لليهود، فـي خطة خبيثة لزرعهم في قلب الشـام، أرض الرباط التي بارك الله فيها حول المسـجد الأقصى..

همس العبد قاسم:

- خسئوا والله..

تابع الشيخ:

- واليهود يسـعون في هذه البـلاد ليقيموا وطناً، وأخشـى أن هؤلاء المهاجرين طلائع جيش يتشكل الآن، ليحمي مشروعهم.. ونحن قلة.. لذلك أريد الرجل منّا بألف.. فلنبْنِ عصبتَنا بصمت.. ولا نضمّ إليها إلاّ المخلص والكتوم.. فإذا حانت السـاعة كان كل رجل منّا بأمّة، وكل مقاتل منّا قائد، يستطيع أن يحرك الناس، ويحشدهم ضد هذا الحلف الخبيث بين الإنجليز واليهود..

وتساءل محمد صالح..

- لكنك يا شـيخ عز الدين تستطيع أن تحشـد المئات، فما معنى أن تختارنا وحدنا؟!.

ابتسم الشيخ.

- لستم وحدكم!.

- من؟.

- الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة..

وأضاف بلهجة واثقة..

- سـوف تجد عما قريـب الكثيرين ممـن تعرف أو لا تعـرف، وهم

يتحركون بنفس الاتجـاه، وقد يقومون بمهمات تشـبه ما قـد يطلب منك، فاتركهـم يمضون لما أمـروا به، ولا تسـألهم عما يقومون بـه، وادع لهم بالسداد، إلا أن يكونوا في محنة، فمدّ لهم يد العون، في حدود ما يطلبونه منك.

وتابع الشيخ..

ـ منذ اليوم سـيكون أبو إبراهيم قائداً لكم، وعندمـا تحتاجون إليّ، أرسلوا لي عن طريق أخيكم محمود زعرورة.

ـ نحتاج إلى بندقية للتدريب.

ـ يجمع كل واحد منا مبلغاً صغيراً ليشـارك فـي الجهاد بماله، ومن زاد فله الأجر والثواب، واتركوا الباقي عليّ.

وانفـض الجمع وقد عرف كل واحد دوره، واتفقـوا أن يبقوا تحركاتهم بعيداً عن الشـيخ، حتى يتابع دوره في قيادة الحركة الوليدة، والحشد لها من خلال جامع الاستقلال وجمعية الشبان المسلمين.

بعد كل فجر كان الشـيخ عز الدين يخطط لرحلة جديدة.. يزور فيها قريـة أو بلـدة أو مدينة.. يدعو الشـباب للانضمـام إلى جمعية الشـبّان المسلمين، ولا يلبث أن يعود بعد أسابيع ليدشن فرعاً للجمعية هناك، وخلال هذه اللقاءات والاجتماعات كان القسـام يبشر بمسـتقبل ليس له إلا شباب فلسـطين، الذين يتدفقون حبّاً وحماسـةً لوطنهم وأمتهم، واستعداداً لفدائه والدفاع عنه بالمهج والأرواح..

وعندما كان الشـباب يسـألونه عن الخطوة التالية.. كان يحكي لهم كيف بدأ النبي صلى الله وحيداً، وعاد إلى مكة فاتحاً ومنصوراً، ويوصيهم دائماً أن يقرؤوا ما بين السطور، وهم أذكى من أن يخطئوا الطريق..

وفي كل بلدة أو قرية يزورها كان يتأمل في هؤلاء الشباب، فيختار من هم أكثر إخلاصـاً وانضباطاً، ويقربهـم منه، ويعتنـي بتوجيههم وتثقيفهم، ليكونوا يوماً رجال الغد القادم..

واستهلكت نشاطات الشبان المسـلمين جلّ وقته، فكانت أسرته أول من افتقده، وشعر بوطأة مشاغله الجديدة.

واليوم عاد الشيخ من صفّورية، بعد أن شارك في الاحتفال، الذي أقامه الشبان المسـلمين بمناسـبة افتتاح فرع الجمعية هناك، فاستغرق ذلك كلّ النهار، وهاهو يعود أدراجه قريباً من منتصف الليل..

أغلق البـاب بهدوء، ومضى إلى زوجته، فأيقظهـا بلطف، وحيّاها بنبرة تفيض ودّاً واعتذاراً..

نظرت إليه بعينين ذابلتين، وهمسـت تردّ التحية، وهي تبتسم ابتسامة

وادعة، تنمّ عن تلك الطيبة والسماحة التي طالما أحبهما فيها، فقال، وهو يتأمل عشاءه الذي انتظر على ما يبدو طويلاً:

- اعذريني يا أم محمد، لقد تأخرت مضطراً.

- لا بأس.. المهم أنت بخير؟

- الحمد لله.. كان احتفالاً رائعاً.. شارك فيه مئات الشباب من الناصرة وحيفا والقرى المجاورة، شباب مثل الورد يا أمينة.. كله متحمس لدينه وأمته..

- لكنك تأخرتَ كثيراً.

صمت ولم يرد. فلم تلحّ في معرفة سبب التأخير، إذ اعتادت شغف زوجها بالكتمان، وسألته:

- هل أنت مطمئن إلى ما تخطط له؟

- أنا عقلت، والباقي على الله.

- نعم الاتّكال.

وأسرعت لتسخن له حساء العدس الذي كان قد برد..

وأراد الشيخ أن يستوقفها ليقول لها بأنه قد تناول العشاء حيث كان، لكنه شعر بأنه سيجرح شعورها بعد كل هذا الانتظار، فآثر على غير العادة أن يتناول عشاءين في يوم واحد، حتى لا يخذل شريكة عمره، التي ما ضنّت عليه يوماً بالصبر أو الانتظار..

وعادت وهي تحمل الإناء بحذر:

- احزر من جاء لزيارتنا اليوم.

نظر إليها الشيخ وهو يخمّن، قالت وهي تضع الإناء أمامه، وتقطع له ليمونة ريانة، قطفتها له من شجرة الليمون الوحيدة التي ترعاها في الدار..

- لن تصدق..

- من؟

- تلميذتك التي عقدت قرانها عند قدومك لحيفا..

ابتسم الشيخ عز الدين..

- آمنة؟.

- هي.

- المسكينة تريد أن تنجب، ولم توفق حتى الآن..

- طلبت أن أتوسط لديك لتدعو لها.. يراودها وسواس بأنها قد أغضبت الله في شيء، فعاقبها بعدم الإنجاب.

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

- دللتُها على داية مشهورة.

قال الشيخ عز الدين، وهو يعصر مزيداً من الليمون فوق حساء العدس الذي يحبه.

- حسناً فعلتِ. ربنا يكرمها وتنجب الذرية الصالحة.

وضحكت، أم محمد فجأة..

- لو تعلم ماذا قالت لي المسكينة؟

- ماذا؟!

- قالت أشتهي ولداً صالحاً يكون مجاهداً كالشيخ القسام، ونذرت إن رزقها الله بولد أن تسميه عز الدين!.

تأثر بكلام الفتاة، وشعر بأنه أمام امتحان خطير..

- لو تعلمين كم أشعر بالمسؤولية.. محبة الناس لي، وثقتهم بي، تدفعني للعمل أكثر في سبيل خدمة الناس..

نظرت إليه زوجته في إكبار..

لعلّ هذا ماجعلها تعشقه، وتصبر عليه..

ازدادت شهرة القســام في فلسطين، وأصبح مســجد الاستقلال مقصد أهل العلم وطلاب الثورة، والباحثين عن صوت يعبر عما يجول في خاطرهم مــن قلق وغضب وثورة.. صوت يســمّي الأشــياء بأســمائها، ويصــف الداء والدواء، يشحذ العزائم، ويحشد الجهود حول وطن مهدد..

وتحول مسجد الاســتقلال إلى خلية نحل.. درس أو وفد بعد كل صلاة، وزيارات لا تتوقف لشــباب يتوقون للانفراد بالشــيخ، يســتفتونه في التمرد على ســلطة الانتداب، واســتخدام الســلاح من أجل وقف تدفق المهاجرين اليهود، وتهديد مستعمراتهم التي تنمو وتكبر..

واليوم كان درس القســام عن أحكام الشــهيد في الإســلام، وبعد أن انتهى تقدم من الشــيخ شــاب أنيق، تبدو عليه ســيماء النعمة، فألقى عليه السلام، وصافحه بحرارة..

شــدّ الشــيخ على يده، وهو يرقب أنــداء الدمع التي كانــت تتلألأ في مقلتيه، وكان قد لاحظ مدى تفاعله مع كلماته أثناء الدرس.

قال الشاب بنبرة واثقة:

- ادع لي يا شيخنا أن أكتب في الشهداء.

هزت كلمات الشــاب روح القســام من الأعمــاق، تأمّل هذه الوســامة، وأعجب بهذا التوق الذي يبديه الشاب للشهادة، بينما غيره من الشباب كانوا بالأمس القريب يتدافعون في شارع الملوك، لحضور حفلة المطربة أسمهان.

وردّ الشيخ على الشاب وهو يمسك بكتفه في ودّ وإكبار:

- كتب الله لك الخير والنجاح فــي كل خطواتك يابني.. لم أرك في المسجد من قبل، أأنت من هنا؟..

ـ بل من صفد.. اسـمي فؤاد حجـازي.. حدثني صديق عن دروسـك وأفكارك، فانتهزت فرصة وجودي هنا، لأحظى بلقاء جنابك الكريم.

ـ أهلاً بك يا بني، وماذا تعمل؟

ـ ما زلت أبحث عن عمل.. تخرجت منذ شـهر من الجامعة الأمريكية في بيروت، وجئت إلى حيفا أبحث عن وظيفة.

ـ يا أهلاً.. وفقك الله في مسعاك.

ـ ادع لي ياشيخي بالشهادة!.. وطّنت نفسي أن تكون هذه نيتي إلى أن ألقى الله عز وجل.

أعجب الشيخ عز الدين بإصرار الشاب!..

ـ كتبنا الله جميعاً من الشهداء في سبيله..

ـ فلسطين تضيع يا أسـتاذ، ولابد أن يجد هؤلاء الإنجليز والصهاينة من يرد كيدهم وقهرهم.

ـ صدقت يا بني.. ولكن لابد من الإعداد والاسـتعداد، حتى يأذن الله بقدره.

ـ أرأيت إلى مسـتعمراتهم في الجليل.. لقـد زادت الأمور عن الحد، ولم نعد نطيق هذا الاستفزاز.

ـ صدقت، يتصرفون وكأنهم أصحاب البلاد..

تنهد فؤاد حجازي، قال بحرقة وألم:

ـ حدّثني قريب لي من القدس عمّا يفعله اليهود للسيطرة على حائط البراق، وكيف أن الإنجليز سمحوا لهم بإحضار الكراسي لممارسة شعائرهم عند الحائط، فماذا بقي ياشيخ؟!. الأمور أوضح من الشمس، ونحن جالسون نتفرج.

وأذن لصلاة العشاء، فانتظمت الصفوف خلف الشيخ القسام، وهو يتلو

آيات الجهاد في ســورة التوبة، وبعد الصلاة بحث الشــيخ عن ذلك الشاب الذي التقاه، فلم يجد له أثراً..

وشعر الشيخ عز الدين بالأسف..

كان يود أن يصارح هذا الشاب الرائع بشيء.

داهم الطلق أمينة نعنوع زوجة الشيخ عز الدين، فأرسلت ميمنة أختيها خديجة وعائشة إلى المســجد، لتخبرا أبوهنّ بضرورة إحضار الداية، ولمح الشيخ حنفي البنتين، فهرع إليهما بقلق:

ـ ماذا تفعلان هنا؟.

قالت عائشة:

ـ أرســلتنا ميمنة. أمّنا تصرخ من الألم، ميمنة قالت يجب أن يحضِر أبونا الداية فوراً..

ـ الداية؟.

وهرع إلى الشيخ عز الدين، الذي كان مشغولاً مع شباب جاؤوا يزورونه من برقين..

ـ ماذا لديك ياشيخ حنفي؟

وأراد الشيخ حنفي أن يتكلم، لكن يده التي أشارت إلى البنتين سبقت كلامه، فانخلع قلب القسام لرؤية فلذتي كبده لدى باب الاستقلال..

ـ عن إذنكم يا إخوان..

ونهض بسرعة

ـ ماذا حدث؟

أجابت خديجة:

ـ ميمنة قالت أمّنا تريد الداية، وهي تتألم كثيراً..

نظر القسام إلى الشيخ حنفي، يستغيث به.

ـ الداية أمّ العبد التي تقيم في شارع الملوك.

ـ سأحضرها بسرعة..

واعتذر الشيخ من جلسائه، وأسرع إلى البيت بصحبة صغيرتيه، والقلق يأكل صدره على رفيقة عمره، ولم تمض سوى نصف ساعة حتى توقف حنطور عند الباب، وترجلت منه امرأة توجهت إلى غرفة أمينة على الفور.. ودلف الشيخ عز الدين مع صغيرتيه إلى الغرفة المجاورة، وطلب من ميمنة أن تظلّ في المطبخ، لتلبي الداية فيما تحتاجه..

وبكت عائشة، وهي تصغي لصراخ أمها، وقد استبدّ بها الألم، فراح أبوها يواسيها..

- لا تبك يا عائشة، سيكرمنا الله عز وجل، ويجعل الله بعد العسر يسراً، ألا تريدين أختاً صغيرة تلاعبيها وتكاغيها..

قالت خديجة معترضة:

- بل نريد أخاً يا أبي..

قرصته كلماتها في موطن وجع، لكم يتوق إلى الولد، لكنه يوطن نفسه على ابنة رابعة، فأغلب ظنه أن نَسله كله من البنات، وهو راضٍ بما قسمة الخالق عز وجل، وسعيد ببنياته اللواتي يملأنَ عليه دنياه بهجة وسعادة.

واشتدّ الطّلق، وازداد صراخ الأم، فضمّ بنتيه إلى صدره، وقلبه يخفق عطفاً على زوجته، وإشفاقاً عليها من هذه النوبات الشديدة، التي لم تألفها في الولادات السابقة، وراح يدعو لها بقلب ضارع، وروح فياضة بالحنان..

وتوقف صراخ الأم فجأة، فتوقف معه قلب الشيخ عز الدين، لكن صوتاً آخر انبثق من أعماق الصمت، فحرك فيه مشاعر الأبوة الجارفة، فهرع إلى الباب، وألفى ميمنة تطل عليه بالبشرى..

- أمي ولدَتْ، وجاءت لك بمحمد.

تهللت أساريره، ونطقت عيناه بفرحة لم تعهدها ميمنة فيهما من قبل..

- محمد؟!.

- مثل القمر.

- وأمك؟ كيف هي الآن؟؟.

- تقرئك السلام، وتقول لك مبروك.

اقترب الشيخ حنفي من الشيخ القسام، وهمس:

ـ أبو إبراهيم يقول أن الضابط محمد أبو العيون وصل.

تهللت أسارير الشيخ..

ـ قل له أنّي سأكون عنده بعد المغرب، سأمر أولاً على بستان الشيخ أحمد حجاب في الياجور، سأجتمع مع بعض الشباب هناك.

ضحك الشيخ حنفي..

ـ تحت التينة إياها؟..

ـ ها أنت تذكرها؟..

ـ ماشاء الله تحتاج إلى ست رجال، حتى يحيطوا بها.

ـ المهم بعد هذا الاجتماع نلتقي في الكبابير لنقابل أبا العيون.

ومضت برهة ريثما صلى الشيخ عز الدين ركعتي السنة، مالبث الشيخ حنفي أن عاد قائلاً:

ـ الحنطور جاهز.

ـ بهذه السرعة؟.

ـ وجدته قريباً من هنا، فوفّر عليّ الذهاب إلى ساحة الحناطير.

وكانت جلسة لطيفة في ظل شجرة التين الوارفة، اجتمع حولها ثلّة من خيرة شباب الياجور، وكلهم شوق لسماع حديث القسام.

وتحدث الشيخ عن تحصين الشباب في وجه المغريات، وبناء المجاهد الصلب، الذي ترتبط روحه بخالقه، ويرتبط فكره بواقعه، لينهض بمجتمعه وأمته..

كان الشباب يصغون باهتمام، إلا واحداً كان مشغولاً بالنظر إلى الآفاق

القريبة، وقد بدا على وجهه الغضب.. والتفت الشيخ إلى حيث كان الشاب ينظر، فوقعت عيناه على مستعمرة «نيشـــر» القريبة، وقد انتشر المزارعون اليهود في ربوعها يحصدون القمح، وأكثرهم من الشباب والشابات في سن القوة والعطاء.. وقال بلهجة ساخرة..

- هؤلاء اليهود الذين يلقي بهـــم بحر يافا وحيفا، ليتحولوا إلى عمال ومزارعيـــن، وأظنهم أيضـــاً مقاتلين.. إنما هم شـــعب دخيل تســـتورده لكم بريطانيا العظمى، ليقاسمكم الأرض والماء والهواء..

قال الحاج أحمد حجاب، صاحب المزرعة:

- تمددوا كثيراً ياشيخ، ولم يبقَ إلا أن يحكمونا..

قال الشاب الذي كان مشغولاً عن حديث الشيخ بالمستعمرة إياها:

- ولماذا نذهـــب بعيداً ياحاج.. هاهم يقاســـمونا عضويـــة البلدية في حيفا وغيرها.. وقد يفوزون برئاستها!..

ردّ عليه عبد الله الزيباوي:

- إن شاء الله يا شيخ عز الدين لن تقوم لهم قائمة في هذه البلاد..

لكن الشاب انفعل، وقال:

- وفّـر لنا السلاح يا شيخ، وسترى إن شاء الله منّا العجب..

قال الشـــيخ عز الدين، وقد أدرك ما يعتمل في فؤاد الشاب الثائر من غضب، وهو يرى الغرباء يتوســـعون في وطنه، وقد يكـــون أحد ضحايا هذه المستعمرات، التي طرد أهلها منها:

- أريدكـــم أن توقنوا بأن المجاهـــد قبل البندقيـــة، وأن الجهاد ليس نزهة.. الجهاد محن وابتلاءات ومغالبة طويلة.. فيها النصر وفيها الهزيمة..

- بل النصر إن شاء الله..

- المجاهد الحق هو الذي يوطن نفســـه على كل الاحتمالات، فلا يبطره

النصر، ولا تحبطه الهزيمة.. وهذا ما أريد أن ندرب عليه أرواحنا..

- لكنهم يتصرفون، وكأن البلاد صارت بلادهم..

- مع ذلك لا نستعجل.

وتدخل الشيخ أحمد حجاب..

- يذكرني المهاجرون اليهود بقصة ذلك اللص الذي طلب من أحدهم أن يحمله على حصانه في طريقه إلى بلدته، فرحب بصحبته، فلما قطع ربع الطريق، قال له: ما أجمل حصانك!.. وبعد أن قطعا نصف الطريق صار يقول: ما أجمل حصاننا!!.. وأخشى ما أخشاه أن يأتي يوم يصل فيه هؤلاء الغرباء إلى ما وصل له ذلك اللص، عندما انقض في النهاية على صاحب الحصان، وصاح به: «لقد أثقلت على حصاني، وآن لك أن ترحل!»..

كان الجميع يخافون ذلك اليوم..

كانت زيارة الشـيخ القسـام لجنين لاتنسـى.. فهناك حـلّ ضيفاً على صديقه الشـيخ فرحان السـعدي، الذي جمـع له رجال جنيـن ووجهاءها، ليتعرفـوا على هذا العالم السـوري الذي جاء إلى فلسـطين، ليمنحها من روحه وعلمه وجهده..

وتواعـدوا بعد أسـبوع للإعلان عن افتتاح فرع الشـبان المسـلمين في جنين، ليسـجل لهـذه الجمعية نصـراً جديداً، وانتشـاراً بين شـباب هذه المدينة، الذين أبدوا حماساً للفكرة، ووضعوا كل إمكانياتهم لخدمتها..

وتكررت زيارات الشـيخ عز الدين إلـى جنيـن، وذات أصيل كان في زيارة للشـيخ فرحـان، يتجولان في كـرم الزيتون الذي يمتـد أمام دارته، يتبادلان الرؤى والأفكار، ويتأملان في الطبيعة الخلابة..

وقال الشيخ فرحان:

ـ تعلمت في هذه الدنيا أن أواجه الحقائق كما هي.. ما يجري الآن في فلسطين أكثر من غزو بريطاني، وأكثر من احتلال.. مايجري هو بيع فلسطين لليهود بالقهر والإكراه.. وإذا طال انتظارنا، فسـوف نجد أنفسـنا غرباء في بلادنا.. لذلك قررت البدء بالجهاد، ولا أظنك إلاّ تفكر كما أفكر.

قال الشيخ عز الدين وهو يتأمل حقول القمح الممتدة، التي تتمادى مع كرم الشيخ فرحان، لترسم أفقاً ساحراً، زاده قرص الشمس الغاربة جمالاً وبهاء..

ـ صدقـت. لا طريـق إلّا الجهـاد، ومقاومة هـذا المشـروع بالغالي والنفيـس.. لكـن العدو هـذه المرّة ماكـر وصعـب، ولا بدّ مـن الإعداد والاسـتعداد.. وقبل هذا، لا بدّ من تخيّر المجاهديـن القادرين على هزيمة هذا الحلف الغاشم.

ـ لكن الوقت لا يرحم.. أنــت ترى أن اليهود يعملــون بدأب وخبث.. مستعمراتهم تنتشر في كل مكان.. وهم يستقبلون آلاف المهاجرين كل شهر.

ـ أنا معك.. بل ولديهم مجموعات مسلحة للدفاع عن هذه المستعمرات..

ـ وبحجة الدفاع عن مستعمراتهم يجمعون السلاح، ويتدربون عليه..

ـ وما خفي كان أعظم.. هــؤلاء لا يلعبون.. فلنبــدأ بالإعداد.. نتعاون الآن بالتدريب وبالسلاح..

ـ والرجال؟..

ـ نتجنب في هذه المرحلة خلط الرجال من هنا أو من هناك..

ـ وليكن ابن عمي نمر الوسيط بيننا.. نتبادل عبره الرأي والمشورة..

ـ ولكن أين نمر؟.

والتفت الشيخ فرحان..

ـ ابن حلال.. هاهو قادم بالشاي..

وجلسوا يرشــفون الشــاي، وســنابل القمح الذهبية تتمايل أمامهم في دلال.. وتساءل الشيخ عز الدين عن الأسلحة التي يملكها الشيخ فرحان.

ـ لدينا عشر بنادق وكمية كافية من الخرطوش.. لكنها لا تكفي لعدد الرجال.. لدينا مبلغ من المال، فإذا كان لديك من يبيعنا ســلاحاً، تسدي لنا خدمة كبيرة..

ـ هناك ضابط تركي يدعى جلادات وعدنا بتهريب كمية من الأسلحة.. عندما يزورني سأزورك بصحبته لتتفق معه.

وتردد أذان المغرب فســكب في قلوبهم الطمأنينة، وحرك في وجدانهم يقيناً بأن بعد الغروب صبحاً، لا بد أنه قادم مهما طال الظلام..

ـ كاز. كاز

ـ كاز. كاز

وراح يضغط على حجرة هواء البوق الذي يحمله، لينطلق منه صوت غليظ ينبه الأسماع، وينسجم مع رائحة الكاز، التي لا تغفرها له سوى منافعه.

ـ كاز. كاز

ـ كاز. كاز..

كانت الأمطار تسقط بغزارة، فيختلط صوتها بصوت بياع الكاز، الذي كان يريد أن ينبه الشيخ القسام إلى وجوده، واضطر محمود زعرورة أن يدور دورة طويلة، ليعود من حارة القسام مرة أخرى، دون أن يلفت الأنظار، ورفع صوته هذه المرة بأقصى ما يستطيع..

ـ كاز.. كاز.. يا بردانين كاز..

وأطلّ القسام هذه المرة.. وقد غطّى رأسه بغترة بيضاء اللون، يحمل «تنكه» فارغة ليملأها بالكاز.

أوقف محمود زعرورة البغل، ونزل ليملأ التنكة للشيخ..

ووقف القسام قريباً من محمود زعرورة، يتأمل زيت الكاز، وهو يتدفق من الصنبور، وسأل بنبرة أقرب للهمس:

ـ ما هي الأخبار؟

ـ أبو إبراهيم يقول أنه استطاع أن يشتري ثلاثة مسدسات جديدة مع ما يكفي من الخرطوش.

ـ خبر جيد، فليحفظوها عند الشيخ علي الحاج عبيد، في البئر الذي يخزن فيه السلاح.

- الحاج حسين حمادة أرسل لك معي عشرين جنيهاً، تبرع بها أحد المحسنين للجهاد. كيف أعطيك إياها؟

- أعطها للشيخ حنفي، وقل له يدفعها عربوناً لضمان المزرعة الجديدة، التي حدثني عنها في «أم الزينات».. زرتها من يومين.. موقعها متميز في حضن الكرمل، وهو مناسب للتدريب.

- الشيخ عبد الله الزيباوي يقول أن مجموعته صارت جاهزة للتدريب.

- قل له أن يتريث، ريثما يعود أبو العيون من تركيا ليدربهم.

- محمد الصفوري وأحمد التوبة في صفورية جهّزوا ما طلبت، وينتظرون منك الإشارة.

- سوف أرسل لهم في الوقت المناسب.

- أوامر أخرى؟

- انتبه للزبون القادم..

وأقبل طفل يافع، يحمل «تنكة» صغيرة، يريد ملأها بالكاز:

- أبوي يسلم عليك، ويقول عبّئ لنا هذه «التنكة» وسيدفع لك ثمنها غداً..

- من أبوك يا ولد؟

- أبو رزق.. الحارس في السوق الأبيض.

- تكرم عينك.. أنت وأبوك.. إن شاء الله أنت مثله بطل ومحترم؟

ابتسم الطفل في حياء، بينما شرع محمود زعرورة يسكب الكاز في صفيحة الطفل، وهو يستأنف الحديث مع الشيخ..

- تأمرني بشيء آخر؟..

- أخبر الجميع أن يحضروا خطبة الاستقلال هذه الجمعة.. سأقول شيئا أريدهم أن يسمعوه.

وأخرج القسـام قطعة معدنية ونقدها لبائع الكاز، فأخذها بامتنان، ثم قبّلها ورفعهـا، ووضعها على جبهته، حتـى يعلم المارون أنـه يمارس عمله المعتاد، ثم دسّها في جيبه.

وهتف الزعرورة محاولاً إسماع كل من في الطريق.

- اللّه يعوض عليك يامولانا.

- وعليك، يسلموا..

وأراد الشـيخ عز الدين أن يعود أدراجه إلى البيت، لكن صوتاً يعرفه جيداً استوقفه فجأة:

- آمنة؟

- لمحتك من بعيد، فلم أرد أن أخسر فرصة دعائك لي.

- أهلاً أهلاً يا ابنتي.. ما أخبارك؟

- الحمد للّه..

- وكيف مصطفى؟

- يسلّم عليك.

- أرجو أنك جئت لزيارتنا..

- مبروك الوليد الجديد.

- بارك اللّه فيكِ. عقبال عندك

قالت بصوت متهدج:

- ادع لي يا أستاذ.

- اللّه كريم يابنتي.. اللّه كريم.

صارت الأوقات التي يقضيها الشيخ في بيته وبين أهله أقل من ذي قبل، وأقل منها ساعات الصفاء، التي يكون فيها القسام مرتاحاً ومنطلقاً، واليوم كان يشعر بشوق لبناته الحبيبات، ولصغيره محمد، الذي بدأ حضوره الطفولي الصاعد، يستقطب الأسرة جميعاً حوله، ويبعث في روح القسام سعادة غامرة..

واندس محمد في أحضان أبيه، وراح يداعب شعرات لحيته الرمادية..

- عيب ياولد.. لحية القسام لا يعبث فيها أحد.

ضحكت أم محمد:

- إلا محمد.. فيعبث بها كما يشاء..

قال الشيخ عز الدين، وهو يمسح رأس الصغير بلطف وحنان:

- لكم أحبه!.

- ألأنّه الولد الوحيد؟!.

رمقها بطرف عاتب:

- بل لأني أنجبت لك رجلاً..

- لا رجل بعدك.

- لا بد من رجل بعدي، يحمي هذا البيت.

أثارت كلماته في أعماقها هاجساً قديماً، عندما حمل الشيخ بندقيته ذات يوم، وغادر البيت ليبدأ ثورته ضد الفرنسيين، يومها حاصرها قلق الغياب، وأقضّ مضجعها الليالي الطوال، وخفق قلبها وهي تخوض تلك الذكريات المؤلمة، فسددت إليه نظرة ثاقبة:

- تخطط لشيء؟.

ـ الله المستعان

ـ لعلك تنوي أن تستأنف الجهاد من جديد!.

ـ الله يكرمنا..

ـ في هذه البلاد؟.

ـ مالها هذه البلاد؟

ـ ليس لنا هنا سند أو معين نلوذ به. ولم يكن الأمر كذلك في جبلة..

تأمّل الشيخ ولده محمد، ثم رفعه عالياً بكلتا يديه، وراح يهزّه مداعباً، فندّت عن الصغير ضحكات بريئة، ملأت البيت بهجة ومرحاً، خلع الشيخ عمامته ووضعها فوق رأس الصغير، قال يخاطب وليده، وهو مازال يهزّه برفق..

ـ أريدك رجلاً.. فلتكبر بسرعة، وكفاك كسلاً..

وأقبلت خديجة، فخطفت محمداً من أبيها، وراحت تمطره بالقبلات.

قال الشيخ عز الدين، وهو يرى القلق لا يزايل عيني زوجته:

ـ اطمئني يا أمينة. مازال الوقت مبكراً على هذه الأحاديث..

# ٩٠

كان العبد قاسم ينعطف عند نهاية شارع الملك فيصل، متجهاً نحو التقاطع الذي ينزل يساراً إلى الميناء، ويتجه يميناً نحو الطريق المؤدي إلى وادي النسناس، أملاً في أن يدرك بعربته الشيخ عز الدين، الذي صلّى الظهر وخرج بصحبة الحاج حسن حمادة، ليزور أسرة فقيرة تعففت عن السؤال، فساق الله لها جاراً طيباً يسأل عنها، ولمّا رأى البؤس الذي تعيش فيه، هرع إلى شيخه، يطلب منه مساعدتها، ولم يتأخر القسام، فكلّف الشيخ حمادة أن يكلم من لديهم القدرة، ليجمعوا مبلغاً من المال، ثم تواعد معه ليزور هذه الأسرة، ويقدم لها ما تمّ جمعه.

وشعر القسام بجلبة عربة تجري خلفه، فالتفت ليجد العبد قاسم، وهو ينطلق بأقصى سرعته..

- مابالُه مسرع هكذا!..

وكبح العبد قاسم لجام بغليه، متوقفاً في محاذاة الشيخ..

- لديك ضيوف من الشام..

- من الشام؟!.

- الوالدة الكريمة وأخوك فخر الدين..

- الله أكبر..

هكذا همس القسام وهو يستوعب الخبر..

- والوالدة أيضاً؟..

وربّت الحاج حمادة على كتفه.

- مبروك يا شيخ عز الدين. أسرع لتلقى الأحبّة..

- وأينهم الآن؟..

ـ أخذهم الشيخ حنفي إلى بيتك، وأرسلني لألحق بك.

وقفز الشيخ إلى العربة.

ـ اعذرني يا حاجّ.. أكمل المهمة بنفسك.

وانبثقت في قلب الشيخ ينابيع من الشوق، كان قد كتمها كلّ هذه السنين، فدفن حنينه بالمزيد من الدأب والكفاح، وإن كان حضور الزوجة والأولاد قد خفّف عنه، لكن شوقه لأمّه وأخوته كان فياضاً، وهاهو يتدفق دمعاً هتوناً، لمحه العبد قاسم، فأدرك وجهاً رقيقاً لقائده لم يألفه من قبل، وهو الذي رسمت له المهابة وجهاً صارماً، فأسرع ليحمل الشيخ إلى أحضان أمّ طيبة كانت تتحرق لرؤية ابنها، الذي افتقدته كل هذه السنين..

وتخيل القسام أمه الحبيبة وهي تتأمل وجوه الواقفين أمام المسجد، بحثاً عن وجه أثير افتقدته طويلاً، وكيف صدمت عندما لم تجده، وقد قطعت من أجل لقياه أميالاً من العذاب، فغاب بريق الفرح الذي كان يشعشع في عينيها، لتنهمر دموع الشوق، التي كان قد كتمها أمل اللقاء، فلم تعد تطيق صبراً على البعاد، ولو ريثما ينادونه لها حيث كان.

وغرق الشيخ في بحر الذكريات، فراح ينبش في أعماق الذاكرة صوراً حميمة، كانت قد توارات، بعد أن طغت عليها الأحداث.. وتراءى له من خلال الدموع عز الدين الطفل، وهو يأوي إلى حضن أمّه، ينهل منها العطف والحنان، وعز الدين الصبي وهو ينشأ على عينها، ويستمد من سجاياها وطبعها النبيل، وعز الدين الفتى اليافع وهي تودّعه إلى الأزهر، فترجوه وديعة في ذمة القدر، وترسل خلفه الدعوات الضارعات، أن يحفظ المولى لها ابنها الحبيب، وعز الدين الشاب وهو يعود مسلحاً بشهادة الأزهر، لتقرّ به عيناً، وتعلنه زينة شباب جبلة، وتطلب له ستّ البنات..

وشعر الشيخ بالذنب، وهو يتذكر كم عانت أمّه، وهي تراه في أتون الأخطار، يتحدّى الطغاة مهدّداً بالموت والاعتقال، إلى أن فقدته في منفاه البعيد..

وراح يتخيل مشهد اللقاء الوشيك الذي سيجمعه بوالدته، وكيف ستتلقاه؟. وماذا سيفعل؟. وماذا سيقول؟.. وما إن رآها حتى لاذ بحضنها وهو يبكي، وكأنه ذلك الطفل القديم.

- ما كان ينبغي أن تأتوا دون أن تعلموني، حتى أكون في استقبالكم في محطة القطار!.

قال فخر الدين:

- أرسلنا لك، لكن الرسول لم يصل إليك، والله أعلم بعذره.

- فكيف وصلتم من المحطة إلى المسجد؟

- أوصلنا حارس القطار.

- حارس القطار؟.

- شاب مهذب وذا مهابة، رآنا نتطلع ذات اليمين وذات الشمال، فسألنا عن غايتنا، فلمّا قلنا له عز الدين القسّام، أشرقت أساريره، وقال شيخنا وحبيبنا، فترضّت أمك عنك، وقالت هذا هو ابني عز الدين، محبوب أنّى ذهب وغاب، وأنا الذي قطعت معها الفيافي والقفار من جبلة حتى حيفا، لم تقل لي حتى الآن «الله يرضى عليك»..

ضحكوا من قلوبهم. وقالت الأم وهي تفيض بشْراً وسعادة بلقاء ابنها..

- رضي الله عنكم جميعاً، لكنّ شوقي لعز الدين ليس له حدود.

وغصّت بالكلمات، فتناول الشيخ عز الدين يدها، ولثمها.

وتابع فخر الدين..

- المهم الحارس أوقف حنطوراً، وطلب منه أن يحملنا إلى جامع الاستقلال، وأعطاه أجره رغم اعتراضي، لكنه أصرّ، وقال:

- أنتم ضيوفنا في حيفا التي شرفها القسام.

وتساءل الشيخ عز الدين..

- من تراه يكون؟.

- قال لي اسمه محمود سالم..

- لعله مـن رواد خطبة الجمعة. يحضرها الكثيـرون بفضل اللّه.. من أعرف ومن لا أعرف.

وفي اليوم التالي سأل الشـيخ علي الحاج عبيد عن رجل يدعى محمود سـالم، يعمل حارسـاً في محطة القطار، فلم يعرفْه، فقـرر أن يمضي إلى المحطة ليتعرف عليه مباشرة، وعندما وصل سأل أحد الحراس عن محمود سالم..

- تقصد محمود سالم المخزومي.

- لعله هو؟.

- هو ذاك يا مولانا.

وأشار إلى حارس يقف على الضفة الأخرى من سكة الحديد، تبدو على سيماه ابتسـامة وادعة لا تكاد تفارقه، فمضى إليه باشّاً، وما أن رآه محمود قادماً، حتى خفّ إليه..

- يا أهلاً.. يا أهلاً بشيخ حيفا كلّها..

- بارك اللّه فيك. لقد أكرمتني بأكثر مما أستحق..

- بل أكافئك بنذر يسير مما يجب أن تكافئك عنه فلسطين. أنت صوت الحقّ الذي أيقظ النائمين..

أدهشته كلمات محمود سالم، وأعجب بدماثته وأخلاقه..

- أشكرك على مافعلت، والوالدة تدعو لك..

- حفظها اللّه..

- لعلك تحضر خطبة الاستقلال عندنا.

- كل جمعة. لكنّي أمضي مسرعاً إلى المحطة، فقطار الشام يصل في الثانية ظهراً، ويجب أن أكون هناك..

ـ أتمنّى أن نراك في دروس الاستقلال، لنتعرف أكثر..

ـ أعدك منذ اليوم أن أحرص عليها، فقد سمعت عنها الكثير.

وأخرج الشيخ عز الدين نقوداً، يريد أن يسدد له أجرة الحنطور..

ـ معاذ اللّه. لو كانت والدتي وأخي وأنت مكاني، لفعلتَ ما فعلتُه..

وقفل الشيخ راجعاً، وهو يفكر في هذا الرجل النبيل..

قال الشيخ عز الدين للشيخ كامل القصاب:

ـ سأضطر الليلة للمبيت في جنين.. لدي اجتماع هام للشبان المسلمين هناك..

ـ تأبى إلّا وأن ترهق الوالدة الكريمة بالقلق عليك..

ابتسم الشيخ عز الدين..

ـ ثمّة تاجر سلاح مضمون وعدت الشيخ فرحان بأنّي سأجمعه به ليلاً، ولا أظن أنّي سأعود إلى حيفا قبل الفجر، أو لعلي أبيت هناك، فهل تكرمني الليلة بالتدريس في مدرسة الليل بدلاً عني؟

رحب الشيخ كامل بالفكرة..

ـ طلابك كلهم مضمونون؟

ـ الحمد لله.. هذه المجموعة من خيرة الشباب.. تستطيع أن تتحدث لهم كيف شئت..

ـ اتفقنا.

واندهش تلاميذ القسام لغياب أستاذهم، وحضور شيخ غيره..

ـ السلام عليكم.. لعلكم تتساءلون من أنا.. أنا الشيخ كامل القصاب، أوصاني الشيخ عز الدين أن أكون معكم الليلة.. أخرجوا الكتاب والدفتر..

استجاب الطلبة لأوامر الشيخ، الذي بدأ يدور عليهم.. ووصل إلى شاب يذكر أنه رآه أكثر مرة من قبل..

ـ ما اسمك؟

ـ محمد صالح الحمد

ـ ماذا تعمل في النهار؟

ـ أعمل في الحسبة.. بياعاً للخضار.. إذا جئت إلى هناك.. فقط اسأل عن أبي خالد.. سأكون في خدمتك.

ـ اللّه يوفقك.

وراح يتأمل دفتره..

ـ لديك خطأ هنا يا محمد.. الضاد المنفصلة بدون سنّ، فقط عندما تكون متصلة نضع لها سنّ.

والتفت لطالب آخر..

ـ اسمك؟

ـ محمد أبو قاسم خلف

ـ عملك؟

ـ عامل في معمل الكازوز والعصير

ـ لماذا تتعلم القراءة والكتابة؟

ـ لأنـــي أردت تعلّم القرآن والعلوم الشــرعية، فطلب مني الشــيخ عز الدين أن أتعلم القراءة والكتابة أولاً..

ـ معه حق.

وتأمل دفتره، فأبدى إعجاباً واضحاً..

ـ ما شاء اللّه.. تتقدم بسرعة.. خطك جميل.. ثابر، نفع اللّه بك.

ـ وأنت؟.

ـ عطية أحمد عوض.

ـ عملك؟.

ـ فلاح.

ـ أين؟.

ـ أقصد كنت أعمل فلاحاً..

ـ ولماذا تركت الزراعة؟

ـ لأن اليهود اشتروا الأرض التي كنت أعمل فيها..

تأمل دفتره، ثم ربّت على ظهره..

وتوقف عند الطالب الأخير، الذي بادر فرحب به..

ـ يا هلا بالشيخ كامل.

ـ أهلاً بك..

ـ أنا عبد الفتاح السيلاوي.. أبو عبد الله.. أتذكرني؟.

ـ لعلي التقيتك من قبل.

ـ التقينا عندما كنتَ في زيارة الشيخ عز الدين من أشهر.

ـ تذكرتك. لماذا أنت هنا؟.

ـ لأنّي أريد أن أتعلم علوم الشرع والدين، وها أنا أتدرج في تعلم القراءة والكتابة..

ـ كان الشيخ القسام قد نصحك أمامي بأن تنضم إلى المدرسة من ذلك الوقت، فلماذا تأخرت؟

ـ كنت أستخسر أن اقضي العمر في العلم والتعلم، وأنا انتظر الساعة التي ألقى فيها هؤلاء الأعداء، الذين لم يبقوا لنا من فلسطين شيئاً، فأقاتل حتى أقتل، وأنال الشهادة في سبيل الله.

أثار جواب الطالب دهشة القصاب.

ـ العلم أولاً يا بني.. لأن المجاهد الذي لا يعرف دينه، لا يستطيع أن يخدمه.

ثم أخرج الشيخ كامل من عبّه مسدساً، وقال وهو يشير إلى الكتاب:

ـ هذا قبل هذا..

والتفت لبقية الطلاب..

ـ انتبهوا يا إخوان الكتاب قبل السلاح.. والعلم قبل الجهاد.. مفهوم؟

وانهمكــوا في درســهم، وهم يفكّرون بكلام الســيلاوي، حــول الأعداء الذين لم يبقوا لهم من فلسطين شيئاً.

ذات شروق، كان الشـيخ عز الدين عائداً من صلاة الفجر برفقة أخيه فخر الدّيـن، فدعاه ليتمشـيا على شـاطئ البحر، فهذا الوقـت من أحب الأوقات إلى قلب القسام، وأكثرها صفاء..

وقال الشيخ فخر الدين فجأة:

ـ أراك تعد العدّة لثورة جديدة يا عز الدين..

التفت إليه، وقد بوغت..

ـ ثورة؟. من قال لك؟.

ـ أمّك.

ـ أمّي؟.

ـ أنت تعرف أمّك.. لها قلب ذكيّ، لا يمكنك أن تكابر أمام هواجسـه طويلاً..

ـ لكنها لم تفاتحْني بالأمر.

ـ تعرفك عنيداً. قالت لي أخوك يدبّر لشيء!.

ـ أبعد أن علمْتَ ما علمتَ عن الأوضاع في فلسطين، أيمكن لرجل بين جنبيه ذرّة من شرف أن يسكت؟!..

قال فخر الدين متندراً..

ـ من قال أنك سـاكت. ما شـاء الله عنك. حيفـا تحفظ خطبك عن ظهر قلب، والإنكليز أيضاً.

ابتسم الشيخ عز الدين..

ـ أضعف الإيمان يا فخر الدّين..

ـ ما أراك إلا قد أخذت بالعزائم.

ـ استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان..

ـ كلّ ما أردته أن أطمئن عليك.

ـ الأجل مكتوب، وها أنا أسدد وأقارب، كما ينصحني دائماً الشيخ كامل.

ومضى وهو يتأبط ذراع أخيه، يتأمل طيور النورس، وهي تلعب على تخوم البحر.. وقال فجأة:

ـ تأمل فيما يجري يا فخر الدين.. تلمح خطة خبيثة لتمزيق بلاد الشام.. ما يجري في فلسطين هو الوجه الآخر لما يجري في سوريا، لكن ما يخطط له هنا إحكام الطعنة في القلب.. إذ لم يكفهم تقسيم سوريا إلى أربع دويلات، وترسيم الحدود بينها، فخطّطوا لإقامة دولة لليهود هنا، وأوكلوا أمورها لبريطانيا، لتمدّها بكل أسباب القوة..

ـ تقول دولة لليهود؟.. لعلّهم قالوا وطناً!؟.

ـ لا يوجد وطن بلا قوة تحميه.

ـ لو صدق ما تقوله، فتلك مصيبة..

ـ وعلى كل عاقل أن يستبقها بما أوتي من أسباب.

ـ ستواجه بريطانيا؟.

ـ كما واجهت فرنسا من قبل.

ـ لكنك لجأت حين ضعفت إلى فلسطين، فماذا ستفعل لو حاصرك الإنكليز هنا؟

لم يفاجئه السؤال. كان قد فكّر وقرر.

ـ أمام فرنسا كان همّي البندقية، لذلك بعْتُ البيت واشتريتُ بثمنه سلاحاً يكفي للعصبة التي كنت أقودها.. لكنّي وجدت أن السلاح ليس كل شيء، فعندما انقطع عنّا السلاح فشلنا.

ـ وأمام بريطانيا؟.

ـ أسـعى لبناء ثلة من المجاهديـن، كل مجاهد أمّة وحـده.. يحمل جذوة الجهاد، ويستطيع أن يوقدها فيمن حوله..

تنهّد فخر الدين، قال، وهو يتأمل في النهايات:

ـ لن يتركوك تكمل مشروعك يا عز الدين.. إن لم تقتلك بريطانيا، فسيقتلك اليهود..

ـ ما أنا إلا رجل واحد. إن قتلت، فسأكون قد صدقت فيما أدعو الناس إليه.. الجهاد أو الاستشهاد.

ـ لكنّك القائد!..

ـ أحاول هنا أن أزرع ثورة يا فخر الدين، لا أن أقود ثورة.. سـيكمل بعدي من آمنوا بفكرتي.. وسـيتحول القائد إن كتبت له الشـهادة إلى قدوة ومثال، يلهم خطى من بعده على ذات الطريق..

رمقه فخر الدين بطرفٍ فخور.. هذا هو عز الدين الذي يحبّه، ويتمنى أن يمضي على خطاه..

بعد صلاة العصر غادر الشيخ عز الدين مسجد الاستقلال، متوجهاً لزيارة الأستاذ نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل ورئيس تحريرها، بعد أن تواعدا على ذلك في سهرة جمعتهما في منزل الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم..

ووصل الشيخ إلى مطبعة صغيرة في وادي الصليب، فألفى رجلاً قصيراً ضخم الهامة، يقف وسط المطبعة ويوزع ملاحظاته على العمال، ثم ما لبث أن استل صفحة، قد خرجت للتو من الطباعة، وراح يتفحصها..

وألقى الشيخ عز الدين التحية، فالتفت الأستاذ نجيب نصار بملامحه الجادة مستطلعاً، ونظر إليه من فوق نظارة القراءة التي أمالها إلى تحت، ليرد التحية على صاحبها، وما أن رأى الشيخ حتى انفرجت أساريره، واستقبله بالبشاشة والحبور:

ـ يا هلا بالشيخ عز الدين.. صحيفة الكرمل نورت وزادت شرفاً.

ـ الكرمل منورة بك يا أستاذ نجيب أفندي، وبنفَسِك الحرّ الذي نفتقده هذه الأيام..

قال الأستاذ نجيب، وهو يقوده إلى مكتب زجاجي صغير، يطل على أعمال المطبعة:

ـ أخبارك تملأ الروح فخراً..

شكره الشيخ على هذه الحفاوة. قال وهو يطأطئ رأسه تواضعاً لهذا الإطراء..

ـ أخبار عبدٍ فقيرٍ يرى فيه الناس صوتاً.

ربت الأستاذ نجيب نصار على ركبته، وهو يجلس قبالته:

- بصراحة.. لم أكن أعرف أن المشايخ يمكن أن يكونوا بهذا الوعي، وهـذه الجرأة في الدفاع عـن حقوق البلاد.. أنت قلبت لـي عقلي، وصرتُ أتسـاءل؟ لماذا لا ينحو بقية المشـايخ نحوَ الأستاذ القسـام.. والله كانوا زلزلوا الأرض تحت أقـدام بريطانيـا العظمى.. لكن ماذا نقـول؟.. قالوا لفرعون منْ فرعنك؟ قال: لم أجد أحداً يردّني.

- لعلك سمعت عنّي ولم تسمع عن غيري.. ما زالت الأمة بخير..

- أقدر لسماحتك هذا التواضع.. لكن لدي دليل حيَ على ما أقول..

- دليل؟..

- انتظر.

ونهض الأستاذ نجيب، ففتح باب غرفته الزجاجية ونادى:

- يا نوح يا إبراهيم.. تعال..

- من نوح إبراهيم؟

- عامل عندي يعمل في التجليد الفنّي، لكنه يحبك كثيراً..

- ودخل شـاب يبدو تحت العشـرين، وما أن رأى الشـيخ، حتى أقبل عليه يسلّم بحرارة.

- أستاذنا الجليل؟!.. مفاجأة سارّة لم تكن تخطر لي على بال..

حاول الشيخ أن يتذكر الشاب، وسرعان ما بدد الأستاذ نجيب حيرته:

- نوح لا يترك لك خطبة إلا ويحضرها، وقد حدثني اليوم عن موضوع خطبة الجمعة الماضية.

وقال الشيخ لنوح إبراهيم:

- لعلي لمحتك من قبل!..

- في الحقيقة لا أجـد من الوقت مـا يجعلني أتابع دروسـك، لكني معجب بأفكارك وأسلوبك في الخطابة.

وتدخل الأستاذ نجيب:

ـ نوح شاعر مرهف.

ـ ما شاء الله..

ـ لكن ظروفه صعبة قليلاً، لذلك يقضي معظم وقته عندنا في تجليد الكتب..

ثم ضاحكاً:

ـ قال لي أنك حرمت الجمعة الماضية بيع الأراضي لليهود، واعتبرت بريطانيا أسّ البلاء.. في الحقيقة بدأت أقلق عليك..

ـ وهم غير مقصرين، لكن الله هو الحامي..

ضحك الأستاذ نجيب، وقال مداعباً:

ـ للأمانة أنا مواظب على عظة الأحد في الكنيسة، لكن حديث نوح عن خطبك الرائعة، سوف يضطرني للصلاة عندك يوم الجمعة.

ضحكوا. وأستأذن نوح، بينما تابع الأستاذ نجيب..

ـ نوح يحبك كثيراً، ويكاد يقول فيك شعراً من شدة الإعجاب.

ـ ما زلت تبالغ يا أستاذ نجيب..

ـ هو شاعر موهوب فعلاً، وأنا أثق برأيه.. وقد لفت نظري إلى الدور الذي تؤديه ـ حضرتك ـ اليوم في حيفا، أحياناً أصل إلى انطباع بأنك لو طلبت منه أن يمضي إلى الموت لفعل!.

وتشوق الشيخ عز الدين لمعرفة الشاب أكثر!.

ـ ماذا نقول يا أستاذ نجيب.. قد يكون لعالم مثلي تأثير على العامة من الفلاحين والعمال والبسطاء، لكن مايشغلني فعلاً أنّ عليّة القوم.. وجهاء البلد وكبراءها مشغولون بالسفاسف.. يراهنون على عطف بريطانيا ووعودها التي لم تصدق يوماً.. هؤلاء لن تفلح معهم خطبي ودروسي..

ينظرون إلينا على أننا دراويش نحرث البحر، ولا نفهم مثلهم في السياسة..

هز الأستاذ نجيب رأسه مبدياً تفهمه لمشاعر الشيخ..

ـ أرجو ألّا يحبطك هذا يا أستاذ عز الدين..

تابع الشيخ..

ـ أعجبني حماسك ليلة التقينا عند الأستاذ رشيد.. فكرت أن آتي إليك لنبحث في هذا الأمر.. جريدة الكرمل مقروءة على نطاق واسع، وأعتقد أنك قادر على التأثير في هؤلاء.. فأنت سياسي وصحفي بارع، وتملك قلماً مؤثراً قادراً على تفنيد هذه الترهات والأوهام التي يجرون خلفها، بينما الغزاة يقضمون وطنهم قطعة قطعة، ويمكّنون لليهود!.

كان الأستاذ نجيب يصغي لكلام القسام باهتمام، قال وهو يهزّ رأسه في حيرة:

ـ هذا هو الواقع للأسف، وإن كنت لا أميل للتعميم، فهناك كثير من رجال السياسة يؤمنون مثلي ومثلك بضرورة المواجهة، لإيقاف هذا الوضع، لكنهم يقولون لك أيضاً ما في اليد حيلة.. إنما نلعب بالسياسة.. عسى ولعلّ..

ـ اليهود هم الخطر الحقيقي، لكن الإنجليز هم السبب، ولولا رعايتهم وحمايتهم للمشروع اليهودي، لما تمكنوا من التمدد والتمادي..

قال الأستاذ نجيب، وقد مال على مكتبه يبحث عن شيء:

ـ «دق الماء وهو ماء».. مثلٌ عندكم بالشام.. منذ متى ونحن نحذر من الخطر اليهودي.. لقد حذرت منه قبل أن يصدر وعد بلفور، ولكن لا حياة لمن تنادي..

وتناول عدداً قديماً من جريدته، كان مخبوءاً تحت كدسة من الصحف والأوراق، وقرّب العدد إلى الشيخ، وأشار إلى عبارة تحتها خط.

ـ انظر ماذا كتبت محذراً من هذا الخطر الذي بدا يتضح من سنين: «هل تقبلــون أن تصبحوا عبيــداً للصهيونييــن الذين جــاؤوا لطردكم من بلادكم مدعين أنها بلادهم؟.. أيرضيكم ذلك أيها السوريون؟».

ثم أشار بإصبعه إلى تاريخ العدد..

ـ انظر فضيلتك.. هنا في تاريخ العدد.. ١٩١٣.. منذ ذلك الوقت وأنا أنبه وأحذر، والناس نائمون!.

ثم أردف وهو يطوي العدد، وينحيه جانباً..

ـ ماذا نقول ياشــيخ عز الدين.. أعداؤك يعملون كل شــيء في وضح النهار، ونحن ندفن رؤوســنا في الرمال، ونعول على بريطانيا وعصبة الأمم في أن تنصفنا..

وأردف قائلاً:

ـ ثمة قصة معبرة نشــرناها مــراراً في الكرمل.. عندمــا قرر هرتزل وحركته الصهيونيــة إقامة الوطن اليهودي في فلســطين، أرســل اثنين من الحاخامات إلــى هذه البلاد، ليكتبا لــه عن أوضاعها وبيئتهــا وخيراتها.. وفعلاً حضرا، وتجولا، وأرسلا له رســالة صغيرة.. قالا له: العروس جميلة جداً، ولكن ظهر أن لها زوج!.

ـ اكتشفوا أن لها أصحاب.

ـ وطبعاً حتى تخلو لهم الجميلة، لا بد أن يتخلصوا من الزوج.

ـ هذا أخطر ما في الأمر..

ودخل أحد المحررين فجأة على الأستاذ نجيب..

ـ ثمة خبر عاجل..

ـ ماذا هناك؟.

ـ مظاهرات وصدامات دامية في القدس..

ـ صدامات؟!

ـ اليهود احتلــوا حائط البــراق، ورفعوا عليه علمهــم، والوضع متوتر للغاية، والمسلمون يحشدون للدفاع عن البراق..

ـ هل حررت الخبر؟

ـ ليس بعد..

ـ حرره ســريعاً وهاتــه، ولاتنس أن تهتــم بالعناوين، فســيكون خبر الصفحة الأولى.

صدرت جريدة الكرمل في اليوم التالي تحمل التفاصيل.. وراح الشيخ عز الدين يقرؤها باهتمام..

«.. وكان اليهود قد نظموا مظاهرات في القدس سار فيها آلاف المتظاهرين، وهم يهتفون بالموت للعرب، وتوجهوا إلى حائط البراق.. وهناك أشهروا أسلحتهم، ورفعوا علمهم، وأنشدوا نشيدهم، وتمادى خطباؤهم، فشتموا رسول الإسلام، مما أغضب العرب الذين تنادوا للرد، فهاجموا اليهود عند الحائط، واشتبكوا مع القوات الإنجليزية، التي دافعت عن اليهود المعتدين، وسقط عدد من الشهداء والجرحى..

وأفاد مراسلنا هناك بأن الأوضاع متوترة للغاية، ويمكن للوضع أن ينفجر في أي لحظة..»

وتفاقمت الأحداث..

فاجتاحت الثورة العارمة كل فلسطين، وهبت القدس عن آخرها، لتضع حداً للغطرسة اليهودية، التي تجاوزت الحدود، وبدأت تفرض وجودها المعلن، وتُزاحم المسلمين في مقدساتهم، وتشهر في وجههم السلاح.. وزاد من غضبهم وقوف القوات البريطانية إلى جانب المعتدي، لتشجعه على البطش والطغيان..

وفي يافا اقتحم اليهود، وعلى رأسهم شرطي يهودي يعمل في شرطة الانتداب يدعى «خانكين»، بيت الشيخ عبد الغني عون، إمام مسجد حي «أبو كبير» القريب من تل أبيب، فقتلوه هو وجميع أفراد عائلته الستة، ومثّلوا بهم تمثيلاً شنيعاً، فبقروا بطن الأب، وحطموا رؤوس ابن أخيه وزوجته وابنه ذي الثلاث سنوات.

وانتفض العـــرب يثأرون لأقصاهم وشـــهدائهم وكرامتهـــم التي أهينت، فهاجموا الكثير من المستعمرات اليهودية، ودمروا ستّاً منها، وصبّ الشباب الغاضب جـــام غضبه على هـــؤلاء المهاجريـــن، الذين جاؤوا مـــن أقاصي الأرض، ليزاحموهم في أرضهم، ويعتدوا على شـــعبهم، ويدنسوا مقدساتهم، ويهددوا مستقبلهم..

وتحولت فلسطين إلى ساحة قتال، فهوجم اليهود في يافا وحيفا وبيسان ونابلـــس وجنين.. وبلغت الأحـــداث ذروتها في الخليل، فمـــا أن وصلت أنباء ما جرى إليهـــا، حتى قام المتظاهرون بمســـيرات صاخبـــة، وهاجموا الحي اليهودي، ونتج عن الهجوم مقتل ما لا يقل عن ستين يهودياً وجرح أكثر من خمســـين، وفي صفـــد هاجم العـــرب حيـــاً يهوديـــاً، فقتلوا عشـــرين وجرح الكثيرون..

وحملت الأنباء خبر استشـــهاد صالح أبو شـــقرا في حيفـــا، فحزن عليه القسام حزناً شديداً، وصلى عليه صلاة الغائب في مسجد الاستقلال.

وطرق نمر السعدي باب بيت الشيخ عز الدين ذات صباح على عجل..

ـ قبضوا على الشيخ فرحان بالأمس.

ـ كيف؟

ـ قاد الشـــيخ فرحان الشـــباب الغاضب في جنين، وراحـــوا يهاجمون اليهود والإنكليز أينما وجدوهم، حتى حاصرته قوة إنكليزية، وألقت القبض عليه، مع عدد من الشباب..

حوقل الشيخ..

ـ فكّ اللّه أسره.. لا تخف عليه فهو رجل، وسوف يزيده السجن قوة..

ـ هل من أوامر؟

ـ قل لإخوانك في جنين أن يقبضوا على الجمـــر، ويتجنبوا البوح بما

يجمعهم مع الشيخ فرحان مهما حدث.. فالمعركة مازالت في أولها..

وأراد نمر أن يمضي، فاستوقفه الشيخ..

ـ قل للجميع: إذا اعتقـل أحدكم، فليقل أن دمه قد فار عندما سمع بهجوم اليهود على حائط البراق، ولا يزيد على ذلك شيئاً.

كانت الأوضاع في حيفا تتدهور بسرعة..

وفار الدم في عروق البعض، فراحوا يرشقون محلات اليهود بالحجارة، ونشبت اضطرابات في الحي القديم، تخللتها غارات على «هدار هاكرمل» ضاحية حيفا اليهودية، وتدخلت القوات البريطانية، فأطلقت النار على المتظاهرين، فسقط عدد من الجرحى..

ونبّه الشيخ عز الدين أخاه فخرَ الدين، ناصحاً بألّا يتجول كثيراً في المدينة، فقد تندلع أحداث كبيرة..

ـ هل لجماعتك علاقة بما يجري؟.

ـ لا. الأحداث داهمت الجميع، ولسنا جاهزين لدخول معركة مبكرة، تكشف رجالنا، وما قد أعددناه..

وأسرع أبو إبراهيم إلى مسجد الاستقلال، وصلّى خلف الشيخ القسام، وأبلغه بعد الصلاة بأنّ الرجال غاضبون، ويريدون أن يهاجموا الأحياء اليهودية، وسأله التوجيه..

تفكر الشيخ ملياً، ثم قال:

ـ لا أستطيع أن أمنع شاب يرى وطنه ينتهك ويهان من أن يغضب، لكن لا أرى أن نشارك نحن كعصبة منظمة ولها قيادة في هذه الأحداث.. فالحركة كما ترى مازال عودها طريّاً، وليس من الحكمة أن نكشف ما بنيناه بفورة غضب.

ـ قد يكون من الصعب أن نقنع البعض بأن الحركة التي نُعِدّها للجهاد، ستنأى بنفسِها عن ثورةٍ كالبراق!..

حاول الشيخ أن يوضح أكثر..

ـ ما أردت قوله أن الناس الآن غاضبون، ويريدون أن يثأروا لما جرى في البراق، لكنهم لا يملكــون ما يهاجمون به عدوهــم، أو يدافعون به عن أنفســهم، لذلك يجب أن نحتفظ بما بنيناه قدر الإمكان، لأنه قد يأتي يوم يكون لهــذه العصبــة دور أكثر تأثيــراً وفاعلية.. لذلك أرجــو أن توصيهم بالصبر والسيطرة على المشاعر، لنرى كيف ستتطور الأمور.

واستدرك الشيخ عز الدين:

ـ أهمُّ نقطة ألّا يســتعمل الســلاح الذي جمعنــاه الآن.. حتى لا ينتبه الإنجليز لوجود حركة مسلحة تشارك في الثورة.

ـ الناس يتلهفون لسماع خطبتك يوم الجمعة..

ـ سوف أقول ما يشفي صدورهم إن شاء الله.

ـ ثورة البراق أيقظت وعي النــاس.. والكل أصبح يتحدث عن الجهاد ضد بريطانيا والصهيونية..

ـ فرصة طيبة، لنكتشف المزيد من الرجال..

سرت شائعات صباح الخميس بأن اليهود يخططون لإحراق جامع الاستقلال، فاحتشد الشباب الغاضب متحفزاً، يسدّ الطرقات المؤدية إلى المسجد..

وشعرت والدة القسام بقلق كبير لما يجري، فقد صدقَت مخاوفها، فما كان اليهود ليحرقوا المسجد الذي يؤمّه ابنها، لولا أنهم يخافون منه، ويعتبرونه خطراً عليهم..

وتقاطر أهل حيفا إلى الاستقلال، وقد عزموا أن يحموه بدمائهم، وتوجه بعض الوجهاء إلى المسجد تضامناً مع الشيخ القسام، واقترح أحدهم على الشيخ عز الدين أن يسمح لهم بالتوجه إلى المندوب السامي لطلب المساعدة من الإنجليز، لكن الشيخ القسام أبى ورفض ذلك رفضاً قاطعاً، وقال لهم «دَمُنا هو الذي سيحمي مساجدنا ومقدساتنا، فليجربوا.. وسيرون أي منقلب ينقلبون».

واعتصم الناس حول المسجد طيلة الليل.. وفي اليوم التالي أقبل الناس على صلاة الجمعة في الاستقلال.. يريدون أن يسمعوا ما يشفي صدورهم من هذا الذي ملأ عروقهم غضباً وثورة..

وامتلأ المسجد عن آخره.. وجلس المئات خارج المسجد، وحبس الناس أنفاسهم بانتظار ما سيقوله القسام..

ـ «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله».. سبحان من حمّلنا الأمانة، وسوف يسألنا عنها.. سبحان من إئتمن أهل فلسطين وشرّفهم بمهمة الحفاظ على هذه الأرض، فكانوا أهلاً لهذا التكليف والتشريف، وهاهم يبذلون المُهج

والأرواح في سـبيل أقصاهـم.. يرفضون أن يدنسـه الغربـاء، الذين طغوا وتمادوا، فلم يتركـوا خياراً لحليم، ولا عذراً لمتعقـل، ولا حجةً لغبيّ يضع رأسـه في الرمال، ويهـوّن من أمر هـؤلاء المهاجرين، الذين كشّـروا عن أنيابهم، وأزاحوا القناع عن وجوههم الكالحة، التي تقطر سمّاً وحقداً..

ـ لقد أتى على فلسـطين زمن، يتجرّأ فيه غلاة اليهـود ممن درّبتهم وسـلّحتهم الحركة الصهيونية على احتلال حائـط الأقصى المبارك.. حائط البراق.. الـذي يسـمونه زوراً «حائط المبكـى»، ويدّعـون أن هيكل النبي سليمان يوجد تحته، وهو لعمري ادّعاء أخرق، وتحدّ سافرٍ لمشاعر المسلمين وشعائرهم..

وتدفق القسام بلاغة وغضباً..

ـ فلله درّ فتية غـاروا على أقصاهم.. وغلت النار فـي عروقهم، وهم يرون أبناء صهيون يرفعون عند البراق علمهم، وينشدوا نشيدهم، ويشتمون دينهم ورسولهم..

ـ للّه درّ رجال دفعوا أرواحهم فداء للأقصى والبراق.. منهم من استشهد بسلاح اليهود الذين أفصحوا عن حقدهم.. ومنهم من استشهد بسلاح الإنكليز الذيـن انحازوا للباطـل، وتحالفوا مـع شـياطين الصهيونية.. فانظـروا أيها المسـلمون.. أيها العرب.. بأيّ عدوّ رمتكم عصبة الأمم وانسلّت، بعد أن أعطت الإنكليز حقّ الانتداب، ومنحت الحركة الصهيونية حق سرقة فلسطين وابتلاعها.

ـ أيها الناس.. لقد بلغ السيل الزبى، ولم يعد هناك حجة لساكت أو متـردّد.. إنهم يقيمون كيانـاً خبيثاً داخل البلاد، ماضون فـي إنجاز الوعد الذي انتزعوه من بريطانيا العظمى بالمكر والمال، وهاهم يشهرون السلاح في وجوهنا..

تنبهوا واستفيقوا يا أهل فلسـطين، واعتصموا بحبل اللّه، ولا تترددوا..

وأعدّوا واستعدوا ليوم لا ريب فيه، وتذكروا دائماً أن هذا اللص الذي تسلّل إليكم بليل، ماكان ليتسلل إلى الدار، لولا طرف آخر، تواطأ معه، وفتح له الباب، فلا تنشغلوا باللص، وتنسوا من حرّضه ودفعه وحماه، لغاية في نفس يعقوب يريد أن يقضيها!.

وتحمّس أحد الشباب، فوقف وهتف بأعلى صوته: الجهاد، الجهاد.. الموت للصهيونية.. يسقط الإنكليز.. وكبّر الحاضرون، وتنادوا للانتقام للأقصى، والثأر للضحايا مهما كلف ذلك من تضحيات..

وتركهم الشيخ يفرغون شحنات الغضب التي تضطرم في نفوسهم، حتى إذا هدأوا، نصحهم بالصبر والتروي، والإعداد ليوم قادم، تكون المبادرة بيدهم لا بيد أعدائهم، الذين استفادوا من حادثةِ البراق لمعرفة مواطن القوة في هذا الشعب الثائر..

وفي اليوم التالي، كان تقرير المخبر الذي أُرسل لسماع خطبة الشيخ القسام، جاهزاً على طاولة رئيس المخابرات البريطانية في حيفا، الذي وضع خطاً أحمر تحت الفقرة التالية:

«والملاحظ أن القسام على غير المتوقع كان يهدّئ من حماس الشباب الغاضبين، ناصحاً لهم بالهدوء والتروي، لكنه ظلّ في نفس الوقت ينصحهم بأن يعدّوا ويستعدوا، ولا يندفعوا بلا تخطيط!»..

وتوقف الضابط طويلاً عند العبارة الأخيرة!.. ثم تناول القلم، وكتب بالحبر الأحمر الملاحظة التالية:

«الشيخ السوري ما زال غامضاً، وكلامه يحمل الكثير من التحريض ضد حكومة الانتداب.. أقترح استبدال المخبر الذي يتابعه بآخر أكثر حنكة وذكاء، ليكشف لغزه!..».

حان وقت المؤتمر العام الثاني للشبان المسلمين، فكان حاشداً.. كشف حجم الانتشار والتأييد الذي حققته هذه الجمعية لا سيما بعد هبّة البراق، وفاز الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم برئاسة الجمعية هذه المرة، واختير القسام نائباً له، وأقام الأستاذ رشيد حفل غداء لأعضاء مجلس إدارة الجمعية الجديد، ورؤساء أفرع الجمعية في فلسطين، وعدداً من الوجهاء والأصدقاء..

وبعد أن انفضّ الجمع، جلس ثلاثة رجال يتداولون فيما آلت إليه الأمور.. وقال الشيخ عز الدين:

ـ رجالنا ما زالوا يتحرقون للمواجهة، وقد بذلت جهوداً كبيرة لإقناعهم بالتروي، لكن قيام الشيخ فرحان بالهجوم على الإنجليز واليهود في جنين أشعرهم بأنّا مقصرون.

علق الشيخ كامل:

ـ حسناً فعلت. لم يكن من الحكمة أن تلقي برجالك في معركة غير متكافئة، فتكشف عما استغرقتَ سنوات في بنائه.. لكن أما وقد هدأتْ أحداث البراق، دعونا نخطط للمستقبل..

ضحك الأستاذ رشيد:

ـ لكن خطبك النارية ألهبت الشارع من جديد..

ـ أضعف الإيمان يا أستاذ رشيد.. لولا هذه العصبة التي بنيناها، لذهبْتُ بعيداً في الثأر للأقصى والبراق..

ومال الأستاذ رشيد إلى الجدّ:

ـ وصلنا اليوم في جريدة اليرموك خبر سوف أنشره غداً، حول ما

توصلت إليه لجنة الانتداب للتحقيق في أحداث البراق، حيث اعترف رئيسها «وولتر شـــو» في تقريره، أن معظم إصابات العرب كانت على أيدي القوات البريطانية، وعزى أســباب الغضب العربي إلى خوف العرب على مستقبلهم وتجارتهم، وخشيتهم من سيطرة اليهود بسبب الهجرة اليهودية المتزايدة.. وقد أحدث التقرير ضجة في بريطانيا، وأغضب وزارة المستعمرات التي لم تتوقع هذه النتيجة..

قال الشيخ كامل مرحباً بالخبر:

ـ هذا درس لإخواننا الذين ما زالوا يأملون بحياد بريطانيا وسياستها، ليقلعوا عن أفكارهم..

تابع الأستاذ رشيد:

ـ لكني قلق من شيء..

ـ ماهو؟

ـ رغم هــذا التقرير فمــا زال التجنّي البريطاني مســتمراً.. الأحكام التي صدرت مؤخراً برّأت اليهود الذين اعتقلوا بالجرم المشــهود، فأفرجت عنهم، ماعدا الحكم بالإعدام على يهودي واحد كان يعمل شــرطياً في يافا، وأدين بقتل عائلة عربية من سبعة أشخاص، بينما حكمت بالإعدام على على عشرين عربياً وبالسجن على ثمانمئة..

وقال الشيخ عز الدين:

ـ يجب أن نفكر في طريقة نوقف بها أحكام الإعدام.

ـ ليس لنا إلا أن نفضح هذا التجني الواضح.. يعدمون عشــرين منّا، بينما لا يعاقبون إلا يهودياً واحداً. هذا ظلم واضح!.

أثنى الأستاذ رشيد على هذا الاقتراح..

ـ الشــيخ كامل على حق. يجب أن نثير هذا المعنى لنحرج الإنجليز..

الشيخ عز الدين من خلال خطب ودروس الاستقلال، الشيخ كامل من خلال توجيه الطلبة في مدرسة البرج وعلاقاته التجارية والاجتماعية، وأنا من خلال جريدة اليرموك، وسأنسق مع بقية الصحف في فلسطين.

علق الشيخ عز الدين:

ـ كل هذه حلول مؤقتة، ولن يفل الحديد إلا الحديد.. الشباب متحرقون للجهاد، لكن الأسلحة مازالت محدودة.. ليس لدينا إلا بضع بنادق ومسدسات..

قال الشيخ كامل:

ـ تأمين السلاح سهل إذا توفر المال.. سنعمل على توفير ما يكفي لشراء السلاح اللازم، لكن عليك أن ترتب طريقة لتخبئته وحفظه إلى أن تحين الحاجة.

ـ في هذه لا تقلق.. الشيخ علي الحاج عبيد بارع في تخبئة السلاح.. وقد فرغته لمتابعة هذه الأمور.

وقال الأستاذ رشيد:

ـ أرجو أن تطمئن يا شيخ عز الدين.. كلنا معك في ما تخطط له، وسوف نسعى أنا والشيخ كامل لتأمين ما يمكن من مال وسلاح.. المهم الرجال الذين تختارهم، وتعدهم للثورة.. وقد أعجبت بحرصك على أن تحافظ عليهم في هذه المحنة، وأرجو أن تستمر الأمور على هذا الحال.

زاد نوح إبراهيم من تردده على مسجد الاستقلال بعد حوادث البراق، فأعجب القسام بفكره وأخلاقه، وقرر تشكيل فرقة من الكشافة لتجمع الشباب في سن الفتوة والمراهقة، واختار نوحاً قائداً لها..

وذات صباح طرق نوح إبراهيم بيت القسام، وهو كسير النفس مهموم، فدعاه للدخول..

- ما بالك يا نوح.. تبدو ساهماً وحزيناً!

- مصيبة جديدة مما يصنع بنا هؤلاء اليهود..

- أفصح يا بني..

- الصندوق اليهودي اشترى أرض الحوارث في «طول كرم» بالمزاد العلني، وبالأمس جاءنا مراسل جريدة الكرمل هناك، يخبرنا بأن البوليس الإنجليزي نفّذ عملية إخلاء الوادي بالقوة، وقد تشردت بسبب ذلك ثلاثمئة عائلة كانت تعيش من هذه الأرض.

- لا حول ولا قوة بالله

- أردت أن أستأذنك في أن نجمع الكشافة، وندور على التجار والمقتدرين لجمع بعض المعونات لهذه الأسر..

- فكرة طيبة.. أريد نسخة من الجريدة للاطلاع على التفاصيل، وسوف أتكلم عن الموضوع بعد صلاة العصر، ثم تبدؤون حملتكم.

وتحمس الناس لنصره أهل الحوارث الذين شرّدوا في الأرجاء، لا مأوى لهم أو ملاذ.. وعادت مشكلة المهاجرين اليهود تفرض نفسها بقوة، فلم يعد أهل فلسطين يطيقون هؤلاء المهاجرين المدلّلين، الذين تنتصر لهم دائماً القوة البريطانية الباغية، غير عابئة بضحاياها من العرب.

وراح كشافة الاستقلال يدورون على المتاجر والأماكن العامّة.. يشرحون للناس ما حلّ بأخوة لهم، حوّلهم اليهود والإنكليز إلى فقراء ومشردّين، ويحثّونهم على التبرع ببعض ما يساعد على نجدتهم.

ووصلوا إلى خان قديم في البلدة التحتا، فوجدوا صاحب الخان يجلس وحيداً، يدّخن النارجيلة، وتقدم منه نوح إبراهيم، وألقى عليه التحيّة..

ـ أهلاً وسهلاً.. كم غرفة تريدون؟

تبادل الشباب نظرة باسمة..

ـ لم نأت من أجل السكن، بل من أجل أمر آخر..

بدت الخيبة على وجه الرجل..

ـ قلت لمّا شفتكم جاءت الرزقة.. لكن ليس لي نصيب!.

قال نوح:

ـ الله الرّزاق يا عمّ..

لفّ الرجل نربيش الأرجيلة على جذعها الزجاجي المزخرف. قال وهو يعتدل في جلسته:

ـ كان هذا الخان لا يهدأ من كثرة الزّوار، لكن الفندق الذي نشأ قريباً من هنا قطع رزقي..

ـ ولماذا لا تحوله إلى فندق حديث؟.

ـ البناء يحتاج إلى مال.. ومن أين لي بالمال الذي ينافس هؤلاء، اليهود الذين يكادون بأموالهم يشترون حيفا كلها.

وشعر نوح بأن مهمته مع رجل منكوب برزقه غير مجدية، فاستأذن..

ـ إلى أين؟

ـ لا نريد أن نثقل عليك.

ـ لم تقولوا لي ماذا تريدون منّي!.

قال نوح، وهو مشفق على الرجل..

- نجمع تبرعات لأهل وادي الحوارث..
- ما لهم؟.
- نكبوا بمثل ما نكبت.
- لم أفهم!.
- اشــترى الصهاينة أرضهــم من مالكها فــي لبنــان، وطردهم منها الإنكليز بالقوة، فهاموا في البلاد يبحثون عن مأوى..

حوقل الرجل، وهبّ واقفاً يتساءل..

- ومادخلكم أنتم بهم؟
- نحن من جامع الاستقلال. نجمع لهم بعض التبرعات..
- كم عددهم؟.
- ثلاثة آلاف..

أطرق الرجل في حزن..

- لو جئتم في تلك الأيام، لما قصّرت.
- لك ثواب النية كما يقول الشيخ القسام..

وودّعوه يريدون أن يمضوا، لكنه استوقفهم..

- عندي في الخان عشــر غرف، تتسع لعشــر عائلات.. هذا أكثر ما أستطيعه.

# ١٠٠

كان الشيخ عز الدين متوجهاً إلى المحراب لأداء صلاة العصر، عندما لمح شاباً من رجاله في عكا، كان قد كلفه بجمع المعلومات عن سجناء البراق، فاقترب منه، وصلى بجانبه ركعتي سنة المسجد، ثم سأله بلهفة، وهو يتصنع الهدوء:

- ما الأخبار؟.
- قرروا إعدام ثلاثة فقط من المحكومين بالإعدام..
- من؟.
- عطا الزير ومحمد جمجوم وفؤاد حجازي.
- أنت متأكد؟؟.

أجاب بنبرة تقطر ألماً وحزناً:

- سيعدمون يوم الثلاثاء.
- واليهودي الذي حكم بالإعدام؟.
- خانكين؟.
- أجل.
- صدر قرار بتخفيض عقوبته إلى السجن..
- رغم أنه قتل أسرة بكاملها؟!
- في ظل الانتداب ذنب هؤلاء مغفور.

بلغ الغيظ بالشيخ عز الدين مداه، همس للرجل:

- غادر المسجد بعد الصلاة فوراً، وتابع أخبار المعتقلين.. وحاول أن تطمئنّي على الشيخ فرحان..

وغطى الشيخ عز الدين وجهه بكفيه، وهو يستحضر وجوه هؤلاء

الرجال، الذين شـرّفوه مـراراً بحضورهم لبعض دروسـه وخطبه، وتذكر كلمات الشهيد فؤاد حجازي «ادعُ لي ياشيخي بالشهادة!.. وطّنت نفسي منذ اللحظة، أن تكون هذه نيتي إلـى أن ألقى الله عز وجل» فنفرَت من عينيه دمعة تتلظى بالحرقة والأسى..

وجاء يـوم الثلاثاء الحمراء، فاشـتعلت الشـوارع من جديـد.. وانطلقت المظاهـرات الغاضبة في مدن فلسـطين، تزفّ الشـهداء وتتوعـد الانتداب، وصدحت المآذن تستمطر الرحمات على الأبطال الثلاثة، الذين بذلوا أرواحهم من أجل القدس في معركة البراق.. المعركة التي بدأت، ولن تنتهي..

وتنادى الزعماء والوطنيون لإقامة جنازة كبيرة للشهداء الثلاثة، وتقرر دفنهم في مقبرة النبي صالح بعكا، وتولّى الأسـتاذ رشـيد الحاج إبراهيم رئيس جمعية الشـبان المسلمين بناء قبورهم بنفسـه، وكانت جنازة حاشدة تحولـت إلى مظاهرة غاضبـة، تهتف ضـد بريطانيـا والصهيونية، وكادت الجنـازة تتحول إلى مجـزرة، عندما اعترضتها قوات الخيالـة البريطانية، لولا أوامر عاجلة وصلت إليها بالانسـحاب من وجـه المتظاهرين، بعد أن أدرك الحاكم العسكري أنّ جذوة البراق بدأت تشتعل من جديد.

وتفاعلت قصة الشـهداء في وجدان الفتى الشاعر نوح إبراهيم، فأطلق قصيدةً صارت أغنيةً يصدحُ بها المنشدون في الأمسيات..

مِـنْ سِـجِنْ عـكا وطِلْعِـت جَنـازِة
محمَّـدْ جمْجُـومْ وفُـؤادْ حجـازي
جـازي عليهُـم يـا ربِّـي جـازي
المنْـدوبِ السّـامي وربْعُـه عِمـوما
إمِّـي الشّـفوقة بالسِّـجْنِ تنـادي
ضـاقَـتْ عليهـا كُلِّ البـلادِ

نادُوا فؤادْ ومُهْجِةْ فُؤادي
قَبِلْ نِتْفَرَّقْ تايوَدِّعُونا
تِنْدَه عَ عَطا من ورا البابِ
وِقْفَتْ تِستنظر مِنُّه الجوابِ
عطا يا عطا زينِ الشبابِ
بِهْجِمْ عَ العَسْكَر ولا يهابونا
حَبْسَك يا عَطا ما عُدْنا نْهابُو
ما دامِ الظُّلُم ظارِبْ أطنابُو
هذا وَطَنّا واحْنا أصحابو
حِزْبِ الصَّهيوني قُوموا ارْحلونا
يقُول مْحَمّد أنا أوَّلْكُم
خُوفي يا عطا أشْرَب حَسْرِتكُمْ
يقول حجازي أنا أوَّلْكُم
ما نْخافِ المَشانِقْ لَوْ عَلَّقونا
شَرقيِّ القُدسْ صارَتْ مناحَة
سِمْعَتْها يافا طِلْعَت صَيّاحة
قالت يا قُدسْ يلّلا يا ريحا
نِعْلنْها ثوْرَة على صَهْيونا

## ١٠١

استقطبت جماعة الشبّان المسـلمين آلاف الشباب، وصارت ملاذاً لكل شابّ يبحث عن دور وفكرة، ويسـعى لتغيير هذا الواقع البغيـض.. وكان الصحفي عبد الغني الكرمي أحد ألمع الشـبان المسلمين في حيفا، فقد جذبته الفكرة، فتفاعل معها، وكان يكثر من التردد على مقرها الرئيسي، وله صحبة مع الشيخ القسام..

وذات يوم.. كان الكرمـي مع بعض أقرانه في مقر الجمعية بحيفا يلعب النرد، فدخل قرويّ وسأل عن عيادة الطبيب؟!..

ضحك الشباب، وانبرى الكرمي يمازحه..

ـ لعلك لم تقرأ اليافطة على الباب يا أخ، هذه جمعية وليست عيادة.

قال القروي:

ـ أعرف... قالوا لي أنه توجد عيادة في الجمعية..

قال عبد الغني الكرمي لأصحابه:

ـ الأخ مصرّ على العيادة.. دبروها يا شباب..

قال أحدهم:

ـ هل أنفع أنا؟

ـ أنت دكتور؟

ـ دعت لي أمي يوماً أن أصبح طبيباً، لكنّ دعاءها لم يستجب.

انفجروا ضاحكين.

ودخل الشيخ عز الدين، فصدم بالمشهد..

- ما القصة يا شباب؟

ارتبكوا وهم يرون الشـيخ القسام فوق رؤوسـهم.. وقال الصحفي عبد الغني الكرمي، يحاول تبرير ماحدث:

- الأخ يبحث عن دكتور في الجمعية، فاستغربنا طلبه.
- هب أنه أخطأ. هل كان في ذلك ما يدعو للضحك.
- لم نقصده بالذات، بقدر ما أثار سؤاله استغرابنا.

التفت الشيخ إلى القروي، وقال له:

- لعلك تقصد العيادة التي في الجمعية الإسلامية.
- أجل.
- هذه جمعية الشبّان المسلمين، أما الجمعية الإسلامية ففي شارع البرج.
- اعذرني، فقد خربطت.
- لا تقلق. سأذهب معك.

وصاحب الشيخ القروي إلى عيادة الجمعية الإسلامية، فانتظر القروي حتى خرج من عند الطبيب، فأخذ منه الوصفة، واصطحبه إلى صيدلية دميان في شارع اللمبي، فدفع له ثمن الدواء، ثم ودّعه، وقفل راجعاً..

كان الكرمي ما زال في الجمعية، يطالع بعض الصحف.. وعندما شاهد الشيخ عز الدين يدخل مكتبه، لحق به..

- المعذرة يا شيخ عز الدين.. لعلك غاضب منّا. إنما كنّا نمزح.

قال الشيخ عز الدين، وهو يتهالك على كرسيه، خلف مكتبه المتواضع..

- أعرف أنه كان مزاحاً.. لكن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أمرنا أن نعرف أين تقع كلماتنا في نفوس الآخرين عندما نمازحهم، ونتجنب أي مزاح يسخر من الآخرين أو يروعهم..

وخالط الكرمي شعور بالذنب.

- أعترف بأنك علمتني اليوم درساً بليغاً في التواضع.
- أهل القرى يتصرفون على الفطرة. كلما كان الإنسان بسيطاً كلما كان أكثر صدقاً وإخلاصاً.

- أهذا سرّ اهتمامك بالعمال والفلاحين وبسطاء الناس؟

- لا تنسَ كم ظلموا بسبب بريطانيا واليهود.

- قد يتهمك البعض بالشيوعية، لأنك تنحاز لهؤلاء!.

- هذا ديننا يا أستاذ عبد الغني. عندما تكون مؤمناً بما تفعل، فامض في مشروعك، ولا تلتفت للأقاويل.

كتب الصحفي عبد الغني الكرمي في اليوم التالي..

«.. وقد تعلمت من الشيخ عز الدين القسام درساً لن أنساه.. درساً في احترام الإنسان والانحياز إلى البسطاء من العمال والفلاحين وأبناء القرى.. لأنهم أكثر صدقاً وإيماناً، وأقرب الناس إلى التضحية، وأجرؤهم في الحق، ولعلّ هذا هو سرّ هذا الحب الجارف، الذي حظي به هذا العالم المتواضع، الذي أصبح اليوم نجماً يلمع في أفق الجنوب.».

ـ أترون إلى هذا الخبر؟

تساءل القصاب..

ـ أي خبر؟

ـ هنا يا شيخي.. عند صورة هذا الإنجليزي.

تناول القسام جريدة اليرموك، وقرأ الخبر الذي أشار إليه الشيخ حنفي:

«إطلاق النار على المستشار القضائي للانتداب في فلسطين..

محمد عبد الغني أبو طبيخ سباعنة يطلق النار على «نورمان بنتويش» الذي اشتهر بقراراته الجائرة ضد العرب..».

علق الشيخ حنفي:

ـ الحمد لله دماء الزير وجمجوم وحجازي لم تذهب هدراً..

ـ هذا أول الغيث.. والبقية تأتي إن شاء الله

ـ من تراه وراء هذه الحوادث؟.

قال القسام:

ـ علمت أن مجموعة من الفدائية تسمي نفسها «الكفّ الأخضر» قامت ببعض العمليات.

سأله الشيخ القصاب:

ـ هل اتصلت بهم؟

ـ هم اتصلوا بي، ونصحتهم أن ينتبهوا لأنفسهم، ولم أمض معهم أبعد من ذلك..

- كيف وجدتهم؟
- شباباً متحمسين أدعو لهم دائماً..
- وماذا عن أبو جلدة والعرميط؟..

هتف الشيخ حنفي بنبرة مرحة:

- أخبارهما خلبت ألباب النـــاس.. لا تقابل أحداً إلاّ وتجده يتحدث عن هذين البطلين، اللذين دوخا بريطانيا في مرج بني عامر، ويتندرون بالكمائــن الذكية، التــي يعدّونهــا للجنــود الإنجليــز، يخلصونهم فيها أسلحتهم.

قال الشيخ عز الدين:

- أحداث البراق نبهت الناس إلى حجم الخطر الذي يتهددهم.
- هذا هو الوقت المناسب للعمل والإعداد..
- لكن الإنجليز زادوا من التشديد في مراقبتي..
- فلتنتبه.
- أحاول أن أتصرف على سجيتي مع الحذر الشديد..
- وماذا عن «الشبان المسلمين»؟

ضحك الشيخ عز الدين..

- لو تعلم حجم الإقبال علــى الجمعية بعد هبة البــراق، في كل يوم نستقبل عشــرات طلبات الانضمام إلى الشبان المسلمين.. فلسطين تستيقظ من جديد يا شيخ كامل.

والتفت القصاب إلى الشيخ حنفي.

- وما أخبار بيارة الطنطورة، متى تبدؤون قطاف البرتقال هناك؟
- وصينا على الصناديق، وحالما نستلمها سوف نبدأ القطاف فوراً.

وأردف الشيخ عز الدين:

ـ نرجو أن تدرّ علينا المزرعــة دخلاً يكفي، فقد وعدنــي أبو العيون بتأمين عشرين بندقية، ولعل العائد هذا العام يغطي الثمن.

قال الشيخ كامل:

ـ كانت فكرة ضمان البيارات فكرة موفقة للاســتثمار وزيادة الموارد.. على أية حال إذا لم تكفِ عائدات البيارة، أتكفل أنا بالباقي.

أصرّ عمال حيفا على أن يجتمعوا لتأبين شـهداء البراق، ودعوا القسام ليلقي كلمة فيهم.. ووقف الشيخ عز الدين على المنصة في ساحة الجرينة، فسـاد صمت، وراحت الأذان تتشـوق لكلمات فارس الكلمـة، الذي ألهبت خطبه فلسطين كلّها، وأجّجت الثورة في دماء الأحرار في كل مكان..

وتدفق بالكلام..

«ولا تحسـبنّ الذين قتلوا في سـبيل الله أمواتاً، بل أحيـاءٌ عند ربهم يرزقون».. لا تحسـبنّ فـؤاد حجازي ومحمـد جمجوم وعطـا الزير الذين أعدمهم الغازي البريطاني كرما لعين الصهونية أمواتاً.. بل هم شهداء عند ربهم يرزقون.. شـهداء.. فـي حواصل طير خضر، يرفرفـون الآن في ظلال العرش.. يشكون لربهم الانتداب الغاشـم.. يشكون الحملان الغبية التي ما فتئت تحدثنا عن السلام مع الذئب البريطاني، علّه يشكم اللص الصهيوني الذي هدّد البلاد والعباد..

الذئـب البريطانـي الـذي أعدم شـبابنا، لأنهـم دافعوا عـن وطنهم ومقدسـاتهم، وخفّف حكم الإعدام عن الجزار اليهودي في شرطة الانتداب «خانكين»، الذي قتل أسـرة كاملة من سـبعة أشـخاص في يافا.. ليحكموا عليه بالسـجن لسـنوات، ولا أسـتغرب أن يراه أهل يافا قريبـاً بينهم حرّاً طليقاً، يستعد لافتراس أسرة جديدة من أهلنا الأبرياء..

وبمناسـبة الحديث عن «خانكين» كنموذج عن اليهود الذين شـحنتهم الصهيونية بالأحقاد، وأرسلتهم لنا في فلسـطين، حدّثني الشهيد صالح أبو شـقرا، رحمه الله.. الذي قضى شـهيداً على يد قطعان المهاجرين في يافا أيام البراق..

وغصّ الشيخ بالكلمات، وهو يتذكر الشـهيد صالح، فمسح دمعة أفلتت منه، وضغط على نفسه ليتماسك أمام هذا الحشد. وتابع يقول:

حدثني قبل سنوات عن إمام مسـجد طيب من حارة العراينة في يافا، كان يعتقد أن المهاجرين الأجانب تنطبـق عليهم أحكام أهل الكتاب، وكان يرى أنّ لهم مالنـا، وعليهم ما علينا، مثلهم مثل اليهودي الذي نشـأ بيننا وعاش معنا فـي هذه البلاد، وكان خانكين هذا جاره، فكان الشـيخ يكرمه ويحترمه على هذا الأسـاس، وظلّ مخدوعاً به حتى قامت هبّة البراق، فإذا بخانكين هذا يدخل عليه، فيقتله هو وأطفاله.. ولا ندري كم قتل من العرب الآخرين.. فانظروا أي قوم ترميكم بهم بريطانيا، وأي وطن سـيقيمه هؤلاء على دمائنا وأشلائنا؟..

حجازي وجمجوم والزير يا شـباب فازوا بالشهادة، ونحن ننتظر.. فمن أراد أن يقتفـي آثارهم فالطريق واضـح.. ومن أراد أن يركـن إلى الدعة والسلامة، فلينتظر سكين الجزار اليهودي خانكين.. فالصهيونية جاءت إلى هذه البلاد لتقيم وطناً ودولة، وسـوف تحـاول أن تزيح كل الأحرار الذين يرفضون أن تتحول فلسـطين إلى وطن لليهود الأجانب، فانظروا ماذا أنتم فاعلون.

كانت القلوب تمور بالثورة، والعيون تترقرق بالدمع، والشفاه تترحم على الشـهداء، الذين سـقطوا على طريق الحرية والاسـتقلال.. وكان في مقدمة الحاضرين شـاب تبدو عليه علامـات التأثر، وما كاد الشـيخ يمر من أمامه ليعود إلى مكانه، حتى تلقفه وعانقه، وهو يغصّ بالدمع..

- يسلم فمك ياشيخ.. كلماتك تهزّ الصخر..
- الله يبارك فيك.. مين بلا صغرى؟..
- حنا عصفور. محامي

ـ حياك اللّٰه..

وأردف وهو يودعه..

ـ أرجو أن نراك قريباً في جامع الاستقلال.

ارتبك الشاب، وتلعثم..

ـ عفواً أنا حنّا.. حنّا عصفور

ـ أنعم وأكرم.. أهلاً بك متى أردت.. نحن أهل وإخوان.

نزلت كلمات القسام برداً وسلاماً على قلب حنّا، وكبر القسام في عينيه.. هذا رجل مختلف فعلاً. ولكن.. ماذا سيفعل «حنّا» في مسجد الاستقلال؟!.

ـ أفسحوا الطريق للشيخ.. المأذون وصل..

وشق الشـيخ عز الدين طريقه بين الرجال، الذين جاؤوا ليباركوا هذا الزواج، وقدمه الشاب الذي أحضره لوالده:

ـ الشيخ عز الدين القسام.

هتف الوالد بحماس:

ـ يا أهلاً بالشيخ الشـامي.. والله زارتنا البركة، سِمعتُك يا شيخ عز الدين تملأ حيفا.

ثم وهو يخاطب من حوله..

ـ حضرتُ له خطبة في جامع الاسـتقلال.. ما شاء الله.. علم وحماس ووجه يتلألأ بالنور.

ـ هذا من لطفك..

ـ أنا والد العريس أبو العبد.

ثم وهو يعرفه على من حوله:

ـ وهذا الحاج أبو محمد والد العروس.. نريـدك أن تعقد قران ابني عبد الله على كريمته صفاء.

ثم وهو يتلفت حوله:

ـ أين أنت يا عبد الله؟..

وحضر الشاب، فصافح الشيخ..

ـ هل نبدأ بكتب الكتاب؟

ـ تفضل.. في هذه الغرفة..

وكانت من عادة القسـام أن يسـتوثق من رأي الفتيات، خشية أن يكنّ

تحت ضغط الأهل، ليرضين بمن لا يردْن، لا سـيما بعد أن اكتشف حالات أجبرت فيها فتيات على اختيار من لا يرغبن من أقربائهن، بسـبب الإرث أو تفاهمات الكبار، وبعد أن سمع رأي الشاب، أراد أن يستمع لرأي الفتاة..

- هل أنت موافقة يا ابنتي على هذا الزواج؟

صمتت الفتاة، ولم تجب.

وهمست إحدى النساء من خلف الباب الموارب:

- السكوت علامة الرضى يا شيخنا..

هتف القسام منبهاً:

- أرجو من أخواتنا عدم إحراج الفتـاة.. دعوها تقول رأيها بصراحة، ولا تؤثّرنَ في قرارها.

تدخل الحاج أبو محمد والد العروس..

- هي موافقة يا شيخنا، ولكنها تستحي أن تقول.

- أريد أن أسمع منها ما يقنعني أنها موافقة بملء إرادتها.

ثم وهو يشجع الفتاة:

- قولي يا بنتي.. توافقين على هذا الزواج؟..

همست الفتاة بنبرة ترتعش من فرط الحياء:

- الخيرة فيما اختاره الله.

وآنس القسام منها صدقاً، فأبرم العقد.

- مبروك. سمعونا الفاتحة.

وغمرت الفرحة القلوب، فلعلعت الزغاريد احتفاء بهذا الزواج.. وتكاتف الشـباب يرقصون الدبكة فرحاً بزفاف عريسهم، ودعا صاحب الدار الشيخ للتفضل بالجلوس فـي صدر المجلس مع بعـض التجار والوجهـاء، ودارت أطباق الكنافة والمبرومة على الحضور ابتهاجاً بهذه المناسبة..

وكان ابـن عم الحـاج صالح ممـن يحملون على الشـيخ عـز الدين، وينتقدون منهجه، فقال بنبرة جافة:

- نحن سعداء بلقائك ياشيخ عز الدين، لكن قلما نراك بيننا..

- أنا رهن إشارتكم..

تابع فيما يشبه اللمز..

- يقولون الشيخ القسام يحب الجلوس مع الفلاحين والعمال، ويقضي أغلب وقته مع البسطاء عند بوابة عكا..

فهم الشيخ ما يرمي إليه..

- والله أتشرف بالجلوس مع هؤلاء، فهم من خيرة أهل فلسطين..

- أخشى أنّا في نظرك من أشرارها..

صُدِم الشـيخ بهذه النبـرة، فاعتصم بالحلـم والهدوء. قـال دون أن يستجيب للاستفزاز:

- مثلي يجـب أن يكون مع هؤلاء، حتى يظل يشـعر بالظلـم الفادح، الذي أصابهم بسبب هؤلاء الصهاينة الذين طردوهم من أرضهم، وزاحموهم على لقمتهم.

- لعلك تقصد يا مولانا أنّا لا نشعر بهؤلاء!..

انزعج الشـيخ لأنه حشـر في هـذا المجلـس، وأراد أن يحسـمه على طريقته..

- بل قصدت أنّـي عندما أجلس مع هـؤلاء أسـتطيع أن أنقل للأفاضل أمثالك ما يعانون منه، فيقوموا بواجبهم في نجدتهم وإغاثتهم..

احتد الرجل، وقال بلهجة متعالية:

- لدينـا من هؤلاء الكثير فـي مزارعنا وحوانيتنا، ولـم نقصر معهم يوماً..

استفزّت القسام هذه اللهجة المتعالية. قال وهو يهم بالانسحاب:

ـ هؤلاء ليسوا متاعاً تقول لدينا منهم الكثير، تذكر أن هؤلاء كانوا معززين مكرمين في أرضهم قبل أن يطردهم اليهود والإنجليز، فلا نأتِ اليوم ونتعالى عليهم، وننتقص من كرامتهم.

ونهض منهياً الحوار مع رجل جاهل، أنساه غِناه أن يتحلى بقدر من الأدب والتواضع.

وأردف وهو ينظر للرجل نظرة تفيض لوماً..

ـ قرأت منذ أيام في جريدة المقطم أن اليهود أطلقوا على البارون روتشيلد لقب «السخيّ المشهور» لأنه ينفق ماله من أجل إقامة وطن لليهود في فلسطين، ويقف وراء تمويل نصف المستعمرات التي أنشأها الصهاينة هنا، وأتمنى أن أرى بيننا سخيّا يتبرع بمعشار ما أنفق هذا اليهودي، حتى يسدّ حاجة بعض العرب، الذين طردوا من وادي الحوارث على الأقل.

وأراد الشيخ أن يخرج، فاستوقفه بعض الحاضرين، ما نبه صاحب المناسبة، فأقبل مسرعاً..

ـ إلى أين ياشيخ عز الدين؟

ـ بيتكم عامر.. يجب أن أمضي.

ونظر الحاج إلى الرجال في دهشة، فقال أحدهم:

ـ ابن عمك علّ في الكلام كالعادة..

ـ سوّد الله وجهه.. ومع من؟.. مع الشيخ القسام؟!..

وأردف يطيّب خاطر الشيخ:

ـ حقك علي.. هذا البارد قد يكون تفلسف بالحكي، والله كوعه ماهو عارفه من بوعه..

ـ العفو.

ـ واللّه لا تخرج قبل أن يعتذر منك. لك الصدر وله العتبة.

ـ يا أخي الأمر لا يستحق. مجرد نقاش وانتهى.

وصاح الحاج بابن عمه غاضباً:

ـ الأستاذ القسام ضيفي، ومن يزعجه كأنه يطعنني في ظهري..

ـ ما قصدت أن أحرج الشيخ، لكني نقلت له ما يقوله البعض، وأردت أن أسمع رأيه..

قال أبو العبد ساخراً، وهو يضع يديه على خصره، فيما يشبه التحدي:

ـ عساك سمعت الرد.

قال، وقد شعر بأنه قد تمادى بحقّ الشيخ..

ـ كلام الشيخ على العين والراس.

ـ لا بد أن تعتذر باسم العيلة كلها.. واللّه لا يخرج الشيخ القسام من بيتي، وهو زعلان، ولو على رقبتي.

ونهض الرجل، وقبّل رأس الشيخ عز الدين، وعانقه أبو العبد معتذراً عما لاقاه من إساءة، فعاد راضياً، والتأم المجلس من جديد، والرجل الذي أخطأ بحق القسام يتساءل في سرّه عن لغز هذا الشيخ، الذي جاء حيفا لاجئاً، فإذا به اليوم ألمع نجم فيها؟!.

# ١٠٥

ابتسم القســام ابتســامة رقيقة عندما رأى المحامي حنا عصفور يتقدم على اســتحياء، ويجلس في مؤخرة الصفوف ليصغي لدرســه اليومي.. كانت ابتسامة تشجيع لهذا الشاب المسيحي، الذي يزور المسجد لأول مرة..

- وسّعوا يا شباب لأخينا حنّا..

التفت الجميع في فضول.. من هو «حنّا» الذي يتابع دروس القسام؟..

- تفضل يا أستاذ.. المكان يتسع للجميع..

راح حنّــا يرقب الوجوه التي اســتقبلته بابتســامة هادئــة، لا تخلو من غرابة.. مسيحي في درس القسام؟!.

لم يترك القسام المناسبة تمرّ..

- يا إخوان سوريا بلد الكل.. سوريا الكبرى التي نعرفها قبل أن يتقاسمها هؤلاء الغزاة.. من لبنان إلى فلسطين إلى شرق الأردن إلى سوريا الشام.. بلد الطيبة والتسامح التي عاش فيها الجميع أحباباً متعاونين.. المسيحي ابن هذه البلاد أخونا وشريكنا في هذه الأوطان.. وليس المسيحي الفرنسي أو الإنكليزي الذي جاءنا غازياً بالحديد والنار.. الآن أو بالأمس.. أجدادنا في كتب التاريخ كانوا يســمونهم الفرنجة، أي الأجانب، والبدو حتى اليوم يسمونهم الحمران.. والحقيقة يا إخوان أنهم هم الذين ســموا أنفســهم بالصليبيــن، حتى يقنعوا جنودهــم بالذهاب إلــى الحرب، بحجــة أن الدين يأمرهم بقتال المســلمين، الذيــن يضطهدون أهــل الصليب، ولم يكــن هذا صادقــاً.. تمامــاً كما تقنع الصهيونية اليوم اليهود بالهجرة إلى فلســطين، لاســتعادة مملكة داوود وهيكل سليمان، ولهذا هاجموا حائط البراق، وأحدثوا كلّ هذه الاضطرابات..

لقد عاش اليهود ـ يا إخوان ـ بيننا في ســلام.. لهم ما لنا وعليهم ما

علينا.. وعندما طردوا من الأندلس، لم يجدوا ملاذاً إلا في بلاد الإسـلام، فاسـتضافهم المسـلمون، وقدموا لهم كل ما يضمن حقوقهـم.. أمّا اليهود الذين يأتونا اليوم من روسيا وبولندا وألمانيا وأوربا، فلهم شأن آخر.. بعد أن أطلقت الصهيونية أطماعهم وأحقادهم خلف الحلم اليهودي بإقامة وطن في فلسـطين.. وطن ترونه اليوم يتشكل أمام أعينكم من مئات المستعمرات وعشرات الألوف من اليهود الأجانب، وما خفي كان أعظم.

وبعد الدرس خرج الشـيخ بصحبة ضيفه المحامي حنّا عصفور.. ودعاه إلى بيته المتواضع..

ـ اليهود يتزايدون يا أسـتاذ حنّا، ومسـتعمراتهم المنيعـة ترتفع في أرجاء البلاد كقلاع غامضة، تخفي خلفها غموضاً وأسـراراً، والإنسان يتفكّر فيما يمكن أن يوقف هذا الطوفان، فلا تسعفه إلا الكلمات.

ـ كلماتك تصيبهم في مقتل يا أسـتاذ عز الديـن.. الناس في حيفا يتبادلون كلماتك وأفكارك كلّ يوم..

ـ ليت الكلمات تكفي.

ـ والله يا أستاذ لا ينفع مع هؤلاء إلا الرصاص..

ـ صدقت.. لكن بريطانيا قوية وماكـرة، والأمر يحتاج إلى تعاون كلّ المخلصين من أجل وقف مشروع الوطن اليهودي..

قال حنّا، وعيناه تلمعان ببريق قرأ فيه الشيخ عز الدين الصدق والإخلاص:

ـ أنا رهن إشـارتك يا شـيخ عز الدين في كل ما تراه تعاوناً مفيداً، يصبّ في مصلحـة البلاد.. ولعلي أرى في كلماتك بـوادر ثورة مباركة تلوح في الأفق، ويراودنـي أن هذه الأفـكار التي تنثرها في وجـدان الناس من محبيك ومريديك لا بدّ أن تزهر عمّا قريب.. كيف؟ لا أدري..

أيقن القسام أن غرسه يثمر.. ويطرح في كلّ يوم جديداً..

## ١٠٦

في ليلة غاب عنها القمر، وعند كسـارة حسن شبلاق في الكبابير، اجتمع القسـام مع كل من خليل عيسى (أبو إبراهيم)، ومحمود زعرورة، وناجي أبـو زيـد، والعبد قاسـم، ومحمد صالـح الحمـد.. وفاجأهم بالكلام..

- اسـمعوا يا إخوان.. لعلّي على ما شـاهدت في حياتـي، لم أرَ ظلماً أسوأ من هذا الذي يجرى في فلسطين، فإذا لم نوقف جحافل الهجرة.. إذا لم نضرب مشاريع الصهيونية الغاشمة ومسـتعمراتها، فإن الوطن المشؤوم الذي يخططون له بتأييد من الإنجليز، سـيصبح حقيقة عما قريب، وسيهدد مسـتقبل فلسـطين وسـوريا وأمة الإسـلام جميعاً.. وقد ارتأيـت أن ننتقل بحركتنا من الإعداد إلى التنفيذ..

فرح الرجال بهذا القرار، واستبشروا، وتحمس محمود زعرورة وهو يشد على سلاحه..

- منذ متى ونحن ننتظر هذه الخطوة!.

- لقد كلفت الأخ ناجـي أن يجمع معلومات وافية عـن الأهداف التي سنضربها، وهو سيخبركم عنها الآن..

- الأهداف؟.

- لا تنسوا أنّا قلة، وتسـليحنا متواضع.. وحتى تتكامل قوتنا، وتكتمل عدتنا، سنختار أهدافاً محددة.. ستكون الآن محصورة بمعاقبة كل من قتل أو ظلم عربياً أثناء أحداث البراق.. وأول هدف لنا سيكون مستعمرة نهلال.

هتف العبد قاسم في حماس:

- أكرمني بهذه المهمة، وأنا أعدك بأني سأنجزها على أحسن وجه..

اعترض الشيخ حماسه، وقال بحزم:

ـ أبو إبراهيـم هو القائد.. ناقش الأمر معـه، ولا تحرجه، دعه يأخذ قراره بدقة ورويّة..

قال محمود زعرورة..

ـ هناك أهداف كثيرة تحت اليد، لو أمرتَ هاجمناها؟.

عاد القسام يؤكد:

ـ ضعوا خططاً محكمة حتى نضمن النتائـج.. يجب أن تكون عملياتنا متقنة بدون أخطاء.. لا أريد أن نكشـف ما بنيناه.. وتجنبوا الضربات التي تجعلهم يصبّوا جام غضبهم على الناس..

قال محمد صالح الحمد:

ـ المثل يقول إذا ضربت فأوجع..

تابع الشيخ، يضع قواعد التحرك الجديد.

ـ لم أقل أنّا سنعلن عليهم حرباً، فهذا أكبر منّا.. بل نزعجهم بعمليات مدروسـة، تؤدبهم، وتشـعرهم بأن مشـروعهم ووطنهم المزعوم مرفوض، وسنسـتفيد من وجود عدة جهات فدائية تعمل في نفس الوقت، حتى نشـتت تفكيرهم، فلا يعرف العدو من أين يأتيه الضرب..

وأردف:

ـ لا تضربوا هدفاً إلا بعـد تخطيط.. أبو زيد يجمـع المعلومات.. وأبو إبراهيم يضع الخطة.. ثم تتفقوا علـى دور كل واحد في التنفيذ.. وكلما كان العدد محدوداً كان أفضل.. لا تتوسعوا الآن في تكليف الجميع بالمهمات.. نريـد أن نحافظ على الحركة، حتى يشـتدّ عودها، وتصبح قادرة على قيادة ثورة حقيقية ضد الإنكليز واليهود..

كان لكلمة «الثورة» وقع السحر.. وقال العبد قاسم:

ـ بشّرك الله بالخير يا أبا محمد.. والله هؤلاء لا ينفع معهم إلا ثورة تزلزل الأرض تحت أقدامهم..

ـ ما يهمني سلامة الرجال.. لا أريد أي تسرّع، يجعلنا نخسر أخاً في هذه المرحلة، أو يقع أحد منّا في يد الأعداء..

واستدرك الشيخ عز الدين..

ـ انتبهوا يا شباب.. نحن مسلمون أولاً.. ولا نفعل إلا ما يرضي الرب.. نلتزم بأخلاق الدين الحربيـة.. لا نقتل طفلاً ولا شـيخاً ولا امرأة، ما لم تقاتلنا أو تقتل منّا.. لانقطع شجرة أو نتلف زرعاً أو نعكر ماء للشرب.. ولا نؤذي إلا من آذى أهلنا وبلدنا..

وبدأ التنفيذ..

وجنّ جنون بريطانيـا العظمى، وهي ترى الأرض تهتـز تحت أقدامها، وأثارت العمليات الجريئة الرعب في مسـتعمرات اليهـود، التي بدأت تضج بالشـكوى، وانتشـر الجواسـيس بين الناس، يبحثون عن خيط يدلهم عمّن يقوم بهذه العمليات، لكـن الانضباط والحرص الذي ربّى القسـام عليهما رجاله، جعل مهمة هؤلاء في غاية الصعوبة.

وتفاءل الناس بنهاية لهذا الليل.

سلم الشيخ القسام التسليمة الأخيرة من صلاة العصر، واستدار في جلسته، يستغفر الله العظيم، وبينما كان يتأمل المصلين، وقعت عينه على صديق عزيز.. أكمل الورد الذي يحافظ عليه بعد كل صلاة، وعندما حان وقت الدعاء، طلب من صديقه الشيخ طه الدريني من الناصرة أن يدعو عوضاً عنه..

شكره الشيخ طه بإيماءة من رأسه، ودخل في دعاء ضارع حرّك القلوب، وشحذ الهمم لتقبل على الله بتوبة نصوحة، وعزيمة على التغيير..

واصطحب القسام ضيفه إلى المنزل..

- يا هلا بالشيخ طه.. لكم أنا سعيد برؤيتك..

- بارك الله فيك يا شيخ عز الدين.. وجزاك الله خيراً على هذا الجهد الذي تبذله.. لقد أحدثْتَ وعياً كان شبابُنا بحاجة إليه..

- لا تُعِن الشيطان على أخيك يا شيخ طه.. إنما أجتهد فيما يوفقني الله إليه..

- هذا رأي الجميع.. ولعل البعض بدأ يحسدك على هذا التأثير وهذا القبول!.

ابتسم الشيخ عز الدين..

- نسأل الله القبول..

ضحك الشيخ طه:

- أحدهم قال لي..أريد أن أعرف ماذا يقول الشيخ القسام للناس في خطبه في الاستقلال؟.. كثير من رواد مسجدي يتركون خطبتي في الناصرة، وينزلون إلى حيفا ليسمعوا خطبته!.

تنهد الشيخ عز الدين، قال، وهو يسكب كأساً من مغلي الميرامية لضيفه:

- حتى ننجز لآخرتنا يجب أن نترفع عن هذه الصغائر يا شيخ طه، ونتفرغ لما هو أهمّ وأجدى..

وما لبث الشيخ طه أن استدرك وقد تذكر شيئاً دهمه للتوّ:

- ثمة شاب أعرفه من برقين يدعى حسن الباير..

قلّب القسام الاسم في ذاكرته، فلم يذكر أنه قد سمع به من قبل.. وتابع الشيخ طه:

- يلقبونه شيخ شباب برقين.. شاب مثال الشهامة والنخوة، لكنه كان مبتلىً بالحرام.. يأتي حيفا ليبحث عن الشرب واللهو والنساء، وقد صدف وجوده يوماً هنا، فاصطحبه قريب إلى اجتماع الشبان المسلمين، فسمع منك كلاماً رقّ له قلبه، فتاب من يومها، وقد زارني من أيام، وحكى لي قصته، وعندما أخبرته أني أعرفك، طلب مني أن أزكيه عندك.

- تبدو واثقاً به!..

مال الشيخ طه على أذن القسام، وقال بنبرة تميل نحو الجد:

- الرجل يتحرق شوقاً للجهاد.. يتمنى أن يفعل شيئاً ينال به من هؤلاء الغرباء، الذين يعيثون في البلاد غطرسة وظلماً.

اهتزت نفس القسام تأثراً، وشكر الله على توفيقه، وضرب له موعداً.

تواترت التقارير اليهودية والبريطانية حول خطر القسام على فكرة الوطن القومي لليهود، وكلفت حكومة الانتداب ضابطاً من أكفأ ضباطها، يدعى كلايتمان، بالإمساك بملفّ الشيخ القسام، لمعرفة ما وراء هذه الحملة التي يشنّها على المشروع اليهودي البريطاني في فلسطين.

وطلب بن غوريون أهم قادة اليهود المهاجرين مقابلة كلايتمان، ليعرب عن انزعاج زعماء الحركة الصهيونية، من الحملة التي يشنّها هذا الشيخ السوري على الهجرة، ونبهه إلى أن الشيخ يحرض الفلسطينيين على بريطانيا مباشرة، ويعتبرها هي العدوة الأولى للعرب..

قال كلايتمان:

ـ مستر بن غوريون نحن لا نعول على الكلام.. دعهم يقولون ما يشاؤون، وتابعوا جهودكم على الوجه الذي تريدون..

ـ الكلام عندما يحمل التحريض، يصبح أخطر من الرصاص.

ـ اطمئن نحن ما زلنا نراقبه.. وقد قررنا أن نراقب الأعضاء الناشطين في جمعية الشبان المسلمين أيضاً، وإذا لاحظنا أي سلوك تخريبي سنقف لهم بالمرصاد.

لم يقتنع بن غوريون بتطمينات كلايتمان:

ـ نحن نشك بالشيخ القسام، وسوف أكلف مجموعة من اليهود بمراقبته.

ـ سيكونون مكشوفين، وقد يتعرضون للخطر.. تخيل واحداً من رجالك اليهود يصلي في المسجد، ليراقب القسام. أنت تمزح بلا شك!.

ـ ليس بالضرورة أن يصلّوا بالمسجد.

- اطمئن. كلفت مساعدي المصري بترتيب أمور المراقبة.
- تقصد..
- حليم بسطة.
- حليم بسطة قبطي، وسيكتشف القسام أمره أيضاً.
- لا. لا. ليس بنفسه.. لديه ضابط عربي سرّي محترف، جنّده ودربّه، وقد جربناه..
- هل يمكن أن أعرفه؟
- لن يكون سريّاً إذا عرفته!.
- قد يكون مفيداً لكلينا أن نعرفه.
- أحمد نايف.. من برقين، ولدينا آخرون من العرب.. أريدك فقط أن تطمئن.

ونهض بن غوريون، يريد أن يمضي.

- جنرال كلايتمان.. لقد قمتم بعمل عظيم، لتفوا بالتزاماتكم لنا بإقامة الوطن القومي في فلسطين، لكنّا قلقون من أن تتم محاصرة هذا الوطن، وخنقه قبل أن يولد..
- أنتم دائماً قلقون!.. يجب أن تثقوا ببريطانيا العظمى..
- نحن واثقون، لكنّا مستعجلون..
- وما وجه الاستعجال؟..
- الأخبار التي تأتينا من ألمانيا لا تسرّ.. وقد وردتنا رسائل من زعماء اليهود هناك، بأن نستعد لاستقبال موجة جديدة من المهاجرين.

# ١٠٩

انتهــت صلاة العشــاء، وكاد المســجد أن يفرغ من المصليــن، ماعدا الشيخ القســام والشيخ علي الحاج عبيد وشــابٌ ظل يقرأ القرآن في زاوية المسجد، وهو يراقب الشيخ بطرف تختلط فيه اللهفة بالحذر..

ونهض الشــيخ علي، فسمع الشاب الشــيخ عز الدين يشوش له بشيء، ثم يطلب منــه أن يغلق الباب خلفــه، فأيقن أن اللقاء الــذي تاق إليه قد أزِف، فطوى المصحف فــي هدوء، ووضعه على الرفّ، وتقدم من الشــيخ، الذي استقبله مصافحاً، والتقط حسن يد الشــيخ يريد أن يقبلها، فسحبها بحركة ســريعة، ولفها حول كتف الشــاب، واحتضنه فــي ودّ، وهتف بنبرة تفيض بالترحاب:

- يا هلا بشيخ شباب برقين.. لقد سمعت عنك الكثير.

قال، وهو غارق في التأثر..

- ما أنا إلا شاب عاثر، تاهت خطاه، وقد هداه الله على يديك..

قال القسام، وهو يقوده من يده:

- لا تقل هــذا يا ولدي. لــولا أن نفســك تواقة للخيــر، لما وجدت كلماتي في نفسك صداها..

- الله يغفر لي ياشيخي.. كنت غارقاً في الموبقات..

- اطمئن.. التوبة تجبّ ما قبلها..

- الشيخ طه يقول لي هذا، لكنّي ما زلت أشعر بتفاهة تلك الأيام..

- المهم يا حســن أن تحســن التوبة.. تندم علــى مافات، وتعزم على أن لاتفعل إلّا ما يرضي الله، وتأكد من أن الله ســيبدل ســيئاتك حسنات.

أشـــرق وجه حسن بابتســـامة، وشـــت بالفرح والتفاؤل، وأراد أن يمضى بصحبة القسام، فاستوقفه، وقال بنبرة هامسة:

ـ اســبقني إلى الخارج.. ستجد الشـــيخ علي الذي كان هنا قبل برهة بانتظارك.. امض معه إلى بيتي، وسوف ألحق بكما بعد قليل.

رضخ حسن لرغبة القسّام، ومضى مع الشـــيخ علي الحاج عبيد، الذي توجه به إلى بيت قريب، وطرق باباً متواضعاً..

ـ من؟

ـ أنا علي.. الشيخ لديه ضيف.. وهو خلفنا..

ـ دقيقة.

وغاب الصوت، ليفتـح الباب بعد برهـــة طفل في الرابعـــة من العمر، فدخلا معه، وكان الشيخ وراءهما، فلم يلبث أن لحق بهما.. وضمتهم سهرة أنْسٍ تبادلوا فيها الأحاديث.. وطرق باب الغرفة، فغاب القســـام ليعود بطبق من القش، عليه أصناف بســيطة مـــن الطعام، وبعد أن تناولوا عشـــاءهم، استأذن علي الحاج عبيد، فنهض معه حسن، فاستوقفه الشيخ عز الدين..

- الشـــيخ علي يقيم هنا في حيفا، وله بيت يؤويـــه، أما أنت فقادم من برقين، وستبقى عندي الليلة، فبيني وبينك حديث..

لا يذكر حسن الباير أنه كان أكثر صفاءً وروحانية من تلك الليلة التي قضاها مع الشـــيخ عز الدين.. وتشـــعبت بهم الأحاديث إلـــى هذا الاحتلال الجاثم فوق الرؤوس، وهذه المســـتعمرات التي تحشـــد خلف أسوارها آلاف المهاجريـــن القادميـــن مـــن وراء البحار.. إلـــى قصص الفلاحيـــن الذين يتضـــورون ذلاً وجوعاً.. ترهقهـــم الضرائب والديون والأعبـــاء.. إلى العمال الذين يفقدون أعمالهم بسبب مزاحمة اليهود لهم..

وشـــعر حســـن الباير بدفء وســـلام كان يفتقده حقاً.. وأوى إلى النوم

تحت إلحاح الشيخ، وهو لا يكاد يصدق أنه في كنف هذا العالم الجليل، الذي كان لا يجرؤ على التحديق في وجهه قبل هذه الليلة، وتذكر كلمات القسام حول التوبة النصوحة والسيئات التي تتبدل إلى حسنات، فشعر وكأنه يولد من جديد.. وغاب في نوم عميق.. ولم يلبث بعد سويعات، أن شعر بيد حانية توقظه برفق:

ـ ما رأيك ياحسن بركعتين قبل الفجر؟.

وعلى الرغم من أن الشيخ انتزعه من نومه الهانئ، إلا أنه كان سعيداً بالحياة الجديدة، التي يقوده إليها القسام..

توضأ بنشاط، ووقف يصلي خلف الشيخ، الذي لم يستغرق في صلاته طويلاً كما كان يتوقع، ولم يلبث أن انطلق أذان الفجر من مئذنة الاستقلال، فانسكب في قلبه برداً وسلاماً، وانفعل بالنداء.. كأنه يصغي إليه لأول مرّة.

# ١١٠

بعد صلاة العشاء بدأ الرجال يتحركون تحت جنح الظلام.. بدوا وكأن كل واحد قد مضى إلى بيته.. واطمأن الجاسوس أحمد نايف، إلى أنّه لا شيء غير عادي يستحق السهر خلف هذه المجموعة.. فطوى حرصه، وتوجه لدار السينما، ليحضر فيلماً للممثل تشارلي تشابلن، شاهد الإعلان عنه قبل يومين، وما هي إلا ساعة أو تزيد، حتى بدأت بضعة أشباح تتحرك على الدروب المختلفة، كل من طريق.. وتسللوا إلى الدروب الترابية المظلمة، التي تؤدي إلى كسّارات الكبابير..

وتجمعت المجموعة عند كسارة حسن شبلاق.. فرحب بهم الضابط أبو العيون بلغته العربية الممزوجة بلكنة تركية محببة.. وراح يوزع عليهم سلاح التدريب، واستبقى بحوزته ثلاث بنادق..

تأمل أحمد التوبة في البنادق الثلاث.. الوحيد الذي لم يأت بعد هو الشيخ القسام، والبندقية الأخرى لأبي العينين، فلمن الثالثة؟..

ولاح لهم شبح قادم، سرعان ما تبين أنه ليس وحيداً، فقد ظهر خلفه شبح آخر يمشي على بعد خطوات منه، وكأنهما يمضيان منفردين، ولم يلبثا أن اجتمعا في نهاية المطاف، وقال القسام وهو يقترب بسمته الرصين وخطواته الواثقة:

ـ لدينا ضيف عزيز.. أريد أن أعرفكم به..

وتناول بندقية من أبي العينين، ودفعها إلى المجاهد الجديد:

ـ أخوكم حسن الباير من برقين.. سيكون أحد أفراد مجموعتكم منذ اليوم..

تساءل حسن، وهو يتأمل البندقية..

- لمن هذه البندقية ياشيخ؟

- هذه لك.. لتتدرب عليها.. ألم تسأل متى نعلن الجهاد في سبيل الله.

نظر حسن إلى شيخه بإكبار، وشعر بالامتنان لهذه الثقة التي يوليها له، وسأله المدرب أبو العيون:

- هل سبق لك أن استخدمت البندقية؟

- أحياناً.

- صوب هناك.

وأشار إلى فزاعة حقول نصبت في حضن الجبل على شكل جندي على رأسه صحن من الألمنيوم، أشبه بخوذة جندي بريطاني.

أطلق حسن الباير طلقة دوّت أصداؤها في المكان.. تحرك المدرب وفحص مكان الإصابة، فوجدها قد نفذت من أيمن الهدف، بعيداً عن القلب، فعاد يقول:

- تحتاج إلى تدريب أكثر.. رصاص المجاهد قليل، ولا بد أن يحقق هدفه.. صوب إلى القلب.

شعر حسن بالخجل، لكن الشيخ عز الدين ربّت على ظهره مشجعاً:

- أحسنت ياحسن.. مرة بعد مرة، تصبح رامياً ماهراً، وتحقق هدفك.

تأمله حسن بإعجاب. هذا الشيخ.. لكم يحبه..

## ١١١

لم يعد السيد يوسف الهندي يطيق جاره.. هذا المدمن الفاسد الذي يزعجه كل يوم بصراخه الأجش وشتائمه الخارجة عن حدود اللياقة والأدب لزوجته وأولاده.. كثيراً ما قابله وهو عائد من الحانة.. يتطوح يمنة ويسرة من فرط السكر.. ويغني بصوت أشبه بالهذيان.. حتى أنه فكّر أخيراً بترك هذا البيت بسبب هذه الجيرة السيئة.. لكنه كان يكاد يفقد صوابه، كلما فكر بترك بيته من أجل هذا التافه، الذي لا يعرف من الدنيا سوى السكر والعربدة.. العدل أن يرحل جاره المتعب هذا، ليترك أهل العمارة يعيشون بسلام.

وتحلّى بالحلم، وبعد خطبة حضرها في جامع الاستقلال، نكأ القسام جرحه عندما تحدث عن آداب الجيرة وأخلاقها، فقرر أن يبث الشيخ بعض ما يعانيه..

ـ عطيفة أحمد المصري.. عامل سفن.. وأحياناً يعمل عتالاً في الميناء.. كان مهرب حشيش، ولعله كان مطلوباً للبوليس المصري، فهرب إلى حيفا خوفاً من السجن، وهو مدمن على الخمر.. صرت أخشى منه على بيتي وأهلي.. سيئ الطباع.. دائماً يصرخ، ويشتم.. يضطهد زوجته المسكينة كل يوم.. وكما يقولون في الشام.. كوم حجار أرحم من هذا الجار.. انصحني ياشيخ.. ماذا أعمل حتى أتخلص منه؟.

واحتار الشيخ في الجواب..

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. اتركني أفكر لك في حلّ.

ثم ما لبث أن استدرك قائلاً:

ـ اسمع.. سأزورك اليوم وتدعوه لي.. واترك الباقي علي.

- ستشرفني بزيارتك يا شيخنا.. أنتظرك بعد صلاة العشاء.

في المساء زار الشيخ القسام يوسف الهندي، وطلب منه أن يدعو جاره إلى طعام العشاء.

- ولكن..

- جرّب.

- أخشى أن يصدّني، فأفتك به..

- حسناً، سآتي معك.

وفوجئ عطيفة أحمد المصري بوجود جاره بصحبة الشيخ عز الدين القسام لدى الباب..

- أهلاً.

- كيف الحال؟.

- «كويس»..

- لدينا ضيف اليوم في العمارة..

وتابع وهو يشير إلى الشيخ:

- الأستاذ عز الدين القسام، إمام وخطيب مسجد الاستقلال، يشرفني اليوم في بيتي، وأحببت أن أدعوك لتنضم إلينا على طعام العشاء.

ارتبك الرجل..

- سأحاول..

تبادل يوسف مع الشيخ عزّ الدين نظرة، فعاد يؤكد عليه..

- سأكون سعيداً لو قبلت الدعوة..

- حسناً.. دقائق وأكون عندك.

وانضم عطيفة إلى الشيخ في ضيافة جاره، وهو مذهول من هذه البادرة، رغم كلّ سوء المعاملة التي لاقاها منه.. وراح الشيخ يحدثه عن

الذكريات التـي قضاها في مصر أيـام الأزهر.. ويمدح معـدن المصريين الطيب.. وسأله عن عمله وأحواله، ودعا له بالتوفيق..

ولعلّ الشيخ عز الدين اسـتطاع أن ينبش بقية من حياء، كانت مازالت كامنـة في أعمـاق الرجل، فانتبه لسـوء سـلوكه مـع جار بادله الإسـاءة بالمعروف، فصار أقلّ إزعاجاً، وأكثر أدباً معه..

وأقبل شهر رمضان.. فإذا بالشيخ عز الدين يطرق باب عطيفة، ويدعوه مع جاره للإفطار عنده، فأكبر في نفسه هذه الدعوة، وشعر بامتنان لهذا الشيخ، الذي يعامله بكل هذا الاحترام، فنـوى التوبة عن ماضٍ صار يخجل منه.. وأقبل على الله، فصار لا يُرى إلا في الصفوف الأولى، خلف الشيخ القسام..

وزارت زوجته زوجة يوسـف الهندي، تحكي لها عن الوئام الذي سـاد البيت، بعدما طرأ على زوجها من تغيير.. وتشـكرها علـى ما فعلته صحبة زوجها بعطيفة، فضحكت وقالت بنبرة صافية..

- بل اسألي عما فعلته به صحبة القسّام!.

# ١١٢

تفاقمت العمليات الفدائية ضدّ المستعمرات.. وضج اليهود من هذا الاستهداف المتكرر، وأيقنوا أن مستقبلهم في هذه البلاد قد صار مهدّداً..

وطلب كلايتمان من حليم بسطة أن ينشط في البحث عن الفاعلين..

ـ نريد أي خيط يجعلنا نصل إلى هؤلاء.

ـ كنا نظن أن جماعة الكفّ الأسود هم وراء العمليات الأخيرة.. لكن الأسلوب مختلف، والعمليات محكمة.. يضربون في الصميم، ولا يتركون أثراً.

ـ ماذا عن أبو جلدة والعرميط؟

ـ لا أعتقد.. هذه عمليات أكثر حنكة وتخطيطاً!.

ضرب كلايتمان المنضدة بقبضته..

ـ اليهود يضغطون. قادة المنظمة الصهيونية وصلوا إلى وزير المستعمرات في لندن، يؤلّبونه علينا، ويتهموننا بالتقصير.. لا بدّ من خيط نبدأ به..

ـ الشبّان المسلمين.

ـ تقصد؟

ـ الشيخ القسام وراء كل هذا، ولو بالتحريض.

ـ أريد دليلاً.

ـ حتى الآن لم نجرب أن نعتقله.. لعله يراجع حساباته، ويتوقف عن هذا التحريض المتكرر.

ـ أصدر أمر اعتقال، وهاتوه.

واستمرّ اعتقال الشيخ عز الدين أربعة أيام، قضاها وهو صامت ثابت على موقف واحد.. هذا ما جنته أيديكم يوم أن سمحتم بالاعتداء على

حائط البراق.. وما هذه العمليات سوى صرخة مظلوم، يريد أن ينتصف.

ولم يثبت على الشـيخ أنه نحا نحواً يمكن أن يدلّ على أدنى علاقة مع ما يجري من عمليات منظمة ضد الانتداب والهجرة اليهودية..

وحشـد الأسـتاذ رشـيد الحاج إبراهيم أصدقاءه من الصحفيين ليثيروا قضية اعتقال الشـيخ في مقالاتهم، وكتب الصحفي اللامع أكرم زعيتر مقالاً ناريّاً في جريدة اليرموك، هاجم فيه سـلطة الانتداب، التي بدأت تتجرأ على القامات الوطنية والروحية، واعتبر اعتقال القسام، الذي أحبه شباب فلسطين، صفعة للكرامة الوطنية، وامتهاناً لهذا الشـعب، الذي ضاق ذرعاً بالغطرسـة البريطانية، والهجرة اليهودية، التي تستفز كل حرّ في هذه البلاد.

وطلب الأستاذ رشـيد من أعضاء جمعية الشـبّان المسلمين أن يتجمعوا للاعتصـام أمام السـرايا التي تضـم مقرّ الحاكـم الإنكليـزي، ليطالبوه بالإفراج عن الشيخ الأسير.. واحتار كلايتمان في هذا الاعتصام، الذي كان حاشـداً لدرجة أذهلته، وسـأل حليم بسـطة إن كانت كلّ هذه الألوف كلّها تنتمي لجماعة الشبان المسلمين؟..

- الحقيقة لا.
- فإذاً؟..
- تقريـر أحمـد نايف يشـير إلـى أن معظمهم مـن عمـال الميناء والفلاحين الذين طردوا من أراضيهم، وأعضاء «الشـبّان المسلمين» بينهم لا يزيدون عن الربع في أحسن حال!..

وأفرجوا عن الشـيخ تحت إلحاح الناس، وعاشـت حيفا عرسـاً بخروج شيخها الأسير من الاعتقال..

وظلّ السؤال يشـغل اليهود والإنكليز حول هوية هؤلاء الفدائيين، الذين يقومون بكل هذه العمليات الجريئة، وأصبحوا لغزاً يحيّر الجميع!.

وسأل الحاج حسين حمادة الشيخ حنفي ذات مساء، وهما يتوجهان معاً إلى صلاة المغرب:

ـ من تراه يقوم بهذه الأعمال الرائعة، التي دوخت الإنكليز واليهود؟..

أجاب الشيخ حنفي، وهو صادق..

ـ ناس يقولون جماعة الكفّ الأسود، وناس يقولون جماعة الكفّ الأخضر، والبعض يقول أبو جلدة والعرميط، والله أعلم بمن هم؟.

قال الحاج وهو في غاية البشر:

ـ كائناً من كانوا.. المهم أنهم يدافعون عن فلسطين.

ابتسم الشيخ حنفي في سرّه. لم يكن معجباً بقائده كاليوم..

## ١١٣

كانت الرسالة التي وصلت للجميع قصيرة وسرية للغاية: «الاجتماع غداً بعد الفجر في الكبابير عند الكسارات، ولا تخبر بالموعد أحداً حتى أقرب الناس إليك».

وتحلق الجميع حول «تنكة» الحطب التي امتلأت بالجمر، وكأن على رؤوسهم الطير.. ترى ماذا يريد القسام من هذا الاجتماع؟.. وبدأ الكلام..

ـ جمعتكم اليوم لأؤكد عليكم بضرورة الانتباه.. يجب أن نكون اليوم أكثر حيطة وحذراً.. فالتحقيقات التي جرت معي تدل على أن الشكوك تحوم حولنا.. تجنبوا كلمات من مثل «نحن» و«وعصبتنا» و«جماعتنا» و«تدربنا» و«سوف نريهم».. حتى كلام الجهاد والقتال اتركوه لي.. سأمطر به فلسطين كل يوم.. أما أنتم فاعملوا بصمت.. مارسوا جهادكم، كما يدفع المحسن صدقة السر.. حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.

وسأل محمود زعرورة..

ـ لماذا لا نعلن الجهاد يا شيخ عز الدين.. الناس يحبونك ويثقون بك، وينتظرون منك إشارة أو ندهة.. حتى ينضموا إلى جماعتنا، ويقاتلوا معنا..

ـ ليس الآن.. عدوّنا قوي وغاشم، وله عيون في كل الأنحاء، وعلينا أن نحافظ على أنفسنا، ونبني رجالنا البناء الأمثل، حتى يكون الرجل منهم بألف في الإخلاص والتفاني والخبرة.. فإذا حانت الساعة أبلينا في سبيل الله، وحققنا أقصى الممكن والمستطاع..

وتدخل العبد قاسم:

ـ يراودني أحياناً أن قصارى ما يمكن أن نحققه هو إزعاج هذا

الجيش البريطاني وأذنابه من الصهاينة، ثمّ أقرأ كلام اللّه تعالى، فأتفاءل بالنصر. لا سيما قوله سبحانه «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه»..

ـ «واللّه مع الصابرين». لماذا لا تكمل الآية.. الصبر شرط من شروط النصر.

ـ هل سنصبر كثيراً؟.

ـ لكل موقف أوان.. دعونا نتأنّى، ونحن نستعد.

وقال أبو إبراهيم:

ـ لكنّ الصهاينة يستفيدون من الوقت.. ويبنون ويستعدّون.. أرى أن نسرع في عمل شيء يوقظ الناس..

ـ ها نحن نعمل قدر استطاعتنا.. إنّ اللّه لا يكلف نفساً إلا وسعها..

وسأل القسام أبا إبراهيم..

ـ ما أخبار تاجر السلاح اللبناني؟.

ـ يطلب أسعاراً عالية.

ـ كونوا حذرين.. بعض تجار السلاح لا أمان لهم..

ـ اطمئن.. الشباب صاحين.. وقد أخبروه بالسعر الذي نستطيع أن ندفعه، وكأنه قد وافق.. غداً بعد صلاة العصر سيكون الخبر عندك.

ـ رتبوا مع الشيخ علي الحاج عبيد، ليخبّئْها في مأمن.

وزفّ أبو إبراهيم للشيخ خبراً مهمّاً..

ـ أحمد الغلاييني..

ـ ما به؟

ـ تمكن من صناعة قنبلة، ويريد أن يجربها..

ـ صنعها بنفسه؟!.

- في محل لحام التنك الذي يملكه.
- لعلّها ضعيفة الأثر!
- يقول أنها فعالة كقذيفة مدفع.

ابتسـم الشـيخ. هذه الأمة لا تهزم. المهم أن تعود إلى دينها، وتتوحد على إرادة الجهاد.

أغــرى النجاح الــذي حققه أبو إبراهيم فــي قيادة العمليــات الأخيرة، باختيار أهداف جديــدة أكثر جرأة وإيلاماً للمهاجرين، لا ســيما بعد نجاح أحمد الغلايينــي بتصنيع القنابل في محله المغمــور، القائم في زقاق ضيق من أزقة حيفا، وكان الهدف هذه المرة شــخصية من كبار قادة الصهيونية فــي مســتعمرة نهلال، التــي أصبحت أهــم مســتعمرات اليهود في شــمال فلسطين..

واختــار أبــو إبراهيم لتنفيــذ العملية كل مــن أحمــد الغلاييني صانع القنابل، وأحمد التوبــة وصالــح طه ومصطفى الأحمد من شــباب صفورية، وشــرح لهم أهمية الهدف، وضرورة الدقة في التنفيذ، وطمأنهم بأنه كلف أحد الرعــاة من أعضاء العصبــة، بتحريك قطيعه من الأغنــام على طريق المســتعمرة بعــد العمليــة مباشــرة، لإضاعــة أثر الأقــدام بعد انســحاب المجاهدين.

واســتيقظت نهلال على انفجار هزّ أركان المســتعمرة الهادئة، قتل فيه يوســف يعقوبي، أحد زعماء المســتعمرة المهمّين مع ابنه داود، فجن جنون اليهود والإنجليز، وشــعروا بتهديد خطير، لا ســيما بعد أن وجدوا في مكان العملية قنبلــة محلية الصنع، فأوجســوا خيفة من هــؤلاء الذين نجحوا في تصنيع الســلاح داخل فلســطين، وقرروا أن يضاعفوا الجهود لكشــف هذه المجموعــة، التي أقدمت على هــذه العمليــة الجريئة، وقد تأكــد لهم أن الحركة المسلحة قد تطورت في تنظيمها وأدائها، واتفقوا على القضاء عليها دون تأخير.

وبدأت عملية بحث واســعة لمعرفة الفاعلين، وكانت الشــكوك مازالت

تدور في ذهن رجل المخابرات كلايتمان حول جمعية الشبّان المسلمين، فداهمت الشرطة بيوت بعض أعضاء الجمعية في قرية صفورية، التي كانت تعد من أكثر مناطق انتشار هذه الجمعية، وبدؤوا التحقيق مع عدد من أعضائها المشهورين بآرائهم حول طرد اليهود، وإحباط مخططهم لإقامة وطن لهم داخل البلاد.

وفوجئ الشيخ عز الدين بالعملية، وتساءل في أحد الاجتماعات عمن يقف وراء هذه الضربة الموجعة التي أثارت كل هذا الغضب عند الإنجليز واليهود؟..

وكاد أبو إبراهيم أن يصارح الشيخ بما أقدم عليه، لولا أن سارع أحد الحاضرين لينسب العملية إلى جماعة الكفّ الأخضر، بينما تساءل آخر ما إذا كان ذلك هجوم دبره أبو جلدة والعرميط، إلا أن نمر السعدي قال بأن هذين مجرد قاطعي طريق ولا يجب أن نبالغ في دورهما فيما يجري، وسأل الشيخ حنفي شيخه عن حكم هؤلاء المشاغبين الذين يرهقون الجيش الإنكليزي، ويقضّون مضاجع المهاجرين الغرباء، هل يمكن اعتبارهم من المجاهدين، رغم أنهم كانوا لصوصاً وقطاع طرق؟.

وكان جواب القسام:

- قد يكونوا من العصاة، لكنهم أبناء هذه البلاد، ورأوا أبناء وطنهم وهم يسقطون برصاص الإنكليز واليهود، وشعروا بواجب الردّ على هذا العدوان، وعلى من يمكنه الاتصال بهم، أن ينصحهم بأن يتوبوا إلى الله، ويخلصوا النيّة، حتى يتحول جهدهم ضد طغيان اليهود والإنكليز إلى جهاد مقبول ومبارك بإذن الله.

وتدخل ناجي أبو زيد ليعيد الحوار إلى أصله، فحذّر من حملة اعتقالات

واســعة بدأ بها الإنكليز في صفورية، ونصح الشــيخ بإيقاف كل نشــاطات التدريب ونقل السلاح، التي قد يتم ربطها بالأحداث الأخيرة.

كان أبو إبراهيم ما زال يراقب الحوار، وهو متردد في مصارحة الشيخ.. وخطر له أن العملية كانت محكمة، والأفضل ألّا يسرّ بأسرارها أمام البقية، وقد يأتي وقت أنســب ليخبر قائده، بأن هذه الضربة الموجعة، إنما كانت من صنع عصبته الواعدة.

أتت الرياح بعكس ما اشتهى أبو إبراهيم، فلم تمضِ أشهر، حتى داهمت القسام أخبار اعتقال اثنين من رجاله!.

- من؟.

- مصطفى الأحمد وأحمد الغلاييني.

- هل عرفتَ بم اتهموهما؟.

قال ناجي أبو زيد:

- لدى مداهمة منزل مصطفى الأحمد، عثر البوليس على قنبلة مماثلة لتلك التي انفجرت في واقعة نهلال، وصادر أيضاً بندقية حربية.

- تقصد أن انفجار نهلال الأخير، كان بقنبلة من القنابل التي صنعها أحمد الغلاييني؟!.

وأومأ أبو زيد بالإيجاب.. وتابع يروي ما جمعه من معلومات دقيقة لقائده..

- عندما قام خبير المتفجرات الإنجليزي بتفكيك القنبلة، وجد أنها مصنوعة من نوع من المواسير، ولدى البحث في السوق عن مصدر هذه المواسير، وجدوها عند تاجر يهودي، فلمّا راجعوا زبائنه من العرب، ذكر فيمن ذكرهم أخ شقيق لأحمد الغلاييني، وكانت هذه المعلومة أول الخيط، فقام الإنكليز بمداهمة دكانه، فقبضوا عليه وعلى مصطفى الأحمد، الذي وجدوه عنده.

وعكر روح القسام خاطرٌ مزعج..

- لكن أبا إبراهيم لم يخبرني بأن جماعتنا وراء هذه العملية!..

تردد أبو زيد قليلاً، ثمّ قال مفضّلاً مصارحة الشيخ:

ـ أحد شبابنا شاهد أبا إبراهيم يدل أحد القساميين على بيت رئيس اليهود في نهلال، القائم على مكان مرتفع من الكرمل، ويخبره بأن اليهود الذين كانوا يقتلون العرب أيام حوادث البراق كانوا يختبئون عنده.

ـ تقصد أن أبا إبراهيم يعمل وحده؟!.

ـ يمكنك أن تسأله..

ومضى الشيخ عز الدين إلى أبي إبراهيم وهو غاضب حزين، فوجده مشغولاً بترتيب رزم الخيش على الأرفف، وقد تفصد وجهه عرقاً من شدة التعب.. وأقبل أبو إبراهيم يرحب بشيخه، لكن ملامح القسام المتجهمة أربكته. قال بنبرة نطقت بالمرارة..

ـ لعلك تريد أن تقول لي شيئاً نسيت أن تخبرني به؟.

ابتسم أبو إبراهيم ابتسامة دارى بها حرجه، وأدرك أن الشيخ قد عرف بهجوم نهلال الأخير. قال وهو يمسح العرق عن جبهته:

ـ كانت عملية جريئة ردّت الصاع للإنكليز واليهود، وأشعرتهم بأن دم شهداء البراق ما زال ساخناً، وأن له ثمن.

ـ كان الأولى بك أن تخبرني!.

ـ لا تؤاخذني يا أبا محمد.. كان لدي هدف يستحق المغامرة.. وخشيت ألّا توافق على العملية..

ـ تعرف أنّا وضعنا قواعد وضوابط للعمليات..

ـ تأكّد من أن التخطيط كان محكماً..

ـ اعتقلوا الأحمد والغلاييني.

ـ عرفت..

ـ كلّ هذا، وأنا لا أعلم!.

ـ اطمئن..سيصمدون بعون الله.

سكت الشـيخ ليسـتوعب الكلام الذي يسمعه!. شـعر بالألم لأن هؤلاء الرجـال المتعجلين، تصرفوا دون أن يشـعروه بنيتهم، وقصّـروا في واجب الشورى، وهاهم يكادون أن يهدّدوا كل ما بناه بتسرعهم..

- اتفقنا ألّا نبالغ في نوعية العمليات.. اليهود والإنكليز مستنفرين عن آخرهم الآن لمعرفـة من وراء صُنْع القنابل في حيفا، وقد وصلوا إلى اثنين من رجالنا.. إذا اعترف أحدهما، فسيهدد العصبة كلها!.

لأول مرة يستيقظ أبو إبراهيم من نشـوة النصر..كان تفكيره محصوراً في النّيل من الإنجليز واليهود، والثأر لشـهداء البراق، لكن كلمات الشيخ صدمته، وشعر بأن تسـرعه خدش الثقة المطلقة التي كان يشعر قائده بها نحوه، فحاول أن يعتذر..

- سامحني يا أبا محمد.. مقامك عالي، أنت القائد والأمير.. ولكن..

- المهـم الآن أن تنبه الباقين إلـى أهمية الصمود أمـام التحقيق.. فلينكر الجميع علاقتهم بالتفجير مهما حدث.

ثمّ وهو يودع أبو إبراهيم، والألم بادٍ على محيّاه..

- لنتهيّأ لكل الاحتمالات..

طلب الشيخ من المحامي حنّا عصفور أن يتولّى الدفاع عن الأحمد والغلاييني، وطلب منه أن يبلغه بأي تفاصيل قد يقع عليها مهما كانت بسيطة.. واليوم عاد حنّا إلى الشيخ بخبايا ما حدث..

ـ علمت أن حليم بسطة مساعد مدير الأمن العام الإنجليزي، قد كلّف محامياً يدعى شريف عبيد بالتحقيق مع الأحمد والغلاييني، فأنكرا أي علاقة لهما بالعملية، رغم ما لقياه من ضغط وتعذيب..

ـ وبعد..

ـ للأسف لجأ شريف عبيد مع مصطفى الأحمد إلى حيلة قذرة، فأوهمه بأن البوليس قد اعتقل زوجته، وهدّدها بالاغتصاب، فاعترفت بما لديها من معلومات، عند ذلك ضعف الأحمد بعد أن عرف بأن زوجته مهددة في شرفها، فانهار، واعترف بالعملية، وأخبر عن رفاقه..

ـ علينا منذ الآن أن نتوقع الأسوأ..

وتدهورت الأمور بسرعة.. فقد جاء الشيخ ظهيرة هذا اليوم، خبر اعتقال أبو إبراهيم وأحمد التوبة وصالح طه، فأيقن أن خطراً داهماً يحاصر جماعته، وخشي أن تؤتى الحركة من قبل هؤلاء الرجال الذين تجاوزوا تعليماته.

وأرسل الشيخ عز الدين أوامر صارمة إلى أعضاء الحركة بضرورة التزام الحيطة والحذر، وسرّب إلى مصطفى الأحمد من يطمئنه على زوجته، وإلى المعتقلين من يوصيهم بالثبات وعدم الاعتراف بأي شيء، ونفي أي علاقة لهم بالقضية.. وهكذا كان..

واكتشف مصطفى الأحمد أن ما قاله له شريف عبيد حول زوجته كان مختلقاً وعارٍ عن الصحة، وأن المحامي قد ضلّله، فعضّ أصابع الندم لأنه اعترف.

وأقيمت محاكمة علنيّة في أحد الأحياء اليهودية بحراسة الإنكليز، فأنكر الأحمد أمام القاضي كل الاعترافات التي قال أنها انتزعت منه بالتهديد والإكراه، وألحّ بأنه غير مذنب.

واستمرت المحاكمة قرابة ثلاثة أسابيع، فكان ناجي أبو زيد ينقل لقائده كل يوم ما يجري، وصدرت أخيراً الأحكام..

- الإعدام لمصطفى الأحمد وأحمد الغلاييني..
- والآخرون؟..
- حكم أبو إبراهيم بالسجن لمدة ثلاث سنوات، أمّا أحمد التوبة وصالح طه، فلم يثبت عليهما شيء، فأفرجوا عنهما.
- هذا يعني أن الشباب قد صمدوا في التحقيق.
- لولا خدعة المحقق التي أوقعت الأحمد، لم ينكشف شيء.
- قدّر الله، وماشاء فعل.
- لكن هناك أمر مهم يجب ألّا نغفله!.
- وهو؟..
- المحاكمات كانت تشير إلى انتماء المجموعة لجمعية «الشبّان المسلمين» وورد اسمك فيها أكثر من مرة.
- هذا ليس جديداً؟.
- لكنّي أخشى أن يتسلل إليك أحد الموتورين من مجانين الصهيونية، ويحاول قتلك.

ابتسم الشيخ..

- ليس هذا ما أفكر فيه..
- أنصح بأن تأخذ الأمر على محمل الجدّ..
- ما يهمنّي في هذه اللحظة جماعتنا.. بلّغ الجميع بأن يتوقفوا عن الحركة، ويخفوا أسلحتهم في مكان أمين.

انتهى الشـيخ عز الدين من صلاة السـنة بعد الظهر، وأراد أن يقوم، لكن الشـيخ نمر السـعدي الذي كان يجلس خلفه منتظراً، مال على أذنه، ونقل له خبراً تهلل له وجهه..

- تقول الشيخ فرحان السعدي خرج من السجن!.

كان ينتظر هذا الخبر منذ زمن، فقد طال سـجن الشيخ فرحان الذي أوجع الإنجليز واليهود في جنين.. وعندما حكم الإنجليز عليه بالسـجن منذ ثلاث سـنوات، أدرك يومها أن هذه السـنوات الثلاث، سـتكون بالنسبة له خلوة مؤمـن، يقضيها بالعبادة والذكـر، ويخرج بعدها أصلب عوداً، وأشـدّ بأساً..

وتعانق الرجلان، وشدّ كل منهما على يد صاحبه..

- الحمد لله على سلامتك يا شيخ فرحان..

- بالي عندك يا شـيخ عز الدين.. أعـرف أن أولاد الحرام يحومـون حولك..

ومضيا في ظلال أشجار الزيتون..

- قل لي يا شيخ فرحان، كيف وجدتَ السجن..

- عذاب الحرّ، لكنه مفيد على أي حال..

- أظنّك كنت في سجن نور شمس..

- هذا كان في الفترة الأخيرة، لكني في البداية كنت في سجن عكا..

- إذن حضرت إعدام شهداء البراق..

تلبدّت روح الشيخ فرحان، وترقرقت في عينيه دمعة..

- ذكرتني بيوم عظيم..

أطرق القسام، وهز رأسه متحسراً، قال، وعيناه معلقتان بالأفق البعيد..

ـ كلما تذكرت ذلك اليوم شعرتُ بالخجل من نفسي.. كنت أتمنى لو جمعت رجالنا، وحاصرت ذلك السجن لأحرر الزير وحجازي وجمجوم.. لكني شعرتُ يومها بأني سوف أجازف بكل ما بنيناه في ساعة انفعال.. وكلما كبّرت المآذن احتفاءً باستشهادهم، كنت أتأوه من الداخل.. الظلم مرّ يا شيخ فرحان.

مسح الشيخ فرحان دموعه بطرف غترته البيضاء، وغاص بذاكرته يسترجع ذلك اليوم..

ـ كانوا يقابلون السجن بالتحدي.. ولطالما سمعناهم وهم ينشدون..

ـ ينشدون؟..

ـ يا ظلام السجن خيّم        نحن منْ نهوى الظلاما..

وغصّ الشيخ فرحان بالمقطع الأخير، وأجهش..

ـ لكأنهم كانوا في نزهة..

ـ يا لهؤلاء الإنجليز.. لقد أعلنوا بإعدامهم الحرب على الأمة كلها، ويجب أن يدفعوا الثمن.

قال الشيخ فرحان، وقد هدأ قليلاً:

ـ حدثني من أثق به، أنّ المفتي أرسل إلى ملوك العرب وزعمائهم، ليتدخلوا لدى ملك الإنجليز.. لكن ملكهم لم يستجب لهذا الالتماس، وأصرّ على إعدامهم، حتى لا يتجرّأ أحد على الانتداب..

وأمسك الشيخ فرحان غصن زيتون فتأمله، ثم أطلقه، وهو يرسل نظرات حزينة إلى قرص الشمس الذي راح يتوارى خلف الأفق:

ـ يوم الإعدام استيقظ كلّ من في السجن منذ الفجر، وراحوا يكبرون.. ساق الإنكليز الشباب إلى غرفة الإعدام.. كان بابها واطئاً.. صنعوه هكذا عن قصد، حتى ينحني السجين غصباً عنه، وكأنه يقدم

اعتــذاراً عمّا بدر منه.. وكان الأبطــال يعرفون هذا، فــإذا بهم يجثون على ركبهم، ويمشون عليها رافعي الرأس، حتى لا يضطروا للانحناء..

ـ رحمهم الله..

ـ حدثوني عن جرأة فؤاد حجازي في مواجهة الموت.. طلب رؤية حبل المشــنقة قبل أن يأخذوه إلى غرفة الإعــدام.. ثمّ ودّع أهلــه، ومضى إلى الموت ثابتاً كالصقر..

قال القسام، وقد مسّ الحديث عن حجازي شغافه:

ـ ما زلت أذكــره عندما زارني في الاســتقلال ورجانــي أن أدعو له بالشهادة.. وقد حدثني أحد أقربائه، وكان في وداعه أنه قال لهم: «إذا كان إعدامنا يزعزع شــيئاً من كابــوس الإنجليز، فليعدموا عشــرات الألوف منّا، حتى يزول هذا الكابوس»..

ـ كذلك كان عطا الزير ومحمد جمجوم.. كانا يتســابقان إلى الموت بشــجاعة الفرســان.. كان الــدور على جمجوم لكــن عطا الزيــر أصرّ أن يسبقه.. وعندما سئلا عن آخر ما يتمنياه من هذه الدنيا طلبا الحنّاء.

ـ الحنّاء؟!..

ـ ليحنّوا أيديهما كعادة شــباب الخليل، عندمــا يزفون في الأعراس.. وقالوا أن محمد جمجوم طلب من جلاديــه أن يفكوا قيده فرفضوا، فتحامل على نفسه، وفك قيده، ثم مضى إلى حتفه، وهو يبتسم.

وجلســا في ظل زيتونة وارفة، وهمس الشــيخ فرحان، وهو يريح رأســه على جذع الزيتونة، ويتأمل في وجه صديقه القسام:

ـ أما زلت ماضٍ في طريقك يا شيخ عز الدين؟

ـ ليس هنــاك طريق غيره.. لكــنّ العملية الأخيرة كشــفت بعضاً من رجالنا.

- عسى ألّا تكون الخسارة كبيرة..

تنهد الشيخ عز الدين..

- خسرنا الأخ مصطفى الأحمد.. أعدموه قبل شهر.

- رحمه الله.

- وآخر يدعى أحمد الغلاييني، خفّفوا عنه حكم الإعدام ليحكم عشر سنوات، بعد أن تدخل أمير الأردن من أجله لدى الإنكليز، أمّا أبو إبراهيم الذي تعرفه، فقد حكم ثلاث سنوات.

- فكّ الله أسرهما.

- كانت محنة.. لكنّ الله سلّم، ولم ينكشف الباقون، وها نحن ننتظر.. نسدّد ونقارب، حتى يحدث الله أمراً.

وقال الشيخ فرحان، والقلق يعيث في عينيه:

- فهمت أن اليهود تزايدوا بشكل كبير خلال هذه الفترة!..

- بشكل لم يسبق له مثيل..

أطرق الشيخ فرحان، بينما راح الشيخ عز الدين يودع الشمس الآفلة، وهي تتوارى خلف الأفق، وانتزعه الشيخ فرحان من تأمله، وهو يقول بنبرة بان فيها التصميم:

- اسمع يا شيخ عز الدين. حدثني نمر أنّ عصبتك قد كبرت، واشتد عودها، وأنا أريد أن أعيد تنظيم رجالي بعد الذي حدث، فما رأيك أن نوحد الرجال في عصبةٍ واحدة؟.

ابتسم الشيخ عزّ الدين.. كان يفكر بشيء كهذا، وتعاهدا على التعاون من أجل فجر جديد.. فجر يشرق على فلسطين، ويطوي هذا الظلم الذي ينبغي ألا يمرّ.

# ١١٨

عاد الشيخ عز الدين بعد منتصف الليل، كان مرهقاً جداً، وكان حريصاً على أن يصل قبل أن ينام الأولاد الذين اشتاق إليهم، بعد أن شغله مؤتمر الشبان المسلمين الثالث طيلة الأيام الماضية.. لكنه لم يوفق في مسعاه، إذ لم يجد سوى والدته مازالت تسهر مع حفيدتها ميمنة، في حين خلد الجميع إلى النوم، ماعدا الشيخ فخر الدين الذي كان يبيت في وادي النسناس في ضيافة ابني أخيه ظافر ومالك.

- تأخرت كثيراً يا عز الدين

- اختاروني رئيساً للجمعية هذه المرّة، فلم أستطع أن أغادر قبل أن أودع عشرات الضيوف الذين حضروا من أنحاء البلاد.

- الله يحميك يا ابني..

وسأل الشيخ ميمنة:

- أين أمك؟

- تحاول أن تنيم محمد، ويبدو أنها قد نامت معه.

- فخلا لك الجو مع جدتك.

قالت الجدة، وهي تمسح شعر ميمنة:

- ميمنة ست البنات. سآخذها معي إلى جبلة..

حرك ذكر جبلة في نفس الشيخ وجعاً قديماً..

- لماذا لا تأخذيني معك؟..

تأملته، وقالت بصوت متهدج:

- يا ليت..

- الله كريم

ـ سألت أخاك فخر الدين أن يرتب معك شؤون الرحلة..

ـ ظننتك تمزحين!.

ـ اشتقت لأخوتك في جبلة..

واعترضت ميمنة الحوار:

ـ جدتي كانت تحدثني عن طفولتك.

ـ وماذا قالت؟

ـ تقول أنك منذ أن كنت جنيناً في بطنها وأنت كثير الحركة..

ضحك القسام. وقالت الجدة لحفيدتها:

ـ قومي فسخني العشاء لأبيك.

اعترض الشيخ:

ـ لا. لا. أريد أن أنام.

لكنّ زائراً أطلّ من الباب غير من خططه..

ـ محمد؟.. ما الذي أيقظك؟

ـ أمي نامت، وهي تحكي لي الحكاية، فهل تكملها لي؟

ضحكوا. وقالت ميمنة:

ـ تعال لأحكيها لك أنا.

لكن الشيخ عز الدين اعترض..

ـ اتركيه لي، فعندي حكاية لا يعرف أن يحكيها له غيري.

وأسرع إلى حضن أبيه:

ـ ما هي الحكاية؟

ـ قصة الأرنب والسلحفاة..

ـ السلحفاة التي سبقت الأرنب؟

ضحكت الجدة:

- بسم الله ما شاء الله.. الولد حافظ كل الحكايات.

غمره الشيخ بالقبلات:

- وأنا الذي ظننت أن لديّ قصة فريدة.

واستيقظت أمينة على صوت الضحكات. قالت الجدة:

- هذه أمينة قد حضرت فاسمحوا لي. أريد أن أنام..

وأوى القسام إلى فراشه ينشد الراحة.. لكنه تذكر قرار الجمعية بعمل محاضرة كل يوم جمعة لتوعية الشباب، وأنه وعد شباب يافا بالمحاضرة القادمة، فانشغل فكره بالموضوع.. أراده موضوعاً قوياً ومتميزاً يشبع روح شباب هذه المدينة المجاهدة.. وداهمه الأرق، فراح يتقلب في فراشه..

وتذكر كلام والدته، وكيف أنه كان كثير الحركة منذ أن كان جنيناً في بطنها، فابتسم.. ولاذ بالذكريات ليهرب من الهموم، فاستسلم لنوم عميق.

# ١١٩

طرق الشيخ كامل القصاب باب الشيخ عز الدين القسام، وانتظر الجواب..

وأطلّ طفل يسأل عن الطارق، فإذا بهم ثلاثة رجال!.

- ما شاء اللّه.. ما شاء اللّه.. أأنت محمد؟

قال الطفل في ثقة:

- اسمي محمد عز الدين القسام.

- أنعم وأكرم..

وقال، وهو يرفعه بين يديه، ويضمّه بذراعه الأيسر..

- ومتى ستصبح رجلاً؟

ابتسم محمد في حياء..

- أمي تقول لي أني سأكبر وأصبح مثل أبي.

- وماذا يقول لك أبوك؟

- يقول لي أني عندما أكبر يجب أن أُخْرِجَ الإنكليز واليهود من فلسطين.

- أحسنت.. والآن ادخل وقل للوالد أن الشيخ كامل ينتظرك بالخارج.

- لكنّ أبي ليس هنا.

- أين هو؟.

- قال أنه ذاهب إلى «أبو خليل».

- من «أبو خليل»؟.

- هناك.

وأشار الطفل إلى حمَّامٍ قديم، يقع قريباً من البيت.

وقال أحد الثلاثة:

ـ لعلنا جئنا في وقت غير مناسب.

وأطلق الشيخ القصاب الطفل، ثمّ أمسك بيده:

ـ تعال لنرى ماذا يفعل أبوك هناك؟.

ومضى الجميع إلى حيث أشار الصغير.. ففوجئوا بالشيخ عز الدين وهو جالس يشرب الشاي مع خادم الحمام، ويصغي إليه، وهو يحدثه كيف تحول من فلاح في سهول طبريّا، إلى عامل يوقد النار في حمّام حيفا الصغير، بسبب المهاجرين اليهود الذين طردوه من أرض آبائه وأجداده..

وهبّ الشيخ لمّا رآهم، وأقبل هاشّاً باشّاً، يرحب بهم..

ـ يا أهلاً.. يا أهلاً.. زارتنا البركة..

قال الشيخ كامل القصاب وهو يقدم رفيقيه:

ـ هذا الأمير الشيخ راشد الخزاعي.. شيخ عشائر الفريحات في عجلون وعموم الأردن، وألمع شيوخ العرب هناك.

ـ يا أهلاً ومرحباً.

ـ وهذا عبد الله، فارس الفريحات بلا منازع.

وصاح محمد، وهو يأخذ دوره في الحوار:

ـ جاؤوا إلى بيتنا ولم يجدوك.

ضحكوا لبراءته، بينما حمله الشيخ عز الدين، وهو يقول له مداعباً:

ـ لعلهم وجدوني الآن.

والتفت لضيوفه:

ـ تفضلوا.. تفضلوا..

واستأذن من قيّم الحمّام..

ـ عن إذنك يا أخي.. سأعود لك فيما بعد، لنكمل الحديث.

وتقدمهـم مع صغيره، ليسبق، ويعلم أهله بضيوفه، بينما كان الأمير الخزاعي يتأمل هذا العالـم الأزهري، والثائر المجاهد الذي ذاع صيته في بلاد الشام، كيف يتسع وقته لسماع هموم فلّاح بسيط، حولته الظروف إلى عامل حمّام، ويشرب معه الشاي!.

قال الأمير الخزاعي، وهو يبعد يد الصغير عن المسدس الذي بدا من تحت عباءته.

- أخبارك يا شـيخ عز الدين تثلج صدورنا، وتدعو للفخر والتقدير.. وقد حدثني الشيخ كامل عن مضايقات هؤلاء الحمران وحلفاءهم من اليهود الأجانب لفضيلتك، وسَجْنهم لرجالك، قبحهم الله، فعقدت العزم والعزيمة على أن أكون معك.. اعتبرني منذ اليوم جندياً من جنودك..

- أستغفر الله..

- واعلم يا شـيخ عز الدين أن مالي وأولادي وكل ما نملك من سلاح في خدمتك أنت ومن معك من الرجال.. وإن شـاء الله نحن يدٌ واحدة حتى يأذن الله بنصره، وندحر هؤلاء الإنكليز واليهود عن أرض العرب.

قال الشـيخ، وهو يتناول صغيره من حضن الشيخ، حتى لا يتمادى أكثر في مضايقته:

- هذا من طيب أصلك ونبل أخلاقك يا شـيخ راشـد، وإن شـاء الله سـتجدنا عند ثقتك بنا، ولعلها قد حانت السـاعة التي يتّحد فيها الأحرار والمجاهـدون للدفاع عن أمتهـم وعقيدتهم وأرضهم التي اسـتباحها هؤلاء الغزاة.

وسـأل الشـيخ كامل الأمير راشـد الخزاعي، إن كان بإمكانه أن يوفر للقسام ما يحتاجه من سلاح..

هتف الشيخ راشد:

- السلاح والرجال لو أراد.. وإن شاء الله سوف يقوم فارسنا عبد الله بتهريب ثلاثة مـن الإبل المحملة بالسـلاح هدية لك يا شـيخ عز الدين،

عربون محبة من أخ لأخيه، والشـيخ كامل يعرف مـدى حبنا لك، وإعجابنا بما تقوم به من جهود.

اتسعت ابتسامة الشيخ عز الدين، ونطقت عيناه بفرحة عارمة.

- بارك الله فيك يا شيخ راشد، وكتب ذلك في ميزان حسناتك.

قال الشيخ راشد:

- واعلم يا شيخ عز الدين أن أرض الفريحات ومضاربهم وبيوتهم في خدمتك وخدمـة رجالك، من جاءنـا لاجئاً أو مسـتجيراً، حمينـاه بعيوننا وأرواحنا.

وهبّ الأمير الخزاعي واقفاً.

- والآن ترخص لنا يا شيخ..

سارع القسام يدعوه للبقاء حتى الغداء، ليسعد بإكرامه، فاعتذر..

وقال الشيخ راشد، وهو يستعدّ للرحيل:

- سـوّد الله وجوههم، لقد قطعوا هم والفرنسيون أوصال بلاد الشام. وقد قلـت لإخواننا في مؤتمر وحدة سـوريا عندما اجتمعنا فـي بلودان منذ أعوام، الشـام مقصودة من هؤلاء الصليبيين، لأنها هزمتهم أكثر من مرّة، وستهزمهم بإذن الله هذه المرّة، فلا تستجيبوا لهذا التقسيم الذي يريد أن يفتت بلاد الشـام ويباعد بين أهلها.. الشـام منصورة بعون الله، وسـيأتي اليوم الذي تستعيد فيه مجدها وعزّها.. عاصمة للعروبة والإسلام.

كلما شـاهد عربي البدوي سـيارات الإنجليـز، وهي تجوب يافا شـعر بالغيظ.. مـاذا يفعل هؤلاء الغربـاء في بلادنا؟.. لمـاذا لا يتركونا وحدنا ويرحلوا؟.. ويتذكر شـهداء يافا الذين سـقطوا على يد الإنكليـز واليهود، فيفور الدم في عروقه، ويزداد غيظاً ويشتعل ثورة.. وتلهب روحه كلمات لن ينسـاها لمعلمه حيدر التميمـي الذي أحبه.. «لقد انتهـت الحرب العالمية بانتصـار الغرب على دولـة الخلافة، وهاهي بلادكم تسـقط بيد الأجانب، وعندما تكبرون عليكم أن تحرروها من هؤلاء».

لقد تخطّى عامه السـادس عشـر، وصار شابّاً يافعاً يسـتطيع أن يفعل شـيئاً، ليفي بوصية معلمه الكبير.. وقد وهبه الله قوة وحيلة، يمكنه بها أن يدوخ هؤلاء الإنجليز.. لكم تتوق نفسه للجهاد.

وذات يوم غادر عربي البدوي الشركة الألمانية التي يعمل فيها، واتجه إلى المسـجد القريب، يبحث عن أحد يسـاعده على اتخـاذ القرار. صلى المغرب في جامع البلدة، واقترب من الإمام.. كان شيخاً طاعناً، ولكن تبدو عليه الحيوية والبشاشة.. تشجع عربي، وقال له فيما يشبه الهمس:

- سيدي الشيخ..
- تفضل..
- أريد أن أجاهد..

قطب الشيخ فجأة. رمقه بنظرة اسـتخفاف، وتأمله من فوق إلى تحت، وسأله باستنكار:

- أنت؟؟..

ثم بلهجة تعنيف ولوم..

ـ ماذا تعمل أنت مع بريطانيا العظمى يا ولد؟؟.. هذه أفكار صبيان.

صدمه الجواب. وشعر بالإهانة.. ماذا جنيت إذ فكرت بالجهاد ضد الأجانب القادمين من آخر الدنيا، ليتدخلوا في حياتنا، ويعبثوا بمصائرنا؟.. وغادر المسجد محبطاً، وأقسم أن يترك يافا كلها!.

وسمع عن ازدهار الأعمال في حيفا، فشدّ إليها الرحال مع الشروق..

كانت عيناه تودعان بيارات البرتقال والليمون التي راحت تنثر عبق أزهارها، ليوقظ فيه كل مشاعر الحب لبلاد يعشقها.. ووصل إلى مستعمرة تل أبيب التي تقع على الطريق الساحلي بين حيفا ويافا، فشعر بالاستفزاز.. فهذه المستعمرة سرّ شقاء أهل يافا، الذين عاشوا أسرى لعدوان المهاجرين، وتذكر ما يتداوله الآباء عن أحداث المنشية، التي ذهب ضحيتها عشرات الشهداء، وما عرفه عن دور يهود هذه المستعمرة في أحداث البراق، عندما ساروا بالألوف إلى القدس، واحتلوا حائط البراق، ورفعوا علمهم، وشتموا الإسلام ونبي الإسلام..

ووجد نفسه على مشارف حيفا.. ففتنه هذا التنوع بين بحر وسهل، وجبل تكسوه الأشجار، وبيوت وادعة تترامى على السفوح، وراح يجوب شوارع المدينة، حتى تعرف على من دلّه على صاحب محلّ حدادة في بلدة الشيخ، ليعمل عنده..

وانهمك في عمله يريد أن ينسى الفكرة التي تطارده، ولا يجد من يساعده عليها، وكلما تذكر كلمات الإمام الذي جرحه بكلماته، أقبل على الحديد المحمّى يضربه بعنف، وكأنه ينفّس بذلك عن غضبه المكبوت.. «هذه أفكار صبيان.. ماذا تفعل مع بريطانيا العظمى يا ولد؟..» أي شيخ هذا الذي يحتقر الناس؟.. هل كان أسامة بن زيد الذي قاد جيش المسلمين لفتح الهند ولداً؟.. هل كان علي بن أبي طالب عندما جلس مكان النبي

ليواجه سيوف قريش ولداً؟.. لا يكاد ينسى هذه الإهانة.. وألقى بالمطرقة فوق السندان، ومضى إلى الحارس سالم المغربي، ليروح عنده عن نفسه، فقد ارتاح له كثيراً منذ أن عمل في هذه الورشة، وآنس منه قرباً..

وكان الحارس بسيطاً وودوداً.. وقال له، وهو يراه قادماً نحوه:

- ابن حلال.. الشاي قد غلى لتوه، تعال لتشرب معي..

- جاء في وقته.

- يبدو عليك التعب.

- تعب الجسم لا يساوي شيئاً أمام تعب الفكر..

- ما الذي يشغل فكرك؟.. ما زلت شابّاً في أول عمرك..

- هل تعتقد أني شاب فعلاً؟

ضحك الحارس. قال وهو يربت على كتفه..

- شبّ ونصّ.. لماذا تقلل من قيمة نفسك.. ما شاء الله.. شباب وقوة ونشاط.. وها أنت تعمل وتحصل على المال.. ماذا بعد؟.. لعلك تفكر في بنت الحلال..

ثم ضاحكاً بملء فيه، وهو يقول بصوت مرتفع:

- مازلت مبكراً على الهمّ يا عربي..

ابتسم عربي البدوي..

- الله يسامحك.. ما يشغل فكري هذه البلاد، وما آلت إليه أحوالها.. هل يرضيك ما يجري ياعم سالم؟

- ماذا يجري؟.

- الإنجليز في كل مكان يذلّون الناس ويرهبونهم.. واليهود صاروا أكثر من العرب.. ماذا سيحدث لو ظلَلْنا ساكتين.. هل سنصبح شحادين بعد ما يأخذ اليهود أرضنا وأعمالنا ولقمتنا.. والله ما في حل إلّا الجهاد..

تنهد سالم، وقال:

ـ أنت تتكلم مثل الشيخ عز الدين القسام.

ـ ومن هذا الشيخ؟

ـ إمام وخطيب جامع الاستقلال في حيفا. ألم تسمع به؟.

ـ هذه أول مرة أسمع به!.

ـ اسمع. غداً الجمعة.. ما رأيك أن تصلي في جامع الاستقلال، لتسمع خطبته.. حيفا كلها تصلي الجمعة عنده..

رشف عربي البدوي رشــفة من شــايه، وراح يتلذذ بطعمها الحلو، وهو يبحر في الصمت.

سأرى ماذا سيقول هذا الشيخ؟!.

وصل العربي إلى مسجد الاستقلال مبكراً، وجلس في مقدمة الصفوف..

كان المسجد هادئاً، والناس مستغرقون في تسبيح خاشع.. وصعد إلى المنبر رجل مهيب، فألقى تحية السلام، ثم جلس وهو يحرك الشفاه بذكر صامت، ريثما رُفع الأذان، فقام متكئاً على سيف، وشرع يخطب بالمصلين..

وكانت خطبة ملتهبة، هاجم فيها القسام أولئك الذين ما زالوا يثقون ببريطانيا، ويتزلفون إليها لتضغط على اليهود حتى يوقفوا الهجرة إلى فلسطين، وكأننا نسينا أن بريطانيا هي التي تعهدت بإقامة الوطن اليهودي، وهي التي منحت اليهود الجنسية الفلسطينية، وسهلت لهم الاستيلاء على الأراضي.. بل ودافعت عن جرائمهم في كل المناسبات، وكانت شريكتهم في قتل العرب أيام البراق..

وتساءل الشيخ عز الدين:

- إذن ما الحل؟. كيف نوقف هذا المدّ اليهودي الذي تجاوز الحدود، وكيف نوقف هذه الغطرسة البريطانية الغاشمة، التي ما فتئت تذل أهل البلاد، وتنتهك حقوقهم وكرامتهم.

وسرعان ما أجاب، وهو يلوح بالسيف في يده..

- والله لا حل لنا إلا بالجهاد.. حتى يعود الحق إلى نصابه، ويعود الغزاة أدراجهم، وتعود الأمة حرة عزيزة.

كان العربي يستمع إلى كلمات القسام والأرض لا تكاد تسعه، وأيقن أنّه على الحق، وكأن كلمات هذا الرجل رجع الصدى لصرخة أستاذه القديم حيدر التميمي، لكأن القدر قد قاده إلى الرجل الذي سيضعه على الطريق الصحيح، ليحرر وطنه من كيد الغاصبين.

مـــا إن انتهت الصـــلاة، حتى أســـرع عربي البـــدوي، ووقـــف عند باب المسجد، منتظراً خروج الشيخ عز الدين القسام..

- سيدي. عندي سؤال.

- تفضل..

- ســمعت خطبتك، وأعجبت بهـــا، وأنا أبحث عن طريـــق الجهاد منذ زمن، أحد المشـــايخ قال لي أن الجهاد في وجه بريطانيا عبث مســـتحيل، لكني سمعت اليوم منك كلاماً آخر!.

ابتسم الشيخ عز الدين..

- لا يوجد شيء مستحيل، مادمنا على الحق..

- ولكن، كيف أجاهد؟.. مع من؟.

ابتسم الشيخ، وأشـــفق على الشـــاب من فرط الحماس، وآنس منه صدقاً.

- لعلّ ذاك الشاب يدلّك.

وأشار إلى رجل ذو لحية سوداء، كان يجلس قريباً من المحراب..

- عندما يخرج ذاك الرجل.. امـــض وراءه إلى أن تصل إلى حيث هو ذاهب.. وبعد ذلك ستجد نفسك مع من تحبّ.

كان الشـــيخ نمر، صاحب اللحية الســـوداء يراقب ما يجري، وفهم من نظرات الشـــيخ وإشـــاراته مـــا أراد، فما لبث أن قـــام من ســـاعته، وغادر المســـجد.. فتبعه الشاب، وهو ســـعيد بهذه المغامرة، التي قد تفضي لآفاق جديدة، يتوق إليها منذ زمن بعيد.

ومضى عربي البدوي يتابع دليله عن بعد، وســـار خلفه حتى نهاية شارع الناصرة، فرآه يدخل دكاناً، فدخل خلفه، وتشـــاغل بتأمل البضائع، فلاحظ صاحب اللحية السوداء وهو يهمس لصاحب المحلّ بشيء، وما لبث أن خرج

من الدكان، واتجه إلى ساحة تقع في الخلف وعربي وراءه، وعندما تأكد أنّ أحداً لا يراه، استدار، ومدّ يده..

- أخوكم نمر السعدي.

بهت عربي، وقال في ارتباك..

- وأنا عربي البدوي من قرية قبلان في يافا.

- تعال معي..

ودارا دورة في السوق، ثم عادا إلى صاحب الدكان، فوجدا باستقبالهما رجل طويل، تبدو عليه القوة والمهابة..

- محمود سالم.. ويلقبوني «أبو أحمد القسام».

- لعلك قريب الشيخ!.

- بل خادمه الأمين.

ضحك الشيخ نمر..

- لقد تسمّى بهذه الكنية محبة بشيخه

وتساءل عربي:

- والآن؟.

- يمكنك أن تتابع معه..

- إلى أين؟.

قال محمود سالم:

- أنت ضيف شيخنا القسام، تفضّل معي.

كان عربي مأخوذاً بهذا الجو المفعم بالغموض، لكنه كان في أشدّ الارتياح لهذه الوجوه، التي ائتمنها الشيخ عز الدين عليه.

استضافه محمود سالم في غرفة قصيّة من داره، أعدتْ لتتسع لعدد كبير من الضيوف.. وبعد دقائق وصل شابّان آخران، أحدهما يدعى توفيق إبراهيم، والآخر نوح إبراهيم، وجلسوا جميعاً يتبادلون الأحاديث، وبعد قليل حضر الغداء، فأقبلوا على طعامهم، وبدأ عربي ينسجم مع هذه الصحبة الطيبة، وتحمس نوح، فألقى بعضاً من شعره..

صارت الثورة في القدس صارت
وديوك العرش في السّما صاحت
شباب العرب عليها صاحت
بْسَحب الخناجر على الصهيونا

* * *

صارت الثورة بْباب الخليلِ
ودم الصهيوني عالأرض بيسيلِ
شباب العرب شيلو المرتيني
نحمي وطنّا من الصهيونا

* * *

يمّا يا يمّا أوعي تنهمّي
فِدا للوطن ضحّيت بدمّي
مع القرايب وِأولادِ العمِّ
شباب الوطن لا تِنْهَمّونا

وأذّن العصر، فصلّوا جماعة، وانضمّ للمجلس بعد الصلاة رجال آخرون، وسأل عربي عن الشيخ عز الدين؟..

ـ لعلك قد مَلَلْتَ منا.

قالها محمود سالم مداعباً.

ـ العفو.. بيتك عامر.. لكني في شوق للشيخ. أول شيخ أسمعه يفتي علناً بفرض الجهاد.

وقال توفيق إبراهيم:

ـ على ذكر بارودة المارتيني التي ذكرها نوح في شعره، ألا ترون يا إخوان أن السياسة أجدى؟..

ورفع سبابته مؤكداً:

ـ لن يوقف اليهود عند حدهم سوى الإنكليز.. وكما يقول مختارنا، إن استطعنا استمالة بريطانيا إلى جانبنا، تنتهي قصة اليهود.

صدم كلام المتحدث أسماع عربي، فقال في إنكار:

ـ لكأنك لم تكن معنا في خطبة الشيخ القسام.. متى كانت بريطانيا مع العرب.. هي التي جاءت باليهود وهي التي تدعمهم، وقد فتكت بنا في يافا من أجلهم..

ـ هذا رأيك!.

استفزه هذا الردّ:

ـ لعلّه رأي كل حرّ يرى ما يجري في فلسطين.

وراح عربي يتأمل الوجوه عسى أن يجد من يؤيده.. فانبرى نوح إبراهيم منحازاً لعربي:

ـ من جرّب المجرب عقله مخرّب. خبّرنا عن موقف واحد وقفت فيه بريطانيا إلى جانب العرب..

ـ مواقف كثيرة..

وأفلتت من عربي غضبة لم يستطع أن يكبحها..

ـ يا أخي حرام عليك.. لكأنك لا تعيش في فلسطين، أصلاً بريطانيا دولة محتلّة.. وهي التي جاءتنا بهذا الطاعون الذي اسمه الصهيونية، وإذا انتظرنا أكثر، فسوف يصبحون هم أهل البلاد، ونحن الغرباء..

وما لبث طفل في العاشرة أن دخل، وقال موجهاً الكلام لأبيه:

ـ «يابا».. الشيخ عز الدين واقف بالباب.

وهرع أبو أحمد لاستقباله، فاستبشر عربي، وتهللت أساريره، وهو يرى الشيخ يدخل خلف محمود ليلقي تحية السلام، وجلس حيث انتهى به المجلس.. وتوجه مباشرة إلى عربي بالحديث..

ـ أهلاً بك يا بني.. أعتذر إذ تأخرت.. عساك وجدتَ الصحبة التي ترضيك.

قال وهو ينظر بطرف عاتب إلى توفيق إبراهيم:

ـ نِعْمَ الصحبة..

ـ لقد اجتمعنا منذ مدّة على فكر الجهاد والاستشهاد، وقد توسمت فيك الصدق، فهل توافق أن تكون واحداً منّا؟.

أشرق وجه عربي بابتسامة يفيض منها الفرح، ولمعت عيناه بأنداء التأثر والانفعال..

ـ لكني لم أمسك سلاحاً من قبل.

ـ أنت منذ اليوم في مجموعة أبو إبراهيم الصغير.. تواظب على عملك، وفي كل يوم بعد العشاء، تذهب إلى حيث يدلك، لتتلقى التدريب اللازم.

وصدم عربي عندما وجد الشيخ يشير إلى توفيق إبراهيم، الذي كان يحاول أن يقنعه قبل قليل بفكره السقيم!.

وسأل عربي توفيق إبراهيم في إنكار:

ـ أنت أبو إبراهيم الصغير؟

ـ هكذا ينادوني، حتى يميزوني عمّن هو أفضل منّي.

ـ ولكن..

تبادلوا الضحكات. بينما ربت محمود سالم على كتفه في ودّ. وأدرك عربي أن الحوار كان مفتعلاً، فابتسم، وقال:

ـ لم تكونوا بحاجة لتضعوني في هذا الاختبار..

ـ اعتبره مزحة.

واستأنف القسام حديثه..

ـ يجب أن تعرف يا ولدي أن لنا في هذه العصبة قانون ونظام.. نسمع ونطيع قائدنا، وننضبط بشرع الله، ونستعين على قضاء حوائجنا بالكتمان..

كانت فرحة عربي بهذا اللقاء لا توصف. لقد وجد الآن ذاته، وأصبح جنديّاً من أجل فلسطين.

ـ مبروك. حبيبك أبو إبراهيم خرج من السجن.

ـ متى؟.

ـ اليوم صباحاً.

وسجد الشيخ لله شكراً..

ـ ألا تريد أن تذهب لتهنئته؟

تأمل الشيخ عز الدين وجه أبو أحمد القسام.

ـ ليس الآن.

ـ متى؟..

ـ عندما نتأكد أن الإفراج عنه لم يكن طعماً.

ـ تقصد؟

ـ قم بزيارته، وانقل له سلامي، وقل له أنّا سنلتقي في الوقت المناسب.

وفي صباح اليوم التالي قدم وفد من وجهاء المزرعة الشرقية في قضاء رام الله، لتهنئة ابن قريتهم أبي إبراهيم بالإفراج، فاستقبلهم بالترحاب، وقال المختار:

ـ مبروك طلعتك من السجن يا أبا إبراهيم.

ـ الله يبارك فيك.

ـ الكلّ كان يدعو لك..

وأضاف آخر..

ـ أنت فخر المزرعة كلها، والكل يحسدنا عليك..

وشكرهم أبو إبراهيم على هذه المشاعر، ولم يلبث أن أذّن الظهر،

فدعاهم ليصلوا جماعة في جامع الاستقلال، ليعرفّهم على الشيخ عز الدين القسّام، وهكذا كان..

وبعد الصلاة تقدم الوفد، يسلم على الشيخ عز الدين القسام، وجاء دور أبو إبراهيم فتعانق الرجلان بحرارة..

ـ هل الأمور على مايرام؟

ـ اطمئن..

ـ نتغدّى إذن مع الجماعة، وبعدها نتحدث.

ـ الغداء عندي، وأنت على رأس المدعوين..

وقال مختار شفا عمرو بعد الغداء، وهو يحتسي القهوة العربية المشبعة بالهيل:

ـ والآن حدثنا بالقصة من «طأطأ إلى سلام عليكم».

ضحك الحاضرون:

ـ لا تنكأ الجراح يا مختار.. تنذكر، وما تنعاد.

علق الشيخ عز الدين:

ـ أبو إبراهيم قدّها.. والحمد لله أنه خرج منها بأقل الأضرار.

وكرر الرجال التهاني، ووقفوا مودعين، وانتحى الشيخ عز الدين به لدقيقة، وهمس:

ـ اعذرني على التأخير، فأولاد الحرام يراقبوني صباح مساء..

ـ أتفهّم هذا.. المهم كيف تتطور الأمور؟.

ـ الوعي يزداد.. والحركة ـ والحمد لله ـ تكسب كل يوم رجالاً وأنصاراً..

ـ الشباب داخل السجن يتتبعون خطبك.. واحد ممن اعتقلوا أيام البراق، يرسل أخاه كل جمعة، لينقل له ما تقول..

- الحمد الله. أشعر أن الأرض صارت جاهزة لعمل كبير.
- مازال التريث مفيداً..
- اليهود يزدادون بشكل كبير، وهم يقتربون من غايتهم.
- لا قدّر الله.
- المهم انتبه لنفسك.. لا بدّ أنهم يراقبونك الآن.
- فعلاً.. لاحظت ذلك.
- سأخرج مع ضيوفك حتى لا يلفت لقاؤنا الأنظار..

طلب المندوب السـامي الجنـرال آرثر جرنفيل **واكهـوب** الاجتماع مع ضابط المخابرات كلايتمان، المكلف بملف الشيخ القسام، الذي شغل حيفا بأحاديثه ضد الانتداب والهجرة اليهودية، وكان واكهوب قد قرأ ملخصاً عن هذا الشـيخ، ولفته ما أشـارت إليه محاكمات نهلال حول علاقة المتهمين بالشيخ وجمعية «الشبان المسلمين» التي انتشـرت على نطاق واسع، ومدى تمادي هذا الشـيخ المفوه ذو الشعبية الواسـعة في تحريض الجمهور على مقاومة الانتداب البريطاني والمشروع الصهيوني.

وشـدّد واكهوب على أهميـة مراقبة الشـيخ، ورصد نشـاطات رجاله، والتحقق من أي استعداد لأعمال تخريب قد تنتج استجابة لهذا التحريض.

واجتمع كلايتمان مع حليم بسطة وأحمد نايف.. وطلب من كل واحدٍ أن يعرض تقديره للموقف..

ـ كل التقارير التي تأتينا حتى الآن، تشير إلى أن جهود القسام لا تعدو أن تكون كلاماً.. لكن نبرة التحريض الصريح ارتفعت في الآونة الأخيرة.

ـ هل لاحظتما أي نشـاط غير عادي على مريديـه الذين يزورونه في المسجد؟

تكلم أحمد نايف:

ـ تقارير مخبرينا تشـير إلى ترابطهم الاجتماعـي.. زيارات متبادلة، ودعوات على الطعام.. أشياء من هذا القبيل..

ـ و«الشبان المسلمين»؟.

ـ زادت أعدادهم، وافتتحوا فروعاً جديدة.. لكن نشـاطهم لا يعدو أن يكون احتفالياً.. مؤتمرات وتنظيم مهرجانات في الأعياد..

تدخل حليم بسطة:

ـ لكنّ محبتهم للشيخ القسام وولاءهم له منقطع النظير.

ـ هذا كلام خطير.

ـ بمعنى؟.

ـ أقصد أن رجلاً لديه كل هذا الحب والتأييد من جماعته، قادر على أن يحرك الناس ضدنا في أي وقت.

ـ الحلّ الوحيد أن يختفي هذا الشيخ لمنع خطوة كهذه!.

ـ يختفي؟!.. كيف؟.

ـ عندما توافق على هذا الحلّ، سنجد طريقة..

حذّرهم أحمد نايف:

ـ أيّ أذى يلحق بالقسّام سيشعل ثورة.. وسوف يحوله من شيخ مسجد إلى بطل يحذو حذوه الكثيرون..

ـ لكنّه سوري!.

تبادل أحمد نايف نظرة مع حليم بسطة، وتابع موضحاً:

ـ سيدي.. القسام والشبّان المسلمين لا يؤمنون بالفصل بين سوريا وفلسطين.. القسام يعتقد أنه في بلده، وهو بنشاطه هذا يدافع عنها..

ـ هذه عقيدة خطيرة وضد الانتداب.

ـ كثيراً ما يبدأ كلامه بعبارة «نحن عرب فلسطين».

قال كلايتمان، وهو بَرِمٌ بما يسمع من كلام:

ـ حسناً.. الأفضل أن نستمر في المراقبة، ونبحث عن ثغرة في سلوكه تجعلنا نوجه له إدانة واضحة.

قال حليم بسطة:

ـ حتــى الآن كل تقارير المراقبة ســلبية، لا تزيد عــن الحديث عن خطب القسام وكلماته، ثم لا شيء..

ـ يبدو أنه يجب أن نقترب من القسام أكثر..

ـ كيف؟

ـ كأن نزرع رجلاً بين مريديه..

نبه أحمد نايف رئيسه، وهو يتلطف بالكلام:

ـ هــذا صعب جــدّاً. أي رجل ســنزرعه بين تلاميذه سينكشــف، لأنه يشــترط فيمن يتبعــه التدين الخالص، وهــذا ما قد يعجز عنــه أيّ مخبر لدينا، وبالتالي سينكشف أمره.

وأردف نايف:

ـ إنه يطلب منهم قيام الليل، وأحياناً يرتب لهم صلوات ليلية جماعية يسمونها التهجّد.

أثارت ملاحظة نايف قلق كلايتمان:

ـ تقصد أنّ القسام ينشط بالحركة في الليل؟!.

ـ أتحدث عن الصلاة في الليل.

ـ هل أنت متأكد من أن نشاطات الليل تقتصر على الصلوات فقط؟.

صمت أحمد نايف. وقد فهم من السؤال لوماً!.. وقال حليم ببسطة:

ـ لكأنك تشك في شيء!.

قال كلايتمان بنبرة حاسمة وهو يوجه الكلام لأحمد نايف:

ـ منــذ الغد تبحث عن بيــت يكون أقرب ما يمكن من بيت القســام، وتسكن فيه..

نظر نايف إلى قائده الإنكليزي في دهشة..

ـ ولكن..

ـ لا تهتم بالمال. سندفع لك أجرة السكن، وندفع لك علاوة مجزية.. المهم أن تراقب القسام عن قرب، أريد أن تحصي عليه أنفاسه.. متى يدخل؟. متى يخرج؟.. من يزوره، ومن يرافقه؟..

ـ أمرك سيدي.

ـ ولا تنسَ.. أريد أن أعرف متى يخرج ليؤمّ مريديه في صلوات الليل؟.. متى وأين وكيف؟.

# ١٢٦

كاز. كاز..

كاز. كاز..

ـ مرحباً يا بياع الكاز.

ـ أهلاً..

ـ إملأ لي نصف هذه..

وفتح الصنبور هوناً ما، واستمرّ ينادي..

ـ كاز. كاز

ورفع صوته، وهو ينتظر أن يصل نداءه إلى مسامع الشيخ..

ـ هذا يكفي.

ـ تفضل..

وجاء الشيخ عز الدين، يحمل آنيته..

ـ «تنكة» من فضلك

وانحنى العبد قاسم يملأ الكاز للشيخ..

ـ هل من جديد؟

ـ أبو زيد علم من أصحابه في البوليس بأن أحمد نايف قد استأجر بيتاً قرب بيتك.

ـ يريدون مراقبتي عن قرب.

ـ أبو زيد ينصح أن تكون أكثر حيطة، وقد وضع مراقباً من طرفه، يراقب تحركات أحمد نايف.

ـ من؟

ـ أبو خليل قيّم الحمّام..

- جيد.

- لكأن باب حمّامه يشرف في آن معاً على بيتك وبيت جار السوء هذا الذي ابتلاك الله به.

ضحك القسّام:

- نعم التدبير. توكل على الله

ونقد القسام العبد قاسم ثمن الكاز، ثم مضى..

كم يذكره هذا الحصار بحصار الفرنسـيين له قبل خمسة عشر عاماً.. لكن الفـرق أن العدوّ اليوم يحاصـره، دون أن يـدري أن البنيان يكاد أن يكتمل.. فلديه الآن رجال وقادة.. سـيفاجئون العدوّ عمّـا قريب بما يكره.. لقد زرع فكر الجهاد في قلـوب تتعطش للحريّة، وسـيثمر عمّا قريب بإذن الله، ليزلزل الأرض تحت أقدام الظالمين.

كان عبد الكريم الأسعد من خيرة شباب القسام، وأكثرهم نشاطاً وتقوى، وكان الشيخ يوكل له الكثير من المهمّات، وبعد صلاة العصر، اقترب من شيخه محيياً..

- كيف أنت يا عبد الكريم؟
- الحمد لله

قال الشيخ وهو يراقب بطرفه الحذر رواد المسجد، ليتأكد أن أحداً من الغرباء لا يراقبه..

- ما جديدك؟
- هذه المرّة جئتك لأمر شخصيّ.
- خير؟
- عزمت على الزواج..
- مبروك؟.
- وأتشرف بأن تكون أنت من يعقد القران.

رمقه الشيخ بملامحه الوقورة..

- أريدك أن تنجب أسوداً.

ابتسم..

- إن شاء الله..
- متى الموعد؟
- الخميس القادم.

ومال عليه القسام..

- بعد عقد القران، وبينما يكون الناس منهمكين بتناول الحلوى..

ترتب لي جلسة أنفرد فيها بالشيخ كامل القصاب والأستاذ رشيد الحاج إبراهيم.. وقد يأتي أيضاً أبو إبراهيم..

- أبو إبراهيم الكبير أم أبو إبراهيم الصغير؟

- أبو إبراهيم الكبير خليل عيسى أما توفيق إبراهيم فتدعوه إن شئت ضمن أصدقائك، ممن سيحتفون بالعريس.

ابتسم عبد الكريم.

- سأدعو الجميع بنفسي.

- لا. التفت أنت لفرحك، واترك الباقي عليّ.. المهم أن تشغل الباقين عنّا ساعةً أو بعض الساعة، حتى ننتهي من الاجتماع.

- كن واثقاً.

- ألا تريد حلوان الفرح؟

صمت، وابتسم في حياء..

- قل للشيخ علي الحاج عبيد أن يصرف لك مسدّساً، تدافع به عن عروسك وأطفالك حين يحين الجدّ.

قال الشيخ عز الدين:

ـ الإنكليـز يحكمـون الحصار حولنـا، ودولـة اليهـود أصبحت على الأبواب، وقد حان الوقت لعمل شيء..

قال الشيخ كامل:

ـ أي حركة يجب أن تكون مخططة بعناية. يجب أن تتأكد من رجالك قبل أن تقدم على شيء.

ـ الرجال على أتم الاستعداد، ولعلّي أخشـى إن تأخرنا أن يشتد بهم الحماس، أو يلجئهم القهر إلى تصرف لم نحسب له حساباً.

ـ أوافقك في هذه، لكني أرى أن اختيار الوقت مهم.

ـ ولهذا أردت أن أستشيركم اليوم..

قال الأستاذ رشيد:

ـ أنا مع الشـيخ عز الدين.. يجب أن نتحرك لنوقف هذا السـيل من المهاجريـن.. والأعداد فـي تزايد مسـتمر.. أصبح لديهـم المال والرجال والأرض، وأخشـى أن يفاجئونا بإعلان وطنهـم المزعوم تحت حراب الإنكليز.

وتسـاءل الشـيخ كامل عمّا يقوله أبو إبراهيم في هذا التوقيت، فتململ في مكانه، وقال:

ـ أرجو أن تعذروني إن قلت لكم بأن لي تقييماً مختلفاً للوضع. إذ أنني أعتقد أن مـا لدينا مـن عتاد ورجال لا يسـمح لنـا بأن نعلن ثـورة على الانتداب، ومن معه من قوات يهودية مدربة!.

فاجأ أبو إبراهيم الشيخ عز الدين برأيه، فردّ يحاوره فيما ذهب إليه..

ـ لا أظن أن بريطانيا ستتركنا حتى نعد لها جيشاً!.

ووافقه الشيخ كامل، بينما قال الأستاذ رشيد:

- أرى أن الشيخ عز الدين دخل الآن في حصار محكم، ولا أعتقد أن الوقت سيسعفه ليجمع المزيد من الرجال.

قال الشيخ القسام وهو يقلّب الأمر من كافة جوانبه:

- فكـرة أبـي إبراهيـم وجيهة ومحقّـة، لكن قـد نختلف فـي كيفية تحقيقها.. العدوّ كما يقول الأسـتاذ رشـيد لن يتركنا حتـى نجمّع وندرب ونحشـد ونهاجم.. هم تأكدوا الآن أن هناك حركة تعدّ للمواجهة، وينظرون إلى جمعية الشبّان المسـلمين بعين الريبة، وأخشـى أنهم يخططون لحلّها وتجريمها عمّا قريب، لذلك الانتظار سيكون علينا لا لنا..

- والحلّ؟..

قال الشيخ عز الدين بنبرة واثقة:

- كلنا نعلم أن شـباب فلسـطين اليـوم متحفز للمواجهـة والجهاد.. ولدينا الكثير مـن المخلصين، الذين يتحرقون لِهبّـةٍ توقف مخطط اليهود والإنكليز لإقامة وطن غريب في فلسـطين، وهم يتطلعون إلى من يسـتوعب حماسهم، وينتظرون شرارة البدء حتى يلتفوا حولها، وسنكون نحن بعون الله هذه الشرارة، التي ستحرك أهل البلاد لكسر هذا العدوان.

وأردف القسام:

- أستطيع أن أقول أن لدينا الآن من الرجال والعتاد، ما يكفي لإشعال ثورة في البلاد، تماماً كما يفعل عود الكبريت، عندما يلهب كوماً هائلاً من الحطب.

تبادل الرجال نظرة تنطـق بالقناعة. أما أبـو إبراهيم، فقد كان له رأي آخر!.

خرج القســام من الاجتماع وهو غارق في التفكيــر، يتأمل في الخطوة القادمة.. كان بودّه لو كان أبو إبراهيم معه، وهو يخوض الثورة التي خطط لها..

وشعر الشيخ عز الدين بأن أحداً يتبعه، لكنه تابع طريقه يتنسم رائحة الخريف الماطر، الذي كان يملأ المكان بعبق الأشجار، وهي تغتسل برذاذ المطر..

كانت المصابيــح العتيقة تلقــي بأضوائها الصفراء الباهتة على شــارع وادي النسناس، وكان الطريق طويلاً، فاستجاب لخواطره وهو يحثّ الخطى إلى بيتــه.. كانت مفارقة أن يشــعر اليوم بأن قلبه متــرع بالطمأنينة، رغم الخوف الذي يراوده من حين إلى آخر على هــذا الذي بناه.. على الرجال الذين اختارهــم بعناية، وربّاهم ودرّبهــم على عينه.. على الشــباب الذين التفوّا حول دعوته للجهــاد، وهم يتدفقون حيوية وحماســاً للدفاع عن وطن مستباح..

وشعر بأن القدر قد ساقه إلى فلسطين، ليطلق شرارة الكفاح ضد قوى الشرّ، التي تحالفت لتغتصب فلسطين، وتنتهك تاريخها وقداستها، وتحولها إلى مستعمرة كبيرة، يتمترس فيها الغزاة خلف الفكرة الصهيونية، ويحميها انتداب ظالم، قرر مع حليفه الفرنســي، أن يفتت بلاد الشام، حتى لا تقوم لها قائمة بعد اليوم.

وخطــر للشــيخ أن يتوقف ليمســك بهذا الــذي يراقبــه، ويتتبع خطواته، ليرى إن كان عربياً أم يهوديــاً أم إنكليزياً؟.. وتذكر أحمد نايف الذي ســكن قربه، حتى يعدّ عليه حركاته وســكناته، فتســاءل

كيف يمكن لعربي مســلم أن يتحول إلى حذاء، يدوس به العدو أبناء وطنه.

ووصل إلى بيته في وقــت متأخر، فعلم أن أخاه فخر الدين قد عاد من جبلة، بعد أن قام بتوصيل أمه، واطمأن عليها هناك..

لقد عدت في الوقت المناسب يا فخر الدين.

## ١٣٠

ســـاءت الأمور إلى الحـــدّ الذي لم يعد مـــن الحكمـــة أن يركن بعده القسام إلى الهدوء.. لكنه تذرع بالصبر، وراح يراقب تطور الأحداث.. لولا حادثة خطيرة قلبت الموازين، وجعلته يعيد كل حساباته، ويعلن النذير في كل الاتجاهات..

وتخلى الشيخ عن حذره المعتاد، واتجه إلى منزل القصّاب.. وفوجئ الشيخ كامل بالخطوة، وعلم أن القسام ما كان ليتخلى عن حذره لولا أمر قاهر!.

- ما بالك غاضب ومتوتر هكذا؟.

- خبرٌ جلل..

- أي خبر؟..

وجلس يروي للقصاب ماحدث..

- اليوم دخل علـــيّ في المســـجد عاملٌ فـــي الميناء ممـــن أثق بهم، وحدّثني أمام الناس حديثاً، يجب أن يكون له ما بعده.

- أفصح أرجوك.

- أثناء تفريغ باخرة قادمة من بلجيكا على أنها باخرة اســـمنت بناء، سقط برميل بالخطأ، فإذا به مليء بالسلاح.

- ولمن السفينة؟

- مسجلة باسم إحدى المستعمرات اليهودية.

- هذا كلام خطير..

- ولمّا أقبل العمال ليلمّوا السلاح، تدخل البوليس البريطاني، وصادر البرميـــل المفتوح، ومع ذلك ســـمح بدخول بقيـــة البراميل، كأن شـــيئاً لم يحدث، وشحنت جميعها للمستعمرة على أنها براميل اسمنت.

ـ هذا دليل دامغ على نوايا اليهود.

ـ وعلى دور الإنكليز في تمرير الأسلحة لهم.

ـ ولا تدري كم سفينة سلاح قد دخلت من قبل..

ـ لكأنهم يعدّون لحرب!..

ـ يبدو أنهم على وشك إعلان دولتهم!

وضرب الشيخ عز الدين كفّاً بكفّ، وقال بنبرة حاسمة:

ـ أعتقد أن الوقت قد حان يا شيخ كامل.

ـ صدقت.

ـ نحتاج إلى المزيد من السلاح.

ـ سأكتب للشيخ راشد الخزاعي، ليرسل ما يمكنه.

ـ أخشى أن الوقت ينفذ بسرعة..

ـ سأسافر بنفسي إلى جبال عجلون، للاتفاق مع الشيخ الخزاعي، ولن أعود إلا والسلاح معي بإذن الله..

# ١٣١

استدعى الشيخ عز الدين محمود سالم المخزومي على عجل..

- اسـمع يا أبا أحمـد.. تذهب الآن مـن فورك إلى القـدس، وتقابل المفتي..

قل له أن الشيخ عز الدين لن ينتظر بعد الآن.. لقد بلغ السيل الزبى، ولم يعـد لنا على الصبر طاقة، قل له أنّ البـلاد مهددة أكثر من أي وقت مضى، وبواخر السـلاح تلقي بأحمالها إلى اليهود أمـام عيوننا، والإنجليز متواطئون، لا يحركون ساكناً.

قل له القسـام لم يعد يأكل من حكي السياسـة والمؤتمرات.. اليهود صاروا أكثر من العرب.. مسـتعمراتهم مدججة بالرجال والسلاح.. ولم يبق إلا أن ينقضوا علينا، ليعلنوا وطنهم المشـؤوم، ونحن مشغولون بالكلام ثم الكلام ثم الكلام.

قل له يا أخي نحن في الشـمال جاهـزون للثورة، فلتعلنـوا الثورة في الجنوب، لنجمع الناس تحت راية الجهاد، وإلا سـوف تجدون اليهود، وقد صاروا جيشاً يهدد القدس، ويفتك بأهل البلاد، ليبنوا دولتهم في قلب بلاد الشام، التي يريدونها مزقاً وأشتاتاً..

نظـر الرجال إلى شـيخهم، وهو يتوقد ثـورة وغضبـاً، وتبادلوا نظرة قلقة..

قال أبو أحمد القسام:

- هي الثورة إذن!

- نعم الثـورة.. الجهاد بالنفس والمـال إلى أن يـزول كل الغرباء.. الثورة بالـروح والدم حتى يعـرف الإنجليز واليهود أن هـذه الأرض حرام

عليهــم، وأن الأمة كلّها ســوف تدافع عن أرض الرباط.. لن نســمح بإقامة دولة صهيون ونحن نتفرج.. لــن ننتظر حتى نقول مرة أخرى لقد خدعونا.. بل ســنعلنها صريحــة مدويــة.. الجهاد إلــى آخر رجـل منّــا.. الجهاد أو الاستشــهاد.. وعندما نبدأ ســتجد أن الرجال خلفنا كالمطــر.. كل الناس يتحرقــون للجهــاد.. لكنهم يبحثــون عمّن يتقــدم الصفــوف، ويدلّهم على الطريق..

وامتلأت صــدور الرجــال بالحماســة، فهــذا هو اليــوم الــذي كانوا ينتظرونه..

وتساءل محمود زعرورة:

- هل تعتقد أن المفتي سيوافق؟

قال القسام بغيظ:

- نحن لا نستفتيه يا أخي.. نحن نعلمه أننا سنبدأ الثورة في الشمال.. حتى يستعدّ في الجنوب، أو يمدنا بما يستطيع، حتى نرهق الأعداء، ونشتت قواهم..

وراح القسام ينتظر الجواب..

ورأته ابنته ميمنــة وهو عابس مشــغول الفكر، فابتدرته بالســؤال عمّا يشغله..

- لو تعلمين يا ميمنة.. اليهود يشحنون السلاح لمستعمراتهم كل يوم، ونحن لاهون غافلون.

- هذا يعني أنهم يعدّون لحرب..

- فلسطين أصبحت رهينة مكر لا مكر بعده.

- ليس لنا إلا الصبر..

تأملها بطرف عاتب.

ـ اصمتي يا ميمنة.. والله لا يصبر على هذا إلا كل خوار ذليل.. دولة اليهود في فلسطين تكاد تقوم.. مهاجرون في سن القوة والشباب، ومئات المستعمرات، وسفن تشحن لهم أطناناً من السلاح، وتريدين مني أن أهدأ؟!..

وأقبلت أمينة على صوت زوجها..

ـ ما بك يا عز الدين؟

تأملها بعينين غشيتهما حمرة الغضب..

ـ ما حذرت منه أصبح قاب قوسين أو أدنى يا أمينة. لقد تمكن اليهود من مشروعهم، ونحن نائمون..

صمتت. أدركت أن زوجها قد اقترب من معركته التي كان يعدّ لها بصمت، واحتسبت عند الله مستقبلاً بدأ يتسرب من حياتها، التي تمضي من ابتلاء إلى ابتلاء.

استمع المفتي للرسالة، وهو مطرق.. حوقل، وقال، وهو يرفع نظراته القلقة لرسول القسام:

ـ شيخكم مستعجل يا أبا أحمد.. أنا أرى أن الأمور لم تنضج بعد.. لكنّي أدرك أن الشيخ عز الدين ما وصل إلى قراره هذا، إلا وهو يرى أنه قادر على فعل شيء!.

وصمت برهة، ثم هزّ رأسه في حيرة، وقال:

ـ ومع هذا قل له أن المفتي ينصحك بالتريث.. لأن أمورنا في القدس والجنوب لم تجهز بعد..

ونهض المفتي ثم قال وهو يشد على كتف الرسول:

ـ قل له أن المفتي لا يستطيع أن يمنع أحداً من الجهاد.. لكني لا أستطيع أن أعلن الجهاد في عموم فلسطين، إلا عندما تنضج الأمور على الوجه الأكمل.. وإلى أن تحين تلك الساعة، فنحن نسدد ونقارب، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها..

وعاد محمود سالم إلى شيخه القسام بالجواب..

ـ كنت أتوقع جواباً غير هذا من المفتي..

ـ لعله خائف من اندفاعة لا تحقق النصر!.

قال الشيخ عز الدين:

ـ ليست هذه المرة الأولى التي أخوض فيها تجربة الجهاد.. أعرف أن حركتنا لن تهزم جيشاً عاتياً كجيش بريطانيا، لكنها ستطلق ثورة لا بدّ منها في فلسطين لوقف هذا العدوان، وأنا متأكد من أن الألوف سوف يلتحقون بهذه الثورة عاجلاً أم آجلاً.. وسوف تلتقي ثورة فلسطين مع ثورة

سوريا ضد الفرنسيين، لتعود الأرض التي بارك الله فيها حول الأقصى موحدةً، ترفل بالحرية والاستقلال.

وأخرج أبو أحمد القسام مبلغاً من المال:

ـ الشيخ أمين يقول لك أنه كان يتمنى لو كان معك، وأرسل لك هذا المبلغ.

ـ جزاه الله خيراً. هذا يعني أنه معنا، لكنه يتريّث..

والتفت الشيخ إلى نمر السعدي..

ـ بلّغ الشيخ فرحان أن يستعد، ويجمع خيرة رجاله استعداداً للجهاد، وأخبره بأنا سنلتقي في قرية نورس مساء الجمعة، ثم ننطلق من هناك..

وطلب من الشيخ حنفي أن يخبر أبا إبراهيم بضرورة أن يلقاه بعد صلاة فجر الجمعة في مسجد عبد الله أبو يونس الجديد.

وأراد الشيخ عز الدين أن يمنح أسـرته بعضاً من اهتمامه، وهو يشعر أن أيامه معهـا باتت معـدودة، فمضى إلـى الكنفاني، واشـترى طبقاً من الكنافة الشـهيّة، ثم مضى بهـا إلى بيته، وهـو يحـاول أن ينحّي الحزن والغضب، ولو إلى حين، ليدخل إلى بيته بعض الحبور.

وطرق الباب، ففتح له محمد، وقد توارت الأمّ خلفه، تحتجب عن عيون المارة، فناولها الشـيخ الحلوى، وحمل ابنه، وقبّلـه في حنان، ثم مضى به إلى الداخل، وهو يحتضنه بشـوق، وكأن أياماً طويلة مضـت دون أن يراه، وهو الذي ودّعه في الصباح..

- كيفك يا بطل؟

- ميمنة عندها صديقتها.

- صديقتها؟.

قالت الأم ضاحكة:

- يقصد آمنة.

- آمنة هنا؟.

أجابه الصغير نيابة عن أمه، فخفق قلب الشيخ عز الدين للبراءة التي تقطر من كلماته..

- تجلس مع ميمنة وخديجة في الداخل.

- وماذا تفعل؟

- تحكي لهم أنها تريد طفلاً جميلاً مثلي.

تبادل القسام نظرة مع زوجته:

- أما زالت لم تنجب؟

ـ أعانها الله.. هـذه معاناتها المقيمة.. كلما زارتنا تحدثت في هذا الموضوع.

وشعر الشيخ بلهفة للقاء آمنة.. لكأنها ابنته الرابعة.

ـ جاءت الكنافة في الوقت المناسب. أدخليها عليهن، وأخبريهنّ بأني قادم لأسلّم عليها..

ودخل الشيخ عز الدين، فنهضت آمنة ترحب به..

ـ كيف أنت يا آمنة؟.

ـ الحمد الله..

ـ وكيف الوالد الكريم والأهل جميعاً..

ـ يدعون لك بالسلامة..

ـ تفضلي. تفضلي يا ابنتي..

وراحوا يتناولون الحلوى، وقد أضفى دخول الشيخ على الجلسة هيبة وصمتاً قطعته ميمنة..

ـ حدثتنا آمنة عن أيام المدرسة.. تقول أنك أعظم أستاذ مرّ في حياتها.

ابتسمت آمنة، بينما همس الشيخ:

ـ أستغفر الله يا بنتي. هذا من طيب أصلك.

ـ كل البنات اللائي كنّ معنا يقلن هذا الكلام.

ـ هذا فخر لي.. وكيف مصطفى؟

ـ يدعو لك دائماً.

ـ أرجو من الله تعالى أن يكلل حياتكما بالسعادة.

وأطرقت آمنة، وقالت بنبرة كسيرة:

ـ لا ينقصنا يا أستاذ سوى ما تعلم.

تبادل القسام نظرة مع زوجته التي قالت:

- اصبري يا آمنة.. هذه الأمور تأخذ وقتاً.. تفاءلي بالخير.

أجهشت، وقالت:

- صبرت طويلاً ياخالة، وأخشى..

قاطعها القسام:

- لا تقوليها يا ابنتي.. تفاءلي بالخير كما تقول أم محمد.. سلّمي أمرك لله، وكوني مطمئنة، فإن الله مع الصابرين..

- ادع لي يا أستاذ..

- رزقك الله بما تشتهين من أطفال وأحفاد، وجعلهم لك قرّة عين.

وانتبه الشيخ إلى أنّ آمنة قد توقفت عن تناول الحلوى!.

- تفضلي يا آمنة. أكملي حلواك، وخلّي ثقتك بالله عالية.. وسوف تأتينا عما قريب بإذن الله، لتزفّي لنا البشرى.

أشرق وجه آمنة بابتسامة وادعة، وغمرها التفاؤل، فأقبلت تأكل حلواها بشهية.

لا تدري سرّ اليقين الذي دخل قلبها، بأن دعوة الشيخ هذه المرّة، ستستجاب!.

اختار القســام نخبة من رجاله ليكونوا طليعة الجهــاد، وطلب منهم أن يجمعوا ما استطاعوا من مال يساعدهم في خروجهم هذا، فباع بعضهم أثاث بيوتهــم، وبعضهم باعوا مصــاغ زوجاتهــم، وفوجئوا برفيقهــم عطيفة أحمد المصري، يبيع أســاور زوجته بثمانين جنيهاً، ويشــترى بها بضــع بنادق له ولإخوانه المجاهدين، وودّع زوجته الحامل، ليلتحق بالمجموعة التي اختارها الشــيخ، بعد أن ألحّ عليه بالخروج، ولمّا سأله حســن الباير لمَ فعل ذلك، قال: لأكفرّ عن أيامٍ لم تكن لله..

وباع محمد أبو قاســم خلف كل أغراضه، وودع زميله في الشقة بالقبلات، وعندما ســأله إلى أين سيغادر؟. قال أنه ســيذهب إلى الموت من أجل وطن لا يعربد فيه الإنكليز، أو يشــتريه اليهــود، ليبنوا فوق بيوتنا وطنــاً ودولة.. لكن زميله ظنّ به مسّاً، ولم يأخذ كلامه على محمل الجد!.

وعندما علم الشــيخ بما قاله، أصدر أوامر صارمة لرجاله بألّا يكثروا مــن الحديث، وأن يكتموا ســرّ حركتهم عن أقرب النــاس، وطلب منهم أن يذهب كلّ منهم من طريق، ليجتمعوا في مزرعة كان الشيخ حنفي يستثمرها للعصبة فــي عين جارود، حيث وقعــت معركة عين جالوت الشــهيرة، وكان يستخدمها الشيخ علي الحاج عبيد، لتخزين السلاح..

وطلب الشــيخ عز الدين مــن ناجي أبو زيــد أن ينقل رســالة مكتوبة للأســتاذ رشــيد الحاج إبراهيم. كانت الرســالة قصيرة ومقتضبة، وعندما قرأها الأستاذ رشيد دمعت عيناه..

ـ «أخي الأستاذ رشــيد.. أزمعت المضيّ فيما اتفقنا عليه، وتأكد من أنّي واثق من نفسي، وأن صوتي سيجد صداه في كل مكان عند أول صيحة،

ونستودعك الله راجين من المولى تعالى أن يوفقنا في أعمالنا في سبيل الوطن».

وأيقن الأستاذ رشيد أن ثورة فلسطين الكبرى قد بدأت.. وأن الحجر الأول في جدار الظلم سيسقط عمّا قريب.

بعد فجرالجمعة، أقبل أبو إبراهيم بصحبة الشـيخ حنفي للقاء الشيخ عـز الدين.. كان عصيّـاً على ذهن مراقبي الشـيخ أن يصلـي الفجر في مسجد غير الاستقلال، لذلك اختار أن يلتقي أبا إبراهيم في مسجد الحاج عبد اللّه أبو يونس، وكان مسجداً جديداً، مازال بعيداً عن نشاط الجمعيات الإسلامية..

- كيف أنت يا أبا إبراهيم؟..
- بالي عندك يا أبا محمد..
- لقد أوشكنا على المسير.. أما زلت على رأيك؟..
- صدقتك القول.. أخشـى أنّا في هذه اللحظة لا نسـتطيع أن نواجه قوة الإنكليز العاتيـة، وعصابات اليهود المهاجرين، الذين تعرف كم جمعوا من سلاح ومقاتلين.

ردّ عليه الشيخ يحاول التوضيح..

- أنا لم أقل أنا ذاهبون لنهزم هؤلاء فـي معركة أو حرب.. أنا قلت سوف أشعل ثورة يشـارك فيها كلّ حر في فلسطين.. هذا أضعف الإيمان، قبل أن نستيقظ يوماً، فنجد فلسطين وطناً لليهود الغرباء.
- هَبْ أن الشـباب والرجال بـدؤوا بالالتحاق بنا، فمـن أين لنا بما يكفي من سلاح وذخيرة؟.
- جمعنا بعض الأموال، ولدينا سند ووعد بالدعم ممن نعرف صدقهم وقدرتهم..
- الجواسيس يا شيخ عز الدين في كل مكان، ولن يتركوك..
- الجواسيس في كل زمان ومكان.. لا بد من أحد يطلق روح الجهاد..

فإن وفقنا اســتكملنا ما بدأناه.. وإن كتب الله لنا الشــهادة، يأت من خلفنا من هو أحسن منا..

وقال أبو إبراهيم في محاولة أخيرة لاستيعاب اندفاعة الشيخ القسام:

- في كل الأحوال، أرى ألّا تخرج بنفســك.. أرسل مجموعة، وعيّن لها قائداً يبدأ حشد الثوار.. وتبقى أنت توجه الثورة وتدعمها..

وثنّى الشــيخ حنفي على الاقتراح.. فرد الشيخ عز الدين عليهما بكلام قاطع.

- وعــدت الرجــال أن أكون معهــم، ولا خيــر في قائــد يجلس خلف الصفوف..

وأردف:

- تعال معنا يا أبا إبراهيم. فأنا أعرف أنك تواق للجهاد.

- لعل بقائي في حيفا ينفع، إنْ أذنت لي.

- لا بــأس.. لتكن ضمن مجموعة حيفــا، فإن وُفِقْنــا، التقينا معاً في معركة حيفا، وإن لم يكتب لنا التوفيق.. ترى أنت وإخوانك بعدنا ما ترى..

وودعه الشيخ، وقبل أن يفترقا، أوصى الشيخ حنفي أن ينسق معه أمور حيفا، وأوصاه أن يوفر له ما تبقى من السلاح عندما يحتاج إليه.

وكلف الشـيخ أخاه فخر الدين بأن يرعى المسجد في غيابه.. وقبل أن يبـدأ رحلة الجهاد قـرر أن يودع حيفا علـى طريقته، فبعـد الصلاة اعتلى القسام منبره الأثير، وكأنه يودعه..

وتصفح الوجوه الشـاخصة نحوه، فلمح فيها الصدق والإخلاص، وراوده إحساس بأن كلماته تولد من جديد، وأن فلسطين ستذكر يوماً أنه كان وفيّاً لبرتقالها، فهاهو يعلن الجهاد على أرضها، وقد وطّن نفسه على الاستشهاد فوق ترابها، ليروي بدمائه غرسـاً مقدسـاً، يبدؤه اليـوم، ويأمل ألّا يتوقف حتى يزول ليل الظالمين.

وتهدّج صوته وهو يتلو قول الله تعالى.. «ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسـول، وهم بدؤوكم أول مرة. أتخشـونهم؟. فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين»

وتابع بصوت حازم، وقد لمع في عينيه بريق، يعكس ثقة وتصميماً لا يلين:

ـ أيها النـاس.. لقد علمتكم أمور دينكم، حتى صـار كل واحد منكم إلى الله أقرب، وانتهى وقت الكلام، ليبدأ وقت العمل.. واعلموا أن الصليبية الإنجليزية الغربيـة والصهيونية اليهودية الفاجرة تريـد ذبحكم كما ذبحوا الهنود الحمر في أمريكا.. تريد إبادتكم أيها المسلمون، حتى يحتلوا أرضكم من الفرات إلى النيل، ويسـتولوا علـى القدس، ولن يتوقفـوا حتى يحتلوا المدينة المنورة إن استطاعوا، ويحرقوا قبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم.. فالذي يريد أن يسـتولي على حائط البراق ظنّاً منه أن هيكل سـليمان كان تحت أحجاره، سـيأتيكم غداً ليقول لكـم أريد قلاعي وديـاري في يثرب، وينتقم من أمة عاقبته يوماً على غدره وخيانته.

ـ يا أهل فلسطين لقد سرقت الصهيونية الفاجرة أرضكم، وهاهي تحشد السلاح لتذبحكم به، وما حديث براميل البنادق والرصاص، التي افتضحت في ميناء حيفا عنكم ببعيد.. وقد حصحص الحق، وبان الطريق، وإنه لا يفلّ الحديد إلاّ الحديد، فاستجيبوا لأمر الله تعالى «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة»..

ـ أيها الناس.. لقد علمتكم أمور دينكم، حتى صار كل واحد منكم عالماً بها، وعلمتكم أمور وطنكم حتى وجب عليكم الجهاد، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

فإلى الجهاد أيها المسلمون.

إلى الجهاد أيها المؤمنون.

وتوجه الشيخ عز الدين إلى منزله مباشـرة، فلبس «الكاكي»، وتناول مسدسـه، وعقد العقال فوق رأسـه، وهو يتحاشـى دموع زوجته، التي تنثال على خديها بصمت.. قال وهو يشدّ حزام الرصاص على صدره:

ـ أخيراً حانت ساعة الجهاد.

ـ كان قلبي يحدثني، بأنك تعد لهذه اللحظة.

ـ هذا أمر الله يا أمينة، فادعِ لنا.

ـ وفقك الله ونصرك. انتبه لنفسك.

ـ وصيتي لك الأولاد..

ـ سيكونون إن شاء الله على خير ما أردت.

ـ وإذا كتـب الله لي الشـهادة، أرجوك أن تسـامحيني، فقد أرهقتك معي.

وتهـدج صوته، بينما بكـت أمينة، ودفنت وجههـا المخضل في صدره، تودع حبيباً ورفيقاً، قد لا تلقاه بعد اليوم..

وخشـي القسـام من عاطفتها أن تنال من عزيمته، فربّـت على كتفها مشجعاً، ثم تناول مصحفه، فقبّله، ودسّـه في جيب قميصه، ومضى للغرفة الثانية، فوجـد الأولاد مع عمهم فخـر الدين، وقد مهّد لهـم الأمر، حتى يتقبلوه..

وهرعت إليه ميمنـة وهي تبكـي، فاحتضنها بحنان، لكنه سـرعان ما تملصّ من ذراعها خشـية أن يضعف، وكانت أمينة في إثره، فأسـرعت إلى ابنتها تهدئها، بينما مضى الشـيخ إلى خديجة وعائشة، وضمّهما معاً، وهما تبكيان، ووصل إلـى محمد، فحضنه بقوة، وهو ينظر إلى أخيه فخر الدين،

وكأنه يوصيه بأن يعوضــه عن حنان أب، كان قدره أن يغــادره مبكراً، وهو يتفتح على الحياة..

وقال فخر الدين وهو يودع أخاه:

- يجب أن تغادر بسرعة.. السيارة بانتظارك.

وسمعوا صوت السيارة وهي تنطلق، فانخرطوا في البكاء والنحيب.

في قرية نورس اجتمع رجلان على تخوم القدر..

قال الشيخ فرحان السعدي:

ـ أنا ورجالي رهن إشارتك يا عز الدين، فأخبرني بخطتك..

ـ اخترت من رجالي مجموعة ينتمي أغلبها للقرى والبلدات التي سنمرّ بها، ليساعدونا في تحشيد الرجال، وبعث الهمم للجهاد، وأرى أن تفعل كذلك.

ـ والباقون؟

ـ يستنفرون على أهبة الاستعداد.. رجالي في حيفا.. ورجالك في جنين.. ليكونوا لنا عوناً عندما تتفاقم الأحداث، ونرى في كل مرحلة رأياً يناسب ما تؤول إليه الأمور..

ـ وبعد؟

ـ إن استطعنا أن نجمع ما يكفي من الرجال عدنا لنضرب في حيفا وفي جنين، ونزلزل المستعمرات التي باتت أوكاراً للعدوان..

ـ أخبرني ابن عمي نمر أنكم جهزتم خطة لاحتلال حيفا.

ـ كانت فكرة.. لكن التقدير كان أننا لن نصمد فيها لو فعلنا أكثر من ثلاثة أيام، فاستبعدت الأمر.

ـ وكيف ستكون خطة سيرنا..

ـ أرى أن نسير من طريقين.. طريق أنا وجماعتي.. وطريق أنت ورجالك..

استغرب الشيخ فرحان!.

ـ ولماذا لا نكون معاً؟..

ـ حتى إذا استشهد أحدنا، يحمل الثاني اللواء.. هذا عهدنا أمام اللّٰه، وعليه نفترق.

ـ توكلنا على اللّٰه.

وتعانق الرجــلان، وعقدا النية على جهاد طويــل.. لا ينتهي إلا بتحقيق إحدى الحُسْنَيَيْن.. النصر أو الشهادة.

ومضى الشيخ عز الدين باتجاه أحراش يعبد، بينما سار الشيخ فرحان إلى وادي أحمر بين نابلس والغور..

وحبس الزمان أنفاسه، يرقب رجالاً وضعوا يدهم على البدايات، وتركوا النهايات لبارئها، واعتصموا بيقين المؤمنين.

قرر القسّـام أن يبدأ المسـير من قرية عين جالود، التي تضم السهل الذي جـرت على ترابه معركة عين جالوت الشـهيرة في مـرج بني عامر.. واسـتذكر الرجال وهم يمضون فـي الظلام بطولات الشـهداء التي دحرت المغول على هذه الأرض يوماً..

وتوقف الشـيخ فجأة وسط السـهل الأخضر، واسـتدار، فتحلق الرجال حوله، يتهيؤون لسـماع توجيهاته.. قال بصوت هادئ فيه عزم وخشوع: قولوا «الله أكبر. بسـم الله».. جددوا يا إخوان نية الجهـاد الخالص لله تعالى.. بسم الله تعالى نبدأ اليوم جهادنا ضد الإنجليز والصهاينة من هذا المكان الطاهر..

وانطلق بخطوات واثقة، فمضوا خلفه، وقد شـحنت ذكرى النصر في عين جالوت أرواحهم، بما كتبه الشـهداء علـى جبين الزمان من معاني التضحية والفداء، وشـحذوا عزائمهم لمواجهة المغول الجدد، الذين أتـوا ليخضعوا هـذه البلاد مـن أجل أهدافهـم ومصالحهم، ويكسروا إرادة أهلها، وينتهكوا سيادتهم في وطنهم.

وعرف أحمد نايف بمغادرة القسـام لبيته في سـيارة علـى حين غرّة، فجنّ جنونه، وأرسـل عيونه يراقبـون الأمكنة التي يمكـن أن يتردد عليها، وأرسـل تعميماً حول غياب الشـيخ، الذي تقدر قيـادة المخابرات بأن لديه نوايا غامضة!.

ووصلوا إلى جبال فقوعة، فاختاروا كهفاً يتوارى خلف غابة من الأشجار، فأووا إليه..

- لماذا سمّوها جبال فقوعة؟.

- لكثرة نمو الفقع فيه..
- الفقع؟.
- يعني الفِطر..

وصاح أحدهم:

- الماء الذي لدينا نفذ.
- من أين سنشرب؟
- المنطقة مليئة بالعيون.

وقضوا في الكهف أياماً كانوا يتبادلون فيها الحراسة، وينهمك الباقون في تبادل خبرات القتال واستخدام السلاح، تتخللها جلسات الصلاة وقراءة القرآن، مع جلسة يومية يقضونها مع شـيخهم في المساء، يبعث فيهم روح الجهاد والاستشهاد..

وفي كل يوم كان الشـيخ عز الدين يختار بعـض رجاله، فيتوجه معهم إلى قرية من القرى، ليجتمع بوجوهها ومجاهديها، يبشرهم بثورة قادمة لا بد منها، لزحزحة هذا العدو الغاشم الجاثم على صدر فلسطين، الذي أتى بالألوف المؤلفة من الغرباء، ومكّن لهم، ليصبحوا جيشاً عاتياً يهدد البلاد والعباد.

وفـي كل قرية كان يترك الشـيخ رجلاً يثـق فيه، ليكون مسـؤولاً عن تنظيم المجاهدين والاتصال بقيادة الثورة..

وتفاءل القسام بفجر جديد..

وصل إلــى البوليس البريطانــي تقرير أولي حول تواجــد مجموعة من الرجال في قرية فقوعة، فتم اعتقال عدد من الأشخاص من القرية للتحقيق معهم، ولما عجز عن الوصول إلى معلومات كافية، أطلق جواسيسه ومحققيه في القرى المجاورة، ومعهم عدد من الضباط، ليســترقوا السمع، ويراقبوا التحركات المريبة، متنكرين بأزياء الفلاحيــن والباعة المتجولين، لتحرّي المعلومات التي تدل على حقيقة هذا التحرك!.

وكان الشــيخ عز الدين قد غادر إلى قرية زرعيــن، ليجتمع مع مجموعة من وجهائها، ويدعوهم لحشد الرجال من أجل الجهاد، بينما بقي الآخرون في كهفهــم، يتناوبون في الحراســة، وأثناء نوبة عربي بدوي لاحظ تحــركات مريبة لبعض الأشــخاص، الذين يحومون حول المــكان.. فأخبر رفاقــه، فتواصوا بالحــذر والانتبــاه، بانتظار عودة الشيخ.

وعندما هبط الليل حانت نوبة حراسة مجاهد التحق بهم مؤخراً، يدعى أحمد عبد الرحمن حســن، فأوصــوه بالحذر، وأَوَوْا إلــى كهفهم، ينتظرون عودة الشــيخ القســام، وراح المجاهــد المكلف بالحراســة يراقب الدروب المؤدية إلى الكهــف، وهو يقف على صخــرة مرتفعة قليــلاً، متحفزّاً لكل حركة..

وحدث ما لم يكن بالحسبان!.

فقد ســمع عدة طلقات نارية من مكان بعيد، فلم يكترث، لأن كثيراً من حراس المزارع اعتادوا أن يطلقوا النار بين الحين والآخر، تحذيراً للصوص الذين يكثرون في موسم جمع الحمضيات، لكنه بعد قليل تحفزّ وصار أكثر

حذراً، عندما سمع عواء كلب يقترب، وكمن خلف الصخرة يراقب، ويده على الزناد..

ورأى الحارس ثلاثة جنود إنكليز، يقتربون من المكان، ومعهم كلب أثر، ولمح أحدهم يتحدث باللغة العبرية، ويشير لرفيقيه باتجاهه، فأطلق الرصاص عليه، فأرداه قتيلاً، بينما لاذ الآخران بالفرار..

وانتفض الرجال، وخرجوا بكامل أسلحتهم، يستطلعون الخبر، فلما أخبرهم الحارس بما حدث، حزموا أمتعتهم بسرعة، وتحركوا، ليلاقوا الشيخ القسام في الدرب القادم من زرعين، وما هي إلّا ساعة، حتى ألفوه قادماً بصحبة محمود سالم المخزومي، فأخبروه بما حدث.

حوقل الشيخ عزّ الدين، وقال بنبرة مستسلمة..

ـ قدّر اللّه، وما شاء فعل..

وراح يمسّد لحيته في قلق، وهو يتفكّر فيما حصل:

ـ الإنكليز لن يسكتوا عن قتل الجندي.

وأردف وهو يتلفت حوله، يدرس تضاريس المكان..

ـ باتت معركتنا مع الإنكليز قريبة، وإن كنت آمل في وقت يؤخرها حتى نحشد أكثر، فلنخطط للقاء عدونا، إن كتبت علينا هذه المواجهة..

واقترب أحمد عبد الرحمن حسن من قائده، يحاول أن يشرح له ما حدث. ربّت القسام على كتفه في ودّ:

ـ هذا جهاد يا بني.. وأي واحد منّا كان سيتصرف مثلك، وهو يرى العدوّ يقترب منه.

وتساءل عبد الله الزيباوي:

ـ ما هي الخطة الآن؟.

ـ فلنغير مكاننا بسرعة.

- بأي اتجاه؟

- نعتصم بذلك الجبل. فإذا اقتربوا انسحبنا نحو المرتفعات القريبة.

قال نمر السعدي:

- يسمونه جبل قود.

- المهم أنه مرتفع، ويجعلنا مشرفين على الدروب، لنرصد أي قوة قادمة.

- هيا بنا.

ووصلت برقية عاجلة إلى إدارة البوليس الإنكليزي..

- مقتل الشاويش اليهودي «موشيه روزنفلد» بطلق ناري غامض في جبل فقّوعة، ويظن بوجود عصابة مسلحة في المكان.

وتحرك «المستر رايس» نائب مدير البوليس الإنكليزي في القدس بنفسه، ليحقق في الحادث، واصطحب معه عدداً من ضباطه، وأعلن مفتش البوليس العام عن مكافأة قدرها مئتا جنيه، لأي شخص يقدم معلومات تؤدي إلى الفاعلين، وتحركت قوة من الخيالة الإنكليز، قوامها مئتا فارس، فانتشرت بين الأحراش والغابات، بينما كانت مجموعة القسام، تنسحب باتجاه الجبل.

ولدى معاينة المكان الذي قتل فيه «روزنفلد» اكتشفوا في الكهف الذي كان المجاهدون يبيتون فيه، ورقة فيها ثمانية أسماء، كان محمود سالم قد تركها في الكهف مع بعض متاعه، ولم تتح له الفرصة لالتقاطها، بسبب ما حصل، ولمّا قرأوا اسم الشيخ عز الدين القسام فيها، أرسلوها إلى القيادة الإنكليزية في حيفا، لمعرفة هوية أسماء الباقين، وكم كانت مفاجأة مثيرة لحليم بسطة وأحمد نايف، عندما وجدا أنّ كل الذين ذكروا في الورقة من تلاميذ القسام، ورفعوا تقريراً للضابط كلايتمان، يحذّرون فيه من عمل تخريبي، قد يقوم به القسام وجماعته.

وتابع المجاهدون طريقهم فوصلوا إلى جبل «كفر قود»، بينما كانت قوة البوليس قد وصلت إلى الجبل المقابل، وأبلغ أحد رجال البوليس قائده عند الغروب بملاحظة حركة تبدو بين أحراش التلال القريبة، فأرسل قوة استطلاع تستكشف الوضع، فاشتبكت مع اثنين من المجاهدين، كانا

يتمركزان فـي أول الجبل، لتنبيه بقية المجاهديـن عند حصول أي هجوم، واستشهد محمد أبو قاسم خلف في الاشتباك، فكان أول الشهداء..

وانسـحبت قوة الاسـتطلاع تحت وابل النيران، ومع هبوط العتمة، أمر قائد القوة البريطانية رجاله، بأن يكمنوا في أماكنهم، مؤجلاً الاشتباك مع المجاهديـن حتى الصبح، خشـية أن يطلق أفرادُ القوة النـارَ على بعضهم أثناء قتال الليل.

وكانت أحمال المجاهدين ثقيلة، فكل رجل منهم كان يحمل بندقيته، مع ستين مشط فشك، وحربة صنعها لهم الشيخ القسام عند أحد الحدادين، بالإضافة إلى ما يحملونه من طعام وأغطية، يلتحفون بها من البرد.

واقترح عربي على الشيخ اقتراحاً استحسنه..

ـ أرى أن ننقسم قسمين، قسم يتابع معنا، وآخر يلتحق بالشيخ فرحان السـعدي في وادي أحمر، وفي طريقه يقوم بتخريب سكك الحديد، ويقطع خطوط الاتصالات التابعة للإنجليز واليهود.

أطرق الشـيخ عزّ الدين، وقد راودته المخاوف على هذه العصبة، التي تضيق حولها دائرة الشـرّ، فوجد في اقتراح عربي منطقـاً وجيهاً، لمواجهة القـوة الضاربـة للإنكليـز بعصابات صغيـرة، تكـون أقدر علـى المناورة والحركة..

وأيّـد الاقتراح.. فغادرت المجموعة التي سـتلتحق بالشـيخ فرحان نحو الشـمال، بينما بقي عربي البدوي مع مجموعة الشيخ القسام، التي توجهت نحو الغـرب، وضمت أيضاً حسـن الباير ونمر السـعدي وعطيفة المصري وعبد الله الزيباوي وأسعد مفلح ومحمد يوسف وأحمد جابر..

وتراكمـت التقارير أمام الحاكـم الإنكليزي، فاجتمع بأركانه لدراسـة الموقف، وقد استقرت في ذهنه الخطوات، التي يجب أن تتخذ على الفور..

هذه الثورة لو نجحت، لكانت بداية بركان لا ينتهي من الغضب، يطيح بكل ما بناه الانتداب من تحضيرات لوطن قومي لليهود بات وشيكاً.. ووجه كلامه إلى كلايتمان:

- أريد حملة ضخمة للقضاء على هذا التمرد.. ارفعوا درجة الاستنفار لدى كامل قوات البوليس والخيالة في الشمال.. أبرقوا إلى القوات الحدودية التي ترابط في شرق الأردن، لتتحرك.. أبلغوا سلاح الطيران ليكون جاهزاً.. يجب أن نسحق هؤلاء المخربين، ليكونوا عبرة لكل من يفكر بحمل السلاح في وجه بريطانيا العظمى..

والتفت إلى حليم بسطة..

- كن حذراً في حيفا. فقد يتحركون هنا..

وأرسل أحمد نايف مع قوات الهجوم:

- هو أدرى بهؤلاء الأشقياء.

عند الشــروق هاجمت قوة الخيالة جبــل «كفر قود» فلــم تجد أحداً، واستعانوا بكلاب الأثر لمعرفة وجهة القسام وجماعته، فتفرقت الكلاب بين الشمال والغرب.. فأعادوها:

ـ يبدو أنهم تحركوا في عدة اتجاهات ليشتتونا!.

ـ لننتظر التعزيزات.. عندها نستطيع أن نطاردهم في كل الاتجاهات.

ـ ليترجل الفرســان، ويبحثوا في المكان عن أيّ أثر يدل على عددهم أو عتادهم أو جهتهم.

ـ أمرك سيدي.

ووصلت إلى دائــرة بوليس نابلس إخبارية تشــير إلــى أن المجموعة وصلت إلى أحــراش يعبد، فتوجهت الحملة البريطانيــة مع قوات البوليس إلى هناك..

وانطلقت أصوات المكبرات في فضاء الغابة تنعق كالغربان:

ـ سلم نفســك ياقســام.. أنت محاصر، ولا فرصة لك بالنجاة.. سلم نفسك قبل أن يبدأ الهجوم..

كان وقــع الإنذار في نفس القســام مؤلماً.. كان يتمنى لو اســتطاع أن يمضي في خطته إلى آخرها.. ولكن قــدّرَ الله، والخيرة فيما اختار.. وتأمّل في وجوه الرجال. قال، وهو يهيئ بندقيته للقتال:

ـ اســتعدوا يارجال.. هذا جهادكم قد بدأ، فاثبتوا، واعلموا أنّ الجنة تحت ظلال السيوف..

هتف عربي البدوي:

ـ يوجهون لنا الإنذار باللغة العربية!.. ســتلعن فلسطين هؤلاء الخونة،

الذين اســتأجر المحتل لســانهم العربي، وضميرهم الخــرب، ليوجهوا لنا أوامر الاستسلام!.

وصاح عبد الله الزيباوي:

- دعنا نبدأ بهم..

قال القسام بنبرة حازمة:

- بل ســدّدوا باتجاه الأجنبي الذي اســتأجرهم، هــذا عدوكم اليوم، فاستعدوا، لتلقنوه درساً في البطولة والفداء.

وكرروا النداء باللغة العربية..

- استسلم ياقســام.. النداء موجه للجميع.. من يستسلم يحقن دمه.. لا فرصة لكم بالنجاة، أنتم محاصرون من كل الجهات، فلا تتهوروا أكثر.

ودار القســام دورة كاملة، يســتطلع جبهة الحصار التــي أحاطت بهم، وهيأ بندقيته استعداداً للحرب، فتحركت الأصابع على نفس الإيقاع، وراحت تلفّ أصابعها حول الزناد، بانتظار إشارة من القائد..

واستمرت نداءات القوة الإنكليزية، تدعوهم لإلقاء السلاح:

- نداء إلى جميع الأشقياء.. استسلموا قبل أن تحصدكم النيران..

وصاح نمر السعدي، وقد استفز الوصف روحه المتوثبة للاستشهاد..

- خســئتم أيها الخونة.. قولوا لأســيادكم أنّا لن نستسلم.. نحن هنا كهذه الأشــجار.. نموت واقفين، ولا ننحني.. نحن أبناء هذه الأرض، وأنتم الغزاة والسرّاق..

كانت كلمات نمر الســعدي تنزل على روح القسام برداً وسلاماً، ولمعت عيناه بدموع الفخر، ولاح له فجر عميق ينبثق من بين هذا الضباب، وصاح برجاله في إباء:

- كلّ يأخذ المكان الذي يحميه، فقد يغدرون بكم في أي لحظة..

وتناول مكبر الصوت عربي آخر ممن يرافقون الحملة، وراح يردد بنبرة مترعة بالحقد:

ـ أنتم تجازفون برؤوسكم. نعرفكم واحداً واحداً. وسوف نقضي عليكم. ننصحكم بالاستسلام، فقد تكون لكم فرصة في العفو أو الحياة..

بصق نمر السعدي، وقال لأصحابه بنبرة احتقار:

ـ عرفته. هذا الخائن أحمد نايف، الذي كان يتجسس علينا في حيفا.. ليتني أتمكن من رأسه.

همس القسام، وقد تأكدت هواجسه القديمة:

ـ كنت أعلم أن الأعداء يحاولون أن يقتلونا بأنياب كلابهم من ضعاف النفوس.. ومن رحمة الله بنا أنا نقاتلهم اليوم في الميدان، بدلاً من أن يسترخصوا أرواحنا في سجونهم ومعتقلاتهم.

وشاهد القسام طائرة حربية إنكليزية، تحلق وتحوم فوق الأحراش، فابتسم.. قد تستطيع بريطانيا العظمى اليوم أن تهزمه، بما حشدت من العدد والعدّة.. لكنها لن تهزم فكره.. لقد زرع روح الجهاد في قلوب لن تركع.. وسوف تثمر ثورة بعد ثورة، حتى تغسل هذه الأرض من دنس الظلم والاحتلال..

ونعق غراب جديد، من غربان الانتداب..

ـ نداء إلى الشيخ عز الدين القسام.. استسلم قبل أن نطلق النار.

وهتف الشيخ بصوت هادر، يحاول أن ينال به من عجرفة هؤلاء الحمقى، الذين لم يدركوا بعد أن بذرة الجهاد قد أودعت في رحم هذه الأرض، وأن جنينها قد بدأ يتحرك، بعد أن دبت به الحياة..

ـ خسئتم. لن نستسلم..

ـ الأحراش محاصرة من كل الجهات.

ـ قولوا لأسيادكم أيها الصغار.. لن نستسلم. لن نستسلم..

والتفت إلى رجاله بنبرة حاسمة:

ـ خذوا أماكنكم أيها الرجال.. هذا جهاد. نصر أو استشهاد.

قال له عبد الله الزيباوي، وهو يتخندق بين صخرتين:

ـ وما خرجنا إلا لهذا. يا مرحباً بالموت في سبيل الله..

وتابع القسام، وهو يلوح ببندقيته في إباء:

ـ أيها الرجال.. أبلوا البلاء الذي تنتظره منكم أمتكم، ولقّنوا هؤلاء الغزاة درساً، ليعلموا أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، ولن يرتاح فوق هذه الأرض غاصب.

وكبّروا بصوتٍ واحد..

وانهمر الرصاص، يكتب تاريخاً جديداً لشعب عرف طريقه، ولن يعود.

ساعدت كثافة أشجار يعبد على حركة الرجال، فناوروا في قتالهم، وأبدوا مهارة واستبسالاً أذهل أعداءهم، واستمر القتال ساعات طويلة، كان الشيخ عز الدين خلالها يتنقل بين الرجال، يشدّ من أزرهم، وهو يرمي تارة بالبندقية وتارة بالمسدس، وشفتاه لا تفتران عن التكبير والدعاء.

وقفز عربي واقفاً، وراح يتحدى رصاص الإنكليز المنهمر، وهو يصوب رميه باتجاه القائد الإنكليزي، فلمّا رآه القسام، هتف به بأعلى صوته:

ـ خذ الأرض يا عربي..

ـ أريد أن أموت شهيداً يا شيخنا.

ـ لن تموت شهيداً إذا متّ على هذه الحال، هذا انتحار يابني.. ستموت منتحراً، إذا لم تأخذ الأرض حالاً.

واستجاب عربي لأوامر الشيخ، وهو لا يصدّق أنه ما زال حيّاً..

وأصدر الشيخ أوامره للرجال بالانسحاب إلى الخلف، والتوغل داخل الغابة، وتمترسوا خلف مجموعة من الصخور، فضيق الإنكليز عليهم الخناق، وأحكموا الطوق إلاّ من جهة الشمال المكشوفة، إغراء لهم بالانسحاب من هناك لاصطيادهم، ففطنوا لهذه الخدعة، ولم يستدرجوا لهذا الفخّ، واستمرّوا يقاومون حتى حلّ الظلام.

وحاولت قوة من الإنكليز الاقتراب لاختراق دفاعات المجاهدين، فثبتوا وصمدوا، وقتل شرطي إنجليزي وجرح آخر، وتقدمت مجموعة أخرى، ثمّ ثالثة، وفجأة.. تمكنت رصاصة آثمة من الشيخ عز الدين القسام، فأصابت الرأس الشامخ، واخترقت صلابة الروح، لترسم نموذجاً خالداً للمجاهد العنيد، الذي يأبى أن ينحني للظلم، أو يهادن العدوان.

وخضبت الدماء لحية الشـيخ، وقبل أن يغلق جفنيه ليطوي كتاب عمره الحافـل، كانت بقية من وعي تقاوم الموت الداهـم، تريد قبل الرحيل، لو تقرأ بعض سطور المستقبل، الذي لم يكتب له أن يستكمل ملاحمه.

وتراءت له أطياف من نور، تتحرك نحوه في جلال!.

لعلها كانت ملائكة الرحمة، وهي تتسابق لاحتضان الروح النبيلة، التي صدقت ما عاهدت الله عليه، فتحملها إلى خالقها برفق، لتغتسل بالرحمات في ظلال العرش.

أو لعلها أطياف شـباب تـراءوا له من بعيـد، وهم ينبثقـون من وراء الغيب، ليلتقطـوا الراية قبل أن تهوي، ويطمئنوا الشـيخ الـذي راهن على غرسه، بأنّ ثورته لن تذهب سدى، وسوف تظل خالدة في وجدانهم، تهيب بهم أن يتابعوا على الدرب الذي خطّه بدمه، وأن يحافظوا على الراية حتى يتحقق الحلم، وتعود فلسطين إلى مكانها الأثير، في حضن الشام الجريحة، التي فتكت مُدى الغرباء بجسدها، وأدمت روحها، لتنهض من جديد، وتعود كما كانت دائماً، قلب الشرق الثائر ضد الطغيان، وموئل الأحرار الطامحين إلى الحرية في كل عصر وأوان.

وغـادرت الـروح عجلى إلـى بارئها، مضمخـةً بعطر الثـرى الحزين، وارتسمت على شفتي القسام ابتسامة رضًى، أذهلت كلّ من رآه!..

وهتف هاتف في السماء.. ثمة روح ترقى مسرعةً إلى خالقها، تستأذنه تعالى أن يقبلها في عليّين، لتكون كما وعد سبحانه، مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسُن أولئك رفيقاً.

هزت ثـورة القســام الإدارة البريطانية، وتوجس فيها اليهود مســتقبلاً عاصفاً، يزلزل تحت أقدامهم الوطن الموعود..

وتحرك زعيم الهســتدروت «بــن غوريون» مع عدد مــن أعضاء اللجنة المركزية لحزب ماباي، لزيارة المندوب السامي الجنرال واكهوب، لتقصي الوضع، وتقييم الموقف الذي أصاب اليهود بالذعر.

قال «بن غوريون» وهو يصافح الجنرال بحرارة:

- باسم الهستدروت وحزب ماباي، أهنئ حكومة جلالة الملك بالنجاح الباهر، الذي حققه جنود بريطانيا العظمى.

رد الجنرال، وهو يدعوه للجلوس:

- كانت معركة قاسية على كل حال، لكنا قضينا على رأس التمرد.

قال بن غوريون، وهو يحك صدغه بسبابته، مدارياً قلقه:

- هذه أول مرة نرى فيها زعيماً في فلســطين، يمــوت من أجل قضية تحرك الناس.

- ما يعزيني أنه ليس من فلسطين.

- تقصد..

- هو ســوري كما تعلم.. غريب قادم من أقصى الشــمال، وسرعان ما سينساه الناس.

- لكنه مسـلم سـيدي الجنرال.. ينطلق مــن ثقافة المنطقــة، التي تتمســك بالدين، وترفض الخضــوع.. لا تنس أن هذه البــلاد كانت واحدة لمئات السنين..

رد الجنرال واكهوب، وهو يقرأ القلق العميق في عيني بن غوريون:

- على كل حال هذا تطور خطير ندرسه الآن بعناية..

- مقتل القسام ينذرنا، بأن مستقبلنا هنا سيكون محفوفاً بالدماء.

- القضاء على حركته بهذه السرعة يجب أن يطمئنكم.

- أخشى أن الأمر ليس كذلك!.

- عفواً؟.

- العرب عاطفيون بطبيعتهم.. وسوف يلهم موته الكثيرين..

وأردف بما يشبه الهمس:

- جنرال. عيوننا تفيد بأن لدى القسام جيش سري، لم يشترك في المعارك بعد.

- لو كان ذلك صحيحاً، لتحرك جيشه أثناء المعركة، ليدافع عن قائده!.

- الأمر أكثر تعقيداً جنرال. الشيخ القسام لم يكن يسعى للمعركة، ولو كان يقصد البدء بالمواجهة لحشد المئات.

- على أية حال نحن بحاجة إلى إعادة تقدير للموقف، ولا بد من أخذ هذا التطور الخطير بالحسبان. أرجو أن ترسل رجالك، لينسقوا معلوماتهم وتقديراتهم مع السيد كلايتمان، الذي يشرف على هذا الملف.

هزَّ بن غوريون رأسه موافقاً. قال وهو يمسد شعر رأسه المتناثر كيفما اتفق..

- أخشى أن الشيخ القسام قد فتح باباً، سيكون من العسير إقفاله.

جلست آمنة تتناول طعام الإفطار مع الأسرة، وهي في حالة من الفتور، ثم استأذنت فجأة، ودلفت إلى مخدعها قبل أن تنتهي من الإفطار، ولحق بها مصطفى، وقد شعر بانسحابها السريع، ليطمئن عليها:

ـ آمنة ما بك؟.

ـ أشعر بوهن وغثيان لا أدري مصدره!.

دار بخلد مصطفى أن هذا قد يكون عرضاً من أعراض الحمل، لكن تكرار أعراض الحمل الكاذب، التي كثيراً ما داهمت آمنة، جعلته يتراجع إلى وهدة اليأس، ويتجاوز هذا الاحتمال، فأمسك عن البوح بما خطر له، حتى لا ينكأ جروحاً لم تندمل، فقد أرّقه تأخر حمل آمنة كل هذه السنين وأرّقها، وأحدث بينهما أحياناً بعض النكد، بسبب وسوسة بعض الأقرباء له، بأن يتزوج عليها، أملاً بأن يأتي من غيرها بالولد.. ومع رفضه لهذا الأمر، إلا أن آمنة التي أحبته إلى درجة العشق، كانت تودّ لو فعل، ليحقق حلمه، ولطالما شجعته على ذلك، لكنها كانت تتمنى أن يفعل ذلك فجأة، بدون علمها.. وعندما كان يظهر ليناً وميلاً لهذا الحل، كانت الغيرة الفطرية العارمة تستبد بها، فتلومه، وتشكك في حبه، وتذكره بدعوة الشيخ القسام لها، الذي كان يرعى حبهما، وكأنهما ولديه.

وعرض مصطفى على آمنة أن تعود إلى النوم، حتى ترتاح، على أمل أن تستعيد نشاطها الذاوي، وتستيقظ أكثر هدوءاً وإشراقاً، كما هي عادتها عندما تستيقظ، وقد أخذت قسطها الوافي من النوم.. وقبل أن ينسحب، سمع طرقاً شديداً على بوابة الدار، فأسرع يلبي..

ووجد صديقه زاهد كنفاني، ومعه سيارة نقل امتلأت بالرجال..

ـ خير؟.

ـ اركب.

- إلى أين؟
- القسام استشهد.

صدمه الخبر، وأصيب بالذهول..

- ماذا تقول؟.
- كما أخبرتك. الشيخ استشهد.
- لا تقلها أرجوك..
- اركب حتى نلحق بصلاة الجنازة، ونودعه مع الشباب.

تأمل مصطفى سيارة النقل، وقد اكتظت بالرجال والشباب، الذين امتزج الحزن في وجوههم بالغضب، ولاحت له الدموع في مآقيهم، وكان أحد الشباب يبكي بحرقة، فأجهش مصطفى، وركب على عجل..

- متى استشهد؟.. وكيف؟.
- بالأمس. يقولون اشتبك في معركة طاحنة مع الإنكليز في أحراش يعبد.
- وحده..
- لا. كان مع مجموعة من الرجال، استشهد منهم اثنان.. عبد الله الزيباوي وسيد حنفي عطية.
- رحمهم الله..

وأردف وهو يضرب جبهته في التياع..

- لقد خسرت فلسطين اليوم شيخها وقائدها..
- حيفا تغلي منذ الليل، والناس خرجوا بالآلاف.. وقد علمت أنا وصاحب السيارة بالخبر، عندما وصلنا بحمل البرتقال إلى سوق الحسبة، فأنزلنا حملنا بسرعة، ومضينا، ولم يلبث نصف السوق أن تعربش بالسيارة، وجاء معنا ليودع الشيخ القسام..
- يا لهذا اليوم الحزين..

حاولت آمنة أن تنام، لكن نوبة جديدة من الغثيان عاودتها هذه المرة بقوة، فنهضت وأســرعت إلى الخارج، وهي تخشى أن تغلبها نفسها، وتتقيأ، ولاحظت أم مصطفى حركتها، فلحقت بها..

- آمنة مابك؟..

- أين مصطفى؟.

- خرج مع صاحبه.

اتكأت آمنة على الحائط، وهي ترتجف، وقد شحب لونها، فأوحى حالها لحماتها بخاطر لم تستبعده. بللت يدها، ومســحت وجه كنتها، ودعتها لأن ترتاح في مخدعها، ثم أسرعت إلى دار القابلة أم زهدي، التي تقع قريباً، ولم تلبث أن عادت مســرعة بصحبتها، ودهشــت آمنة، وهي ترى أم زهدي تدخل عليها، وهي باشّة، ترقص الفرحة في عينيها..

- إذا صدقت حماتك فيما وصفتْ، فأنت حامل.

وقالت أم مصطفى، وهي تدخل خلفها:

- إن صدق كلامك هذه المرة، فلك جنيه من الذهب.

التفتت أم زهدي إلى أم مصطفى، وهي تجلس قرب آمنة..

- اذهبي وحضّري الجنيه، فقلبي يحدثنــي أن الوصف يؤكد الحقيقة التي انتظرناها طويلاً.

- أحقاً؟..

همست بها آمنة، وقد أشرق وجهها بابتســامة تشعشع بالفرح، والتفتت إلى خالتها..

- أريد مصطفى يا خالة. أين ذهب؟.

- سيأتي. ارتاحي الآن، ولا تتحركي..

وعادت خالتها تستوثق من أم زهدي، وهي لا تكاد تصدق..

- أحقاً يا أم زهدي.. كنت أظن أن الأمر مجرد تعبٍ عارض.

- اتركيني معها لأتأكد.

- بشريني، ولك بدل الجنيه ثلاثة.

- الآن نعرف الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

بكت فلسطين كما لم تبك من قبل..

كلمات القسام الملتهبة التي غرسها في وجدان الناس، كتبت لها الحياة من جديد، وتحولت إلى عقيدة جديدة تحرك الأحرار، ليواجهوا هذا الطغيان الذي يقترفه الإنجليز مع قادة الحلم الصهيوني وعرابيه..

ولم يكن أهل حيفا يتوقعون ماحدث!.. كان القسام في نظرهم خطيباً مفوهاً، وعالماً يفتي في أمور الدين، ويبادر إلى حلّ مشكلات البسطاء وأهل الحاجات.. أما أن يتحول هذا الشيخ الأزهري القادم من شمال سوريا، إلى ثائر يحمل هموم فلسطين، ويقاتل حتى يقضي شهيداً على ثراها، فتلك كرامة لا تنبغي إلا لمجاهد كبير.

ولم تلبث الجموع، أن انهمرت من أعالي الكرمل، وتدفقت من المدن والقرى البعيدة.. وغصت شوارع حيفا بالناس، الذين هرعوا مفجوعين بالخبر الأليم، وأضربت المدينة إضراباً شاملاً، فأغلقت الحوانيت والمتاجر والمطاعم والمقاهي، وسدّ آلاف المشيعين الطرقات، وهم يهتفون ويكبرون، وراحت النساء يزغردن من السطوح والشرفات والنوافذ. والكشافة ينشدون أناشيد الجهاد..

وتابعت الجنازة سيرها، والهتافات تدوي بقوة، وتنادي بالانتقام، وحدثت اشتباكات مع الإنجليز، فأصيب عدد منهم، وهاجم الجمهور الغاضب قطاراً يقل ركاباً يهوداً، متجهين من حيفا نحو مستعمرة «كريات حاييم»، فأرسلت تعزيزات جديدة من الشرطة تحسباً للمفاجآت.

ودمعت عينا الأستاذ أكرم زعيتر، الصحفي الذي طالما أعجب بالقسام، وهو يتأمل مريديه من الفلاحين والعمال والبسطاء والفقراء،

يتسابقون إلى حمل نعشه على أعناقهم، ليودعوه الوداع الأخير، فأيقن أن هذا الحب وهذا الحزن على القائد القسام، ما كان لولا أنه قد صدق فيما عاهد الله عليه، وعزز دعوته إلى الجهاد بالاستشهاد، فكان الرائد الذي لم يكذب أهله..

«رحمك الله يا شيخ عز الدين.. هذا أنت كما عهدتك دائماً، من خطيب مفوه تلهب المسجد، وأنت تعتلي المنبر متكئاً على سيفك، إلى شهيد يتكئ على الأعناق، وقد روى دعوته بدمه، فإذا بك اليوم أخطب منك حياً»..

ووصلت صلاة الجنازة إلى بلدة الشيخ في طريقها إلى مقبرة الياجور، فاحتاط اليهود، وأقفلوا أبواب مستعمرة الياجور، وخلت الشوارع المؤدية لها من المارة خوفاً من غضبة العرب، ومرت سيارات محملة بالجند البريطانيين، متجهة إلى المستعمرة اليهودية لتحميها، فعلا التكبير، وانهالت الحجارة على سيارات الإنجليز كالمطر، فأسرعت، تتفادى غضبة الألوف، الذين كانوا يهدرون بهتاف لا يتوقف «ياقسام يا عز الدين.. يا شهيد فلسطين»..

وبكى أبو إبراهيم بصمت.. وقد أدرك حكمة القسام «رحمك الله أيها القائد.. دمك المسفوك في معركة العز والكرامة، أحيا الثورة في قلوب الآلاف.. أعطى لكلماتك وخطبك في الاستقلال قيمتها ومعناها.. ورسم لهؤلاء الرجال الطريق إلى الحرية.. اجتهدت، فظننت اجتهادك اندفاعاً غير محسوب، فإذا بالإخلاص والتوفيق يحوله نصراً.. ويجعل من روحك وقوداً لثورة كبرى، أرجو أن تثمر بالنصر الذي حلمت به»..

ولقي أبو إبراهيم الحاج حسن حمادة، فهمس له على عجل.. «الاجتماع بعد العشاء في الكبابير».. ثم مضى مسرعاً خلف الجنازة، مبتعداً عن الحاج، حتى لا يلفت إليه الأنظار..

ومرّ بالشـاعر نوح إبراهيم، فألفاه يتوسـط مجموعة من الرجال، وهو يبكي ويردد..

عـز الديـن يا خسـارتك
رحـت فـدا لأمـتك
مـين بينكـر شـهامتك
يا رئيـس المجاهـدين
عـز الدين يـا مـرحوم
صـوتـك درس للعـمـوم
آه.. لـو كنـت تـدوم
يا رئيـس المجاهـديـن

زغردت الداية أم زهدي، وقالت، وهي تخرج بصحبة آمنة..

ـ مبروك يا أم مصطفى. يدك على الذهب.

ـ هبت أم مصطفى، وهي تزغرد من شـدة الفـرح، واحتضنت آمنة، وراحت تمطرها بالقبلات..

ـ مبروك يا حبيبتي.. صبرتِ، ونلتِ.. الله يكمل فرحتك، ونشوف ولد ولدك..

وتلفتت آمنة حولها..

ـ ولكن، أين مصطفى؟

وطرق الباب، فهرعت لتفتح..

ـ هذا مصطفى. سيطير من الفرحة الآن..

وهرعت أم مصطفى خلفها في توسل:

ـ على مهلك يا آمنة. يجب أن تراعي الجنين الذي في بطنك.

وألفت آمنة صديقتها القديمة لدى الباب..

ـ خديجة؟!.

أجهشت، وارتمت على صدرها، تبكي بلوعة.

ـ خديجة مالك؟.. ماذا حدث؟!.

ـ خبر لا يسرّ.

ـ خبر؟.. تكلمي!.

ـ أتذكرين أستاذنا الشيخ عز الدين القسام؟.

ـ ماله؟!.

قالت بنبرة خنقتها العبرات..

- قتلوه يا آمنة. قتلوه.

وقع الخبر على آمنة وقع الصاعقة. أحسّت بألم ممضّ يقرص أحشائها، فوضعت يدها على بطنها، فهرعت أم مصطفى وأم زهدي إليها، وقد أفزعتهما حركتها!.

- قتلوه؟. تقصدين أنه مات؟..

هزّت خديجة رأسها، والدموع تنهمر من مقلتيها..

- استشهد بالأمس.. حاصره الإنجليز واليهود في جبال جنين، فقاومهم حتى استشهد.

التفتت آمنة إلى خالتها أم مصطفى، وقد غارت فرحتها في أعماق الحزن، وأطلّ من بين الدموع ذهول كئيب.. همست في وهن، وهي تشير إلى خديجة.

- تقول لكِ الشيخ عز الدين مات؟

- الله يرحمه.

- مستحيل. القسام لا يمكن أن يموت.

أمسكت أم مصطفى بيد كنتها جزعة، وراحت تمسد كفها، تحاول أن تخفف عنها، بينما قالت أم زهدي، تحاول أن تصدمها بالحقيقة المرّة:

- كلنا سنموت يا ابنتي.

صرخت آمنة، وهي تنفجر بالبكاء:

- إلا الشيخ القسام. يجب ألّا يموت.

فوجئت أم مصطفى بردة فعل آمنة، وتبادلت مع أم زهدي نظرة قلقة.

وانفلتت آمنة من بينهما لترتدي ثيابها، وهي تبكي، وصوت نشيجها يشي باللوعة والأسى الذي يعتمل في داخلها، ولَحِقنَ بها..

- إلى أين؟.

- إلى بيت القسام..

ـ لكنك متعبة وحامل، ويجب أن تراعي الذي في بطنك..

ـ لعلها إشاعة. أنا متأكدة من أنها إشاعة..

ـ مادام الأمر إشاعة، فلا داعي للعجلة. بعد قليل يأتي مصطفى، ونتأكد من الأخبار.

قالت بلهجة حاسمة:

ـ اسمحي لي يا خالتي. لا أستطيع أن أنتظر.

وتوقفت آمنة للحظة، وهي تحكم الحجاب حول وجهها، وكأنها تذكرت شيئاً.. ارتجفت شفتاها، وهمست بنبرة واهنة، والدموع تغسل خديها:

ـ هذه دعوة القسام ياجماعة.. آخر مرة زرتهم فيها، سألته الدعاء.. دعا لي، وطلب منّي أن أكون مطمئنة، وقال: «أرجو أن تزفّي لنا قريباً بشرى الحمل».. لكأنه كان واثقاً من دعوته!.

وأجهشت بحرقة، فضمتها خالتها، وهي تشفق عليها من الحزن، ولم تلبث أن توقفت عن البكاء فجأة، وقالت:

ـ صدقوني هذه دعوة القسام.. هذه دعوة القسام، وقد استجيبت.. سأذهب لأبشره.. لأخبره بأني حامل.. حامل.. حامل..

وارتمت على صدرها، وهي تبكي وتنتحب.

## للتاريخ..

بعد مدة قصيرة على استشهاد هذا القائد

اندلعت الثورة الفلسطينية الكبرى..

وكان رجاله في مقدمة الصفوف

يقودون الجموع

ضد الانتداب الغاشم وعصابات المهاجرين

ويسطّرون أروع البطولات

ويكتبون على جبين الزمان

أنّ ما خطط له قائدهم قد أثمر، ولو لم يره

و ما زالت صرخته الصادقة في وجه الغاصبين

تتردد في تلك الرُّبى

لتوقظ النائمين

وتحشد الأحرار

ضـد كــل الغــزاة

يرجو الكاتب من قرائه الأعزاء موافاته بملاحظاتهم

وآرائهم على الإميل التالي:

**imadzaki@gmail.com**

تمت في خريف ٢٠١٣